

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

# الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القطبي

الجزء الثاني عشر

المطبعة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م

دار الكتب المصرية

---

القسم الأدبي

---

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

---

الجزء الثاني عشر

---

المطبعة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م



# فهرس الجزء الثانى عشر

## تفسير سورة الحج

صفحة

١	بحث فى فضلها ... ..
٢	تفسير قوله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم ... » الآيات . الكلام على زلزلة الساعة والمراد منها . بيان ما يحدث للخلق من هول الزلزلة ... ..
٥	تفسير قوله تعالى : « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث ... » الآية . فيه اثنتا عشرة مسألة : الكلام على أصل الحلقة وأطوار تكوين الإنسان . المولود إذا استهل صارخا يصل على عليه . الكلام على السقط وما يتعلق به من أحكام ... ..
١٤	تفسير قوله تعالى : « ذلك بأن الله هو الحق ... » الآيات . الكلام على منكرى البعث ومن يجادل فى الله بغير علم . عقاب من أضل الناس عن سبيل الله . ... ..
١٧	تفسير قوله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف ... » بيان معنى « حرف » ... ..
٢١	تفسير قوله تعالى : « من كان يظن أن لن ينصره الله ... » الآيات ... ..
٣١	تفسير قوله تعالى : « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله ... » الآية . صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام عام الحديبية . اختلاف فى دور مكة هل هى ملك لأربابها أم مباحة للناس . معنى الإلحاد فى الحرم ... ..
٣٦	تفسير قوله تعالى : « وإذ بوأنى لإبراهيم مكان البيت ... » الآية . فيه مسألتان : كيف بنى إبراهيم عليه السلام الكعبة . الأمر بتطهيرها ... ..
٣٧	تفسير قوله تعالى : « وأذن فى الناس بالحج ... » الآية . فيه سبع مسائل : بيان ما فعله إبراهيم عليه السلام من التأذين بالحج . اختلاف العلماء فى أفضلية الركوب والمشى فى الحج ... ..
٤١	تفسير قوله تعالى : « ليشهدوا منافع لهم ... » الآيتين . فيه ثلاث وعشرون مسألة : اختلاف فى المنافع ما هى . وقت الذبح يوم النحر . ما جاء فى الأكل والتصدق والادخار من الهدى والأضحية . معنى « التفث » . الكلام على الطواف فى الحج ... ..
٥٣	تفسير قوله تعالى : « ذلك ومن يعظم حرمات الله ... » الآيتين . فيه ثمانى مسائل : ما يحل ذبحه وأكله . بيان الرجس والنهى عنه . النهى عن قول الزور . حال من أشرك بالله تعالى ... ..



صفحة

- تفسير قوله تعالى : « ذلك ومن يعظم شعائر الله ... » الآيات . فيه سبع مسائل :
- ٥٦ معنى الشعائر . ما فى الشعائر من المنافع . معنى المنسك . الكلام على المخبئين ...
- تفسير قوله تعالى : « والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله » الآية . فيه عشر مسائل :
- الكلام على البدن . هل تطلق على غير الإبل أم لا . ذكر اسم الله تعالى عليها
- ٦٠ عند الذبح . معنى « صواف » . كيفية ذبحها . الكلام على القانع والمُعْتَر ...
- تفسير قوله تعالى : « ان ينال الله لحومها ولا دماؤها ... » الآية . فيه خمس مسائل :
- ٦٥ ما كان يفعله أهل الجاهلية من تضريح الكعبة بدماء البدن ... ..
- تفسير قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ... » الآية . فيه مسألتان :
- ٦٧ أذن للمؤمنين فى قتال المشركين . بيان أن الإباحة من الشرع خلافا للمعتزلة ...
- تفسير قوله تعالى : « الذين أخرجوا من ديارهم ... » الآية . فيه سبع مسائل :
- اضطهاد قريش للمؤمنين . بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤذن له فى الحرب
- ولم تحل له الدماء قبل بيعة العقبة . نسبة الفعل الموجود من الملجأ المكره إلى
- الذى أُلجأه وأكرهه . الجهاد أمر متقدم فى الأمم . تضمنت الآية المنع من هدم
- كنايس أهل الذمة وبيوت نيرانهم ويحظر عليهم أن يحدثوا ما لم يكن . ينقض
- ٦٨ ما وجد فى بلاد الحرب من البيع والكنايس . الأقوال التى فى قوله « وصلوات » .
- تفسير قوله تعالى : « الذين إن مكّاهم فى الأرض ... » الآية . الأمر بالمعروف
- والنهي عن المنكر واجب على السلطان وعلى العلماء ... ..
- ٧٢
- تفسير قوله تعالى : « وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح ... » الآيات . تسلية
- الرسول صلوات الله عليه عن تكذيب قومه بما حصل لآل نبياء قبله ... ..
- ٧٣
- تفسير قوله تعالى : « فكأين من قرية أهلكناها ... » الآيتين . بيان أن الله أهلك
- ٧٣ كثيرا من القرى بسبب ظلمهم . الكلام على البئر المعطلة والقصر المشيد ...
- تفسير قوله تعالى : « ويستعجلونك بالعذاب ... » الآيات . استعجال المشركين
- العذاب . أمهل الله تعالى الأمم الظالمة ثم أخذهم بالعذاب ... ..
- ٧٧
- تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ... » الآيات .
- الفرق بين الرسول والنبي . أقوال العلماء فى قصة الغرانيق ... ..
- ٧٩
- تفسير قوله تعالى : « ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه ... » الآيات ... ..
- ٨٧
- تفسير قوله تعالى : « والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا ... » الآيتين . الفرق
- ٨٨ بين المقتول والميت فى سبيل الله ... ..

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ... » الآيات . الدليل على كمال  
 ٩١ قدرة الخالق وأنه تعالى سخر لعباده ما يحتاجون إليه . الغالب على الإنسان كفر النعم  
 تفسير قوله تعالى : « لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه ... » بيان أن الآية نزلت  
 ٩٣ بسبب جدال الكفار في أمر الذبح ... ..  
 تفسير قوله تعالى : « وإن جادلوك فقل الله أعلم ... » الآيات . بيان أن الله أمر  
 ٩٤ نبيه عليه السلام بالإعراض عن ممارسة الكفار صيانة له عن الاشتغال بتعنتهم .  
 تفسير قوله تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ... » الآيات . بيان أن الله  
 ٩٦ تعالى إنما يضرب الأمثال حججاً على الكفار لأنها أقرب إلى أفهامهم ... ..  
 تفسير قوله تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده ... » الآية . المراد بالجهاد في هذه  
 ٩٩ الآية . اختلاف العلماء في الحرج الذي رفعه الله تعالى عن هذه الأمة ... ..

### تفسير سورة المؤمنون

- تفسير قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون ... » الآيات . فيه تسع مسائل : معنى  
 الخشوع . هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها . معنى اللغو . من صفات  
 المؤمنين حفظهم لفروجهم . أقوال العلماء في الاستمئاء . حكم نكاح المتعة .  
 ١٠٢ لا يجوز للنساء التسترى . الكلام على الأمانة والعهد ... ..  
 تفسير قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة ... » الآيات . فيه خمس  
 ١٠٨ مسائل : المراد بالإنسان . بيان السلالة . الاختلاف في الخلق الآخر ... ..  
 تفسير قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء بقدر ... » الآية . فيه أربع مسائل :  
 من أعظم من الله تعالى على عباده إنزاله الماء الذي هو حياة الأبدان ونماء  
 ١١٢ الحيوان . كل ما نزل من السماء مختزناً أو غير مختزن فهو طاهر مطهر ... ..  
 تفسير قوله تعالى : « فأنشأنا لكم به جنات من نخيل ... » الآية . فيه مسألتان :  
 ١١٣ بيان أن النخيل والأعناب أشرف الثمار . ما يصح إطلاقه على الفاكهة ... ..  
 تفسير قوله تعالى : « وشجرة تخرج من طور سيناء ... » الآية . فيه ست مسائل :  
 المراد بهذه الشجرة شجرة الزيتون . الاختلاف في معنى « سيناء » . كل إدام  
 يؤتد به فهو صنبغ . لا خلاف أن كل ما يصطبغ فيه من المائعات كالسمن  
 والزيت والعسل والخل وغير ذلك من الأمراق أنه إدام . الاختلاف فيما كان  
 ١١٤ جامداً كاللحم والتمر والزيتون وغير ذلك من الجوامد ، فالجمهور على أن ذلك كله إدام

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « وإن لكم فى الأنعام لعبرة ... » الآيات : بيان ما أنعم الله به  
على عباده . القول فى أن نوحا عليه السلام لم يحمل فى السفينة إلا ما يلد ويبيض ١١٧
- تفسير قوله تعالى : « هيات هيات لما توعدون ... » الآيات . فى لفظ « هيات »  
عشر لغات . إنكار الكفار للبعث . معاقبتهم بصيحة جبريل عليهم ... ١٢٢
- تفسير قوله تعالى : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ... » الآية . فيه ثلاث مسائل :  
الاختلاف فى هذا الخطاب . بيان أن الله تعالى سوى بين المؤمنين والنبين  
فى الخطاب بوجوب أكل الحلال وتجنب الحرام ... ١٢٧
- تفسير قوله تعالى : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة ... » الآيات . بيان أن أهل  
الكتاب افرقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وأن هذه الأمة ستفرق على ثلاث  
وسبعين . بيان أن الله تعالى يستدرج الكفار بإعطائهم المال والبنين ... ١٢٨
- تفسير قوله تعالى : « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ... » الآيات . الكلام  
على صفات المؤمنين المسارعين فى الخيرات ... ١٣١
- تفسير قوله تعالى : « ولا تكلف نفسا إلا وسعها ... » الآيات . جعل الله لكل  
عبد كتابا تحصى فيه أعماله . بيان أن قلوب الكفار فى غفلة وعماية عن القرآن ،  
وأن الله ابتلاهم بالقحط والجوع لإعراضهم عن الحق واستكبارهم . ما جاء  
فى لفظ « ساءمرا » من المعانى . ذم الله تعالى أقواما يسمرون فى غير طاعة الله .  
كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤخر العشاء إلى ثلث الليل ويكره النوم قبلها  
والحديث بعدها . أقوال العلماء فى هذه الكراهة . توبيخ الكفار لعدم تدبرهم  
القرآن ولإنكارهم الرسول ونسبتهم الجنون إليه صلى الله عليه وسلم ... ١٣٤
- تفسير قوله تعالى : « ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرر ... » الآيات . بيان  
ما كان عليه المشركون من العتو والاستكبار ... ١٤٢
- تفسير قوله تعالى : « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار ... » الآيات . بيان  
نعم الله تعالى على خلقه . الكلام على اختلاف الليل والنهار . إنكار الكفار  
للبعث وإقامة الحجة عليهم . فى هذه الآيات دليل على جواز مجادلة الكفار .  
الدليل على وحدانية الله تعالى وأنه لم يتخذ ولدا ... ١٤٤
- تفسير قوله تعالى : « ادفع بالتي هى أحسن ... » الآية . بيان أن ما كان من الأمر  
بالصفح ومكارم الأخلاق لهذه الأمة فيما بينهم فهو محكم باق أبدا ، وما كان من  
موادعة الكفار وترك التعرض لهم والصفح عن أمورهم فمنسوخ بالقتال ... ١٤٧

- تفسير قوله تعالى : « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ... » أمر الله تعالى  
 نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالتعوذ من الشيطان في همزاته . معنى الهمز ١٤٨  
 تفسير قوله تعالى : « حتى إذا جاء أحدهم الموت ... » الآيتين . بيان أن الكافر  
 يتمنى الرجعة إلى الدنيا عند الموت كي يعمل صالحا . بيان أن سؤال الرجعة ليس  
 مختصا بالكافر فقد يسألها المؤمن . الدليل على أن أحدا لا يموت حتى يعرف  
 اضطرارا أهو من أولياء الله أم من أعداء الله . الكلام على البرزخ ... ١٤٩  
 تفسير قوله تعالى : « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم ... الآية . انقطاع  
 الأنساب يوم القيامة . كيف تؤخذ الحقوق في الآخرة ... ١٥١  
 تفسير قوله تعالى : « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ... » الآيات . بيان  
 عاقبة المؤمنين والكافرين ... ١٥٢  
 تفسير قوله تعالى : « إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آتنا ... » الآيات . بيان  
 أن هذا الفريق هو بلال وخباب وصهيب وغيرهم من ضعفاء المسلمين .  
 السخرية والاستهزاء بالضعفاء والمساكين والاحتقار لهم مبعد من الله تعالى ١٥٤  
 تفسير قوله تعالى : « قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ... » الآيات . بيان أن هذا  
 السؤال للمشركين في عرصات القيامة أو في النار . القول فيمن قتله نبي أو قتل  
 نبيا أو مات بحضرة نبي . توبيخ الكفار على إهمالهم وتغافلهم ... ١٥٥  
 تفسير قوله تعالى : « فتعالى الله الملك الحق ... » الآيات . تنزيه الله تعالى عن الأولاد  
 والشركاء . أمر النبي صلوات الله عليه بالاستغفار لتقتدى به أمته ... ١٥٧

## سورة النور

- تفسير قوله تعالى : « سورة أنزلناها وفرضناها ... » الآية . المقصود من هذه  
 السورة ذكر أحكام العفاف والستر . الحث على تعليم النساء سورة النور ... ١٥٨  
 تفسير قوله تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ... » الآية .  
 فيه إحدى وعشرون مسألة : معنى الزنى . حد الزاني . لم قدمت الزانية في الآية .  
 الرجل يوجد مع المرأة في ثوب واحد . إقامة مراسيم الدين واجبة على المسلمين  
 ثم الإمام ينوب عنهم . السوط الذي يجب الجلد به . اختلف في تجريد المجلود  
 في الزنى . كيفية ضرب الرجال والنساء . المواضع التي تضرب من الإنسان  
 في الحدود . الضرب الذي يجب هو أن يكون مؤلما لا يجرح ولا يبضع .  
 اختلف في أشد الحدود ضربا . الحد الذي أوجب الله في الزنى والخمر وغير ذلك

- ينبغي أن يقام بين أيدي الحكام . بيان عدد الجلد في الزنى والقذف والخمر .  
لا يجوز الامتناع عن إقامة الحدود شفقة على المحدث . الكلام على الطائفة التي  
تشهد التعذيب والمعنى المراد من حضورها ... .. ١٥٩
- تفسير قوله تعالى : « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ... » الآية . فيه سبع  
مسائل : معنى هذه الآية . التزوج بالزانية صحيح . من كان معروفا بالزنى أو بغيره  
فتزوج من أهل بيت ستروغرتهم من نفسه فلهم الخيار في البقاء معه أو فراقه .  
حيثما زنى الرجل فعليه الحد سواء كان في دار الحرب أو دار الإسلام ... ١٦٧
- تفسير قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ... » الآية . فيه ست وعشرون  
مسألة : سبب نزول الآية . للقذف شروط تسعة . اتفق العلماء على أنه إذا  
صرح بالزنى كان قذفا موجبا للحد ، واختلفوا في التعريض . لاحد على من قذف  
رجلا من أهل الكتاب أو امرأة منهم . العبد إذا قذف حرا يجلد أربعين .  
الحز لا يجلد للعبد . اختلفوا في حد من قال لرجل : يامن وطئ بين الفخذين .  
القول فيمن رمى صبية يمكن وطؤها قبل البلوغ بالزنى . من قذف زوجة من  
أزواج النبي صلى الله عليه وسلم . هل يشترط اجتماع الشهود في مجلس الحاكم .  
تعديل الشهود . اختلف في حد القذف هل هو من حقوق الله أو من  
حقوق الآدميين . حكم شهادة الأربعة أن تكون على معاينة . الآية تضمنت  
ثلاثة أحكام في القاذف : جلده ، وردّ شهادته أبدا ، وفسقه . متى تسقط  
شهادة القاذف . الاختلاف في صورة توبة القاذف . في أى شيء تجوز  
شهادته بعد توبته . إذا لم يجلد القاذف بأن مات المقتدوف قبل أن يطالب  
القاذف بالحد ، أو لم يرفع إلى السلطان ، أو عفا المقتدوف فالشهادة مقبولة ... ١٧١
- تفسير قوله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم ... » الآيات . فيه ثلاثون مسألة :  
الكلام على رمى الأزواج لأزواجهم . الأنعمى يلاعن إذا قذف امرأته .  
إذا نفى الزوج الحمل فإنه يلتنع . اختلف في الاستبراء . اللعان يكون في كل  
زوجين حرين كانا أو عبيدين مؤمنين أو كافرين . الاختلاف في ملاعنة  
الأنكرس . الرجل إذا قذف زوجته بالزنى قبل أن يتزوجها أو بعد الطلاق هل  
يلاعن أم لا . لاملاعنة بين الرجل وزوجته بعد انقضاء العدة إلا في مسألة  
واحدة . إذا انتهى من الحمل هل يلاعن قبل الوضع أو بعده . إذا قذف زوجته  
ثم زنت قبل التلعان . من قذف زوجته وهي كبيرة لاتحمل . إذا شهد أربعة على  
امرأة بالزنى أحدهم زوجها . إذا ظهر بامرأته حمل فترك أن ينفيه . إذا قالت

- امرأة لزوجها أو لأجنبي : يا زانية ( بالهاء ) . الاختلاف في الزوج إذا امتنع من اللعان . هل للزوج أن يلاعن مع شهوده . لعان الزوج مقدم على لعان الزوجة . كيفية اللعان . من قذف امرأته برجل سماه . إذا فرغ المتلاعنان من تلاعنهما تفرقا وخرج كل واحد منهما من باب . اللعان لا يكون إلا في مسجد جامع بحضرة السلطان أو من يقوم مقامه من الحكام . بتمام اللعان تقع الفرقة بين المتلاعنين ، فلا يجتمعان ولا يتوارثان . المتلاعنان لا يتناكحان أبدا . اللعان يفتقر إلى أربعة أشياء ١٨٢
- تفسير قوله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ... » الآيات . فيه ثمان وعشرون مسألة : ذكر حديث الإفك . الذي تولى حديث الإفك عبد الله ابن أبي المنافق . ما قاله حسان بن ثابت في مدح السيدة عائشة . هل خاض حسان في الإفك أم لا . بيان من حد في الإفك . ما في قوله تعالى : « إذ تلقونه بالسنتكم » من الأقوال . عاتب الله المؤمنين إذ لم يحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان . القول فيمن سب أبا بكر وعمر وعائشة رضوان الله عليهم . وعيد من أحب شيوع الفاحشة في الذين آمنوا . التحذير من متابعة خطوات الشيطان . حلف أبو بكر رضي الله عنه ألا ينفق على مسطح ابن أثالة لوقوعه في أمر الإفك . القذف وإن كان كبيرا لا يحبط الأعمال . من حلف على شيء لا يفعله فرأى فعله أولى منه أتاه وكفر عن يمينه ... ١٩٥
- تفسير قوله تعالى : « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات ... » الآيات ... ٢٠٩
- تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا ... » الآية . فيه سبع عشرة مسألة : النهي عن دخول بيوت الأجانب بغير استئذان . السنة في الاستئذان . صورته . إذا كان الباب مردودا فله أن يقف حيث شاء منه ويستأذن ، وإن شاء دق الباب . صفة الدق . لكل قوم في الاستئذان عرفهم في العبارة . هل يستأذن الرجل على أمه وأخته إذا أراد أن يدخل عليهما ... ٢١٢
- تفسير قوله تعالى : « فإن لم تجدوا فيها أحدا ... » الآية . فيه أربع مسائل : هذه الآية مرتبطة بما قبلها . الإذن يجوز من الصغير والكبير . التوعد لأهل التجسس على البيوت والنظر إلى ما لا يحل ... ٢١٩
- تفسير قوله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا ... » الآية . فيه مسألتان : رفع الاستئذان في كل بيت لا يسكنه أحد . اختلاف في المراد بهذه البيوت ... ٢٢١
- تفسير قوله تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ... » الآية . فيه سبع مسائل : الأمر بغض البصر عن جميع المحرمات . الأمر بستر الفروج عن أن يراها من لا يحل . ما يشترط في دخول الحمام ... ٢٢٢

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « وقل للمؤمنات يفضضن من أبصارهن ... » الآية . فيه ثلاث وعشرون مسألة : الأمر بفض الأبصار عما لا يحل . لا تبدى المرأة زينتها للناظرين إلا ما استثنى . اختلف فى القدر الذى تبديه من الزينة . الأمر بأن تضرب المرأة بنجارها على جيبها لتستر صدرها . اختلف فى جواز نظر الرجل إلى فرج امرأته . ما يجوز إظهاره من المرأة للحارم . القول فى نظر العبد إلى سيدته . اختلف فى معنى قوله « أو التابعين غير أولى الإربة » . دخول المختل والطفل على النساء وما جاء فيه . عورة المرأة مع عبدها من السرة إلى الركبة .
- لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت لتسمع صوت خلخالها ... ٢٢٦
- تفسير قوله تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم ... » الآية . فيه سبع مسائل : اختلف العلماء فى هذا الأمر . الكلام على الأيامى والمماليك . هل للسيد أن يكره عبده وأمه على النكاح . التماس الغنى فى الزواج . الآية دليل على تزويج الفقير ... ٢٣٩
- تفسير قوله تعالى : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا ... » الآيات . بيان أن هذا الخطاب لمن يملك أمر نفسه ، الأمر بالاستعفاف متوجه لكل من تعذر عليه النكاح بأى وجه . من وجد المال وثاقت نفسه إلى النكاح فالمستحب له أن يتزوج . أمر الله المؤمنين كافة أن يكتب منهم كل من له مملوك وطلب المملوك الكتابة وعلم سيده فيه خيرا . معنى المكتبة لغة وشرعا . معنى الخير . كتابة من لا حرفة له . الكتابة تكون بقليل المال وكثيره . المكاتب عبد ما بقى عليه من مال الكتابة شىء . إذا عجز المكاتب عن شىء من بدل الكتابة . الأمر بإعانة المكاتبين فى مال الكتابة . صفة عقد الكتابة . ميراث المكاتب . النهى عن إكراه الإماء على الزنى . ما كان يفعل العرب فى الجاهلية ... ٢٤٢
- تفسير قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض ... » الآية . معنى النور فى كلام العرب . تأويل هذه الآية . اختلف فى معنى قوله « لا شرقية ولا غربية » ٢٥٥
- تفسير قوله تعالى : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ... » الآيات . فيه تسع عشرة مسألة : المراد بالبيوت هنا . تعظيم المساجد ورفعها . اختلف فى تزينتها ونقشها . صون المساجد وتزيينها عن الروائح الكريهة والأقوال السيئة وعن البيع والشراء وجميع الاشتغال . اختلف فى تناشد الأشعار فيها . النوم فى المسجد . ماذا يقول الرجل إذا دخل المسجد . اختلف فى وصف الله تعالى المسبحين . فضل المساجد . فضل من ترك البيع والشراء لحضور الصلاة ... ٢٦٤

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ... » الآيات . بيان  
 أن أعمال الكفار كسراب بقيعة وظلمات . معنى السراب والفاغ ... ٢٨١
- تفسير قوله تعالى : « ألم تر أن الله يسبح له من في السموات ... » الآيات .  
 اختلف في معنى التسبيح هنا . بيان المعنى اللغوي لألفاظ هذه الآيات ... ٢٨٦
- تفسير قوله تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء ... » الآيتين ... ٢٩١
- تفسير قوله تعالى : « ويقولون آمنا بالله وبالرسل ... » الآيات : بيان أن المنافقين  
 معاندون لإعراضهم عن حكم الله تعالى . القضاء يكون للمسلمين إذا كان الحكم  
 بين المعاهد والمسلم . الدليل على وجوب إجابة الداعي إلى الحاكم ... ٢٩٢
- تفسير قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم ... » الآيات . بيان أحوال المنافقين  
 تفسير قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منهم ... » الآيات . سبب نزول الآية .  
 الدليل على صحة خلافة الخلفاء الأربعة رضي الله تعالى عنهم ... ٢٩٧
- تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ... » الآية .  
 فيه سبع مسائل : بيان سبب نزولها . اختلف العلماء في المراد بقوله « ليستأذنكم »  
 على ستة أقوال . الأوقات التي يستأذن فيها ... ٣٠٢
- تفسير قوله تعالى : « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ... » الآية . حكم الأطفال  
 إذا بلغوا الحلم حكم الرجال في الاستئذان في كل وقت ... ٣٠٨
- تفسير قوله تعالى : « والقواعد من النساء ... » الآية . فيه خمس مسائل : معنى  
 القواعد . النهي عن التبرج والزينة ... ٣٠٩
- تفسير قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ... » الآية . فيه إحدى عشرة مسألة :  
 اختلف في تأويل هذه الآية . هل الحرج في الغزو أو المطاعم . رفع الحرج  
 في الأكل من بيت الصديق . الصديق أوكد من القرابة . القول في أن الآية  
 نزلت مبينة لسنة الأكل . تأويل قوله تعالى « فإذا دخاتم بيوتا فسلموا على  
 أنفسكم » . المراد بالبيوت ... ٣١١
- تفسير قوله تعالى : « إنا المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ... » الآية . حال  
 المؤمنين مع الرسول صلوات الله عليه . اختلف في الأمر الجامع ما هو ... ٣٢٠
- تفسير قوله تعالى : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم ... » الآية ... ٣٢٢



# إصلاح خطأ

ج	ص	س	خطأ	صواب
١	١٣٨	٧	نَحْنَدَفْ هَامَةً	نَحْنَدَفْ هَامَةً
٣	٦١	١٩	الْقَرْظَى مُحَمَّد	الْقَرْظَى مُحَمَّد
٤	٦٠	١٠	مَا حَبِيَّتُهُ	مَا حَبِيَّتُهُ
٤	١١٦	٧	أَلَادَعَهُ	أَنْ لَادَعَهُ
٤	٢٢٨	٩	وَكَائِبِ	وَكَائِبِ
٤	٢٢٨	١٧	وَكَائِنِ مِثْلُ وَكَعَيْنِ	وَكَائِنِ مِثْلُ وَكَعَيْنِ
٤	٢٢٩	١٦ ، ١٥ ، ١٣	قَاتِل	قَتِيل
٧	٢٥٩	١٧	ذُبِقَ	زُبِقَ
٧	٢٦٢	٤	« وَمَا عَلِمْتُ »	و « مَا عَلِمْتُ »
٩	٣٠	٢٠	مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ	مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ
٩	١٣٦	١٢	وَالْإِفْشَانُكَ	وَالْإِفْشَانُكَ
١١	٣	٢٢	مُدَجَّحِ	مُدَجَّحِ
١١	١٠٥	٦	قَوْلُ الْحَقِّ	قَوْلُ الْحَقِّ
١١	١٤٥	١٨	وَأَنْ كُنْتُ	وَأَنْ كُنْتُ
١١	١٥٣	١٤	يَرِيدُونَ	يَرِيدُونَ
١١	٢٦٨	٢٣	كَثِيرَةُ عِزَّةٍ	كَثِيرَةُ عِزَّةٍ
١١	٣٢٠	١٤	وَأَمَّا مَا بُوْسَهَا	وَأَمَّا مَا بُوْسَهَا
١١	٣٤١	٢٢	كَمَا اللِّسَانُ	كَمَا فِي اللِّسَانِ
١٢	٦٤	١٦	يُصْلِحُهُ	يُصْلِحُهُ

وقفنا أثناء التصحيح على هذه الأخطاء المطبعية أثبتناها هنا للفائدة ما

أحمد عبد العليم البردوني

المصحح بالقسم الأدبي بدار الكتب المصرية

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تفسير سورة الحج

وهي مكية، سوى ثلاث آيات : قوله تعالى « هَذَانِ خَصْمَانِ <sup>(١)</sup> » إلى تمام ثلاث آيات ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . وعن ابن عباس أيضا أنهن أربع آيات ، إلى قوله « عَذَابَ الْحَرِيقِ » . وقال الضحاك وابن عباس أيضا : هي مدنية — وقاله قتادة — إلا أربع آيات : « وَمَا أَرْسَلْنَا <sup>(٢)</sup> مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ — إلى — عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ » فهن مكيات . وعد النقاش ما نزل بالمدينة عشر آيات . وقال الجمهور : السورة مختلطة ، منها مكّي ومنها مدني . وهذا هو الأصح ؛ لأن الآيات تقتضي ذلك ، لأن « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » مكّي ، و « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » مدني . الغزوي : وهي من أعاجيب السور ، نزلت ليلا ونهارا ، سفرا وحضرا ، مكيا ومدنيا ، سلميا وحرييا ، ناسخا ومنسوخا ، مُحْكَمًا ومتشابهًا ، مختلف العدد .

قلت : وجاء في فضلها ما رواه الترمذي وأبو داود والدارقطني عن عقبة بن عامر قال قلت : يا رسول الله ، فضّلت سورة الحج بأن فيها سجدتين ؟ قال : « نعم ، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما » . لفظ الترمذي . وقال : هذا حديث حسن ليس إسناده بالقوي .

واختلف أهل العلم في هذا ؛ فروى عن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — وابن عمر أنهما قالوا : فضّلت سورة الحج بأن فيها سجدتين . وبه يقول ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق . ورأى بعضهم أن فيها سجدة واحدة ؛ وهو قول سفيان الثوري . روى الدارقطني عن عبد الله بن ثعلبة قال : رأيت عمر بن الخطاب يسجد في الحج سجدتين ؛ قلت في الصبح ؟ قال في الصبح .

(١) آية ١٩ وما بعدها . (٢) آية ٥٢ وما بعدها .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتَقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾

روى الترمذى عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت «يأتياها الناس» قال : «أتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم» إلى قوله — ولكن عذاب الله شديد» قال : أنزلت عليه هذه الآية وهو في سفر فقال : «أتدرون أى يوم ذلك» ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : «ذاك يوم يقول الله لآدم أبعث بعث النار قال يارب وما بعث النار قال تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة» . فأنشأ المسلمون ييكون ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «قاربوا وسددوا فإنه لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية — قال — فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمت وإلا كملت من المنافقين وما مثلكم والأثم إلا كمثل الرقعة<sup>(١)</sup> في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير — ثم قال — إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة — فكبروا ؛ ثم قال — إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة — فكبروا ؛ ثم قال — إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» فكبروا . قال : لا أدري قال الثلثين أم لا . قال : هذا حديث حسن صحيح ، قد روى من غير وجه عن الحسن عن عمران بن حصين . وفيه : فيئس القوم حتى ما أبدوا بضحكة ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اعملوا وأبشروا فوالذى نفسى بيده إنكم لمع خالقتين ما كانتا مع شيء إلا كثرتاه أجوج ومأجوج ومن مات من بنى آدم وبني إبليس» قال : فسرى عن القوم بعض الذى يحدون ؛ فقال : «اعملوا وأبشروا فوالذى نفسى بيده ما أتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقعة في ذراع الدابة» قال : هذا حديث حسن صحيح . وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يقول الله تعالى يا آدم فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك — قال — يقول أخرج بعث النار قال وما بعث النار قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال فذاك

(١) الرقعة : الهنة الناتجة في ذراع الدابة . (٢) الشامة : علامة تخالف البدن الذى هى فيه .

(٣) فى بعض النسخ : « تسعمائة وتسعة وتسعون » فالصب على المفعولية ، والرفع على الخبرية .

حين يَشِيبُ الصغير وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حمل حملها وترى الناس سَكَارَى وما هم بسَكَارَى ولكن عذاب الله شديد». قال : فاشتد ذلك عليهم ؛ قالوا : يا رسول الله ، أَيْنَا ذلك الرجل ؟ فقال : «أَبَشِّرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ». وذكر الحديث بنحو ما تقدم في حديث عمران بن حصين . وذكر أبو جعفر النحاس قال : حدثنا أحمد بن محمد بن نافع قال حدثنا سلمة قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ — إِلَى — وَلَكِنْ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ » قال : نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مَسِيرِهِ ، فرفع بها صوته حتى ثاب إليه أصحابه فقال : «أَتَدْرُونَ أَىَّ يَوْمٍ هَذَا هَذَا يَوْمٌ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَأَدْمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا آدَمُ قُمْ فَأَبْعَثْ بَعَثَ أَهْلَ النَّارِ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتَسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ » . فَكَبَّرَ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «سَدُّوْا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا أَنتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّمَاةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ أَوْ كَالرُّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ وَإِنْ مَعَكُمْ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتْمَا مَعَ شَيْءٍ إِلَّا كَثَرْتَاهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَمَنْ هَلَكَ مِنْ كُفْرَةِ الْخَنِّ وَالْإِنْسِ » . قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ المراد بهذا النداء المكلفون ؛ أى أخشوه فى أوامره أن تركوها ، ونَوَاهِيهِ أَنْ تُقَدِّمُوا عَلَيْهَا . والأتقاء : الاحتراس من المكروه ؛ وقد تقدم فى أول « البقرة » القول فيه مستوفى ، فلا معنى لإعادته . والمعنى : احتسروا بطاعته عن عقوبته .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ الزلزلة شدة الحركة ؛ ومنه « وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ <sup>(٢)</sup> » . وأصل الكلمة من زَلَّ عن الموضع ؛ أى زال عنه وتحرك . وزلزل الله قدمه ؛ أى حركها . وهذه اللفظة تستعمل فى تهويل الشئ . وقيل : هى الزلزلة المعروفة التى هى إحدى شرائط الساعة ، التى تكون فى الدنيا قبل يوم القيامة ؛ هذا قول الجمهور . وقد قيل : إن هذه الزلزلة تكون فى النصف من شهر رمضان ، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها ؛ فأنه أعلم .

(١) راجع ج ١ ص ١٦١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع ج ٣ ص ٣٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ الهاء في «تَرَوْنَهَا» عائدة عند الجمهور على الزلزلة ؛ ويقوى هذا قوله عز وجل «تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا». والرضاع والحمل إنما هو في الدنيا . وقالت فرقة : الزلزلة في يوم القيامة ؛ واحتجوا بحديث عمران بن حصين الذي ذكرناه ، وفيه : «أتدرون أى يوم ذلك ...» الحديث . وهو الذى يقتضيه سياق مُسلم في حديث أبى سعيد الخدرى .

قوله : ﴿تَذْهَلُ﴾ أى تشتغل ؛ قاله قُطْرُب . وأنشد :

ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ \* وَيُنْذِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

وقيل تنسى . وقيل تلهو . وقيل تسالو ؛ والمعنى متقارب . ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ قال المبرد : « ما » بمعنى المصدر ؛ أى تذهل عن الإرضاع . قال : وهذا يدل على أن هذه الزلزلة في الدنيا ؛ إذ ليس بعد البعث حمل وإرضاع . إلا أن يقال : من ماتت حاملا بُعِثت حاملا فتضع حملها للهول . ومن ماتت مُرْضِعَةً بُعِثت كذلك . ويقال : هذا كما قال الله عز وجل : «يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا»<sup>(١)</sup> . وقيل : تكون مع النفخة الأولى . وقيل : تكون مع قيام الساعة ، حتى يتحرك الناس من قبورهم في النفخة الثانية . ويحتمل أن تكون الزلزلة في الآية عبارة عن أهوال يوم القيامة ؛ كما قال تعالى : «مَسَّهُمُ الْبَاسُ وَالْضَّرَاءُ وَزُلُّوا»<sup>(٢)</sup> . وكما قال عليه السلام : «اللهم آهزمهم وزلزلهم» . وفائدة ذكر هول ذلك اليوم التحريض على التأهب له والاستعداد بالعمل الصالح . وتسمية الزلزلة بـ «شئ» إما لأنها

(١) في الأصول : « بضرب » والنصيب عن سيرة ابن هشام . وقوله :

نحن قتلناكم على تاريخه \* كما قتلناكم على تنزيله

والرجز لعبد الله بن رواحة ، ارتجزه وهو يقود ناقة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة في عمرة القضاء . (راجع سيرة ابن هشام) . (٢) آية ١٧ سورة المزمل . (٣) آية ٢١٤ سورة البقرة .

حاصلة متيقن وقوعها ، فيستسهل لذلك أن تسمى شيئاً وهي معدومة ؛ إذ اليقين يشبه الموجودات . وإما على المآل ؛ أى هى إذا وقعت شئ عظيم . وكأنه لم يطلق الاسم الآن ، بل المعنى أنها إذا كانت فهى إذا شئ عظيم ، ولذلك تذهل المراضع وتسكر الناس ؛ كما قال : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ﴾ أى من هولها ومما يدركهم من الخوف والفرع . ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ﴾ من الخمر . وقال أهل المعانى : وترى الناس كأنهم سكارى . يدل عليه قراءة أبى زرعة هريم بن عمرو بن جرير بن عبد الله « وَتَرَى النَّاسَ » بضم التاء ؛ أى تظن ويخيل إليك . وقرأ حمزة والكسائي « سَكَرَى » بغير ألف . الباقر « سَكَرَى » وهما لغتان لجمع سكران ؛ مثل كَسَلَى وكَسَالَى . والزلزلة : التحريك العنيف . والذهول : الغفلة عن الشئ بطروء ما يشغل عنه من هم أو وجع أو غيره . قال ابن زيد : المعنى ترك ولدها للركب الذى نزل بها .

قوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿١٠﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ قيل : المراد النضر بن الحارث ، قال : إن الله عز وجل غير قادر على إحياء من قد بلى وعاد تراباً . ﴿ وَيَتَّبِعُ ﴾ أى فى قوله ذلك . ﴿ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ ممتد . ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ قال قتادة ومجاهد : أى من تولى الشيطان . ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

قوله تعالى : يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَیْجٍ ﴿١٠﴾  
 قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ — إِلَى قَوْلِهِ — مُسَمًّى ﴾  
 فيه اثنا عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ ﴾ هذا احتجاج على العالم بالبداة الأولى . وقوله : « إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ » متضمنة التوقيف . وقرأ الحسن بن أبي الحسن « الْبَعْثِ » بفتح العين ؛ وهى لغة فى « الْبَعْثِ » عند البصريين . وهى عند الكوفيين بتخفيف « بَعَثَ » . والمعنى : يا أيها الناس إن كنتم فى شك من الإعادة . ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أى خلقنا أباكم الذى هو أصل البشر ؛ يعنى آدم عليه السلام ﴿ مِنْ تُرَابٍ ﴾ . ﴿ ثُمَّ ﴾ خلقنا ذريته ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ وهو المني ؛ سُمِّيَ نطفة لقاآته ، وهو القليل من الماء ، وقد يقع على الكثير منه ؛ ومنه الحديث ” حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى جوراً “ . أراد بحر المشرق وبحر المغرب . والنطف : القطر . نَطَفَ يَنْطِفُ وَيَنْطُفُ . وليسلة نطوفة دأمة القطر . ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ وهو الدم الحامد . والعَلَقُ الدم العييط ؛ أى الطرى . وقيل : الشديد الحرارة . ﴿ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ﴾ وهى لحمة قليلة قدر ما يمضغ ؛ ومنه الحديث ” ألا وإن فى الجسد مضغة “ . وهذه الأطوار أربعة أشهر . قال ابن عباس : وفى العشر بعد الأشهر الأربعة يُنفخ فيه الروح ، فذلك عدة المتوفى عنها زوجها ، أربعة أشهر وعشر .

الثانية — روى يحيى بن زكرياء بن أبى زائدة حدثنا داود عن عامر عن علقمة عن ابن مسعود وعن ابن عمر أن النطفة إذا استقرت فى الرحم أخذها ملك بكفه فقال : « يارب ، ذكر أم أنثى ، شقى أم سعيد ، ما الأجل والأثر ، بأى أرض تموت ؟ فيقال له أنطلق إلى أم

الكتاب فإنك تجد فيها قصة هذه النطفة ، فينطلق فيجد قصتها في أم الكتاب ، فتخلق فتأكل رزقها وتطأ أثرها فإذا جاء أجلها قبضت فدفنت في المكان الذي قُدر لها ، ثم قرأ عامر « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ » . وفي الصحيح عن أنس بن مالك - ورفع الحديث - قال : ” إن الله قد وكل بالرحم ملكا فيقول أي رب نطفة . أي رب علقة . أي رب مضغة . فإذا أراد الله أن يقضي خلقا قال قال الملك أي رب ذكر أو أنثى شقي أو سعيد . فما الرزق فما الأجل . فيكتب كذلك في بطن أمه “ . وفي الصحيح أيضا عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم يقول أي رب أذكر أم أنثى ... “ وذكر الحديث . وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ” إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ... “ الحديث . فهذا الحديث مفسر للأحاديث الأول ، فإن فيه : ” يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم أربعين يوما علقة ثم أربعين يوما مضغة ثم يبعث الملك فينفخ فيه الروح “ فهذه أربعة أشهر وفي العشر ينفخ الملك الروح ، وهذه عدة المتوفى [ عنها زوجها ] كما قال ابن عباس . وقوله ” إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه “ قد فسره ابن مسعود ، سئل الأعمش : ما يجمع في بطن أمه ؟ فقال : حدثنا خيثمة قال قال عبد الله : إذا وقعت النطفة في الرحم فأراد الله أن يخلق منها بشرا طارت في بشرة المرأة تحت كل ظفر وشعر ثم تمكث أربعين يوما ثم تصير دما في الرحم ، فذلك جمعها ، وهذا وقت كونها علقة .

الثالثة - نسبة الخلق والتصوير للآلئ نسبة مجازية لا حقيقية ، وأن ما صدر عنه فعل ما في المضغة كان عند التصوير والتشكيل بقدرة الله وخلقته واختراعه ، ألا تراه سبحانه



قد أضاف إليه الخلقة الحقيقية ، وقطع عنها نسب جميع الخليقة فقال : « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ <sup>(١)</sup> » . وقال : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ » . وقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ » . وقال تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَتَنَكُمْ كَافِرًا وَتَقْوِيمًا <sup>(٢)</sup> » . ثم قال : « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ <sup>(٣)</sup> » . وقال : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ <sup>(٤)</sup> » . وقال : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ » . إلى غير ذلك من الآيات ، مع ما دلت عليه قاطعات البراهين أن لا خالق لشيء من المخلوقات إلا رب العالمين . وهكذا القول في قوله : « ثُمَّ يُرْسِلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ » أي أن النفخ سبب خلق الله فيها الروح والحياة . وكذلك القول في سائر الأسباب المعتادة ؛ فإنه بإحداث الله تعالى لا بغيره . فتأمل هذا الأصل وتمسك به ، ففيه النجاة من مذاهب أهل الضلال الطبيعيين وغيرهم <sup>(٥)</sup> .

الرابعة — لم يختلف العلماء أن نفخ الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يوما ، وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله في الخامس ؛ كما بناه بالأحاديث . وعليه يعول فيما يحتاج إليه من الأحكام في الاستلحاق عند التنازع ، وفي وجوب النفقات على حمل المطلقات ؛ وذلك لتيقنه بحركة الجنين في الجوف . وقد قيل : إنه الحكمة في عدة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر ، وهذا الدخول في الخامس يحقق براءة الرحم ببلوغ هذه المدة إذا لم يظهر حمل .

الخامسة — النطفة ليست بشيء يقينا ، ولا يتعلق بها حكم إذا ألقته المرأة إذا لم تجتمع في الرحم ، فهي كما لو كانت في صلب الرجل ؛ فإذا طرحت علقه فقد تحققنا أن النطفة قد استقرت واجتمعت واستحالت إلى أول أحوال ما يتحقق به أنه ولد . وعلى هذا فيكون وضع العلقه فما فوقها من المضغة وضع حمل ، تبرأ به الرحم ، وتنقضي به العدة ، ويثبت به لها حكم أم الولد . وهذا مذهب مالك رضي الله عنه وأصحابه . وقال الشافعي رضي الله عنه :

(١) آية ١١ سورة الأعراف . (٢) آية ١٢ سورة المؤمنون . (٣) آية ٢ سورة النفاين .  
(٤) آية ٦٤ سورة غافر . (٥) آية ٤ سورة التين . (٦) آية ٢ سورة العلق .  
(٧) في الأصل : « الطلائع » .

لا اعتبار بإسقاط العَلَقَة ، وإنما الاعتبار بظهور الصورة والتخطيط ؛ فإن خَفِيَ التخطيط وكان لحمًا فقولان بالنقل والتخريم ، والمنصوص أنه تنقضى به العدة ولا تكون أم ولد . قالوا : لأن العدة تنقضى بالدم الجارى ، فغيره أولى .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ مُخَلَّقَةٌ وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ ﴾ قال الفراء : «مخلقة» ناقة الخلق ، «وغير مخلقة» السقط . وقال ابن الأعرابي : «مخلقة» قد بدأ خلقها ، «وغير مخلقة» لم تصوّر بعد . ابن زيد : المخلقة التى خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين ، وغير مخلقة التى لم يخلق فيها شيء . قال ابن العربى : إذا رجعنا إلى أصل الاشتقاق فإن النطفة والعلقة والمضغة مخلقة ؛ لأن الكل خلق الله تعالى ، وإن رجعنا إلى التصوير الذى هو منتهى الخلقة كما قال الله تعالى : « ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ » فذلك ما قال ابن زيد .

قلت : التخليق من الخلق ، وفيه معنى الكثرة ، فما نتابع عليه الأطوار فقد خلق خلقا بعد خلق ، وإذا كان نطفة فهو مخلوق ؛ ولهذا قال الله تعالى : « ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ » والله أعلم . وقد قيل : إن قوله « مُخَلَّقَةٌ وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ » يرجع إلى الولد بعينه لا إلى السقط ؛ أى منهم من يتم الرب سبحانه مضغته فيخلق له الأعضاء أجمع ، ومنهم من يكون خديجا ناقصا غير تمام . وقيل : المخلقة أن تلد المرأة لتسام الوقت . ابن عباس : المخلقة ما كان حيا ، وغير المخلقة السقط . قال :

أفى غير المخلقة البكاء \* فأين الحزم ويحك والحياء

السابعة — أجمع العلماء على أن الأمة تكون أم ولد بما تسقطه من ولد تام الخلق . وعند مالك والأوزاعى وغيرهما بالمضغة كانت مخلقة أو غير مخلقة . قال مالك : إذا علم أنها مضغة . وقال الشافعى وأبو حنيفة : إن كان قد تبين له شيء من خلق بنى آدم أصبغ أو عين أو غير ذلك فهى له أم ولد . وأجمعوا على أن المولود إذا استهل صارخا يوصل عليه ؛ فإن لم يستهل صارخا لم يوصل عليه عند مالك وأبى حنيفة والشافعى وغيرهم . وروى عن ابن عمر أنه يوصل عليه ؛ وقاله ابن المسيب وابن سيرين وغيرهما . وروى عن المغيرة بن شعبة أنه

كان يأمر بالصلاة على السقط ، ويقول سموهم وأغسلوهم وكفّنوهم وحنطوهم ؛ فإن الله أكرم بالإسلام كبيركم وصغيركم ، ويتلو هذه الآية « فإننا خلقناكم من تراب - إلى - وغير مخلقة » . قال ابن العربي : لعمل المغيرة بن شعبه أراد بالسقط ما تبين خلقه فهو الذي يسمى ، وما لم يتبين خلقه فلا وجود له . وقال بعض السلف : يصلى عليه متى نفخ فيه الروح وتمت له أربعة أشهر . وروى أبو داود عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا استهلّ المولود ورث " . الاستهلال : رفع الصوت ؛ فكل مولود كان ذلك منه أو حركة أو عطاس أو تنفّس فإنه يورث لوجود ما فيه من دلالة الحياة . وإلى هذا ذهب سفيان الثوري والأوزاعي والشافعي . قال الخطابي : وأحسنه قول أصحاب الرأي . وقال مالك : لا ميراث له وإن تحرك أو عطّس ما لم يستهل . وروى عن محمد بن سيرين والشافعي والزهري وقتادة .

الثامنة - قال مالك رضى الله عنه : ما طرحته المرأة من مضغة أو علقة أو ما يعلم أنه ولد إذا ضرب بطنها ففيه الغرة <sup>(١)</sup> . وقال الشافعي : لا شيء فيه حتى يتبين من خلقه . قال مالك : إذا سقط الجنين فلم يستهل صارخا ففيه الغرة . وسواء تحرك أو عطس فيه الغرة أبدا ، حتى يستهل صارخا ففيه الدية كاملة . وقال الشافعي رضى الله عنه وسائر فقهاء الأمصار : إذا علمت حياته بحركة أو بمطاس أو باستهلال أو بغير ذلك مما تستيقن به حياته ففيه الدية .

التاسعة - ذكر القاضي إسماعيل أن عدّة المرأة تنقضى بالسقط الموضوع ، واحتج عليه بأنه حمل ، وقال قال الله تعالى : « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » <sup>(٢)</sup> . قال القاضي إسماعيل : والدليل على ذلك أنه يرث أباه ، فدل على وجوده خلقا وكونه ولدا وحملًا . قال ابن العربي : ولا يرتبط به شيء من هذه الأحكام إلا أن يكون مخلقا .

قلت : ما ذكرناه من الاشتقاق وقوله عليه الصلاة والسلام : " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه " يدل على صحة ما قلناه ، ولأن مسقطه العلقة والمضغة يصدق على المرأة إذا

(١) الغرة عند الفقهاء : ما بلغ منه نصف عشر الدية من العبيد والإماء . (٢) آية ٤ سورة الطلاق .

ألقته أنها كانت حاملا وضعت ما استقر في رحمها، فيشمها قوله تعالى « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » . ولأنها وضعت مبدأ الولد عن نطفة متجسدا كالمخطط ، وهذا بين .

العاشرة - روى ابن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا خالد بن مخلد حدثنا يزيد عن عبد الملك النوفلي عن يزيد بن رومان عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لسقط أقدامه بين يدي أحب إلى من فارس أخلفه [خلفي] " <sup>(١)</sup> . وأخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث له عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة فقال : " أحب إلى من ألف فارس أخلفه ورأى " .

الحادية عشرة - (( لُبَّيْنِ لَكُمْ )) يريد : كمال قدرتنا بتصرفنا أطوار خلقكم . (( وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ )) قرئ بنصب «نقر» و«نخرج» ، رواه أبو حاتم عن أبي زيد عن المفضل عن عاصم قال قال أبو حاتم : النصب على العطف . وقال الزجاج : «نقر» بالرفع لا غير ؛ لأنه ليس المعنى : فعلنا ذلك لنقر في الأرحام ما نشاء ، وإنما خلقهم عز وجل ليدلهم على الرشد والصلاح . وقيل : المعنى لنبين لهم أمر البعث ؛ فهو اعتراض بين الكلامين . وقرأت هذه الفرقة بالرفع «ونقر» ؛ المعنى : ونحن نقر . وهي قراءة الجمهور . وقرئ : «ويقر» و«ينخرجكم» بالياء ، والرفع على هذا سائغ . وقرأ ابن وثاب « ما نشاء » بكسر النون . والأجل المسمى يختلف بحسب جنين جنين ؛ فثم من يسقط وثم من يكمل أمره وينخرج حيا . وقال « ما نشاء » ولم يقل من نشاء لأنه يرجع إلى الحمل ؛ أي يقر في الأرحام ما نشاء من الحمل ومن المضغة وهي جماد فكنت عنها بلفظ ما .

الثانية عشرة - قوله تعالى : (( ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا )) أي أطفالا ؛ فهو أسم جنس . وأيضا فإن العرب قد تسمى الجمع باسم الواحد ؛ قال الشاعر :

يَلْحِينِي فِي حَبِّهَا وَيَلْمُنِي \* إِنْ الْعَوَازِلَ لَيْسَ لِي بِأَمِيرِ

(١) زيادة عن سنن ابن ماجه .

ولم يقل أمراء . وقال المبرد : وهو اسم يستعمل مصدرا كالرضا والعذل ، فيقع على الواحد والجمع ؛ قال الله تعالى : « أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوَارِثِ النِّسَاءِ » <sup>(١)</sup> . وقال الطبري : وهو نصب على التمييز ، كقوله تعالى : « فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا » <sup>(٢)</sup> . وقيل : المعنى ثم نخرج كل واحد منكم طفلا . والطفل يطلق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ . وولد كل وحشية أيضا طفل . ويقال : جارية طفل ، وجاريتان طفل وجوار طفل ، وغلام طفل ، وغلمان طفل . ويقال أيضا : طفل وطفلة وطفلان وطفلتان وأطفال . ولا يقال : طفلات . وأطلقت المرأة صارت ذات طفل . والمطفلة : الطيبة معها طفلها ، وهي قرية عهد بالنَّاج . وكذلك الناقة ، [والجمع] مطافل ومطافيل . والطفل (بالفتح في الطاء) الناعم ؛ يقال : جارية طفلة أى ناعمة ، وبنان طفل . وقد طفل الليل إذا قبل ظلامه . والطفل (بالتحريك) : بعد العصر إذا طفت الشمس للغروب . والطفل (أيضا) : مطر ؛ قال :

\* لَوْهَيْدٍ جَادَهُ طَفْلُ الثُّرَيَّا \* <sup>(٣)</sup>

﴿ ثُمَّ لِيَسْأَلُوا أَشَدَّكُمْ ﴾ قيل : إن « ثم » زائدة كالواو في قوله « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » ؛ لأن ثم من حروف النَّسْق كالواو . « أَشَدَّكُمْ » كمال عقولكم ونهاية قواكم . وقد مضى في « الأنعام » بيانه . ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ ﴾ أى أخسسه وأدونه ، وهو الهرم والخرف حتى لا يعقل ؛ ولهذا قال : ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ . كما قال في سورة يس : « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ » . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَرَدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْقَبْرِ » . أخرجه النسائي عن سعد ، وقال : وكان يعلمون بنيه كما يعلم المكتيب الغلمان . <sup>(٤)</sup> وقد مضى في النحل هذا المعنى <sup>(٥)</sup> .

(١) آية ٣١ سورة النور . (٢) آية ٤ سورة النساء . (٣) الوهد والوهدة : المطمن من

الأرض ، والمكان المنخفض كأنه حفرة . (٤) آية ٧٣ سورة الزمر . (٥) راجع ج ٧ ص ١٣٤

(٦) آية ٦٨ (٧) المكتب : المعلم . (٨) راجع ج ١٠ ص ١٤٠

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ ذكر دلالة أقوى على البعث فقال في الأول : « فإنا خلقناكم من تراب » نفاطب جمعا . وقال في الثاني : « وَتَرَى الْأَرْضَ » نفاطب واحدا ، فانفصل اللفظ عن اللفظ ، ولكن المعنى متصل من حيث الاحتجاج على منكرى البعث . ﴿ هَامِدَةً ﴾ يابسة لا تنبت شيئا ، قاله ابن جريج . وقيل : دارسة . والهمود الدروس . قال الأعشى :

قالت قُتَيْلَةُ ما لجسمك شاحِبًا \* وأرى ثيابك باليات هُمْدًا

الهُرَوِيُّ : « هامة » أى جافة ذات تراب . وقال شمر : يقال : همد شجر الأرض إذا بلى وزهد . وهمدت أصواتهم إذا سكنت . وهمود الأرض ألا يكون فيها حياة ولا نبت ولا عود ولم يصبها مطر . وفي الحديث : « حتى كاد يهمد من الجوع » أى يهلك . يقال : همد الثوب يهمد إذا بلى . وهمدت النار تهمد .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ﴾ أى تحركت . والاهتزاز : شدة الحركة ؛ يقال : هزرت الشيء ، فاهتز ؛ أى حركته فتحرك . وهز الحادي الإبل هزيرا فاهترت هى إذا تحركت فى سيرها بجذائه . واهتر الكوكب فى انقضاضه . وكوكب هاز . فالأرض تهتر بالنبات ؛ لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة خفية ؛ فسماء اهتزازا مجازا . وقيل : اهتر نباتها ، فحذف المضاف ؛ قاله المبرد . واهتزاز شدة حركته ، كما قال الشاعر :

تَتَنَّى إِذَا قَامَتْ وَهَتَّرَ إِنْ مَشَتْ \* كما اهتر غصن البان فى ورق خضر

والاهتزاز فى النبات أظهر منه فى الأرض . ﴿ وَرَبَّتْ ﴾ أى ارتفعت وزادت . وقيل : انتفخت ؛ والمعنى واحد ، وأصله الزيادة . رَبَا الشيء يَرْبُو رَبُوءًا أى زاد ؛ ومنه الربا والربوة . وقرأ يزيد بن القعقاع وخالد بن الياس « وَرَبَّاتٌ » أى ارتفعت حتى صارت بمنزلة الربيعة ، وهو الذى يحفظ القوم على شئ مشرف ؛ فهو رابئ وربيعة على المبالغة . قال امرؤ القيس :

بَعَثْنَا رَيبًا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْمَلًا \* كَذَّبَ الْغَضَا يَمْشِي الضَّرَاءَ وَيَتَّقِي<sup>(١)</sup>

﴿ وَأَنْبَتَ ﴾ أى أخرجت . ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أى لَوْن . ﴿ بَهِيَج ﴾ أى حسن ؛ عن قتادة .  
أى يُبهِج من يراه . والبهجة الحُسْن ؛ يقال : رجل ذو بهجة . وقد بهج (بالضم) بهاجة وبهجة  
فهو بهيج . وأبهجنى أعجنى بحسنه . ولما وصف الأرض بالإنبات دلّ على أن قوله :  
« اهترت وربت » يرجع إلى الأرض لا إلى النبات . والله أعلم .

قوله تعالى : ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى  
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ  
مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ لما ذكر افتقار الموجودات إليه وتسخيرها  
على وفق اقتداره واختياره فى قوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ — إِلَى قَوْلِهِ —  
بَهِيَج » . قال بعد ذلك : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ » . فنبه سبحانه وتعالى  
بهذا على أن كل ما سواه وإن كان موجودا حقا فإنه لا حقيقة له من نفسه ؛ لأنه مسخر  
مصرف . والحق الحقيق : هو الموجود المطلق الغنى المطلق ؛ وأن وجود كل ذى وجود  
عن وجوب وجوده ؛ ولهذا قال فى آخر السورة : « وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ<sup>(٢)</sup> » .  
والحق الموجود الثابت الذى لا يتغير ولا يزول ، وهو الله تعالى . وقيل : ذو الحق على  
عباده . وقيل : الحق بمعنى<sup>(٣)</sup> فى أفعاله . وقال الزجاج : « ذَلِكَ » فى موضع رفع ؛ أى الأمر  
ما وُصف لكم وبين . ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أى لأن الله هو الحق . قال : ويجوز أن يكون

(١) المحمل : الذى يخمل نفسه ، أى يسترها ويخفيها لئلا يشعر به الصيد . والغضى : الشجر ، والعرب تقول :  
أخبت الدئاب ذئب الغضى ؛ وإنما صار كذلك لأنه لا يباشر الناس إلا إذا أراد أن يغير . والضراء (بالفتح والمدة) :  
الشجر الملتف فى الوادى يستر من دخل فيه . وفلان يمشى الضراء : إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر .

(٢) آية ٦٢ (٣) فى بعض نسخ الأصل « وقيل الحق أى بمعنى كذا فى أفعاله » .

« ذلك » نصبا ؛ أى فعل الله ذلك بأنه هو الحق . ﴿ وَأَنَّهُ يُخَيِّمُ الْمَوْتَى ﴾ أى بأنه ﴿ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى وبأنه قادر على ما أراد . ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴾ عطف على قوله : « ذلك بأن الله هو الحق » من حيث اللفظ ، وليس عطفا فى المعنى ؛ إذ لا يقال فعل الله ما ذكر بأن الساعة آتية ، بل لا بد من إضمار فعل يتضمنه ؛ أى وليعلموا أن الساعة آتية ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أى لا شك . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ يريد للثواب والعقاب .

قوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ أى نير بين الحجة . نزلت فى النضر بن الحارث . وقيل : فى أبى جهل بن هشام ؛ قاله ابن عباس . والمعظم على أنها نزلت فى النضر بن الحارث كالآية الأولى ، فهما فى فريق واحد ، والتكرير للبالغة فى الذم ؛ كما تقول للرجل تذمه وتوبخه : أنت فعلت هذا ! أنت فعلت هذا ! ويمحور أن يكون التكرير لأنه وصفه فى كل آية بزيادة ؛ فكأنه قال : إن النضر بن الحارث يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مرید ، والنضر بن الحارث يجادل فى الله من غير علم ومن غير هدى وكتاب منير ؛ ليضل عن سبيل الله . وهو كقولك : زيد يشتمنى وزيد يضربنى ؛ وهو تكرر مفيد ؛ قاله القشيرى . وقد قيل : نزلت فيه بضع عشرة آية . فالمراد بالآية الأولى إنكاره البعث ، والثانية إنكاره النبوة ، وأن القرآن منزل من جهة الله . وقد قيل : كان من قول النضر بن الحارث أن الملائكة بنات الله ، وهذا جدال فى الله تعالى . « مَنْ » فى موضع رفع بالابتداء . والخبر فى قوله : « وَمِنَ النَّاسِ » . ﴿ ثَانِي عَطْفِهِ ﴾ نصب على الحال . ويتأول على معنيين : أحدهما — روى عن ابن عباس أنه قال : هو النضر بن الحارث ،



لَوَى عُنْقَهُ مَرَحًا وَتَعْظُمًا . والمعنى الآخر - وهو قول الفراء - أن التقدير : ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ثانياً عِطْفُهُ ، أى مُعْرِضًا عن الذكر ؛ ذكره النحاس . وقال مجاهد وقتادة : لاوياً عُنْقَهُ كَفَرًا . ابن عباس : مُعْرِضًا عما يُدْعَى إليه كفراً . والمعنى واحد . وروى الأوزاعي عن محمد بن حسين عن هشام بن حسان عن ابن عباس في قوله عز وجل : « ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » قال : هو صاحب البدعة . المبرد : العِطْفُ ما انثنى من العنق . وقال المفضل : والعطف الجانب ؛ ومنه قولهم : فلان ينظر في أعطافه ، أى في جوانبه . وعِطْفًا الرجل من لَدُنْ رأسه إلى وَرِكَه . وكذلك عِطْفًا كل شيء جانباه . ويقال : ثَنَى فلان عُنَى عِطْفِهِ إذا أعرض عنك . فالمعنى : أى هو معرض عن الحق في جداله ومُؤَلَّ عن النظر في كلامه ؛ وهو كقوله تعالى : « وَلَى مُسْتَكْبِرًا كَانَتْ لَمْ تَسْمَعُهَا »<sup>(١)</sup> . وقوله تعالى : « لَوَا رِءُوسَهُمْ »<sup>(٢)</sup> . وقوله : « أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ »<sup>(٣)</sup> . وقوله : « ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَمُتْطَى »<sup>(٤)</sup> . « لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ »<sup>(٥)</sup> أى عن طاعة الله تعالى . وقرئ « لِيُضِلَّ » بفتح الياء . واللام لام العاقبة ؛ أى يجادل فيضل ؛ كقوله تعالى : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرًّا »<sup>(٦)</sup> أى فكان لهم كذلك . ونظيره « إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشِيرُونَ . لِيَكْفُرُوا »<sup>(٧)</sup> . « لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ »<sup>(٨)</sup> أى هو ان وذُلٌّ بما يجرى له من الذكر القبيح على السنة المؤمنين إلى يوم القيامة ؛ كما قال : « وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَافٍ مَهِينٍ »<sup>(٩)</sup> الآية . وقوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ »<sup>(١٠)</sup> . وقيل : الخزي ها هنا القتل ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قتل النضر بن الحارث يوم بدر صبراً ؛ كما تقدم في آخر الأنفال . « وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ »<sup>(١١)</sup> أى نار جهنم . « ذَلِكَ يَمَّا قَدِمْتَ يَدَاكَ »<sup>(١٢)</sup> أى يقال له في الآخرة إذا دخل النار : ذلك العذاب بما قدمت يدك من المعاصي والكفر . وعبر باليد عن الجملة ؛ لأن اليد التى تفعل وتبتطش للجملة . و « ذَلِكَ » بمعنى هذا ، كما تقدم في أول البقرة<sup>(١٣)</sup> .

(١) آية ٧ سورة لقان . (٢) آية ٥ سورة المنافقون . (٣) آية ٨٣ سورة الإسراء .  
(٤) آية ٣٣ سورة القيامة . (٥) آية ٨ سورة القصص . (٦) آية ٤٤ سورة النمل .  
(٧) آية ١٠ سورة القلم . (٨) راجع ج ١ ص ١٥٧ طبعة ثانية أو نالته .

قوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ  
خَيْرٌ أَطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ «من» في موضع رفع بالابتداء، والتام  
«انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ» على قراءة الجمهور «خَسِرَ». وهذه الآية خبر عن المنافقين . قال ابن عباس :  
يريد شعبة بن ربيعة كان قد أسلم قبل أن يظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما أوحى إليه  
ارتد شعبة بن ربيعة . وقال أبو سعيد الخدري : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله ؛  
فتشأه بالإسلام فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أَقْلِي ! فقال : «إن الإسلام لا يُقال» فقال :  
إني لم أصب في ديني هذا خيرا ! ذهب بصرى ومالى وولدى ! فقال : «يا يهودى إن الإسلام  
يَسْبِكُ الرجال كما تَسْبِكُ النارُ خَبَثَ الحديد والفضة والذهب» ؛ فأَنزل الله تعالى «ومن الناس  
من يعبد الله على حَرْفٍ» . وروى إسرائيل عن أبي حصين عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس  
قال : «ومن الناس من يعبد الله على حَرْفٍ» قال : كان الرجل يَقْدَمُ المدينة فإن ولدت أمراًته  
غلاماً وتُحْتَجَّ خيله قال هذا دين صالح ؛ فإن لم تلد أمراًته ولم تُنْتَجَّ خيله قال هذا دين سوء .  
وقال المفسرون : نزلت في أعراب كانوا يَقْدَمُونَ على النبي صلى الله عليه وسلم فيُسَلِّمُونَ ؛  
فإن نالوا رخاء أقاموا ، وإن نالهم شدة ارتدوا . وقيل نزلت في النضر بن الحارث . وقال  
ابن زيد وغيره : نزلت في المنافقين . ومعنى ﴿على حَرْفٍ﴾ على شك ؛ قاله مجاهد وغيره .  
وحقيقته أنه على ضعف في عبادته ، كضعف القائم على حرف مضطرب فيه . وحرف كل شيء  
طَرَفُهُ وشَفِيرُهُ وحَدُّهُ ؛ ومنه حرف الجبل ، وهو أعلاه المَحْدَد . وقيل : «على حرف» أى على  
وجه واحد ، وهو أن يعبد على السراء دون الضراء ؛ ولو عبدوا الله على الشكر في السراء والصبر  
على الضراء لما عبدوا الله على حرف . وقيل : «على حرف» على شرط ؛ وذلك أن شعبة بن  
ربيعة قال للنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يظهر أمره : أدع لى ربك أن يرزقنى مالا ومبلا

وخيلًا وولدا حتى أومِن بك وأُعيدِل إلى دينك؛ فدعا له فرزقه الله عز وجل ما تمنى؛ ثم أراد الله عز وجل فتنته واختباره وهو أعلم به فأخذ منه ما كان رزقه بعد أن أسلم فارتد عن الإسلام فأنزل الله تبارك وتعالى فيه : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ » يريد شرط . وقال الحسن : هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه . وبالجملة فهذا الذى يعبد الله على حَرْف ليس داخلا بكليته؛ وبين هذا بقوله : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ﴾ صحة جسم ورخاء معيشة رضى وأقام على دينه . ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أى خلاف ذلك مما يختبر به ﴿ أَتَقَلَّبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أى ارتد فرجع إلى وجهه الذى كان عليه من الكفر . ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ قرأ مجاهد وحيد بن قيس والأعرج والزهرى وابن أبى إسحاق — وروى عن يعقوب — « خاسِر الدنيا » بألف، نصبا على الحال، وعليه فلا يوقف على « وجهه » . وخسرانه الدنيا بأن لا حظ له فى غنيمة ولا ثناء، والآخرة بأن لا ثواب له فيها .

قوله تعالى : يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى هذا الذى يرجع إلى الكفر يعبد الصنم الذى لا ينفع ولا يضر . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ قال الفراء : الطويل .

قوله تعالى : يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَيْتِ الْمَوْتِ وَلِبَيْتِ الْعَشِيرِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴾ أى هذا الذى انقلب على وجهه يدعو من ضره أدنى من نفعه؛ أى فى الآخرة لأنه بعبادته دخل النار، ولم ير منه نفعاً أصلاً، ولكنه قال : ضره أقرب من نفعه ترفيعاً للكلام؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » . وقيل : يعبدونهم توهم أنهم يشفعون لهم غداً كما قال الله تعالى :

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ » .  
 وقال تعالى : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » <sup>(٢)</sup> . وقال الفراء والكسائي والزجاج : معنى الكلام القسم والتأخير ؛ أى يدعو والله لمن ضره أقرب من نفعه . فاللام مقدمة في غير موضعها . و « مَنْ » في موضع نصب بـ « يدعو » واللام جواب القسم . و « ضره » مبتدأ . و « أقرب » خبره . وضعف النحاس تأخير اللام وقال : وليس للام من التصرف ما يوجب أن يكون فيها تقديم ولا تأخير .

قلت : حق اللام التقديم وقد تؤخر ؛ قال الشاعر :

خَالِي لَأَنْتَ وَمَنْ جَرِيرٌ خَالُهُ \* يَنْبِلُ الْعَلَاءَ وَيُكْرِمُ الْأَخْوَالَ

أى لخالى أنت ؛ وقد تقدم . النحاس : وحكى لنا على بن سليمان عن محمد بن يزيد قال : فى الكلام حذف ؛ والمعنى يدعو لمن ضره أقرب من نفعه إلهًا . قال النحاس : وأحسب هذا القول غلطاً على محمد بن يزيد ؛ لأنه لا معنى له . لأن ما بعد اللام مبتدأ فلا يجوز نصب إله ، وما أحسب مذهب محمد بن يزيد إلا قول الأخفش ، وهو أحسن ما قيل فى الآية عندى ، والله أعلم ، قال : « يدعو » بمعنى يقول . و « مَنْ » مبتدأ وخبره محذوف ، والمعنى يقول لمن ضره أقرب من نفعه إلهه .

قلت : وذكر هذا القول القشيري رحمه الله عن الزجاج والمهدوي عن الأخفش ، وكل إعرابه فقال : « يدعو » بمعنى يقول ، و « مَنْ » مبتدأ ، و « ضره » مبتدأ ثانٍ ، و « أقرب » خبره ، والجملة صلة « مَنْ » ، وخبر « مَنْ » محذوف ، والتقدير يقول لمن ضره أقرب من نفعه إلهه ؛ ومثله قول عنترة :

يَدْعُونَ عَنَتْرُ وَالرَّمَا حُ كَأَنهَا \* أَشْطَانُ بَثْرٍ فِي لَبَانِ الْأَدْهِمِ <sup>(٣)</sup>

قال القشيري : والكافر الذى يقول الصنم معبودى لا يقول ضره أقرب من نفعه ؛ ولكن المعنى يقول الكافر لمن ضره أقرب من نفعه فى قول المسلمين معبودى وإلهى . وهو كقوله

(١) آية ١٨ سورة يونس . (٢) آية ٣ سورة الزمر . (٣) الأشطان : جمع شطن ، وهو جبل البثر . واللبان (يفتح اللام) : الصدر . والأدهم : الفرس . يريد أن الرماح فى صدر هذا الفرس بمنزلة حبال البئر من الدلاء ؛ لأن البئر إذا كانت كثيرة الحرقفة اضطربت الدلو فيها فيجعل لها حبلان ثلثا تضطرب . (عن شرح المعلقات) .

تعالى : « يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ <sup>(١)</sup> » ؛ أى يأياها الساحر عند أولئك الذين يدعونك ساحرا .  
وقال الزجاج : يجوز أن يكون « يدعو » فى موضع الحال ، وفيه هاء محذوفة ؛ أى ذلك هو  
الضلال البعيد يدعوه ، أى فى حال دعائه إياه ؛ ففى « يدعو » هاء مضمرة ، ويوقف على  
هذا على « يدعو » . وقوله : « لَمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ » كلام مستأنف مرفوع بالابتداء ،  
وخبره « لَيْتَسَ الْمُؤَلَّى » ، وهذا لأن اللام لليمين والتوكيد بفعلها أول الكلام . قال الزجاج :  
ويجوز أن يكون « ذلك » بمعنى الذى ، ويكون فى محل النصب بوقوع « يدعو » عليه ؛ أى  
الذى هو الضلال البعيد يدعوه ؛ كما قال : « وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى » أى ما الذى . ثم قوله  
« لَمَنْ ضَرَّهُ » كلام مبتدأ ، و « لَيْتَسَ الْمُؤَلَّى » خبر المبتدأ ؛ وتقدير الآية على هذا : يدعو الذى  
هو الضلال البعيد ؛ قدم المفعول وهو الذى ؛ كما تقول : زيدا يضرب ؛ واستحسنه أبو على .  
وزعم الزجاج أن النحويين أغفلوا هذا القول ؛ وأنشد :

عَدَسٌ مَا لِعِبَادٍ عَلَيْكَ إِمَارَةٌ \* تَجْمُوتُ وَهَذَا تَجْمِيلُ طَلِيقٍ <sup>(٢)</sup>

أى والذى . وقال الزجاج أيضا والفراء : يجوز أن يكون « يدعو » مكرزة على ما قبلها ،  
على جهة تكثير هذا الفعل الذى هو الدعاء ، ولا تُعَذِّيه إذ قد عَذِّيته أولا ؛ أى يدعو من دون  
الله ما لا ينفعه ولا يضره يدعو ؛ مثل ضربت زيدا ضربت ، ثم حذفت يدعو الآخرة  
اكتفاء بالأولى . قال الفراء : ويجوز « لَمَنْ ضَرَّهُ » بكسر اللام ؛ أى يدعو إلى مَنْ ضره  
أقرب من نفعه ، قال الله عز وجل : « بَأْتِ رَبَّكَ أَوْحَى هَآ » أى إليها . وقال الفراء أيضا  
والقفال : اللام صلة ؛ أى يدعو من ضره أقرب من نفعه ؛ أى يعبد . وكذلك هو فى قراءة  
عبد الله بن مسعود . (لَيْتَسَ الْمُؤَلَّى) أى فى التناسر (وَلَيْتَسَ الْعَشِيرُ) أى المعاصر والصاحب  
والخليل . مجاهد : يعنى الوثن .

(١) آية ٤٩ سورة الزخرف . (٢) هذا البيت أول أبيات ليزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى . وعدس :  
زجر للبغل ليسرع . وعباد هو ابن زياد أخو عبيد الله بن زياد الذى قاتل الحسين بن على رضى الله عنهما فى كربلاء .  
هما ابن مفرغ هذا عبادا فقد عليه وجفاء ؛ فأخذ أخوه عبيد الله وحبيه وعذبه ، فلما طال حبسه دخل أهل اليمن إلى  
معاوية فشفعوا فيه فأطلق سراحه . (راجع ترجمته فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وخراتة الأدب للبغدادى فى الشاهد  
الثالث بعد الثلاثة والثامن والعشرين بعد الأربعين) .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ  
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾  
لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين والشياطين ذكر حال المؤمنين في الآخرة أيضا . ﴿إِنَّ  
اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أى يثيب من يشاء ويعذب من يشاء ؛ فللمؤمنين الجنة بحكم وعده  
الصدق وبفضله ، وللكافرين النار بما سبق من عدله ؛ لا أن فعل الرب معلل بفعل العبيد .

قوله تعالى : مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ  
مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى  
السَّمَاءِ﴾ قال أبو جعفر النحاس : من أحسن ما قيل فيها أن المعنى من كان يظن أن لن ينصر  
الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأنه يتهيا له أن يقطع النصر الذى أوتيه . ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾  
أى فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء . ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أى ثم ليقطع النصر إن تهيا له . ﴿فَلْيَنْظُرْ  
هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ وحيلته ما يغيه من نصر النبي صلى الله عليه وسلم . والفائدة في الكلام  
أنه إذا لم يتهيا له الكيد والحيلة بأن يفعل مثل هذا لم يصل إلى قطع النصر . وكذا قال ابن  
عباس : إن الكناية في « ينصره الله » ترجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو وإن لم يجر  
ذكره بجمع الكلام دال عليه ؛ لأن الإيمان هو الإيمان بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، والانقلاب  
عن الدين انقلاب عن الدين الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أى من كان يظن ممن  
يعادى محمدا صلى الله عليه وسلم ومن يعبد الله على حَرْفٍ أنا لا ننصر محمدا فليفعل كذا وكذا .  
وعن ابن عباس أيضا أن الهاء تعود على « من » والمعنى : من كان يظن أن الله لا يرزقه  
فليختنق ، فليقتل نفسه ؛ إذ لا خير في حياة تخلو من عون الله . والنصر على هذا القول الرزق ؛

تقول العرب : من ينصرني نصره الله ؛ أى من أعطاني أعطاه الله . ومن ذلك قول العرب :  
أرض منصوره ؛ أى ممطورة . قال الفقهاء<sup>(١)</sup> :

وانك لا تعطى امرأ فوق حقه \* ولا تملك الشق الذى الغيث ناصره  
وكذا روى ابن أبى نجیح عن مجاهد قال : « من كان يظن أن لن ينصره الله » أى لن يرزقه .  
وهو قول أبى عبيدة . وقيل : إن الهاء تعود على التين ؛ والمعنى : من كان يظن أن لن ينصر  
الله دينه . « فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ » أى بجبل . والسبب ما يتوصل به إلى الشيء . « (إلى السماء) » إلى  
سقف البيت . ابن زيد : هى السماء المعروفة . وقرأ الكوفيون « ثم ليقطع » بإسكان اللام .  
قال النحاس : وهذا بعيد فى العربية ؛ لأن « ثم » ليست مثل الواو والفاء ، لأنها يوقف عليها  
وتنفرد . وفى قراءة عبد الله « فليقطعه ثم لينظر هل يذهبن كيدُهُ ما يغيظ » . قيل : « ما »  
بمعنى الذى ؛ أى هل يذهبن كيدهُ الذى يغيظه ، فحذف الهاء ليكون أخف . وقيل : « ما »  
بمعنى المصدر ؛ أى هل يذهبن كيدُهُ غيظه .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنْتَ اللَّهُ يَهْدِي  
مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » يعنى القرآن . « وَأَنْتَ اللَّهُ » أى وكذلك  
أن الله « يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ » ، علق وجود الهداية بإرادته ؛ فهو الهادى لا هادى سواه .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى  
وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ  
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم . « وَالَّذِينَ هَادُوا »  
اليهود ، وهم المنتسبون إلى ملة موسى عليه السلام . « وَالصَّابِغِينَ » هم قوم يعبدون النجوم .

(١) فى الأصول الفقهية . والتصويب عن تفسير الطبرى .

﴿وَالنَّصَارَى﴾ هم المنتسبون إلى ملة عيسى . ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ هم عبدة النيران القائلين أن للعالم أصليين : نور وظلمة . قال قتادة : الأديان خمسة ، أربعة للشيطان وواحد للرحمن . وقيل : المجوس في الأصل النجوس لتدينهم باستعمال النجاسات ، والميم والنون يتعاقبان كالغيم والغين ، والأنيب والأين . وقد مضى في البقرة هذا كله مستوفى<sup>(١)</sup> . ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ هم العرب عبدة الأوثان . ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يقضى ويحكم ، فللكافرين النار ، وللمؤمنين الجنة . وقيل : هذا الفصل بأن يعترفهم الحق من المبطل بمعرفة ضرورية ، واليوم يتميز الحق عن المبطل بالنظر والاستدلال . ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي من أعمال خلقه وحركاتهم وأقوالهم ، فلا يغرب عنه شيء منها ، سبحانه ! وقوله « إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ » خبر « إِنَّ » في قوله « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا » ، كما تقول : إن زيدا إن الخير عنده . وقال الفراء : ولا يجوز في الكلام إن زيدا إن أخاه منطلق ، وزعم أنه إنما جاز في الآية لأن في الكلام معنى المجازاة ؛ أي من آمن ومن تهوّد أو تنصّر أو صبا يفصل بينهم ، وحسابهم على الله عز وجل . ورد أبو إسحاق على الفراء هذا القول ، واستقبح قوله : لا يجوز إن زيدا إن أخاه منطلق ؛ قال : لأنه لا فرق بين زيد وبين الذين ، و«إن» تدخل على كل مبتدأ فتقول إن زيدا هو منطلق ، ثم تأتي بيان فتقول : إن زيدا إنه منطلق . وقال الشاعر :

إِنْ الْخَلِيفَةُ إِنْ اللَّهَ سَرَبَلَهُ \* سِرْبَالٍ عَزَّ بِهِ تُرْجَى الْخَوَاتِيمُ<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يَنْهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾

(١) راجع ج ١ ص ٤٣٣ ، طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) و يروى : «ترجى» بالزاي والجيم ؛ والازجاء السوق . والخواتيم جمع الخاتام لغة في الخاتم . يريد أن سلاطين الآفاق يرسلون إليه خواتيمهم خوفا منه فيضاف ملكهم إلى ملكه . وهذا البيت من قصيدة لجرير يمدح بها عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . (عن خزانة الأدب) .



قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ هذه رؤية القلب ؛ أى ألم تر بقلبك وعقلك . وتقدم معنى السجود فى « البقرة »<sup>(١)</sup> ، وسجود الجناد فى « النحل »<sup>(٢)</sup> . ﴿ وَالشَّمْسُ ﴾ معطوفة على « مَنْ » . وكذا ﴿ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ وهذا مشكل من الإعراب ، كيف لم ينصب ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل ؛ مثل « وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »<sup>(٣)</sup> ؟ فزعم الكسائى والفتراء أنه لو نصب لكان حسنا ، ولكن آختر الرفع لأن المعنى وكثير أبى السجود ؛ فيكون ابتداء وخبرا ، وتم الكلام عند قوله « وكثير من الناس » . ويجوز أن يكون معطوفا ، على أن يكون السجود التذلل والانتقاد لتدبير الله عز وجل من ضعف وقوة وصحة وسقم وحسن وقبح ، وهذا يدخل فيه كل شئ . ويجوز أن ينتصب على تقدير : وأهان كثيرا حق عليه العذاب ، ونحوه . وقيل : تم الكلام عند قوله « والدواب » ثم ابتداء فقال « وكثير من الناس » فى الجنة « وكثير حق عليه العذاب » . وكذا روى عن ابن عباس أنه قال : المعنى وكثير من الناس فى الجنة وكثير حق عليه العذاب ؛ ذكره ابن الأنبارى . وقال أبو العالية : ما فى السموات نجم ولا قمر ولا شمس إلا يقع ساجدا لله حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيرجع من مطلع . قال القشيري : وورد هذا فى خبر مسند فى حق الشمس ؛ فهذا سجود حقيقى ، ومن ضرورته تركيب الحياة والعقل فى هذا الساجد .

قلت : الحديث المسند الذى أشار إليه نخرجه مسلم ، وسيأتى فى سورة « يس » عند قوله تعالى : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا »<sup>(٤)</sup> . وقد تقدم فى البقرة معنى السجود لغة ومعنى . قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ ﴾ أى من أهانه بالشقاء والكفر لا يقدر أحد على دفع الهوان عنه . وقال ابن عباس : إن من تهاون بعبادة الله صار إلى النار . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُشَاءُ ﴾ يريد أن مصيرهم إلى النار فلا اعتراض لأحد عليه . وحكى الأخفش والكسائى والفتراء « وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ » أى إكرام .

(١) راجع ج ١ ص ٢٩١ طبعة ثانية أورثثة .

(٢) راجع ج ١٠ ص ١١٢ .

(٤) آية ٣٨ .

(٣) آية ٣١ سورة الإنسان .

قوله تعالى : هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ خرج مسلم عن قيس بن عباد قال : سمعت أبا ذرٍّ يُقسم قسماً إن « هذان خصمان اختصموا في ربهم » إنها نزلت في الذين برزوا يوم بدر : حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم وعتبة وشيبة أبنا ربيعة والوليد بن عتبة . وبهذا الحديث ختم مسلم رحمه الله كتابه . وقال ابن عباس : نزلت هذه الآيات الثلاث على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة في ثلاثة نفر من المؤمنين وثلاثة نفر كافرين ؛ وسمّاهم ، كما ذكر أبو ذر . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إني لأقول من يبخش للخصومة بين يدي الله يوم القيامة ؛ يريد قصته في مبارزته هو وصاحبه ؛ ذكره البخاري . وإلى هذا القول ذهب هلال بن يساف وعطاء بن يسار وغيرهما . وقال عكرمة : المراد بالخصمين الجنة والنار ؛ اختصمتا فقالت النار : خلقتني لعقوبته . وقالت الجنة خلقتني لرحمته .

قلت : وقد ورد بتخادم الجنة والنار حديثٌ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « احتجت الجنة والنار فقالت هذه يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلني الضعفاء والمساكين فقال الله تعالى لهذه أنت عذابي أعذب بك من أشاء وقال لهذه أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها » . أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وقال ابن عباس أيضاً : هم أهل الكتاب قالوا للمؤمنين نحن أولى بالله منكم ، وأقدم منكم كتاباً ، ونبينا قبل نبيكم . وقال المؤمنون : نحن أحق بالله منكم ، آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل إليه من كتاب ، وأتمتعون نبينا وتركتموه وكفرتكم به حسداً ، فكانت هذه خصومتهم ، وأنزلت فيهم هذه الآية . وهذا قول قتادة ، والقول الأول أصح رواه البخاري عن حجاج بن منهال عن هشيم عن أبي هاشم عن أبي مجلز عن

قيس بن عباد عن أبي ذر ، ومسلم عن عمرو بن زُرارة عن هُشيم ، ورواه سليمان التيمي عن أبي مجلز عن قيس بن عباد عن علي قال : فِينَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَفِي مَبَارِزَتِنَا يَوْمَ بَدْر « هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ — إِلَى قَوْلِهِ — عَذَابُ الْحَرِيقِ » . وقرأ ابن كثير « هَذَانِ خَصْمَانِ » بتشديد النون من « هَذَانِ » . وتأول الفراء الخَصْمَيْنِ على أنهما فريقان أهل دينين ، وزعم أن الخصم الواحد المسلمون والآخِر اليهود والنصارى ، اختصموا في دين ربهم ؛ قال : فقال « اختصموا » لأنهم جمع ، قال : ولو قال « اختصما » لحاز . قال النحاس : وهذا تأويل من لا دراية له بالحديث ولا بكتب أهل التفسير ؛ لأن الحديث في هذه الآية مشهور ، رواه سفيان الثوري وغيره عن أبي هاشم عن أبي مجلز عن قيس بن عباد قال : سمعت أبا ذر يُقسم قَسَمًا إن هذه الآية نزلت في حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة . وهكذا روى أبو عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس . وفيه قول رابع أنهم المؤمنون كلهم والكافرون كلهم من أي ملة كانوا ؛ قاله مجاهد والحسن وعطاء بن أبي رباح وعاصم بن أبي النجود والكلبي . وهذا القول بالعموم يجمع المنزل فيهم وغيرهم . وقيل : نزلت في الخصومة في البعث والجزاء ؛ إذ قال به قوم وأنكره قوم . ﴿ فَأَلْذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعني من الفرق الذين تقدم ذكرهم . ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ أي خِيطَتْ وَسُوِّتْ ؛ وشبَّهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب . وقوله ﴿ قُطِّعَتْ ﴾ أي تقطع لهم في الآخرة ثياب من نار ؛ وذكر بلقظ الماضي لأن ما كان من أخبار الآخرة فالموعود منه كالواقع المحقق ؛ قال الله تعالى : « وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ <sup>(١)</sup> » أي يقول الله تعالى . ويحتمل أن يقال قد أعدت الآن تلك الثياب لهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار . وقال سعيد بن جبير : « من نار » من نحاس ؛ فتلك الثياب من نحاس قد أذيت وهي السراويل المذكورة في « قِطْرٍ آتٍ <sup>(٢)</sup> » وليس في الآية شيء إذا حُمِيَ

(١) آية ١١٦ سورة المائدة . (٢) أي في قوله تعالى : « سراويلهم من قطران » آية ٥٠ هـ

سورة إبراهيم . فقد قرئ « من قطران » والقطر : النحاس والصفير المذاب . والآتي الذي انتهى إلى حره .

راجع ج ٩ ص ٣٨٥

يكون أشدَّ حرًّا منه . وقيل : المعنى أن النار قد أحاطت بهم كإحاطة الثياب المقطوعة إذا لبسوها عليهم ؛ فصارت من هذا الوجه ثيابا لأنها بالإحاطة كالثياب ؛ مثل « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا » <sup>(١)</sup> . « يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ » أى الماء الحار المغلّى بنار جهنم . وروى الترمذى عن أبى هريرة عن النبىِّ صلى الله عليه وسلم قال : « إن الحميم ليُصبَّب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يَخْلُص إلى جوفه فيَسْلِت ما فى جوفه حتى يَمُرَّق من قدميه وهو الصَّهْر ثم يعاد كما كان » . قال : حديث حسن صحيح غريب . « يُصْهَر » يذاب . « بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ » والصَّهْر إذابة الشحم . والصَّهارة ما ذاب منه ؛ يقال : صَهَرَتِ الشَّيْءُ فَمَا نَصَهَرَ ؛ أى أذبتَه فذاب ، فهو صهير . قال ابن أحرى يصف فرخ قطة :

تَرَوِى لَقَى الْتَقَى فِي صَفْصَفٍ \* تَصْهَرُ الشَّمْسُ فَمَا يَنْصَهَرُ <sup>(٢)</sup>

أى تذيبه الشمس فيصبر على ذلك . « وَالْجُلُودُ » أى وتُحْرَق الجلود ، أو تُشْوَى الجلود ؛ فإن الجلود لا تذاب ، ولكن يُضَمَّ فى كل شئ ما يليق به ؛ فهو كما تقول : أتيتَه فأطعمنى ثريدا ، إى والله ولبنا قارصا ؛ أى وسقانى لبنا . وقال الشاعر :

\* عَلَفَتْهَا تَبْنَا وَمَاءُ بَارِدَا \*

« وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ » أى يُضْرَبُونَ بها ويدفعون ؛ الواحدة مِقْمَعَةٌ ، ومِقْمَعٌ أيضا كالمُحَجَّن ، يضرب به على رأس الفيل . وقد قَمَعَتْه إذا ضربته بها . وقَمَعَتْه وأَقَمَعَتْه بمعنى ؛ أى قهرته وأذلّته فأنقمع . قال ابن السكيت : أقمعت الرجل عني إقماعا إذا طلع عليك فرددته عنك . وقيل : المقامع المطارق ، وهى المرازب أيضا . وفى الحديث « بيد كل ملك من خزانة جهنم مِرْزَبَةٌ لها شُعْبَتَانِ فيضرب الضربة فيهوى بها سبعين ألفا » . وقيل : المقامع سياط من نار ، وسميت بذلك لأنها تنقمع المضروب ؛ أى تذله .

(١) آية ١٠ سورة النبا . (٢) تروى : تسوق اليه الماء ؛ أى نصير له كالراوية . واللقى ( بالفتح ) :

الشئ الملقى لهوائه . والصفصف : المستوى من الأرض . (٣) القارص : الحامض من ألبان الإبل

خاصة . وقيل : القارص اللبن الذى يحذى اللسان ؛ ولم يخص .

قوله تعالى : **كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ **كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا** ﴾ أى من النار . ﴿ **أُعِيدُوا فِيهَا** ﴾ بالضرب بالمقامع . وقال أبو ظبيان : ذكر لنا أنهم يحاولون الخروج من النار حين تجيش بهم وتنور فتلقى من فيها إلى أعلى أبوابها فيريدون الخروج فتعيدهم الخزان إليها بالمقامع . وقيل : إذا اشتد غمهم فيها فرؤا ، فمن خلص منهم إلى شفيرها أعادتهم الملائكة فيها بالمقامع ، ويقولون لهم ﴿ **ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾ أى المحرق ، مثل الأليم والوجيع . وقيل : الحريق الآسم من الاحتراق . تحرق الشيء بالنار وأحرق ، والاسم الحرقفة والحريق . والذوق : مماسة يحصل معها إدراك الطعم ، وهو هنا توسع ، والمراد به إدراكهم الألم .

قوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ** ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ﴾ لما ذكر أحد الخصمين وهو الكافر ذكر حال الخصم الآخر وهو المؤمن . ﴿ **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ** ﴾ « من » صلة . والأساور جمع أسورة ، وأسورة واحد سوار ، وفيه ثلاث لغات : ضم السين وكسرهما وإسوار . قال المفسرون : لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل الله ذلك لأهل الجنة ، وليس أحد من أهل الجنة إلا وفى يده ثلاثة أسورة : سوار من ذهب ، وسوار من فضة ، وسوار من لؤلؤ . قال هنا وفى فاطر :<sup>(٢)</sup>

(١) هذا على مذهب الأخفش والكوفيين الذين يجيزون زيادة « من » في الإيجاب . أما الذين لا يجيزون زيادتها في الإيجاب فقال بعضهم إنها للتبعيض ، وبعضهم إنها للابتداء ، وبعضهم إنها بياينة . (راجع البحر المحيط وروح المعاني في الكلام عن هذه الآية ) .  
(٢) آية ٢٣

« مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا » وقال في سورة الإنسان : « وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ » .  
 وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة سمعت خليل صلى الله عليه وسلم يقول : « تبلغ الحلية  
 من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » . وقيل : تُحَلَّى النساء بالذهب والرجال بالفضة . وفيه نظر ،  
 والقرآن يرده . ( وَلُؤْلُؤًا ) قرأ نافع وابن القَعْقَاع وشيبة وعاصم هنا وفي سورة الملائكة  
 « لُؤْلُؤًا » بالنصب ، على معنى وَيُحَلِّونَ لُؤْلُؤًا ؛ واستدلوا بأنها مكتوبة في جميع المصاحف هنا  
 بألف . وكذلك قرأ يعقوب والجدري وعيسى بن عمر بالنصب هنا والخفض في « فاطر »  
 اتباعاً للمصحف ، ولأنها كتبت ها هنا بألف وهناك بغير ألف . الباقيون بالخفض في الموضعين .  
 وكان أبو بكر لا يهزم « اللؤلؤ » في كل القرآن ؛ وهو ما يستخرج من البحر من جوف  
 الصدف . قال القشيري : والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ ؛ ولا يبعد أن يكون في الجنة سوار  
 من لؤلؤ مصمت .<sup>(٢)</sup>

قلت : وهو ظاهر القرآن بل نصّه . وقال ابن الأنباري : من قرأ « ولؤلؤ » بالخفض  
 وقف عليه ولم يقف على الذهب . وقال السجستاني : من نصب « اللؤلؤ » فالوقف الكافي  
 « من ذهب » ؛ لأن المعنى ويحلون لؤلؤا . قال ابن الأنباري : وليس كما قال ، لأننا إذا  
 خفضنا « اللؤلؤ » نسقناه على لفظ الأساور ، وإذا نصبناه نسقناه على تأويل الأساور ؛ وكأنا  
 قلنا : يحلون فيها أساور ولؤلؤا ، فهو في النصب بمنزلة في الخفض ، فلا معنى لقطعه من الأول .  
 قوله تعالى : ( وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ) أي وجميع ما يلبسونه من فرشهم ولباسهم وستورهم  
 حرير ، وهو أعلى مما في الدنيا بكثير . وروى النسائي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه  
 وسلم قال : « من ليس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه  
 في الآخرة ومن شرب في آنية الذهب والفضة لم يشرب فيها في الآخرة — ثم قال رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم — لباس أهل الجنة وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة » . فإن قيل :  
 قد سوى النبي صلى الله عليه وسلم بين هذه الأشياء الثلاثة وأنه يُجرمها في الآخرة ؛ فهل يحرمها

(١) آية ٢١ (٢) الذي في المصحف طبعة الحكومة المصرية أنها بالألف في الموضعين .

(٣) المصمت : الذي لا يحاطه غيره .

إذا دخل الجنة؟ قلنا: نعم! إذا لم يتب منها حُرْمها في الآخرة وإن دخل الجنة؛ لاستعجاله ما حرم الله عليه في الدنيا. لا يقال: إنما يُحَرَّم ذلك في الوقت الذي يعذب في النار أو بطول مقامه في الموقف، فأما إذا دخل الجنة فلا؛ لأن حرمان شيء من لذات الجنة لمن كان في الجنة نوع عقوبة ومؤاخذه، والجنة ليست بدار عقوبة، ولا مؤاخذه فيها بوجه. فإننا نقول: ما ذكرتموه محتمل، لولا ما جاء ما يدفع هذا الاحتمال ويرده من ظاهر الحديث الذي ذكرناه. وما رواه الأئمة من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم "من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حُرْمها في الآخرة". والأصل التمسك بالظاهر حتى يرد نص يدفعه؛ بل قد ورد نص على صحة ما ذكرناه، وهو ما رواه أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا هشام عن قتادة عن داود السراج عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو". وهذا نص صريح وإسناده صحيح. فإن كان "وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو" من قول النبي صلى الله عليه وسلم فهو الغاية في البيان، وإن كان من كلام الراوي على ما ذكر فهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال، ومثله لا يقال بالرأي، والله أعلم. وكذلك "من شرب الخمر ولم يتب" و"من استعمل آنية الذهب والفضة" وكما لا يشتهي منزلة من هو أرفع منه، وليس ذلك بعقوبة، كذلك لا يشتهي نحر الجنة ولا حريرها ولا يكون ذلك عقوبة. وقد ذكرنا هذا كله في كتاب التذكرة مستوفى، والحمد لله، وذكرنا فيها أن شجر الجنة وثمارها يتفتق عن ثياب الجنة، وقد ذكرناه في سورة الكهف<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى: وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ

الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أى أرشدوا إلى ذلك. قال ابن عباس: يريد لا إله إلا الله والحمد لله. وقيل: القرآن، ثم قيل: هذا في الدنيا، هُودُوا إلى الشهادة،

وقراءة القرآن . ﴿ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴾ أى إلى صراط الله . وصراط الله : دينه وهو الإسلام . وقيل : هُدُوا في الآخرة إلى الطيب من القول ، وهو الحمد لله ؛ لأنهم يقولون غدا الحمد لله الذى هدانا لهذا ، الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ؛ فليس في الجنة لغو ولا كذب فما يقولونه فهو طيب القول . وقد هُدُوا في الجنة إلى صراط الله ، إذ ليس في الجنة شيء من مخالفة أمر الله . وقيل : الطيب من القول ما يأتيهم من الله من البشارات الحسنة . ﴿ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴾ أى إلى طريق الجنة .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ يُظْلَمِ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ ﴾ أعاد الكلام إلى مشركي العرب حين صَدُّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام عام الحُدُبيَّة ، وذلك أنه لم يُعلم لهم صد قبل ذلك الجمع ؛ إلا أن يريد صدّهم لأفراد من الناس ، فقد وقع ذلك في صدر المبعث . والصد : المنع ؛ أى وهم يصُدُّون . وبهذا حسن عطف المستقبل على الماضي . وقيل : الواو زائدة « ويصدون » خبر « إن » . وهذا مفسد للنعى المقصود ، وإنما الخبر محذوف مقدر عند قوله « والباد » تقديره : خسروا إذ هلكوا . وجاء « ويصدون » مستقبلا إذ هو فعل يُدِيمُونَهُ ؛ كما جاء قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ » ؛ فكأنه قال : إن الذين كفروا من شأنهم الصد . ولو قال إن الذين كفروا وصدوا لحاز . قال النحاس : وفي كتابي عن أبي إسحاق قال وجائز أن يكون — وهو الوجه — الخبر « نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ » . قال أبو جعفر : وهذا غلط ، ولست أعرف ما الوجه فيه ؛ لأنه جاء بخبر « إن » جزما ، وأيضا



فإنه جواب الشرط، ولو كان خبر « إن » لبقى الشرط بلا جواب، ولا سيما والفعل الذي في الشرط مستقبل فلا بُدَّ له من جواب .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ قيل : إنه المسجد نفسه، وهو ظاهر القرآن ؛ لأنه لم يذكر غيره . وقيل : الحرم كله ؛ لأن المشركين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عنه عام الحديبية ، فنزل خارجا عنه ؛ قال الله تعالى : « وَصَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » وقال : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . وهذا صحيح ، لكنه قصد هنا بالذكر المهم المقصود من ذلك .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ ﴾ أى للصلاة والطواف والعبادة ؛ وهو كقوله تعالى : « إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ » . ﴿ سَوَاءٌ أَلْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ (٢) العاكف : المقيم الملازم . والبادي : أهل البادية ومن يقدّم عليهم . يقول : سواء في تعظيم حرمة وقضاء النسك فيه الحاضر والذي يأتيه من البلاد ؛ فليس أهل مكة أحق من النازح إليه . وقيل : إن المساواة إنما هي في دوره ومنازله ، ليس المقيم فيها أولى من الطارئ عليها . وهذا على أن المسجد الحرام الحرم كله ؛ وهذا قول مجاهد ومالك ، رواه عنه ابن القاسم . وروى عن عمرو ابن عباس وجماعة إلى أن القادم له النزول حيث وجد ، وعلى رب المنزل أن يؤويه شاء أو أبى . وقال ذلك سفیان الثوري وغيره . وكذلك كان الأمر في الصدر الأول ، كانت دورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقة ؛ فاتخذ رجل بابا فأنكر عليه عمر وقال : أتخلق بابا في وجه حاج بيت الله ؟ فقال : إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة ؛ فتركه فاتخذ الناس الأبواب . وروى عن عمار بن الخطاب رضي الله عنه أيضا أنه كان يأمر في الموسم بفتح أبواب دور مكة ، حتى يدخلها الذي يقدم فينزّل حيث شاء ، وكانت الفساطيط تضرب في الدور . وروى عن مالك أن الدور ليست كالمسجد ولأهلها الامتناع منها والاستبداد ؛ وهذا هو العمل اليوم . وقال بهذا جمهور من الأمة .

وهذا الخلاف يُنبئ على أصليين : أحدهما أن دور مكة هل هي ملك لأربابها أم للناس .  
 وللخلاف سببان : أحدهما هل فتح مكة كان عَنوة فتكون مغنومة ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم  
 لم يقسمها وأقرها لأهلها ولمن جاء بعدهم ؛ كما فعل عمر رضي الله عنه بأرض السَّواد وعفا لهم  
 عن الخراج كما عفا عن سَبْيِهِمْ واسترقاقهم إحسانا إليهم دون سائر الكفار فتبقى على ذلك  
 لا تُباع ولا تُكْرَى ، ومن سبق إلى موضع كان أولى به . وبهذا قال مالك وأبو حنيفة  
 والأوزاعي . أو كانت فتحها صلحا — وإليه ذهب الشافعي — فتبقى ديارهم بأيديهم ،  
 وفي أملاكهم يتصرفون كيف شاءوا . وروى عن عمر أنه اشترى دار صفوان بن أمية  
 بأربعة آلاف وجعلها سجنًا ، وهو أول من حبس في السجن في الإسلام ، على ما تقدم بيانه  
 في آية المحاربين من سورة «المائدة» . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم حبس في تُهْمَةٍ .  
 وكان طاوس يكره السجن بمكة ويقول : لا ينبغي لبيت عذاب أن يكون في بيت رحمة .  
 قلت : الصحيح ما قاله مالك ، وعليه تدل ظواهر الأخبار الثابتة بأنها فتحت عَنوة .  
 قال أبو عبيد : ولا نعلم مكة يشبهها شيء من البلاد . وروى الدارقطني عن علقمة بن نضلة  
 قال : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما وما تُدعى رِباع مكة  
 إلا السوائب ؛ من احتاج سَكَنَ ومن استغنى أسكن . وزاد في رواية : وعثمان . وروى أيضا  
 عن علقمة بن نضلة الكناي قال : كانت تدعى بيوت مكة على عهد رسول الله صلى الله عليه  
 وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما السوائب ، لا تباع ؛ من احتاج سَكَنَ ومن استغنى أسكن .  
 وروى أيضا عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”إن الله تعالى حرم مكة  
 لحرام بيع رباعها وأكل ثمنها — وقال — من أكل من أجر بيوت مكة شيئا فإنما يأكل نارا“ .  
 قال الدارقطني : كذا رواه أبو حنيفة مرفوعا ووهم فيه ، ووهم أيضا في قوله عبيد الله بن أبي يزيد  
 وإنما هو ابن أبي زياد القداح ، والصحيح أنه موقوف ، وأسند الدارقطني أيضا عن  
 عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”مكة مُناخ لا تباع رِباعها ولا تؤاجر

(١) راجع ج ٦ ص ١٥٣ طبعة أول أو ثانية . (٢) أحد رجال سند الحديث .

بيوتها». وروى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ، ألا أبني لك بمنى بيتا أو بناء يُظلك من الشمس ؟ فقال : « لا ، إنما هو مُنَاخ من سبق إليه » . وتمسك الشافعى رضى الله عنه بقوله تعالى : « الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ » فأضافها إليهم . وقال عليه السلام يوم الفتح : « من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » .

الرابعة — قرأ جمهور الناس «سواء» بالرفع ، وهو على الابتداء ، و«العاكف» خبره . وقيل : الخبر «سواء» وهو مقدم ؛ أى العاكف فيه والبادى سواء ؛ وهو قول أبى على ، والمعنى : الذى جعلناه للناس قبلة أو متعبداً العاكف فيه والبادى سواء . وقرأ حفص عن عاصم «سواءً» بالنصب ، وهى قراءة الأعمش . وذلك يحتمل أيضا وجهين : أحدهما — أن يكون مفعولا ثانيا لجعل ، ويرتفع «العاكف» به لأنه مصدر ، فأعمل عمل اسم الفاعل لأنه فى معنى مستوي . والوجه الثانى — أن يكون حالا من الضمير فى جعلناه . وقرأت فرقة «سواء» بالنصب «العاكف» بالخفض ، و«البادى» عطفا على الناس ؛ التقدير : الذى جعلناه للناس العاكف والبادى . وقراءة ابن كثير فى الوقف والوصل بالياء ، ووقف أبو عمرو بغير ياء ووصل بالياء . وقرأ نافع بغير ياء فى الوصل والوقف . وأجمع الناس على الاستواء فى نفس المسجد الحرام ، واختلفوا فى مكة ؛ وقد ذكرناه .

الخامسة — «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ يُظْلَمْ» شرط ، وجوابه «نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ» . والإلحاد فى اللغة : الميل ؛ إلا أن الله تعالى بين أن الميل بالظلم هو المراد . واختلف فى الظلم ؛ فروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس « ومن يرد فيه بالإلحاد بظلم » قال : الشرك . وقال عطاء : الشرك والقتل . وقيل : معناه صيد حمامه ، وقطع شجره ، ودخوله غير محرم . وقال ابن عمر : كنا نتحدث أن الإلحاد فيه أن يقول الإنسان : لا والله ! وبلى والله ! وكلا والله ! ولذلك كان له فسطاطان ، أحدهما فى الحِلِّ والآخرفى الحَرَم ؛ فكان إذا أراد الصلاة دخل فسطاط الحَرَم ، وإذا أراد بعض شأنه دخل فسطاط الحِلِّ ، صيانةً للحَرَم عن قولهم كلا والله وبلى والله ، حين عظم الله الذنب فيه . وكذلك كان لعبد الله بن عمرو بن العاص فسطاطان أحدهما

في الحِلِّ والآخِر في الحرم ، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحِلِّ ، وإذا أراد أن يصلي صلي في الحرم ، فقليل له في ذلك فقال : إن كنا لتحدث أن من الإلحاد في الحرم أن نقول كلا والله وبلى والله ، والمعاصي تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات ، فتكون المعصية معصيتين ، إحداهما بنفس المخالفة والثانية بإسقاط حرمة البلد الحرام ؛ وهكذا الأشهر الحرم سواء . وقد تقدّم . وروى أبو داود عن يعلّى بن أمية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه" . وهو قول عمر بن الخطاب . والعموم يأتي على هذا كله .

السادسة — ذهب قوم من أهل التأويل منهم الضحاك وابن زيد إلى أن هذه الآية تدل على أن الإنسان يعاقب على ما ينويه من المعاصي بمكة وإن لم يعملها . وقد روى نحو ذلك عن ابن مسعود وابن عمر قالوا : لو هم رجل يقتل رجل بهذا البيت وهو (بعَدَنُ أَيْبِن) لعذبه الله .

قلت : هذا صحيح ، وقد جاء هذا المعنى في سورة «ن والقلم» مبيّناً ، على ما يأتي بيانه هناك إن شاء الله تعالى .

السابعة — الباء في «يلحاد» زائدة كزيادتها في قوله تعالى : «تَبَّتْ رِجْدُهَا» (١) وعليه حملوا قول الشاعر :

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج (٢) \* نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

أراد : نرجو الفرج . وقال الأعشى :

\* ضمنت برزق عيالنا أرمأحنا \*

أى رزق . وقال آخر (٤) :

ألم يأتيك والأنباء تَمِي \* بما لاقت لبون بن زياد

(١) عدن : مدينة مشهورة واقعة بالقرب من مدخل البحر الأحمر ، وتضاف إلى «أبين» وهو بخلاف عدن .  
(٢) آية ٢٠ سورة المؤمنون . (٣) الفلج (بحريك ثانيه) : موضع لبني جعدة بن قيس بنجد ، وهو في أعلى بلاد قيس (راجع معجم ما استعجم) ركتاب خزاعة الأدب في الشاهد التاسع والثمانين بعد السبعمائة .  
(٤) القائل هو قيس بن زهير العبسي ، شاعر جاهلي . وهو من قصيدة دالية قالها فيما كان شجر بينه وبين الربيع ابن زياد العبسي . (راجع خزاعة الأدب في الشاهد السادس والثلاثين بعد السبعمائة) .

أى ما لاقت؛ والباء زائدة، وهو كثير . وقال الفراء: سمعت أعرابيا وسألته عن شيء فقال: أرجو بذلك، أى أرجو ذلك . وقال الشاعر :

بِوَادِ يَمَانٍ يُنَبِّتُ الشَّتَّ صَدْرُهُ \* وَأَسْفَلُهُ بِالْمَرْخِ وَالشَّهَبَانِ<sup>(١)</sup>

أى المرخ . وهو قول الأخفش، والمعنى عنده : ومن يرد فيه إلحادا بظلم . وقال الكوفيون : دخلت الباء لأن المعنى بأن يلحد، والباء مع أن تدخل وتحذف . ويجوز أن يكون التقدير : ومن يرد الناس فيه بإلحاد . وهذا الإلحاد والظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر؛ فلعظم حرمة المكان توعد الله تعالى على نية السيئة فيه . ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب عليها إلا في مكة . هذا قول ابن مسعود وجماعة من الصحابة وغيرهم ، وقد ذكرناه آنفا .

قوله تعالى : وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْعًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾  
فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) أى واذكر إذ بَوَّأْنَا لإبراهيم؛ يقال : بَوَّأْتُهُ مَثَلًا وَبَوَّأْتُ لَهُ . كما يقال : مَكَّنْتُكَ وَمَكَّنْتُ لَكَ ؛ فاللام في قوله : « لإبراهيم » صلة للتأكيد ؛ كقوله : « رَدِّفْ لَكُمْ<sup>(٢)</sup> » ، وهذا قول الفراء . وقيل : « بَوَّأْنَا لإبراهيم مكان البيت » أى أريناه أصله لَبْيَنِيَّةَ ، وكان قد دَرَسَ بالطوفان وغيره ، فلما جاءت مدة إبراهيم عليه السلام أمره الله ببنيانه ، بقاء إلى موضعه وجعل يطلب أثرا ، فبعث الله ريحا فكشفت عن أساس آدم عليه السلام ، فرتب قواعده عليه ؛ حسبما تقدم بيانه في « البقرة »<sup>(٣)</sup> . وقيل : « بَوَّأْنَا » نازلة منزلة فعل يتعدى باللام ؛ كنحو جعلنا ، أى جعلنا لإبراهيم مكان البيت مَبَوَّأً . وقال الشاعر :

كَمْ مِنْ أَخٍ لِي مَا جَدَ \* بَوَّأْتُهُ بِيَدِي لَحْدًا<sup>(٤)</sup>

(١) الشَّت : شجر طيب الريح مرة الطعم يدبغ به . والمرخ : شجر كثير النار . والشهبان : نبت شائك له ورد لطيف أحمر . (٢) آية ٧٢ سورة النمل . (٣) راجع ج ٢ ص ١٢٢ طبعة ثانية . (٤) البيت من قصيدة لعمر بن معد يكرب الزبيدي .

الثانية - (( أَنْ لَا تُشْرِكْ )) هي مخاطبة لإبراهيم عليه السلام في قول الجمهور . وقرأ عكرمة « أَنْ لَا يُشْرِكْ » بالياء ، على نقل معنى القول الذي قيل له . قال أبو حاتم : ولا بد من نصب الكاف على هذه القراءة ، بمعنى لئلا يشرك . وقيل : إن « أَنْ » مخففة من الثقيلة . وقيل مفسرة . وقيل زائدة ؛ مثل « فلما أت جاء البشير<sup>(١)</sup> » . وفي الآية طعن على من أشرك من قُطَّان البيت ؛ أي هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعده وأتم ، فلم تفوا بل أشركتم . وقالت فرقة : الخطاب من قوله « أَنْ لَا تُشْرِكْ » لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ وأمر بتطهير البيت والأذان بالحج . والجمهور على أن ذلك لإبراهيم ؛ وهو الأصح . وتطهير البيت عام في الكفر والبدع وجميع الأنجاس والدماء . وقيل : غني به التطهير عن الأوثان ؛ كما قال تعالى : « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » ؛ وذلك أن جُرْهُمًا والعلاقة كانت لهم أصنام في محل البيت وحوله قبل أن يبنيه إبراهيم عليه السلام . وقيل : المعنى نزهة بيتي عن أن يعبد فيه صنم . وهذا أمر بإظهار التوحيد فيه . وقد مضى ماله العلماء في تنزيه المسجد الحرام وغيره من المساجد بما فيه كفاية في سورة « براءة »<sup>(٢)</sup> . والقائمون هم المصلون . وذكر تعالى من أركان الصلاة أعظمها ، وهو القيام والركوع والسجود .

قوله تعالى : وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُؤَكِّدُ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (( وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ )) قرأ جمهور الناس « وَأَذِّنْ » بتشديد الذال . وقرأ الحسن بن أبي الحسن وابن محيصة « وَأَذِنْ » بتخفيف الذال ومد الألف . ابن عطية : وتصحف هذا على آبن جنى ، فإنه حكى عنهما « وَأَذِنْ » على أنه فعل ماض ، وأعرب على ذلك بأن جعله عطفًا على « بؤأنا » . والأذان الإعلام ، وقد تقدّم في « براءة »<sup>(٣)</sup> .

(١) آية ٩٦ سورة يوسف . (٢) آية ٣٠ من هذه السورة . (٣) راجع ج ٨ ص ١٠٤  
طبعة أولى أو ثانية . (٤) ج ٨ ص ٦٩

الثانية — لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت ، وقيل له : أذن في الناس بالبحر ، قال : يا رب ! وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذن وعلى الإبلان ، فصعد إبراهيم خليل الله جبل أبي قبيس وصاح : يا أيها الناس ! إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة ويحيركم من عذاب النار ، فحجوا ، فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء : لبيك اللهم لبيك ! فن أجاب يومئذ حج على قدر الإجابة ، إن أجاب مرة فمرة ، وإن أجاب مرتين فمرتين ، وجرت التلبية على ذلك ، قاله ابن عباس وابن جبير . وروى عن أبي الطفيل قال قال لي ابن عباس : أتدري ما كان أصل التلبية ؟ قلت لا ! قال : لما أمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالبحر خفضت الجبال رؤوسها ورفعت له القرى ، فنادى في الناس بالبحر فأجابه كل شيء : لبيك اللهم لبيك . وقيل : إن الخطاب لإبراهيم عليه السلام تم عند قوله « السجود » ، ثم خاطب الله عز وجل محمدا عليه الصلاة والسلام فقال « وأذن في الناس بالبحر » ، أي أعلمهم أن عليهم الحج . وقول ثالث — إن الخطاب من قوله « أن لا تشرك » مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم . وهذا قول أهل النظر ؛ لأن القرآن أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، فكل ما فيه من المخاطبة فهي له إلا أن يدل دليل قاطع على غير ذلك . وهاهنا دليل آخر يدل على أن المخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو « أن لا تشرك بي » بالتاء ، وهذا مخاطبة لمشاهد ، وإبراهيم عليه السلام غائب ، فالمعنى على هذا : وإذ يؤنا لإبراهيم مكان البيت فجعلنا لك الدلائل على توحيد الله تعالى وعلى أن إبراهيم كان يعبد الله وحده . وقرأ جمهور الناس « بالبحر » بفتح الحاء . وقرأ ابن أبي إسحاق في كل القرآن بكسرها . وقيل : إن نداء إبراهيم من جملة ما أمر به من شرائع الدين . والله أعلم .

الثالثة — قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا رِجَالُ وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ) وعده إجابة الناس إلى حج البيت ما بين راجل وراكب ، وإنما قال « يا أيها رِجَالُ » لأنه أجاب نداءه ، وفيه تشریف إبراهيم . ابن عطية : « رجالا » جمع راجل مثل تاجر وتجار ، وصاحب وصحاب . وقيل : الرجال

جمع رَجُلٌ ، والرَّجُل جمع راجل ؛ مثل تجار وتجار وتاجر ، وصحاب وصحب وصاحب . وقد يقال في الجمع : رُجَالٌ ، بالتشديد ؛ مثل كافر وكفار . وقرأ ابن أبي إسحاق وعكرمة « رُجَالًا » بضم الراء وتخفيف الجيم ، وهو قليل في أبنية الجمع ، ورويت عن مجاهد . وقرأ مجاهد « رُجَالِي » على وزن فُعَالِي ؛ فهو مثل كسالي . قال النحاس : في جمع راجل خمسة أوجه ، رُجَالٌ مثل رُكَّاب ، وهو الذي روى عن عكرمة ، ورجال مثل قيام ، ورجلة ، ورجل ، ورجالة . والذي روى عن مجاهد رُجَالًا غير معروف ، والأشبه به أن يكون غير منون مثل كسالي وسكاري ، ولو نُونَ لكان على فُعَالٍ ، وفُعَالٌ في الجمع قليل . وقدم الرجال على الرُّكبان في الذكر لزيادة تعيهم في المشي : ﴿ وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ ﴾ لأن معنى « ضامر » معنى ضواصر . قال الفراء : ويجوز « يَأْتِي » على اللفظ . والضامر : البعير المهزول الذي أتعبه السفر ؛ يقال : ضَمَرَ يَضْمُرُ ضُمُورًا ؛ فوصفها الله تعالى بالمسأل الذي انتهت عليه إلى مكة . وذكر سبب الضمور فقال : « يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » أي أترفيها طول السفر . ورد الضمير إلى الإبل تكرمه لها لقصدتها الحج مع أربابها ؛ كما قال : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا » في خيل الجهاد تكرمه لها حين سعت في سبيل الله .

الرابعة — قال بعضهم : إنما قال « رجالا » لأن الغالب خروج الرجال إلى الحج دون الإناث ؛ فقله « رجالا » من قولك : هذا رجل ؛ وهذا فيه بعد ؛ لقله « وعلى كل ضامر » يعني الركبان ، فدخل فيه الرجال والنساء . ولما قال تعالى « رجالا » وبدأ بهم دل ذلك على أن حج الراجل أفضل من حج الراكب . قال ابن عباس : ما آسى على شيء فاتني إلا أن لا أكون حججتُ ماشيا ، فإنني سمعت الله عز وجل يقول « يأتوك رجالا » . وقال ابن أبي نجيح : حج إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ماشيين . وقرأ أصحاب ابن مسعود « يأتون » وهي قراءة ابن أبي عبلة والضحاك ، والضمير للناس .

الخامسة — لا خلاف في جواز الركوب والمشى ، واختلفوا في الأفضل منهما ؛ فذهب مالك والشافعي في آخريْن إلى أن الركوب أفضل ، اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكثرة



النفقة ولتعظيم شعائر الحج بأهبة الركوب . وذهب غيرهم إلى أن المشى أفضل لما فيه من المشقة على النفس ، ولحديث أبي سعيد قال : حج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة ، وقال : «<sup>(١)</sup> اربطوا أوساطكم بأزركم » ومشى خلط الهرولة ؛ خرج ابن ماجه في سننه . ولا خلاف في أن الركوب عند مالك في المناسك كلها أفضل ؛ للاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم .

السادسة — استدلل بعض العلماء بسقوط ذكر البحر من هذه الآية على أن فرض الحج بالبحر ساقط . قال مالك في المَوَازِيَةِ : لا أسمع للبحر ذكرا ، وهذا تأنس ، لا أنه يلزم من سقوط ذكره سقوط الفرض فيه ؛ وذلك أن مكة ليست في ضفة بحر فيأتيها الناس في السفن ، ولا بد لمن ركب البحر أن يصير في إتيان مكة إما راجلا وإما على ضامر ، فإنما ذكرت حالنا الوصول ؛ وإسقاط فرض الحج بمجرد البحر ليس بالكثير ولا بالقوى . فأما إذا اقترن به عدو وخوف أو هول شديد أو مرض يلحق شخصا ، فإلك والشافعي وجمهور الناس على سقوط الوجوب بهذه الأعذار ، وأنه ليس بسبيل استطاع . قال ابن عطية : وذكر صاحب الاستظهار في هذا المعنى كلاما ، ظاهره أن الوجوب لا يسقط بشيء من هذه الأعذار ؛ وهذا ضعيف .

قلت : وأضعف من ضعيف ، وقد مضى في « البقرة » بيانه . والفج : الطريق الواسعة ، والجمع فجاج . وقد مضى في « الأنبياء »<sup>(٢)</sup> . والعميق معناه البعيد . وقراءة الجماعة « يأتين » . وقرأ أصحاب عبد الله « يأتون » وهذا للركبان و « يأتين » للجمل ؛ كأنه قال : وعلى لابل ضامرة يأتين ( مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ) أى بعيد ؛ ومنه بئر عميقة أى بعيدة القعر ؛ ومنه :

\* وقائم الأعماق خاوى المخترق<sup>(٣)</sup> \*

(١) خلط الهرولة ( بالكسر ) أى شيئا مخلوطا بالهرولة ، بأن يمشى حينا ويهرول حينا أو معتدلا .

(٢) راجع ج ١١ ص ٢٨٥ (٣) هذا أول أرجوزة من أرجوزة رثبة بن العجاج ، وبعده :

\* مشبه الأعلام لماع الخلف \*

السابعة — واختلفوا في الواصل إلى البيت ، هل يرفع يديه عند رؤيته أم لا ؛ فروى أبو داود قال : سئل جابر بن عبد الله عن الرجل يرى البيت ويرفع يديه فقال : ما كنت أرى أن أحدا يفعل هذا إلا اليهود ، وقد حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نكن نفعله . وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” ترفع الأيدي في سبع مواطن افتتاح الصلاة واستقبال البيت والصفاء والمروة والموقفين والجمرتين “ . وإلى حديث ابن عباس هذا ذهب الثوري وابن المبارك وأحمد وإسحاق وضعفوا حديث جابر ؛ لأن مهاجرا المكي راوية مجهول . وكان ابن عمر يرفع يديه عند رؤية البيت . وعن ابن عباس مثله .

قوله تعالى : **لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ ۖ فَلْيَأْكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ** ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾  
فيه ثلاث وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : **(لِيَشْهَدُوا)** أى أذن بالحلج يأتوك رجالا وربكنا ليشهدوا ؛ أى ليحضروا . والشهود الحضور . **(مَنَافِعَ لَهُمْ)** أى المناسك ؛ كمرفات والمشعر الحرام . وقيل المغفرة . وقيل التجارة . وقيل هو عموم ؛ أى ليحضروا منافع لهم ، أى ما يرضى الله تعالى من أصر الدنيا والآخرة ؛ قاله مجاهد وعطاء واختاره ابن العربي ؛ فإنه يجمع ذلك كله من نسك وتجارة ومغفرة ومنفعة دنيا وأخرى . ولا خلاف فى أن المراد بقوله : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » <sup>(١)</sup> التجارة .

الثانية — **(وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ)** قد مضى فى « البقرة » الكلام فى الأيام المعلومات والمعدودات <sup>(٢)</sup> . والمراد بذكر اسم الله ذكر التسمية عند الذبح والنحر ؛ مثل

قولك : باسم الله والله أكبر، اللهم منك ولك . ومثل قولك عند الذبح « إن صَلَاتِي ونَسِكَي<sup>(١)</sup> » الآية . وكان الكفار يذبحون على أسماء أصنامهم ، فبين الرب أن الواجب الذبح على اسم الله ؛ وقد مضى في « الأنعام<sup>(٢)</sup> » .

الثالثة — وأختلف العلماء في وقت الذبح يوم النحر؛ فقال مالك رضي الله عنه : بعد صلاة الإمام وذبحه ؛ إلا أن يؤخر تأخيرا يتعدى فيه فيسقط الاقتداء به . وراعى أبو حنيفة الفراغ من الصلاة دون ذبح . والشافعي دخول وقت الصلاة ومقدار ما توقع فيه مع الخطبتين ؛ فاعتبر الوقت دون الصلاة . هذه رواية المُرْزِيّ عنه ، وهو قول الطبري . وذكر الربيع عن البُؤَيْطِيِّ قال قال الشافعي : ولا يذبح أحد حتى يذبح الإمام إلا أن يكون ممن لا يذبح ، فإذا صلى وفرغ من الخطبة حلّ الذبح . وهذا كقول مالك . وقال أحمد : إذا انصرف الإمام فاذبح . وهو قول إبراهيم . وأصح هذه الأقوال قول مالك ؛ لحديث جابر بن عبد الله قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر بالمدينة ، فتقدم رجال فنحروا وظنوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نحر ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم من كان نحر أن يعيد بنحر آخر ، ولا ينحروا حتى ينحر النبي صلى الله عليه وسلم . نخره مسلم والترمذي وقال : وفي الباب عن جابر وجندب وأنس وعويمر بن أشقر وآبن عمر وأبي زيد الأنصاري ، وهذا حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم ألا يضحى بالمصر حتى يصلي الإمام . وقد احتج أبو حنيفة بحديث البراء ، وفيه : ” ومن ذبح بعد الصلاة فقد تم نسكه وأصاب سنة المسلمين ” . نخره مسلم أيضا . فعلق الذبح على الصلاة ولم يذكر الذبح ، وحديث جابر يقيده . وكذلك حديث البراء أيضا ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أول ما نبدا به في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ” الحديث . وقال أبو عمر بن عبد البر : لا أعلم خلافا بين العلماء أن من ذبح قبل الصلاة وكان من أهل المصر أنه غير مُضَحَّح ؛ لقوله عليه السلام : ” من ذبح قبل الصلاة فلك شاة لحيم ” .

الرابعة — وأما أهل البوادي ومن لا إمام له فمشهور مذهب مالك يتحزى وقت ذبح الإمام، أو أقرب الأئمة إليه . وقال ربيعة وعطاء فيمن لا إمام له : إن ذبح قبل طلوع الشمس لم يحزه، ويجزیه إن ذبح بعده . وقال أهل الرأي : يجزيهم من بعد الفجر . وهو قول ابن المبارك، ذكره عنه الترمذی . وتمسكوا بقوله تعالى : « وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ » ، فأضاف النحر إلى اليوم . وهل اليوم من طلوع الفجر أو من طلوع الشمس ، قولان . ولا خلاف أنه لا يجزى ذبح الأضحية قبل طلوع الفجر من يوم النحر .

الخامسة — واختلفوا كم أيام النحر؟ فقال مالك : ثلاثة ، يوم النحر ويومان بعده . وبه قال أبو حنيفة والثوري وأحمد بن حنبل ، وروى ذلك عن أبي هريرة وأنس بن مالك من غير اختلاف عنهما . وقال الشافعي : أربعة ، يوم النحر وثلاثة بعده . وبه قال الأوزاعي ، وروى ذلك عن علي رضي الله عنه وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم ، وروى عنهم أيضا مثل قول مالك وأحمد . وقيل : هو يوم النحر خاصة وهو العاشر من ذى الحجة ، وروى عن ابن سيرين . وعن سعيد بن جبيرة وجابر بن زيد أنهما قالوا : النحر في الأمصار يوم واحد وفي منى ثلاثة أيام . وعن الحسن البصري في ذلك ثلاث روايات : إحداها كما قال مالك ، والثانية كما قال الشافعي ، والثالثة إلى آخر يوم من ذى الحجة ، فإذا أهل هلال المحرم فلا أضحية .

قلت : وهو قول سليمان بن يسار وأبي سلمة بن عبد الرحمن ، ورويا حديثا مرسلين مرفوعا نرجه الدارقطني : الضحايا إلى هلال ذى الحجة ، ولم يصح ، ودليلنا قوله تعالى : « فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ » الآية ، وهذا جمع قلة ، لكن المتيقن منه الثلاثة ، وما بعد الثلاثة غير متيقن فلا يعمل به . قال أبو عمر بن عبد البر : أجمع العلماء على أن يوم النحر يوم أضحية ، وأجمعوا أن لا أضحية بعد انسلاخ ذى الحجة ، ولا يصح عندي في هذه إلا قولان : أحدهما — قول مالك والكوفيين . والآخر — قول الشافعي والشاميين ، وهذان القولان مرويان

عن الصحابة فلا معنى للاشتغال بما خالفهما ؛ لأن ما خالفهما لا أصل له فى السنة ولا فى قول الصحابة ، وما خرج عن هذين فتروك لهما . وقد روى عن قتادة قول سادس ، وهو أن الأضحية يوم النحر وستة أيام بعده ؛ وهذا أيضا خارج عن قول الصحابة فلا معنى له .

السادسة — واختلفوا فى ليلالى النحر هل تدخل مع الأيام فيجوز فيها الذبح أولا ؛ فروى عن مالك فى المشهور أنها لا تدخل فلا يجوز الذبح بالليل . وعليه جمهور أصحاب الرأى ؛ لقوله تعالى : « وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ » فَذَكَرَ الْأَيَّامَ ، وَذَكَرَ الْأَيَّامَ دليل على أن الذبح فى الليل لا يجوز . وقال أبو حنيفة والشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور : الليلالى داخله فى الأيام ويجزى الذبح فيها . وروى عن مالك وأشهب نحوه ، ولأشهب تفريق بين الهدى والضحية ، فأجاز الهدى ليلا ولم يجز الضحية ليلا .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ ﴾ أى على ذبح ما رزقهم . ﴿ من بهيمة الأنعام ﴾ والأنعام هنا الإبل والبقر والغنم . وبهيمة الأنعام هى الأنعام ؛ فهو كقولك صلاة الأولى ، ومسجد الجامع .

الثامنة — ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ أمرٌ معناه الندب عند الجمهور . ويستحب للرجل أن يأكل من هديه وأضحيتيه وأن يتصدق بالأكثر ، مع تجوزهم الصدقة بالكل وأكل الكل . وشدت طائفة فأوجبت الأكل والإطعام بظاهر الآية ، ولقوله عليه السلام : ” فكلوا وادنروا وتصدقوا “ . قال اليكنا : قوله تعالى « فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا » يدل على أنه لا يجوز بيع جميعه ولا التصدق بجميعه .

التاسعة — دماء الكفارات لا يأكل منها أصحابها . ومشهور مذهب مالك رضى الله عنه أنه لا يأكل من ثلاث : جزاء الصيد ، ونذر المساكين وفدية الأذى ، ويأكل مما سوى ذلك إذا بلغ محله ، واجبا كان أو تطوعا . ووافقه على ذلك جماعة من السلف وفقهاء الأمصار . العاشرة . فإن أكل مما منع منه فهل يغرم قدر ما أكل أو يغرم هديا كاملا ؛ قولان فى مذهبنا ، وبالأول قال ابن الماجشون . قال ابن العربى : وهو الحق ، لا شىء عليه غيره .

وكذلك لو نذر هدياً للمساكين فإكل منه بعد أن بلغ محله لا يغرم إلا ما أكل — خلافاً للبدونة — لأن النحر قد وقع، والتعدى إنما هو على اللحم، فيغرم قدر ما تعدى فيه .  
 قوله تعالى : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ يدل على وجوب إخراج النذر إن كان دماً أو هدياً أو غيره، ويدل ذلك على أن النذر لا يجوز أن يأكل منه وفاء بالنذر، وكذلك جزاء الصيد وفدية الأذى ؛ لأن المطلوب أن يأتي به كاملاً من غير نقص لحم ولا غيره، فإن أكل من ذلك كان عليه هديٌ كامل . والله أعلم .

الحادية عشرة — هل يغرم قيمة اللحم أو يغرم طعاماً ؛ ففي كتاب محمد عن عبد الملك أنه يغرم طعاماً . والأول أصح ؛ لأن الطعام إنما هو في مقابلة الهدى كله عند تمرره عبادة، وليس حكم التعدى حكم العبادة .

الثانية عشرة — فإن عطب من هذا الهدى المضمون الذي هو جزاء الصيد وفدية الأذى ونذر المساكين شيء قبل محله أكل منه صاحبه وأطعم منه الأغنياء والفقراء ومن أحب، ولا يبيع من لحمه ولا جلده ولا من قلائده شيئاً . قال إسماعيل بن إسحاق : لأن الهدى المضمون إذا عطب قبل أن يبلغ محله كان عليه بدله، ولذلك جاز أن يأكل منه صاحبه ويطعم . فإذا عطب الهدى التطوع قبل أن يبلغ محله لم يجز أن يأكل منه ولا يطعم ؛ لأنه لما لم يكن عليه بدله خيف أن يفعل ذلك بالهدى وينحر من غير أن يعطب، فأحتبط على الناس، وبذلك مضى العمل . وروى أبو داود عن ناجية الأسلمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معه بهدي وقال : ” إن عطب منها شيء فأنحره ثم أصبغ نعله في دمه ثم خل بينه وبين الناس “ . وبهذا الحديث قال مالك والشافعي في أحد قوليه، وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأصحاب الرأي ومن أتبعهم في الهدى التطوع : لا يأكل منها سائقها شيئاً، ويخلى بينها وبين الناس يأكلونها . وفي صحيح مسلم : ” ولا تأكل منها أنت ولا أحد من أهل رفقك “ . وبظاهر هذا النهي قال ابن عباس والشافعي في قوله الآخر، واختاره ابن المنذر، فقالا : لا يأكل منها ولا أحد من أهل رفقته . قال أبو عمر : قوله عليه السلام ” ولا يأكل منها أحد ولا أحد من أهل رفقك “ لا يوجد إلا في حديث ابن عباس . وليس ذلك

في حديث هشام بن عروة عن أبيه عن ناجية . وهو عندنا أصح من حديث ابن عباس ، وعليه العمل عند الفقهاء . ويدخل في قوله عليه السلام : ” خَلَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّاسِ “ أَهْلُ رَفَقَتِهِ وَغَيْرُهُمْ . وقال الشافعي وأبو ثور : ما كان من الهدى أصله واجبا فلا يأكل منه ، وما كان تطوعا ونسكا أكل منه وأهدى وأذنر وتصدق . والمتعة والقران عنده نسك . ونحوه مذهب الأوزاعي . وقال أبو حنيفة وأصحابه : يأكل من هدى المتعة والتطوع ، ولا يأكل مما سوى ذلك مما وجب بحكم الإحرام . وحكى عن مالك : لا يأكل من دم الفساد . وعلى قياس هذا لا يأكل من دم الجبر ، كقول الشافعي والأوزاعي . تمسك مالك بأن جزاء الصيد جعله الله للمساكين بقوله تعالى : « أَوْ كِفَارَةً طَعَامُ مَسَاكِينَ <sup>(١)</sup> » . وقال في فدية الأذى : « فِدْيَةٌ <sup>(٢)</sup> مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نَسْكِ » . وقال صلى الله عليه وسلم لكعب بن عُجْجَرَة : ” أَطْعَمَ سِتَّةَ مَسَاكِينَ مُدِّينَ لِكُلِّ مَسْكِينٍ أَوْ صُمُّ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ أَنْتُكَ شَاةٌ “ . ونذر المساكين مصرح به ، وأما غير ذلك من الهدايا فهو باق على أصل قوله : « وَالْبُذْنُ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ — إِلَى قَوْلِهِ — فَكُلُوا مِنْهَا » . وقد أكل النبي صلى الله عليه وسلم وعلى رضي الله عنه من الهدى الذى جاء به وشربا من مرقه ، وكان عليه السلام قارنا في أصح الأقوال والروايات ، فكان هديه على هذا واجبا ، فما تعلق به أبو حنيفة غير صحيح . والله أعلم .

وإنما أذن الله سبحانه من الأكل من الهدايا لأجل أن العرب كانت لا ترى أن تأكل من نسكها ، فأمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بخالفهم ، فلا جرم كذلك شرع وبلغ ، وكذلك فعل حين أهدى وأحرم صلى الله عليه وسلم .

الثالثة عشرة — ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ قال بعض العلماء : قوله تعالى « فَكُلُوا مِنْهَا » ناسخ لفعلمهم ؛ لأنهم كانوا يحترمون لحوم الضحايا على أنفسهم ولا يأكلون منها — كما قلناه في الهدايا — فنسخ الله ذلك بقوله : « فَكُلُوا مِنْهَا » ، وبقول النبي صلى الله عليه وسلم : ” مَنْ ضَحَّى فَلْيَأْكُلْ مِنْ أَضْحِيَّتِهِ “ ولأنه عليه السلام أكل من أضحيته وهديه . وقال الزهري : من السنة أن تأكل أو لا من الكبد .

(٢) آية ١٩٦ سورة البقرة .

(١) آية ٩٥ سورة المائدة .

الرابعة عشرة — ذهب أكثر العلماء إلى أنه يستحب أن يتصدق بالثلث ويطعم الثلث ويأكل هو وأهله الثلث . وقال ابن القاسم عن مالك : ليس عندنا في الضحايا قسم معلوم موصوف . قال مالك في حديثه : وبلغني عن ابن مسعود ، وليس عليه العمل . روى الصحيح وأبو داود قال : ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة ثم قال : ” يا ثوبان ، أصلح لحم هذه الشاة ” قال : فما زلت أطعمه منها حتى قدم المدينة . وهذا نص في الفرض . واختلف قول الشافعي ، فمرة قال : يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله تعالى : « فاكلوا منها وأطعموا الباس الفقير » فذكر شخصين . وقال مرة : يأكل ثلثا ويهدي ثلثا ويطعم ثلثا ؛ لقوله تعالى : « فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ » فذكر ثلاثة .

الخامسة عشرة — المسافر يخاطب بالأضحية كما يخاطب بها الحاضر ؛ إذ الأصل عموم الخطاب بها ، وهو قول كافة العلماء . وخالف في ذلك أبو حنيفة والنخعي ، وروى عن علي ؛ والحديث حجة عليهم . واستثنى مالك من المسافرين الحاج بمنى ، فلم ير عليه أضحية ؛ وبه قال النخعي . وروى ذلك عن الخليفة أبي بكر وعمر وجماعة من السلف رضي الله عنهم ؛ لأن الحاج إنما هو مخاطب في الأصل بالهدي ، فإذا أراد أن يضحي جعله هديا ، والناس غير الحاج إنما أمروا بالأضحية ليتشبهوا بأهل منى فيحصل لهم حظ من أجرهم .

السادسة عشرة — اختلف العلماء في الأدخار على أربعة أقوال . روى عن علي وابن عمر رضي الله عنهما من وجه صحيح أنه لا يتذر من الضحايا بعد ثلاث . ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وسأني . وقالت جماعة : ما روى من النهي عن الأدخار منسوخ ؛ فيتذر إلى أي وقت أحب . وبه قال أبو سعيد الخدري وبريدة الأسلمي . وقالت فرقة : يجوز الأكل منها مطلقا . وقالت طائفة : إن كانت بالناس حاجة إليها فلا يتذر ؛ لأن النهي إنما كان لعله وهي قوله عليه السلام : ” إنما نهيتكم من أجل الدافة التي دفت ”<sup>(١)</sup> ولما ارتفعت ارتفع المنع المتقدم لارتفاع موجب ، لا لأنه منسوخ . وتنشأ هنا مسألة أصولية وهي :

(١) الدافة : القوم يسرون جماعة سيرا ليس بالشديد . والدافة : قوم من الأعراب يريدون مصر ؛ يريد أنهم قوم قدموا المدينة عند الأضحية ، فنهاهم عن ادخار لحوم الأضاحي ليفرقوها ويتصدقوا بها فينتفع أولئك القادمون بها . (ابن الأثير) .



السابعة عشرة — وهى الفرق بين رفع الحكم بالنسخ ورفعته لارتفاع علته . اعلم أن المرفوع بالنسخ لا يُحكم به أبداً ، والمرفوع لارتفاع علته يعود الحكم لعود العلة ؛ فلو قدم على أهل بلدة ناس محتاجون فى زمان الأصحى ؛ ولم يكن عند أهل ذلك البلد سعة يستدون بها فاقهم إلا الضحايا لتعين عليهم ألا يتخروها فوق ثلاث كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم .

الثامنة عشرة — الأحاديث الواردة فى هذا الباب بالمنع والإباحة صحاح ثابتة . وقد جاء المنع والإباحة معاً ؛ كما هو منصوص فى حديث عائشة وسلمة بن الأكوع وأبى سعيد الخدرى رواها الصحيح . وروى الصحيح عن أبى عبيد مولى ابن أزهري أنه شهد العيد مع عمر بن الخطاب قال : ثم صليت العيد مع على بن أبى طالب رضى الله عنه ؛ قال : فصلّى لنا قبل الخطبة ثم خطب الناس فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهاكم أن تأكلوا لحوم نسككم فوق ثلاث ليالٍ فلا تأكلوها . وروى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى أن تؤكل لحوم الأضاحى فوق ثلاث . قال سالم : فكان ابن عمر لا يأكل لحوم الأضاحى فوق ثلاث . وروى أبو داود عن نيسة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إنا كنا نهيناكم عن لحومها فوق ثلاث لكى تسعكم جاء الله بالسعة فكلوا وادخروا واتجروا ألا إن هذه الأيام أيام أكل وشرب وذكر لله عز وجل “ . قال أبو جعفر النحاس : وهذا القول أحسن ما قيل فى هذا حتى تتفق الأحاديث ولا تتضاد ، ويكون قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب وعثمان محصور ؛ لأن الناس كانوا فى شدة محتاجين ، ففعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمت الداقة . والدليل على هذا ما حدثنا إبراهيم بن شريك قال : حدثنا أحمد قال حدثنا ليث قال حدثنى الحارث بن يعقوب عن يزيد بن أبى يزيد عن امرأته أنها سألت عائشة رضى الله عنها عن لحوم الأضاحى فقالت : قدم علينا على بن أبى طالب من سفر فقدمنا إليه منه ، فأبى أن يأكل حتى يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله فقال : ” كُلْ من ذى الحجة إلى ذى الحجة “ . وقال الشافعى : من قال بالنهى عن الأذخار بعد ثلاث لم يسمع الرخصة . ومن قال بالرخصة مطلقاً لم يسمع النهى عن الأذخار . ومن قال بالنهى

والرخصة سمعها جميعا فعمل بمقتضاها . والله أعلم . وسيأتى فى سورة « الكوثر »  
الاختلاف فى وجوب الأضحية وندبيتها وأنها ناسخة لكل ذبح تقدم ، إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الْبَاسِ الْفَقِيرَ ﴾ « الفقير » من صفة  
البأس ، وهو الذى ناله البؤس وشدة الفقر ؛ يقال : بئس يبأس بأسا إذا افتقر ؛ فهو بئس .  
وقد يستعمل فىمن نزلت به نازلة دهر وإن لم يكن فقيرا ؛ ومنه قوله عليه السلام : " لكن  
البأس سعد بن حولة " . ويقال : رجل بئس أى شديد . وقد بؤس يبؤس بأسا إذا اشتد ؛  
ومنه قوله تعالى : « وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ » (٢) أى شديد . وكلما كان التصديق  
بلحم الأضحية أكثر كان الأجر أوفر . وفى القدر الذى يحوز أكله خلاف قد ذكرناه ؛ فقل  
النصف ؛ لقوله : « فَكُلُوا ، وَأَطِيعُوا » وقيل الثلث ؛ لقوله : " أَلَا فَكُلُوا وَادْنُوا  
وَأَتَجِرُوا " أى اطلبوا الأجر بالإطعام . واختلف فى الأكل والإطعام ؛ فقل واجبان . وقيل  
مستحبان . وقيل بالفرق بين الأكل والإطعام ؛ فالأكل مستحب والإطعام واجب ؛ وهو  
قول الشافعى .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ أى ثم ليقضوا بعد نحر الضحايا  
والهدايا ما بقى عليهم من أمر الحج ؛ كالحلق ورمى الجمار وإزالة شعث ونحوه . قال ابن عرفة :  
أى ليزيلوا عنهم أدرانهم . وقال الأزهري : التفت الأخذ من الشارب وقص الأظفار  
وتنف الإبط وحلق العانة ؛ وهذا عند الخروج من الإحرام . وقال النضر بن شميل : التفت  
فى كلام العرب إذهاب الشعث ، وسمعت الأزهري يقول : التفت فى كلام العرب لا يعرف  
إلا من قول ابن عباس وأهل التفسير . وقال الحسن : هو إزالة كشف الإحرام . وقيل :  
التفت مناسك الحج كلها ؛ رواه ابن عمر وابن عباس . قال ابن العربي : لو صح عنهما لكان  
حجة لشرف الصحبة والإحاطة باللغة ، قال : وهذه اللفظة غريبة لم يجد أهل العربية فيها  
شعرا ولا أحاطوا بها خبرا ؛ لكنى تبعت التفت لغة فرأيت أبا عبيدة معمر بن المثنى قال :

(١) رثى له النبي صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة . يعنى فى الأرض التى هاجر منها . (راجع ترجمته فى كتاب  
الاستيعاب) . (٢) آية ١٦٥ سورة الأعراف .

إنه قص الأظفار وأخذ الشارب وكل ما يتحرم على المحرم إلا النكاح . قال : ولم يحى فيه شعرٌ يحتاج به . وقال صاحب العين : التفت هو الرمي والحلق والتقصير والذبح وقص الأظفار والشارب والإبط . وذكر الزجاج والفتراء نحوه ، ولا أراه أخذوه إلا من قول العلماء . وقال قُطْرُب : تفت الرجل إذا كثر وسخه . قال أمية بن أبي الصلت :

حَقُّوا رءوسهم لم يحلقوا تَفْتًا \* ولم يسألوا لهم قَمَلًا وصِئبانا

وما أشار إليه قُطْرُب هو الذى قاله ابن وهب عن مالك، وهو الصحيح فى التفت . وهذه صورة إلقاء التفت لغة، وأما حقيقة الشرعية فإذا نحر الحاج أو المعتَمِر هَذِيه وحلق رأسه وأزال وسخه وتطهر وتقيّ ولبس فقد أزال تفته ووفى نذره ؛ والنذر ما لزم الإنسان والتزمه .

قلت : ما حكاه عن قُطْرُب وذكر من الشعر قد ذكره فى تفسيره الماوردى، وذكر بيتا آخر فقال :

قَضَوْا تَفْتًا وَنَحْبًا<sup>(١)</sup> ثم ساروا \* إلى نَجْدٍ وما انتظروا عليًا

وقال الثعلبى : وأصل التفت فى اللغة الوسخ ؛ تقول العرب للرجل تستقذره : ما أنفذك ؛ أى ما أوسخك وأقذرك . قال أمية بن أبي الصلت :

ساخين آباطهم لم يقذفوا تَفْتًا \* ويتزعوا عنهم قَمَلًا وصِئبانا<sup>(٢)</sup>

الماوردى : قيل لبعض الصلحاء ما المعنى فى شعث المحرم ؟ قال : ليشهد الله تعالى منك الإعراض عن العناية بنفسك فيعلم صدقك فى بذلها لطاعته .

الحادية والعشرون — ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ أمرُوا بوفاء النذر مطلقا إلا ما كان معصية؛ لقوله عليه السلام : ” لا وفاء لنذر فى معصية الله “، وقوله : ” من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه “ . ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ الطواف المذكور فى هذه الآية هو طواف الإفاضة الذى هو من واجبات الحج . قال الطبرى : لا خلاف بين المتأولين فى ذلك .

(١) من معانى النحب : الحاجة والنذر . (٢) ساخين : تاركين .

الثانية والعشرون - للحج ثلاثة أطواف : طواف القدوم ، وطواف الإفاضة ، وطواف الوداع . قال إسماعيل بن إسحاق : طواف القدوم سنة ، وهو ساقط عن المراهق وعن المكّي وعن كل من يُحرم بالحج من مكة . قال : والطواف الواجب الذي لا يسقط بوجه من الوجوه ، وهو طواف الإفاضة الذي يكون بعد عرفة ، قال الله تعالى : « ثم ليقضوا تفهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » . قال : فهذا هو الطواف المفترض في كتاب الله عز وجل ، وهو الذي يحل به الحاج من إحرامه كله . قال الحافظ أبو عمر : ما ذكره إسماعيل في طواف الإفاضة هو قول مالك عند أهل المدينة ، وهي رواية ابن وهب وابن نافع وأشهب عنه . وهو قول جمهور أهل العلم من فقهاء أهل الحجاز والعراق . وقد روى ابن القاسم وابن عبد الحكم عن مالك أن طواف القدوم واجب . وقال ابن القاسم في غير موضع من المدونة ورواه أيضا عن مالك : الطواف الواجب طواف القادم مكة . وقال : من نسي الطواف في حين دخوله مكة أو نسي شوطا منه ، أو نسي السّعي أو شوطا منه حتى رجع إلى بلده ثم ذكره ، فإن لم يكن أصاب النساء رجع إلى مكة حتى يطوف بالبيت ويركع ويسعى بين الصفا والمروة ، ثم يهْدِي . وإن أصاب النساء رجع فطاف وسعى ، ثم اعتمر وأهدى . وهذا كقوله فيمن نسي طواف الإفاضة سواء . فعلى هذه الرواية الطوافان جميعا واجبان ، والسّعي أيضا . وأما طواف الصّدر وهو المسمى بطواف الوداع فروى ابن القاسم وغيره عن مالك فيمن طاف طواف الإفاضة على غير وضوء : أنه يرجع من بلده فيفيض إلا أن يكون تطوّع بعد ذلك . وهذا مما أجمع عليه مالك وأصحابه ، وأنه يجزيه تطوّعه عن الواجب المفترض عليه من طوافه . وكذلك أجمعوا أن من فعل في حجه شيئا تطوّع به من عمل الحج ، وذلك الشيء واجب في الحج قد جاز وقته ، فإن تطوّعه ذلك يصير للواجب لا للتطوّع ؛ بخلاف الصلاة . فإذا كان التطوّع ينوب عن الفرض في الحج كان الطواف لدخول مكة أخرى أن ينوب عن طواف الإفاضة ، إلا ما كان من الطواف بعد رمي جمرة العقبة يوم النحر أو بعده للوداع . ورواية ابن عبد الحكم عن مالك بخلاف ذلك ؛ لأن فيها أن طواف

الدخول مع السعي ينوب عن طواف الإفاضة لمن رجع إلى بلده مع الهدى، كما ينوب طواف الإفاضة مع السعي لمن لم يطف ولم يسع حين دخوله مكة مع الهدى أيضا عن طواف القدوم . ومن قال هذا قال : إنما قيل لطواف الدخول واجب ولطواف الإفاضة واجب لأن بعضهما ينوب عن بعض ، ولأنه قد روى عن مالك أنه يرجع من نسي أحدهما من بلده على ما ذكرنا ، ولأن الله عز وجل لم يفترض على الحاج إلا طوافا واحدا بقوله : «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ» ، وقال في سياق الآية : «وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» والواو عندهم في هذه الآية وغيرها لا توجب رتبة إلا بتوقيف . وأسند الطبري عن عمرو بن أبي سلمة قال : سألت زهيرا عن قوله تعالى : «وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» فقال : هو طواف الوداع . وهذا يدل على أنه واجب ، وهو أحد قولي الشافعي ؛ لأنه عليه السلام رخص للحائض أن تفردون أن تطوفه ، ولا يرخص إلا في الواجب .

الثالثة والعشرون — اختلف المتأولون في وجه صفة البيت العتيق ؛ فقال مجاهد والحسن : العتيق القديم . يقال : سيف عتيق ، وقد عتق أي قدام ؛ وهذا قول يعضده النظر . وفي الصحيح "أنه أول مسجد وضع في الأرض" . وقيل عتيقا لأن الله أعتقه من أن يتسلط عليه جبار بالهوان إلى انقضاء الزمان ؛ قال معناه ابن الزبير ومجاهد . وفي الترمذي عن عبد الله بن الزبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما سُمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار" قال : هذا حديث حسن صحيح ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مراسلا . فإن ذكر ذاكر الحجاج بن يوسف ونصبه المنجنيق على الكعبة حتى كسرهما قيل له : إنما أعتقها عن كفار الجبابرة ؛ لأنهم إذا أتوا بأنفسهم متمردين ولحرمة البيت غير معتقدين ، وقصدوا الكعبة بالسوء فعصمت منهم ولم تنلها أيديهم ، كان ذلك دلالة على أن الله عز وجل صرفهم عنها قسرا . فأما المسلمون الذين اعتقدوا حرمتها فإنهم إن كفوا عنها لم يكن في ذلك من الدلالة على منزلتها عند الله مثل ما يكون منها في كف الأعداء ؛ فقصر الله تعالى هذه الطائفة عن الكف بالنهاي والوعيد ، ولم يتجاوزها إلى الصرف بالإلجاء والاضطرار ،

وجعل الساعة موعدهم ، والساعة أذهى وأمر . وقالت طائفة : سُمِّيَ عتيقا لأنه لم يملك موضعه قط . وقالت فرقة : سُمِّيَ عتيقا لأن الله عز وجل يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب . وقيل : سُمِّيَ عتيقا لأنه أعتق من غرق الطوفان ؛ قاله ابن جبير . وقيل : العتيق الكريم . والعتق الكرم . قال طرفة يصف أذن الفرس :

مُؤَلَّلَتَانِ تَعْرِفُ الْعَتَقَ فِيهِمَا \* كَسَامِعَتِي مَذْعُورَةٌ وَسَطَ رَبِّهِ<sup>(١)</sup>

وعتق الرقيق : الخروج من ذل الرق إلى كرم الحرية . ويحتمل أن يكون العتيق صفة مدح تقتضى جودة الشيء ؛ كما قال عمر : حملت على فرس عتيق ؛ الحديث . والقول الأول أصح للنظر والحديث الصحيح . قال مجاهد : خلق الله البيت قبل الأرض بألفى عام ، وسُمِّيَ عتيقا لهذا ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

فيه ثمانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ يحتمل أن يكون فى موضع رفع بتقدير : فرضكم ذلك ، أو الواجب ذلك . ويحتمل أن يكون فى موضع نصب بتقدير : امتثلوا ذلك ؛ ونحو هذه الإشارة البليغة قول زهير :

هذا وليس كمن يعيا بحُطته \* وسط الندى إذا ما قائل نطقا

(١) المثلل : المحدد . والربرب : القطيع من بقر الوحش ؛ وقيل الظباء . وهذه الرواية فى البيت مخالفة لما فى ديوانه ومعلقته . والرواية فيما :

مؤللتان تعرف العتق فيهما \* كسامعتي شاة بحومل مفرد

ويريد بالشاة هنا الثور الوحشى .

والحرمت المقصودة هنا هى أفعال الحج المشار إليها فى قوله : « ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ » ، ويدخل فى ذلك تعظيم المواضع ؛ قاله ابن زيد وغيره . ويجمع ذلك أن تقول : الحرمت امثال الأمر من فرائضه وسننه . وقوله : « فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ » أى التعظيم خير له عند ربه من التهاون بشيء منها . وقيل : ذلك التعظيم خير من خيراتهِ يُنْفَعُ به ، وليست للتفضيل وإنما هى عِدَّةٌ بخير .

الثانية — قوله تعالى : « وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ » أن تأكلوها ؛ وهى الإبل والبقر والغنم . « إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ » أى فى الكتاب من المحرمات ؛ وهى الميتة والموقوذة وأخواتها . ولهذا اتصال بأمر الحج ؛ فإن فى الحج الذبح ، فبين ما يحل ذبحه وأكل لحمه . وقيل : « إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ » غير مُحَلٍّ الصيد وأنتم حرم .

الثالثة — قوله تعالى : « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » الرجس : الشيء القذر . والوثن : التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها ، وكانت العرب تنصبها وتعبدها . والنصارى تنصب الصليب وتعبدونه فهو كالتمثال أيضا . وقال عديّ ابن حاتم : أتيت النبی صلی الله علیه وسلم وفى عنق صليب من ذهب فقال : ” ألقى هذا الوثن عنك “ أى الصليب ؛ وأصله من وثن الشيء أى أقام فى مقامه . وسمى الصنم وثناً لأنه ينصب ويركز فى مكان فلا يبرح عنه . يريد اجتنبوا عبادة الأوثان ؛ روى عن ابن عباس وابن جُرَيج . وسماها رجسا لأنها سبب الرجز وهو العذاب . وقيل : وصفها بالرجس ، والرجس النجس فهى نجسة حكما . وليست النجاسة وصفا ذاتيا للأعيان وإنما هى وصف شرعى من أحكام الإيمان ، فلا تُزال إلا بالإيمان كما لا تجوز الطهارة إلا بالماء .

الرابعة — « مِنْ » فى قوله : « مِنَ الْأَوْثَانِ » قيل : لأنها لبيان الجنس ، فيقع نهيه عن رجس الأوثان فقط ، ويبقى سائر الأرجاس نهيا فى غير هذا الموضع . ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية ؛ فكأنه نهاهم عن الرجس عاما ثم عين لهم مبدأه الذى منه يلحقهم ؛ إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس . ومن قال إن « مِنْ » للتبويض ، قلب معنى الآية وأفسده .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ والزور : الباطل والكذب .  
وسمى زورا لأنه أميل عن الحق ؛ ومنه « تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ » ، ومدينة زوراء ؛ أى مائلة .  
وكل ما عدا الحق فهو كذب و باطل وزور . وفي الخبر أنه عليه السلام قام خطيبا فقال :  
« عَدَلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ الشَّرْكَ بِاللَّهِ » قالها مرتين أو ثلاثا . يعنى أنها قد جُمعت مع عبادة  
الوثن في النهي عنها .

السادسة — هذه الآية تضمنت الوعيد على الشهادة بالزور ، وينبغى للحاكم إذا عثر  
على الشاهد بالزور أن يمزّره وينادى عليه ليُعرف لثلا يفتّر بشهادته أحد . ويختلف الحكم  
في شهادته إذا تاب ؛ فإن كان من أهل العدالة المشهور بها المبرز فيها لم تقبل ؛ لأنه لا سبيل  
إلى علم حاله في التوبة ؛ إذ لا يستطيع أن يفعل من القربات أكثر مما هو عليه . وإن كان  
دون ذلك فشمّر في العبادة وزادت حاله في التّقى قبل شهادته . وفي الصحيح عن النبي صلى الله  
عليه وسلم أنه قال : « إن من أكبر الكبائر الإِشْرَاقَ بِاللَّهِ وَعَقْوَقَ الْوَالِدِينَ وشهادة الزور وقول  
الزور » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا بجلّس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت .  
السابعة — ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ ﴾ معناه مستقيمين أو مسلمين مائلين إلى الحق . ولفظة  
« حنفاء » من الأضداد تقع على الاستقامة وتقع على الميل . و « حنفاء » نصب على الحال .  
وقيل : « حنفاء » حجاجا ؛ وهذا تخصيص لا حجة معه .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى هو يوم القيامة  
بمنزلة من لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع عن نفسه ضرا ولا عذابا ؛ فهو بمنزلة من خرّ من  
السماء ، فهو لا يقدر أن يدفع عن نفسه . ومعنى ﴿ فَتَخَطَّفُهُ الطَّيْرُ ﴾ أى تقطعه بخالبها .  
وقيل : هذا عند خروج روحه وصعود الملائكة بها إلى سماء الدنيا ، فلا يُفتح لها فيرمى  
بها إلى الأرض ؛ كما في حديث البراء ، وقد ذكرناه في التذكرة . والسجق : البعيد ؛ ومنه  
قوله تعالى : « فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ »<sup>(١)</sup> ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « فَسُحْقًا فَسُحْقًا » .



قوله تعالى : ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾  
لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾  
فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه . قيل : يكون في موضع رفع  
بالابتداء ، أى ذلك أمر الله . ويجوز أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداء محذوف .  
ويجوز أن يكون في موضع نصب ، أى اتَّبِعُوا ذلك .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ الشعائر جمع شعيرة ، وهو كل شيء لله  
تعالى فيه أمر أشعر به وأعلم ؛ ومنه شعار القوم في الحرب ؛ أى علامتهم التي يتعارفون بها . ومنه  
إشعار البدنة وهو الطعن في جانبها الأيمن حتى يسيل الدم فيكون علامة ، فهي تسمى شعيرة بمعنى  
المشعورة . فشعائر الله أعلام دينه لا سيما ما يتعلق بالمناسك . وقال قوم : المراد هنا تسمين البدن  
والاهتمام بأمرها والمغالاة بها ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة . وفيه إشارة لطيفة ، وذلك أن  
أصل شراء البدن ربما يحمل على فعل ما لا بد منه ، فلا يدل على الإخلاص ، فإذا عظمها مع حصول  
الإجزاء بما دونه فلا يظهر له عمل إلا تعظيم الشرع ، وهو من تقوى القلوب . والله أعلم .  
الثالثة — الضمير في « إنها » عائد على الفعلة التي يتضمنها الكلام ، ولو قال فإنه لحاز .  
وقيل إنها راجعة إلى الشعائر ؛ أى فإن تعظيم الشعائر ، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه ،  
فرجعت الكناية إلى الشعائر .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ قرئ « القلوب » بالرفع على أنها فاعلة  
بالمصدر الذي هو « تقوى » وأضاف التقوى إلى القلوب لأن حقيقة التقوى في القلب ؛ ولهذا  
قال عليه الصلاة والسلام في صحيح الحديث : « التقوى ها هنا » وأشار إلى صدره .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ يعنى البدن من الركوب والدَّر والنَّسْل  
والصوف وغير ذلك ، إذا لم يبعثها ربها هدياً ، فإذا بعثها فهو الأجل المسمى ؛ قاله ابن عباس .

فإذا صارت بُدْنًا هَدْيًا فالمنافع فيها أيضا ركوبها عند الحاجة، وشرب لبنها بعد رِيّ فصيلها .  
وفي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة فقال :  
” أركبها “ فقال : إنها بدنة . فقال : ” أركبها “ قال : إنها بدنة . قال : ” أركبها وَيْلَكَ “  
في الثانية أو الثالثة . وروى عن جابر بن عبد الله وسئل عن ركوب الهدى فقال : سمعت  
النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ” أركبها بالمعروف إذا ألحنت إليها حتى تجد ظهراً “ .  
والأجل المسمى على هذا القول نحرها ؛ قاله عطاء بن أبي رباح .

السادسة — ذهب بعض العلماء إلى وجوب ركوب البدنة لقوله عليه الصلاة والسلام :  
” أركبها “ . ومن أخذ بظاهره أحمد وإسحاق وأهل الظاهر . وروى ابن نافع عن مالك :  
لا بأس بركوب البدنة ركوبا غير فادح . والمشهور أنه لا يركبها إلا إن أضطر إليها لحديث  
جابر فإنه مقيّد والمقيّد يقضى على المطلق . ونحو ذلك قال الشافعي وأبو حنيفة . ثم إذا  
ركبها عند الحاجة نزل ؛ قاله إسماعيل القاضي . وهو الذي يدل عليه مذهب مالك ، وهو خلاف  
ما ذكره ابن القاسم أنه لا يلزمه النزول ، وحجته إباحة النبي صلى الله عليه وسلم له الركوب  
بخازله استصحابه . وقوله : ” إذا ألحنت إليها حتى تجد ظهرا “ يدل على صحة ما قاله الإمام  
الشافعي وأبو حنيفة رضي الله عنهما ؛ وما حكاه إسماعيل عن مذهب مالك . وقد جاء صريحا  
أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة وقد جُهد ، فقال : ” أركبها “ . وقال  
أبو حنيفة والشافعي : إن تقصها الركوب المباح فعليه قيمة ذلك ويتصدق به .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ يريد أنها تنتهي إلى البيت ،  
وهو الطواف . فقوله : « مَحَلُّهَا » مأخوذ من إحلال المحرم . والمعنى أن شعائر الحج كلها من  
الوقوف بعرفة ورَمَى الجمار والسعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق . فالبيت على  
هذا التأويل مراد بنفسه ؛ قاله مالك في الموطأ . وقال عطاء : ينتهي إلى مكة . وقال  
الشافعي : إلى الحرم . وهذا بناء على أن الشعائر هي البدن ، ولا وجه لتخصيص الشعائر  
مع عمومها وإلغاء خصوصية ذكر البيت . والله أعلم .

قوله تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ  
مِّنْ بَرِيْمَةٍ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾  
قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ لما ذكر تعالى الذبائح بين أنه لم يُخل منها

أمة ، والأمة القوم المجتمعون على مذهب واحد ؛ أى ولكل جماعة مؤمنة جعلنا منسكا .  
والمنسك الذبح وإراقة الدم ؛ قاله مجاهد . يقال : نَسَكَ إذا ذبح يَنسُكُ نَسْكَ . والذبيحة  
نسيكة ، وجمعها نُسُكٌ ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ » . والنسك أيضا الطاعة . وقال  
الأزهري في قوله تعالى « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا » : إنه يدل على موضع النحر في هذا  
الموضع ، أراد مكان نُسُك . ويقال : مَنْسَكَ وَمَنْسِكَ ، لغتان ، وقرئ بهما . قرأ الكوفيون  
إلا عاصما بكسر السين ، الباقيون بفتحها . وقال الفراء : الْمَنْسَكَ في كلام العرب الموضع  
المعتاد في خير أو شر . وقيل مناسك الحج لترداد الناس إليها من الوقوف بعرفة ورمى الجمار  
والسعى . وقال ابن عرفة في قوله « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا » : أى مذهبا من طاعة الله  
تعالى ؛ يقال : نَسَكَ نُسُكٌ قومه إذا سلك مذهبهم . وقيل : منسكا عيدا ؛ قاله الفراء .  
وقيل حجاً ؛ قاله قتادة . والقول الأول أظهر ؛ لقوله تعالى : ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ  
مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَرِيْمَةٍ الْأَنْعَامِ ﴾ أى على ذبح ما رزقهم . فأمر تعالى عند الذبح بذكره وأن يكون  
الذبح له ؛ لأنه رازق ذلك . ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه :  
فالإله واحد لجميعكم ، فكذلك الأمر في الذبيحة إنما ينبغي أن تخلص له .

قوله تعالى : ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ معناه لحقه ولوجهه وإنعامه آمنوا وأسلموا . ويحتمل أن  
يريد الاستسلام ؛ أى له أطيعوا وأتقادوا .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ الخبت : المتواضع الخاشع من المؤمنين . والخبت  
ما انخفض من الأرض ؛ أى بشرهم بالثواب الجزيل . قال عمرو بن أوس : الخبتون الذين  
لا يظلمون ، وإذا ظلموا لم يَنْصِرُوا . وقال مجاهد فيما روى عنه سفيان عن ابن أبي نجيح :  
المخبتون المطمئنون بأمر الله عز وجل .

(١) آية ١٩٦ سورة البقرة . (٢) مثلة النون ؛ وبضمتين . (٣) الانتصار : الانتقام .

قوله تعالى : الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٥﴾  
فيه مسائلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى خافت وحذرت مخالفته . فوصفهم بالخوف والوجل عند ذكره ، وذلك لقوة يقينهم ومراعاتهم لربهم ، وكأنهم بين يديه ، ووصفهم بالصبر وإقامة الصلاة وإدامتها . وروى أن هذه الآية قوله : « وَبَشِّرِ الْخَاسِرِينَ » نزلت في أبى بكر وعمر وعلى رضوان الله عليهم . وقرأ الجمهور « الصلاة » بالخفض على الإضافة ، وقرأ أبو عمرو « الصلاة » بالنصب على توهم النون ، وأن حذفها للتخفيف لطول الاسم .  
وأشدد سيبويه :

\* الحافظو عورة العشيرة ... \*<sup>(١)</sup>

الثانية — هذه الآية نظير قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » ، وقوله تعالى : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ » . هذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ، لا كما يفعل جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ، ومن النفاق الذى يشبه نفاق الحمير ؛ فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع : إنك لم تبلغ أن تساوى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حال أصحابه فى المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لحلاله ؛ ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفا من الله . وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه ، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقهم ؛ قال الله تعالى : « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ

(١) البيت بتمامه : الحافظو عورة العشيرة لا \* يأتهم من ورائنا نطف

(٢) آية ٢ سورة الأنفال . (٣) آية ٢٣ سورة الزمر .

تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ<sup>(١)</sup> . فهذا وصف حالهم وحكاية مقامهم ؛ فمن كان مُسْتَنًا فَلَيْسَتْ ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالا ؛ والجنون فنون . روى الصحيح عن أنس بن مالك أن الناس سألو النبي صلى الله عليه وسلم حتى أحقوه في المسألة ، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : ” سلوني لا تسألوني عن شيء إلا بيته لكم ما دمت في مقامى هذا “ فلما سمع ذلك القوم أرموا ورهبوا أن يكون بين [يدى] أميرٍ قد حضر . قال أنس : فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فإذا كل إنسان لاف رأسه في ثوبه يبيكى . وذكر الحديث . وقد مضى القول في هذه المسألة بأشبع من هذا في سورة « الأنفال »<sup>(٢)</sup> والحمد لله .

قوله تعالى : **وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍّ ۚ فَإِذَا جِئْتُمْ بِهَا فِكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴿٣٦﴾

فيها عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **( وَالْبُدْنَ )** وقرأ ابن أبي إسحاق « والبُدْن » لغتان ، واحدها بدنة . كما يقال : ثمة ومُمر ومُمر ، وخشبة وخُشب وخُشب . وفي التنزيل « وكان له مُمر » وقرئ « مُمر » لغتان . وسميت بدنة لأنها تبْدُن ، والبُدانة السمن . وقيل : إن هذا الاسم خاص بالإبل . وقيل : البُدْن جمع « بدَن » بفتح الباء والدال . ويقال : بدَن الرجل ( بضم الدال ) إذا سَمِن . وبدَن ( بتشديدها ) إذا كبر وأسن . وفي الحديث ” إني قد بدنت “ أى كبرت وأسنت . وروى ” بدنت “ وليس له معنى ؛ لأنه خلاف صفته صلى الله عليه وسلم ، ومعناه كثرة اللحم . يقال : بدَن الرجل يبْدُن بُدْنًا وبدانة فهو بادن ؛ أى ضخم .

(٢) أى أكثروا عليه . وأحنى في السؤال وألحف بمعنى ألغ .

(١) آية ٨٣ سورة المائدة .

(٤) الزيادة عن صحيح مسلم . (٥) راجع ج ٧ ص ٣٦٦

(٣) ارم الرجل : سكت ، فهو مرَم .

طبعة أول أو ثانية .

الثانية — اختلف العلماء في البُذْن هل تطلق على غير الإبل من البقر أم لا ؛ فقال ابن مسعود وعطاء والشافعي : لا . وقال مالك وأبو حنيفة : نعم . وفائدة الخلاف فيمن نذر بدنة فلم يجد البدنة أو لم يقدر عليها وقدر على البقرة ؛ فهل تجزيه أم لا ؛ فعلى مذهب الشافعي وعطاء لا تجزيه . وعلى مذهب مالك تجزيه . والصحيح ما ذهب إليه الشافعي وعطاء ؛ لقوله عليه السلام في الحديث الصحيح في يوم الجمعة : ” من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة “ الحديث . ففريقه عليه السلام بين البقرة والبدنة يدل على أن البقرة لا يقال عليها بدنة ؛ والله أعلم . وأيضا قوله تعالى : « فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » يدل على ذلك ؛ فإن الوصف خاص بالإبل . والبقر يضيع ويذبح كالغنم ؛ على ما يأتي . ودليلنا أن البدنة مأخوذة من البدانة وهو الضخامة ، والضخامة توجد فيهما جميعا . وأيضا فإن البقرة في التقرب إلى الله تعالى بإراقة الدم بمنزلة الإبل ؛ حتى تجوز البقرة في الضحايا عن سبعة كالإبل . وهذا حجة لأبي حنيفة حيث وافقه الشافعي على ذلك ، وليس ذلك في مذهبنا . وحكى ابن شجرة أنه يقال في الغنم بدنة ، وهو قول شاذ . والبُذْن هي الإبل التي تُهدى إلى الكعبة . والهدى عام في الإبل والبقر والغنم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ نص في أنها بعض الشعائر . وقوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ يريد به المنافع التي تقدم ذكرها . والصواب عمومها في خير الدنيا والآخرة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ صَوَافٍ ﴾ أى أنحروها على أسم الله . و « صَوَافٍ » أى قد صفت قوائمها . والإبل تُحَرِّقُ قِيَامًا معقولة . وأصل هذا الوصف في الخيل ؛ يقال : صَفَنَ الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم ونَحَى سُنْبُكُ الرابعة ؛ والسُنْبُك طرف الحافر . والبعير إذا أرادوا نحره يُعْقِلُ إحدى يديه فيقوم على ثلاث قوائم . وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعري « صَوَافٍ » أى خوالص لله عز وجل لا يشركون به في التسمية على نحرها أحدا . وعن الحسن أيضا « صَوَافٍ » بكسر الفاء وتنوينها مخففة ، وهى بمعنى التي قبلها ، لكن حذفت الياء تخفيفا على غير قياس

و « صَوَافٍ » قراءة الجمهور بفتح الفاء وشدها ، من صَفَّ يَصِفُّ . و واحد صَوَافٍ صَافَةٌ ، و واحد صَوَافِي صَافِيَةٌ . وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو جعفر محمد بن علي « صَوَافِنَ » بالنون جمع صَافِنَةٍ . ولا يكون واحدها صَافِنًا ؛ لأن فاعلاً لا يجمع على فواعل إلا في حروف مخصصة لا يقاس عليها ؛ وهي فارس وفوارس ، وهالك وهوالك ، وخالف وخوالف<sup>(٢)</sup> . والصَافِنَةُ هي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب . ومنه قوله تعالى : « الصَّافِنَاتُ الحَيَّاتُ »<sup>(٣)</sup> . وقال عمرو بن كلثوم :

تركنا الخيلَ عاكفةً عليه \* مقلدةً أعنتها صُفُونًا

ويروى :

تظل جياده نوحًا عليه \* مقلدةً أعنتها صُفُونًا

وقال آخر :

ألف الصُّفُون فما يزال كأنه \* مما يقوم على الثلاث كسيرا

وقال أبو عمرو الجَرَمِيُّ : الصَّافِن عرق في مقدم الرجل ، فإذا ضرب على الفرس

رفع رجله . وقال الأَعَشِيُّ :

وكلُّ كُتَيْتٍ بكسذع السَّحُو \* ق يَرْنُو الفِئَاءَ إذا ما صَفَنَ .

الخامسة — قال ابن وهب : أخبرني ابن أبي ذئب أنه سأل ابن شهاب عن الصَوَافِ

فقال : تقيدها ثم تصفها . وقال لي مالك بن أنس مثله . وكافة العلماء على استحباب ذلك ؛

إلا أبا حنيفة والثوري فإنهما أجازا أن تحرك بركة وقيامًا . وشذَّ عطاء نخالف واستحب

نحرها بركة . والصحيح ما عليه الجمهور ؛ لقوله تعالى : « فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » معناه

سقطت بعد نحرها ؛ ومنه وَجَبَتْ الشمس . وفي صحيح مسلم عن زياد بن جبير أن ابن عمر

أتى على رجل وهو ينحربدنته بركة فقال : أبعثها قائمة مقيدة سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم .

وروى أبو داود عن أبي الزبير عن جابر ، وأخبرني عبد الرحمن بن سابط أن النبي صلى الله

عليه وسلم وأصحابه كانوا ينحرون البدنة معقولة اليسرى قائمة على ما بقي من قوائمها .

(١) « فاعل » الذي لا يجمع على « فواعل » إذا كان وصفاً لمذكر عاقل ؛ أما « صافن » فليس وصفاً لعاقل .

(٢) في شرح الأشموني على ألفية ابن مالك أنها فارس وناكس وهالك وغائب وشاهد . (٣) آية ٣١ سورة ص .

السادسة - قال مالك : فإن ضَعُفَ إنسان أو تخَوَّفَ أن تنفلت بَدَنته فلا أرى بأساً أن ينحرها معقولة . والاختيار أن تُنحر الإبل قائمة غير معقولة ؛ إلا أن يتعذر ذلك فتعقل ولا تُعَرِّقَب إلا أن يخاف أن يضعف عنها ولا يقوى عليها . ونحرها بركة أفضل من أن تعرقب . وكان ابن عمر يأخذ الحربة بيده في عنقوان أيده فينحرها في صدرها وينحرها على سنامها، فلما أسنَّ كان ينحرها بركة لضعفه، ويمسك معه الحربة رجل آخر، وآخر يخطأها. وتضعع البقر والغنم .

السابعة - ولا يجوز النحر قبل الفجر من يوم النحر بإجماع . وكذلك الأضحية لا تجوز قبل الفجر . فإذا طلع الفجر حل النحر بمنى ، وليس عليهم انتظار نحر إمامهم ؛ بخلاف الأضحية في سائر البلاد . والمنحرمين لكل حاج ، ومكة لكل معتمر . ولو نحر الحاج بمكة والمعتمر بمنى لم يخرج واحد منهما ، إن شاء الله تعالى .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ يقال : وجبت الشمس إذا سقطت ، ووجب الحائط إذا سقط . قال قيس بن الخطيم :  
أطاعت بنو عوف أميرا نهاهم \* عن السلم حتى كان أول واجب  
وقال أوس بن حجر :

ألم تكسف الشمس والبدر وال \* كواكب للجبل الواجب<sup>(١)</sup>  
فقوله تعالى : « فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » يريد إذا سقطت على جنوبها ميتة . كنى عن الموت بالسقوط على الجنب كما كنى عن النحر والذبح بقوله تعالى : « فاذكروا اسم الله عليها » .  
والكنايات في أكثر المواضع أبلغ من التصريح . قال الشاعر :

فتركته جزر السباع ينشئه \* ما بين قلة رأسه والمُعصم<sup>(٢)</sup>

(١) هذه رواية البيت كما في ديوانه . وروايته في الأصول :

ألم تكسف الشمس ضوء النهار \* والبدر للجبل الواجب

ويريد بالجبل : فضالة بن كعدة . وهو من قصيدة يرثيها ، وفيها :

لهلك فضالة لا تستوى له \* ففقد ولا خلة الذاهب

(٢) البيت من معلقة عنترة . والجزر : جمع جزرة ، وهي الشاة والناقة تذبذب وتخر .



وقال عنترة : \* وضربت قرني كبشها فتجدلا <sup>(١)</sup> \*

أى سقط مقتولا إلى الجذالة ، وهى الأرض ؛ ومثله كثير . والوجوب للجنب بعد النحر علامة نزع الدم وخروج الروح منها ، وهو وقت الأكل ، أى وقت قرب الأكل ؛ لأنها إنما تبدأ بالسليخ وقطع شئ من الذبيحة ثم يطبخ . ولا تسليخ حتى تبرد لأن ذلك من باب التعذيب ؛ ولهذا قال عمر رضى الله عنه : لا تعجلوا الأنفس أن تزهد .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ أمر معناه الندب . وكل العلماء يستحب أن يأكل الإنسان من هديه ، وفيه أجر ومثال ؛ إذ كان أهل الجاهلية لا يأكلون من هديهم كما تقدم . وقال أبو العباس بن شريح : الأكل والإطعام مستحبان ، وله الاقتصار على أيهما شاء . وقال الشافعى : الأكل مستحب والإطعام واجب ، فإن أطعم جميعها أجزاء وإن أكل جميعها لم يجزه ، وهذا فيما كان تطوعا ؛ فأما واجبات الدماء فلا يجوز أن يأكل منها شيئا حسبما تقدم بيانه .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ قال مجاهد وإبراهيم والطبرى : قوله « وَأَطِيعُوا » أمر بإباحة . و « الْقَانِع » السائل . يقال : قنع الرجل يقنع قنوعا إذا سأل ، بفتح النون فى الماضى وكسرها فى المستقبل ، يقنع قناعة فهو قانع ، إذا تعفف واستغنى ببلغته ولم يسأل ؛ مثل حمد يحمّد ، قناعة وقنعا وقنعانا ؛ قاله الخليل . ومن الأول قول الشماخ :

لَمَّا لَ المرءُ يُصْلِحْهُ فَيُغْنِي \* مَفَاقِرَهُ أَعْفُ من الْقُنُوعِ

وقال ابن السكيت : من العرب من ذكر القنوع بمعنى القناعة ، وهى الرضا والتعفف وترك المسألة . وروى عن أبى رجا أنه قرأ « وَأَطِيعُوا الْقَنِيعَ » ومعنى هذا مخالف للأول .

(١) هذا صدر بيت ، وعجزه كما فى ديوانه :

\* وحلت مهرى وسطها فضاها \*

(٢) هذه اللفظة لم نجد لها فى المعاجم ، على أن فى العبارة ها هنا اضطرابا . والذي فى كتب اللغة أنه يقال : قنع الرجل يقنع (يفتح النون فيها) قنوعا إذا سأل . وقنع يقنع (بكسر النون فى الماضى وقنوعها فى المستقبل) قناعة وقنعا وقنعانا — كما ذكر المؤلف — إذا رضى . راجع معاجم اللغة .

يقال : قَنِعَ الرجل فهو قَنِيعٌ إذا رَضِيَ . وأما المعتَرِّ فهو الذي يُطِيفُ بكِ يَطْلُبُ ما عندك ، سائِلاً كان أو سائِكاً . وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ : ومجاهد وإبراهيم والكأبي والحسن بن أبي الحسن : المعتَرُّ المعتَرَضُ من غير سؤال . قال زهير :

على مُكثِرِيهِم رِزْقٌ من يَعتَرِيهِمُ \* وعند المُقِلِّين السَّاحَةُ والبَذْلُ

وقال مالك : أحسن ما سمعت أن القانع الفقيرُ ، والمعتَرُّ الزائر . وروى عن الحسن أنه قرأ « والمعتَرِّي » ومعناه كعنى المعتَر . يقال : اعتَرَه واعتراه وعَرَّه وعَرَّاه إذا تعرَّضَ لما عنده أو طلبه ؛ ذكره النحاس .

قوله تعالى : لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ<sup>٣٧</sup> وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا ﴾ قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يضربون البيت بدماء البُدن ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فزلت الآية . والنيل لا يتعلق بالبارئ تعالى ، ولكنه عبر عنه تعبيراً مجازياً عن القبول ، المعنى : لن يصل إليه . وقال ابن عباس : لن يصعد إليه . ابن عيسى : لن يقبل لحومها ولا دماءها ، ولكن يصل إليه التقوى منكم ؛ أى ما أريد به وجهه ، فذلك الذى يقبله ويرفع إليه ويسمعه ويُسَبِّحُ عليه ؛ ومنه الحديث ” إنما الأعمال بالنيات “ . والقراءة « لن ينال الله » و « يناله » بالياء فيهما . وعن يعقوب بالتاء فيهما ، نظراً إلى اللغوم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ من سبحانه علينا بتذليلها وتمكيننا من تصرفها وهى أعظم منا أبدانا وأقوى منا أعضاء ، ذلك ليعلم العبد أن الأمور ليست على ما تظهر إلى العبد من التدبير ، وإنما هى بحسب ما يريدّها العزيز القدير ، فيغلب الصغير الكبير ليعلم الخلق أن الغالب هو الله الواحد القهار فوق عباده .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَا تُكْمِلُونَ﴾ ذكر سبحانه ذِكْرَ اسْمِهِ عَلَيْهَا فِي الْآيَةِ قَبْلُهَا فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : « فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا » ، وَذَكَرْنَا التَّكْبِيرَ . وَكَانَ ابْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا إِذَا تَحَرَّهَذِيهِ يَقُولُ : بِاسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ ؛ وَهَذَا مِنْ فَقْهِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : ضَخَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ<sup>(١)</sup> أَقْرَيْنِ . قَالَ : وَرَأَيْتُهُ يَذْبَحُهُمَا بِيَدِهِ ، وَرَأَيْتُهُ وَاضِعًا قَدَمَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا ، وَسَمَّى وَكَبَّرَ . وَقَدْ ائْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذَا ؛ فَقَالَ أَبُو ثَوْرٍ : التَّسْمِيَةُ مَتَعَيْنَةٌ كَالْتَّكْبِيرِ فِي الصَّلَاةِ ؛ وَكَافَّةٌ الْعُلَمَاءُ عَلَى اسْتِحْبَابِ ذَلِكَ . فَلَوْ قَالَ ذَكَرَا آخِرَ فِيهِ اسْمَ مَنْ أَسْمَاءُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَرَادَ بِهِ التَّسْمِيَةَ جَازٍ . وَكَذَلِكَ لَوْ قَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ فَقَطْ ، أَوْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؛ قَالَ ابْنُ حَبِيبٍ . فَلَوْ لَمْ يَرِدِ التَّسْمِيَةُ لَمْ يَحْزَنْ عَنِ التَّسْمِيَةِ وَلَا تَوْكُلُ ؛ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ . وَكَرِهَ كَافَةُ الْعُلَمَاءُ مِنْ أَصْحَابِنَا وَغَيْرِهِمُ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ التَّسْمِيَةِ فِي الذَّبْحِ أَوْ ذِكْرِهِ ، وَقَالُوا : لَا يَذْكُرُ هُنَا إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ . وَأَجَازَ الشَّافِعِيُّ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ الذَّبْحِ .

الرابعة - ذهب الجمهور إلى أن قول المضحَّى : اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنِّي ؛ جَائِزٌ . وَكَرِهَ ذَلِكَ أَبُو حَنِيفَةَ ؛ وَالْحُجَّةُ عَلَيْهِ مَا رَوَاهُ الصَّحِيحُ عَنْ عَاشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَفِيهِ : ثُمَّ قَالَ « بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَمِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ » ثُمَّ ضَخَّى بِهِ . وَاسْتَحَبَّ بَعْضُهُمْ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ بِنَصِّ الْآيَةِ « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » . وَكَرِهَ مَالِكٌ قَوْلَهُمْ : اللَّهُمَّ مِنْكَ وَإِلَيْكَ ، وَقَالَ : هَذِهِ بَدْعَةٌ . وَأَجَازَ ذَلِكَ ابْنُ حَبِيبٍ مِنْ أَصْحَابِنَا وَالْحَسَنُ ؛ وَالْحُجَّةُ لَهَا مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : ذَبَحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الذَّبْحِ كَبْشَيْنِ أَقْرَيْنِ مَوْجُوعَيْنِ<sup>(٢)</sup> أَمْلَحَيْنِ ، فَلَمَّا وَجَّهَهُمَا قَالَ : « إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا - وَقَرَأَ إِلَى قَوْلِهِ : وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ - اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَأَمْنَهُ بِاسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ » ثُمَّ ذَبَحَ . فَلَعَلَّ مَالِكًا لَمْ يَبْلُغْهُ هَذَا الْخَبَرُ ، أَوْ لَمْ يَصِحَّ عِنْدَهُ ، أَوْ رَأَى الْعَمَلَ يَخَالِفُهُ . وَعَلَى هَذَا يَدُلُّ قَوْلُهُ : إِنَّهُ بَدْعَةٌ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(١) الأملح : الذي بياضه أكثر من سواده . وقيل : النقي البياض . (٢) الصنّاح (بكسر الصاد) : الجوانب ؛ المراد الجانب الواحد من وجه الأضحية ، وإنما تثنى إشارة إلى أنه فعل ذلك في كل منهما . (٣) آية ١٢٧ سورة البقرة . (٤) أي خصيتين .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ روى أنها نزلت في الخلفاء الأربعة ؛ حسبما تقدم في الآية التي قبلها . فأما ظاهر اللفظ فيقتضي العموم في كل محسن .

قوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ** ﴿٣٨﴾

روى أنها نزلت بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة ؛ أراد بعض مؤمنى مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار ويقتال ويغدر ويحتال ؛ فنزلت هذه الآية إلى قوله : « كفور » . فوعدها سبحانه بالمدافعة ونهى أفصح نهى عن الخيانة والغدر . وقد مضى في « الأنفال » التشديد في الغدر ؛ وأنه « يُنْصَبُ لِلْغَادِرِ لُؤَاءُ عُنْدَ أَسْتِهِ بِقَدَرِ غَدْرَتِهِ يَقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ » . وقيل : المعنى يدفع عن المؤمنين بأن يديم توفيقهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم ، فلا تقدر الكفار على إيمانهم عن دينهم ؛ وإن جرى إكراه فيعصمهم حتى لا يرتدوا بقلوبهم . وقيل : يدفع عن المؤمنين بإعلائهم بالحجة . ثم قتل كافر مؤمنا نادر ، وإن فیدفع الله عن ذلك المؤمن بأن قبضه إلى رحمته . وقرأ نافع « يُدْفِعُ » « ولولا دفاع » . وقرأ أبو عمرو وابن كثير « يدفع » « ولولا دفع » . وقرأ عاصم وحمة والكسائي « يدافع » « ولولا دفع الله » . ويدافع بمعنى يدفع ؛ مثل عاقبت اللص ، وعافاه الله ؛ والمصدر دفعا . وحكى الزهراوى أن « دفاعا » مصدر دفع ؛ بحسب حسابا .

قوله تعالى : **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴿٣٩﴾

فيه مسألتان :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ ﴾ قيل : هذا بيان قوله « إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى يدفع عنهم غوائل الكفار بأن يبيع لهم القتال وينصرهم ؛ وفيه إضمار ، أى

أذن للذين يَصْطَلِحُونَ للقتال في القتال ؛ فحذف لدلالة الكلام على المحذوف . وقال الضحاك : استأذن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الكفار إذ آذوهم بمكة ؛ فأنزل الله « إن الله لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ » فلما هاجر نزلت « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » . وهذا ناسخ لكل مافي القرآن من إعراض وترك صفح . وهى أول آية نزلت في القتال <sup>(١)</sup> . قال ابن عباس وابن جبير : نزلت عند هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وروى النسائي والترمذي عن ابن عباس قال : لما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ليهلكن ؛ فأنزل الله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » فقال أبو بكر : لقد علمت أنه سيكون قتال . فقال : هذا حديث حسن . وقد روى غير واحد عن سفيان عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير مراسلا ، ليس فيه : عن ابن عباس .

الثانية — في هذه الآية دليل على أن الإباحة من الشرع ، خلافا للمعتزلة ؛ لأن قوله : « أذن » معناه أبيع ؛ وهو لفظ موضوع في اللغة لإباحة كل ممنوع . وقد تقدم هذا المعنى في « البقرة » وغير موضع . وقرئ « أذن » بفتح الهمزة ؛ أى أذن الله . « يقاتلون » بكسر التاء أى يقاتلون عدوهم . وقرئ « يقاتلون » بفتح التاء ؛ أى يقاتلهم المشركون وهم المؤمنون . ولهذا قال : « بأنهم ظلموا » أى أخرجوا من ديارهم .

قوله تعالى : الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوْمِعُ وَيَبِعُ وَصَلَوْتُ وَمَسَجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٢٢﴾

(١) يلاحظ أن الذى تقدم في الجزء الثاني ص ٣٤٧ طبعة ثانية عند قوله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله ... »

فيه سبع مسائل<sup>(١)</sup> :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ هذا أحد ما ظلموا به ؛ وإنما أخرجوا لقولهم : ربنا الله وحده . فقوله : « إلا أن يقولوا ربنا الله » استثناء منقطع ؛ أى لكن لقولهم ربنا الله ؛ قاله سيبويه . وقال الفراء يجوز أن تكون في موضع خفض ، يقدرها مردودة على الباء ؛ وهو قول أبى إسحاق الزجاج ، والمعنى عنده : الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا بأن يقولوا ربنا الله ؛ أى أخرجوا بتوحيدهم ، أخرجهم أهل الأوثان . و « الَّذِينَ أُخْرِجُوا » في موضع خفض بدلا من قوله : « لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ » .

الثانية - قال ابن العربي : قال علماؤنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحل له الدماء ؛ إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل مدة عشرة أعوام ؛ لإقامة حجة الله تعالى عليهم ، ووفاء بوعده الذى امتن به بفضله في قوله : « وما كنا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا <sup>(٢)</sup> » . فاستمر الناس في الطغيان وما استدلوا بواضح البرهان ، وكانت قريش قد اضطهدت من أتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنهم عن دينهم ونفوسهم عن بلادهم ؛ فمنهم من فر إلى أرض الحبشة ، ومنهم من خرج إلى المدينة ، ومنهم من صبر على الأذى . فلما عتت قريش على الله تعالى وردوا أمره وكذبوا نبيه عليه السلام ، وعذبوا من آمن به ووحده وعبدته ، وصدق نبيه عليه السلام واعتصم بدينه ، أذن الله لرسوله في القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم ، وأنزل « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا - إلى قوله - الأئور » .

الثالثة - في هذه الآية دليل على أن نسبة الفعل الموجود من الملجأ المكروه إلى الذى أبلجناه وأكرهه ؛ لأن الله تعالى نسب الإخراج إلى الكفار ، لأن الكلام في معنى تقدير الذنب والإزامة . وهذه الآية مثل قوله تعالى : « إِذْ أُخْرِجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا » والكلام فيهما واحد ؛ وقد تقدم في « براءة <sup>(٣)</sup> » والحمد لله .

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر ثمانى مسائل .

(٢) آية ١٥ سورة الاسراء .

(٣) راجع ج ٨ ص ١٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

الرابعة - (( وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ )) أى لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء ، لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما بينته أرباب الديانات من مواضع العبادات ، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة . فالجهاد أمر متقدم فى الأمم ، وبه صالحت الشرائع واجتمعت المتعبدات ؛ فكأنه قال : أذن فى القتال ، فليقاتل المؤمنون . ثم قوى هذا الأمر فى القتال بقوله : « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ » الآية ؛ أى لولا القتال والجهاد لتغلب على الحق فى كل أمة . فمن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه ؛ إذ لولا القتال لما بقى الدين الذى يذب عنه . وأيضا هذه المواضع التى آتخذت قبل تحريفهم وتبديلهم وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام إنما ذكرت لهذا المعنى ؛ أى لولا هذا الدفع لهدم فى زمن موسى الكاس ، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفى زمن محمد عليه السلام المساجد . (( لَهْدَمْتُ )) من هدمت البناء أى نقضته فأنهدم . قال ابن عطية : هذا أصوب ما قيل فى تأويل الآية . وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : ولولا دفع الله بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الكفار عن التابعين فمن بعدهم . وهذا وإن كان فيه دفع قوم بقوم إلا أن معنى القتال أليق ؛ كما تقدم . وقال مجاهد : لولا دفع الله ظلم قوم بشهادة العدول . وقالت فرقة : ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة . وقال أبو الدرداء : لولا أن الله عز وجل يدفع بمن فى المساجد عمن ليس فى المساجد ، وبمن يغزو عمن لا يغزو ، لأتاهم العذاب . وقالت فرقة : ولولا دفع الله العذاب بدعاء الفضلاء والأخبار إلى غير ذلك من التفصيل المفسر لمعنى الآية ؛ وذلك أن الآية ولا بد تقتضى مدفوعا من الناس ومدفوعا عنه ، فتأمله .

الخامسة - قال ابن خزيمة : تضمنت هذه الآية المنع من هدم كائس أهل الذمة وبيعهم وبيوت نيرانهم ، ولا يتركون أن يحدثوا ما لم يكن ، ولا يزيدون فى البنيان لا سعة ولا ارتفاعا ، ولا ينبغى للمسلمين أن يدخلوها ولا يصلوها فيها ، ومتى أحدثوا زيادة وجب نقضها . وينقض ما وجد فى بلاد الحرب من البيع والكاس . وإنما لم ينقض

ما في بلاد الإسلام لأهل الذمة ؛ لأنها جرت مجرى بيوتهم وأموالهم التي عاهدوا عليها في الصيانة . ولا يجوز أن يَمَكَّنُوا من الزيادة لأن في ذلك إظهار أسباب الكفر . وجائز أن ينقض المسجد ليعاد بنيانه ؛ وقد فعل ذلك عثمان رضى الله عنه بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم .

السادسة - قرئ «لهدمت» بتخفيف الدال وتشديدها . ((صَوَائِعُ)) جمع صَوْمَعَة ، وزنها قَوْعَلَة ، وهى بناء مرتفعٌ حديدٌ الأعلى ؛ يقال : صَمَع الثريدة أى رفع رأسها وحدده . ورجل أصم القلب أى حاذ الفطنة . والأصم من الرجال الحديد القول . وقيل : هو الصغير الأذن من الناس وغيرهم . وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى وعباد الصابئين - قاله قتادة - ثم استعمل في مثذنة المسلمين . والبيع جمع بيعة ، وهى كنيسة النصارى . وقال الطبرى : قيل هى كنائس اليهود ؛ ثم أدخل عن مجاهد ما لا يقتضى ذلك . ((وَصَلَوَاتُ)) قال الزجاج والحسن : هى كنائس اليهود ؛ وهى بالعبرانية صَلَوَاتَا . وقال ابو عبيدة : الصلوات بيوت تبني للنصارى فى البرارى يصلون فيها فى أسفارهم ، تسمى صلواتا فعربت فقليل صلوات . وفى «صلوات» تسع قراءات ذكرها ابن عطية : صَلَوَات ، صَلَوَات ، صَلَوَات ، صَلَوَات على وزن فعولى ، صَلُوب بالباء بواحدة جمع صليب ، صَلُوث بالثاء المثلثة على وزن فُعول ، صَلَوَات بضم الصاد واللام وألف بعد الواو ، صَلُوثا بضم الصاد واللام وقصر الألف بعد الثاء المثلثة ، [ صَلُوثًا بكسر الصاد وإسكان اللام وواو مكسورة بعدها ياء بعدها ثاء منقوطة بثلاث بعدها (١) أَلَف ] . وذكر النحاس : وروى عن عاصم الجحدري أنه قرأ «وَصُوب» . وروى عن الضحاك «وَصَلُوث» بالثاء معجمة بثلاث ؛ ولا أدري أفصح الصاد أم ضمها .

قلت : فعلى هذا تجيء هنا عشر قراءات . وقال ابن عباس : الصلوات الكنائس . أبو العالية : الصلوات مساجد الصابئين . ابن زيد : هى صلوات المسلمين تنقطع إذا دخل عليهم العدو وتهدم المساجد ؛ فعلى هذا استعير الهدم للصلوات من حيث تُعطل ، أو أراد موضع صلوات لحذف المضاف . وعلى قول ابن عباس والزجاج وغيرهم يكون الهدم

(١) ما بين المربعات عبارة أبى حيان . والذي فى الأصل : صَلُوثًا بكسر الصاد والثاء المثلثة .



حقيقة . وقال الحسن : هدم الصلوات تركها . قُطِرْبُ : هي الصوامع الصغار ولم يسمع لها واحد . وذهب خَصِيف إلى أن القصد بهذه الأسماء تقسيم متعبدات الأمم . فالصوامع للرهبان ، والبيع للنصارى ، والصلوات لليهود ، والمساجد للمسلمين . قال ابن عطية : والأظهر أنها قصد بها المبالغة في ذكر المتعبدات . وهذه الأسماء تشترك الأمم في مسمياتها ، إلا البيعة فإنها مختصة بالنصارى في لغة العرب . ومعاني هذه الأسماء هي في الأمم التي لها كتاب على قديم الدهر . ولم يذكر في هذه الآية المجوس ولا أهل الإشراك ؛ لأن هؤلاء ليس لهم ما يجب حمايته ، ولا يوجد ذكر الله إلا عند أهل الشرائع . وقال النحاس : « يُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ » الذي يجب في كلام العرب على حقيقة النظر أن يكون « يُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ » عائداً على المساجد لا على غيرها ؛ لأن الضمير يليها . ويجوز أن يعود على « صوامع » وما بعدها ؛ ويكون المعنى وقت شرائعهم وإقامتهم الحق .

السابعة — فإن قيل : لم قدمت مساجد أهل الذمة ومصلياتهم على مساجد المسلمين؟ قيل : لأنها أقدم بناء . وقيل لقربها من الهدم وقرب المساجد من الذكر ؛ كما أخر السابق في قوله : « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ <sup>(١)</sup> » .  
الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ أى من ينصر دينه ونبية . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ ﴾ أى قادر . قال الخطابي : القوي يكون بمعنى القادر ، ومن قوي على شيء فقد قدر عليه . ﴿ عَزِيزٌ ﴾ أى جليل شريف ؛ قاله الزجاج . وقيل المتنع الذي لا يرام ؛ وقد بيناهما في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى .

قوله تعالى : الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾  
قال الزجاج : ﴿ الَّذِينَ ﴾ في موضع نصب رداً على « مَنْ » ، يعنى في قوله : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » . وقال غيره : « الَّذِينَ » في موضع خفض رداً على قوله : « أُذِنَ لِلَّذِينَ

يَقَاتِلُونَ» ، وَيَكُونُ «الَّذِينَ إِنْ مَكَاهُمْ فِي الْأَرْضِ» أَرْبَعَةً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ غَيْرُهُمْ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْمُرَادُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَالتَّابِعُونَ بِإِحْسَانٍ . وَقَالَ قَتَادَةُ : هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقَالَ عِكْرِمَةُ : هُمْ أَهْلُ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ . وَقَالَ الْحَسَنُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ : هُمْ هَذِهِ الْأُمَّةُ إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَقَامُوا الصَّلَاةَ . وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ : يَعْنِي الْوَلَاةَ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : هُوَ شَرْطُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَنْ آتَاهُ الْمُلْكُ ؛ وَهَذَا حَسَنٌ . قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبٌ عَلَى السُّلْطَانِ وَعَلَى الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَهُ . وَلَيْسَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَأْمُرُوا السُّلْطَانَ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا زَمَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ ، وَلَا يَأْمُرُوا الْعُلَمَاءَ فَإِنَّ الْحُجَّةَ قَدْ وَجِبَتْ عَلَيْهِمْ .

قوله تعالى : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾

هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتعزية ؛ أى كان قبلك أنبياء كُذِّبوا فصبروا إلى أن أهلك الله المكذِّبين ، فأقنند بهم وأصبر . ( وَكَذَّبَ مُوسَى ) أى كذبه فرعون وقومه . فاما بنو إسرائيل فما كذبوه ، فلهذا لم يعطفه على ما قبله فيكون وقوم موسى . ( فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ) أى أخرت عنهم العقوبة . ( ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ) فعاقبتهم . ( فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ) استفهام بمعنى التغير ؛ أى فانظر كيف كانت تغييرى ما كانوا فيه من النعم بالعذاب والهلاك ، فكذلك أفعَل بالمكذِّبين من قريش . قال الجوهري : التكير والإنكار تغيير المنكر ، والمنكر واحد المناكير .

قوله تعالى : فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَمِنْهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِىءُ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ أى أهلكنا أهلها . وقد مضى في « آل عمران » الكلام في كَأَيِّن . ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أى بالكفر . ﴿ فِيهِى خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ <sup>(١)</sup> تقدم في الكهف . ﴿ وَيَثْرِى مُعْطَلَةٌ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴾ قال الزجاج : « وَيَثْرِى مُعْطَلَةٌ » معطوف على « مِنْ قَرْيَةٍ » أى ومن أهل قرية ومن أهل بئر . والفراء يذهب إلى أن « وَيَثْرِى » معطوف على « عُرُوشِهَا » . وقال الأنصمى : سألت نافع بن أبى نعيم أيهمز البئر والذئب ؟ فقال : إن كانت العرب تهمزها فأهمزها . وأكثر الرواة عن نافع بهمزها ؛ إلا ورشاً فإن روايته عنه بغير همز فيهما ، والأصل الهمز . ومعنى « مُعْطَلَةٌ » متروكة ؛ قاله الضحاك . وقيل : خالية من أهلها هلاكهم . وقيل : غائرة الماء . وقيل : معطلة من دلائها وأرشيته ؛ والمعنى متقارب . ﴿ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴾ قال قتادة والضحاك ومقاتل : رفيع طويل . قال عدي بن زيد :

شاده مَرَمَرًا وَجَلَّه كَلَّ \* سَا فَلَاطِيرِى ذُرَاهُ وَكُورِ

أى رفعه . وقال سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومجاهد : مَحْصَصٌ ؛ من الشَّيد وهو الحصص . قال الراجز <sup>(٢)</sup> :

لَا تَحْسِنِيَّ وَإِنْ كُنْتَ أَمْرًا غَمِيرًا \* كَحَيَّةِ الْمَاءِ بَيْنَ الطَّيْنِ وَالشَّيْدِ

وقال امرؤ القيس :

\* وَلَا أَطْمَأْ إِلَّا مَشِيدًا بِجَنْدِلٍ \* <sup>(٣)</sup>

وقال ابن عباس : « مَشِيدٌ » أى حصين ؛ وقاله الكلبي . وهو مَفْعِلٌ بمعنى مفعول كبيع بمعنى مبيوع . وقال الجوهري : والمَشِيدُ المَعْمُولُ بالشَّيد . والشَّيد (بالكسر) : كل شيء طَلَبْتُ بِهِ الْحَائِطَ مِنْ جِصٍّ أَوْ بِلَاطٍ ، وبالفَتْحِ الْمَصْدَرُ . تقول : شَادَهُ يَشِيدُهُ شَيْدًا جَصَصَهُ . والمَشِيدُ (بالتشديد) المَطْوُولُ . وقال الكسائي : « المَشِيدُ » للواحد ، من قوله تعالى : « وَقَصْرِ مَشِيدٍ » ، والمَشِيدُ لِلْجَمْعِ ، من قوله تعالى : « فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ » . وفى الكلام مضمَر

(١) راجع ج ٤ ص ٢٢٨ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ١٠ ص ٤١٠ (٣) البيت للشماخ ،

كما فى اللسان . والغمر (بفتح الغين وكسر الميم) لغة فى الغمر (بضم الغين وسكون الميم) وهو الغز الذى لم يجرب الأمور .

(٤) هذا يحجز البيت . صدره : \* وتبها . لم يترك بها جذع نخلة \*

محذوف تقديره : وقصر مشيد مثلها معطل . ويقال : إن هذه البئر والقصر بحضرموت معروفان ، فالقصر مشرف على قلة جبل لا يرتقى إليه بحال ، والبئر في سفحه لا تُقَرَّ الرياح شيئاً سقط فيه إلا أخرجته . وأصحاب القصور ملوك الحضر ، وأصحاب الآبار ملوك البوادي ؛ أى فاهلكا هؤلاء وهؤلاء . وذكر الضحاك وغيره فيما ذكر الثعلبي وأبو بكر محمد بن الحسن المقرئ وغيرهما أن البئر الرأس ، وكانت بعدن باليمن بحضرموت ، في بلد يقال له حضور ، نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح ، ونجوا من العذاب ومعهم صالح ، فأت صالح فسمى المكان حضرموت ؛ لأن صالحاً لما حضره مات فبنوا حضور وقعدوا على هذه البئر ، وأمروا عليهم رجلاً يقال له العلس بن جلاس بن سويد ، فيما ذكر الغزنوي . الثعلبي : جلس بن جلاس . وكان حسن السيرة فيهم عاملاً عليهم ، وجعلوا وزيره سنحاريب بن سواده ، فأقاموا دهرًا وتناسلوا حتى كثروا ، وكانت البئر تسقى المدينة كلها وباديتها وجميع ما فيها من الدواب والغنم والبقر وغير ذلك ؛ لأنها كانت لها بركات كثيرة منصوبة عليها ، ورجال كثيرون . وكأول بها ، وأبازن ( بالنون ) من رخام وهى شبه الحياض كثيرة تملأ للناس ، وأخر للدواب ، وأخر للبقر ، وأخر للغنم . والقوام يسقون عليها بالليل والنهار يتداولون ، ولم يكن لهم ماء غيرها . وطال عمر الملك الذى أمروه ، فلما جاءه الموت طلى بدهن لتبقى صورته لا تتغير ، وكذلك كانوا يفعلون إذا مات منهم الميت وكان ممن يكرم عليهم . فلما مات شق ذلك عليهم ورأوا أن أمرهم قد فسد ، وضجوا جميعاً بالبكاء ، واغتنمها الشيطان منهم فدخل في جثة الملك بعد موته بأيام كثيرة ، فكلهم وقال : إني لم أمت ولكن تغيبت عنكم حتى أرى صنعكم ؛ ففرحوا أشد الفرح وأمر خاصته أن يضربوا له حجاباً بينه وبينهم ويكلهم من ورائه لئلا يعرف الموت في صورته . فنصبوا صنماً من وراء الحجاب لا يأكل ولا يشرب . وأخبرهم أنه لا يموت أبداً وأنه إلههم ؛ فذلك كله يتكلم به الشيطان على لسانه ، فصديق كثير منهم وارتاب بعضهم ، وكان المؤمن المكذب منهم أقل من المصدق له ، وكلما تكلم ناصح لهم زُجروا فهُمَرُوا . فأصفقوا على عبادته ، فبعث الله إليهم نبياً كان الوحي ينزل عليه في النوم دون اليقظة ، كان اسمه

حنظلة بن صفوان ، فأعلمهم أن الصورة صنم لا روح له ، وأن الشيطان قد أضلهم ، وأن الله لا يتمثل بالخلق ، وأن الملك لا يجوز أن يكون شريكاً لله ، ووعظهم ونصحهم وحذرهم سطوة ربهم ونقمته ؛ فأذوه وعادوه وهو يتعهدهم بالموعظة ولا يُعَبِّهم بالنصيحة ، حتى قتلوه في السوق وطرحوه في بئر ؛ فعند ذلك أصابتهم النقمة ، فباتوا شباعاً رُواء من الماء وأصبحوا والبتر قد غار ماؤها وتعطل رشاؤها ، فصاحوا بأجمعهم وضح النساء والولدان ، وضجت البهائم عطشاً ؛ حتى عمهم الموت وشملهم الهلاك ، وخلفتهم في أرضهم السباع ، وفي منازلهم الثعالب والضباع ، وتبدلت جناتهم وأموالهم بالسدر وشوك العضاه والقناد ، فلا يسمع فيها إلا عزيف الجن وزئير الأسد ، نعوذ بالله من سطواته ، ومن الإصرار على ما يوجب نجاته . قال السهيلي . وأما القصر المشيد فقصر بناه شداد بن عاد بن إرم ، لم يبن في الأرض مثله — فيما ذكروا وزعموا — وحاله أيضاً كحال هذه البئر المذكورة في إيحاشه بعد الأئيس ، وإقفاره بعد العمران ، وإن أحداً لا يستطيع أن يدنو منه على أميال ؛ لما يسمع فيه من عزيف الجن والأصوات المذكرة بعد النعيم والعيش الرغد وبهاء الملك وانتظام الأهل كالسلك فبادوا وما عادوا ؛ فذكّرهم الله تعالى في هذه الآية موعظة وعبرة وتذكرة ، وذكرنا وتحذيراً من مغبة المعصية وسوء عاقبة المخالفة ؛ نعوذ بالله من ذلك ونستجير به من سوء المآل . وقيل : إن الذي أهلكهم يختصر على ما تقدم في سورة « الأنبياء » في قوله : « وكم قصصنا من قرية » . فتعطلت بئرم ونحربت قصورهم .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَلَيْنَ لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

(١) السدر من الشجر ، وهو سدران : أحدهما برى لا ينفع بثمره ولا يصلح ورقه للغسل وثمره عفص لا يسوغ في الحلق ، والعرب تسميه الضال . والسدر الثاني : ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول . (٢) العضاه : كل شجر يعظم وله شوك ؛ واحداً عضاهة وعضة وعضة . (٣) القناد : شجر صلب له شوك كالإبر . (٤) راجع ج ١١ ص ٢٧٤

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني كفار مكة فيشاهدوا هذه القرى فيتعظوا ، ويحذروا عقاب الله أن ينزل بهم كما نزل بمن قبلهم . ﴿ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ أضاف العقل إلى القلب لأنه محله كما أن السمع محله الأذن . وقد قيل : إن العقل محله الدماغ ؛ وروى عن أبي حنيفة ، وما أراها عنه صحيحة . ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ﴾ قال الفراء : الهاء عماد ، ويجوز أن يقال فإنه ، وهي قراءة عبد الله بن مسعود ، والمعنى واحد ، التذكير على الخبر ، والتأنيث على الأبصار أو القصة ؛ أى فإن الأبصار لا تعمي ، أو فإن القصة . ﴿ لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ﴾ أى أبصار العيون ثابتة لهم . ﴿ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ أى عن درك الحق والاعتبار . وقال قتادة : البصر الناظر جعل بُلغة ومنفعة ، والبصر النافع في القلب . وقال مجاهد : لكل عين أربع أعين ؛ يعني لكل إنسان أربع أعين : عينان في رأسه لدنياه ، وعينان في قلبه لآخرفته ؛ فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضره عماء شيئا ، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئا . وقال قتادة وابن جبير : نزلت هذه الآية في ابن أُم مكتوم الأعمى . قال ابن عباس ومقاتل : لما نزل « ومن كان في هذه أعمى <sup>(١)</sup> » قال ابن أُم مكتوم : يا رسول الله ، فأنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى ؟ فنزلت « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » . أى من كان في هذه أعمى بقلبه عن الإسلام فهو في الآخرة في النار .

قوله تعالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخَالِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ نزلت في النضر بن الحارث ، وهو قوله : « فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » . وقيل : نزلت في أبي جهل بن هشام ، وهو قوله : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ » . ﴿ وَلَنْ يُخَالِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أى في إنزال العذاب . قال الزجاج : استعجلوا العذاب فاعلمهم الله أنه لا يفوته شيء ؛ وقد نزل بهم في الدنيا يوم بدر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد :  
 يعنى من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض . عكرمة : يعنى من أيام الآخرة ؛ أعلمهم  
 الله إذ استعملوه بالعذاب فى أيام قصيرة أنه يأتيهم به فى أيام طويلة . قال الفراء : هذا  
 وعيد لهم بامتداد عذابهم فى الآخرة ؛ أى يوم من أيام عذابهم فى الآخرة ألف سنة . وقيل :  
 المعنى وإن يوما فى الخوف والشدة فى الآخرة كألف سنة من سنى الدنيا فيها خوف وشدة ؛  
 وكذلك يوم النعيم قياسا . وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائى « مِمَّا يَعُدُّونَ » بالياء المثناة  
 تحت ، وأخاره أبو عبيد لقوله : « وَيَسْتَعِجِلُونَكَ » . والباقون بالتاء على الخطاب ،  
 وأخاره أبو حاتم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا  
 وَإِلَى الْمَصِيرِ ۝٤٨ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ أى أمهاتها مع عتوها . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾  
 أى بالعذاب . ﴿ وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝٤٩  
 فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠ ﴾ وَالَّذِينَ  
 سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝٥١ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ يعنى أهل مكة . ﴿ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ أى منذر  
 مخوف . وقد تقدم فى البقرة الإنذار فى أولها . ﴿ مُبِينٌ ﴾ أى أبين لكم ما تحتاجون إليه من  
 أمر دينكم . ﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ يعنى الجنة .  
 ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا ﴾ أى فى إبطال آياتنا . ﴿ مُعْجِزِينَ ﴾ أى مغالين مشاقين ؛ قاله  
 ابن عباس . الفراء : معاندين . وقال عبد الله بن الزبير : مثبتين عن الإسلام . وقال

الأخفش : معاندين مسابقين . الزجاج : أى ظانين أنهم يعجزوننا لأنهم ظنوا أن لا بعث ، وظنوا أن الله لا يقدر عليهم ؛ وقاله قتادة . وكذلك معنى قراءة ابن كثير وأبى عمرو « مُعْجِزِينَ » بلا ألف مشددا . ويجوز أن يكون معناه أنهم يعجزون المؤمنين في الإيمان بالنبي عليه السلام وبالايات ؛ قاله السدّي . وقيل : أى ينسبون من اتبع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى العجز ؛ كقولهم : جهلته وفسقته . ( أولئك أصحاب الجحيم ) .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( تَمَنَّى ) أى قرأ وتلا . و ( أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ) أى قراءته وتلاوته . وقد تقدم في البقرة . قال ابن عطية : وجاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث » ذكره مسلمة بن القاسم بن عبد الله ، ورواه سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس . قال مسلمة : فوجدنا المحدثين معتمدين بالنبوة — على قراءة ابن عباس — لأنهم تكلموا بأمر عالية من أنباء الغيب خطرات ، ونطقوا بالحكمة الباطنة فأصابوا فيما تكلموا وعصموا فيما نطقوا ؛ كعمر بن الخطاب في قصة سارية ، وما تكلم به من البراهين العالية .

(١) راجع ج ٢ ص ٥ طبعة ثانية . (٢) المحدثون ( بفتح الدال وتشديدها ) قال ابن الأثير : أنهم الملمهون ، والملم هو الذى يلقى في نفسه الشيء فيخبر به حذسا وفراصة ، وهو نوع يختص به الله عز وجل من يشاء من عباده الذين اصطفى مثل عمر ؛ كأنهم حدثوا بشئ ، فقالوه . (٣) هو سارية بن زبم بن عبد الله . وكان من قصته أن عمر رضى الله عنه أمره على جيش وسيره الى فارس سنة ثلاث وعشرين ، فوقع في خاطر سيدنا عمر وهو يخطب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاقى العدو وهم في بطن وادٍ وقد هموا بالهزيمة ، وبالقرب منهم جبل ، فقال في أشاء خطبته : يا سارية ، الجبل الجبل ! ورفع صوته ، فألقاه الله في سمع سارية فأنحاز بالناس الى الجبل وقتلوا العدو من جانب واحد ، ففتح الله عليهم . ( راجع ترجمته في كتب الصحابة ) .



قلت : وقد ذكر هذا الخبر أبو بكر الأنباري في كتاب الرد له ، وقد حدثني أبي رحمه الله حدثنا علي بن حرب حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا مُحدث » قال أبو بكر : فهذا حديث لا يؤخذ به على أن ذلك قرآن . والمحدث هو الذي يوحى إليه في نومه ؛ لأن رؤيا الأنبياء وحى .

الثانية — قال العلماء : إن هذه الآية مشكلة من جهتين : إحداهما — أن قوما يرون أن الأنبياء صلوات الله عليهم فيهم مرسلون وفيهم غير مرسلين . وغيرهم يذهب إلى أنه لا يجوز أن يقال نبي حتى يكون مرسلا . والدليل على صحة هذا قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » فأوجب للنبي صلى الله عليه وسلم الرسالة . وأن معنى « نبي » أنبا عن الله عز وجل ، ومعنى أنبا عن الله عز وجل الإرسال بعينه . وقال الفراء : الرسول الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل عليه السلام إليه عيانا ، والنبي الذي تكون نبوته إلهاما أو مناما ؛ فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا . قال المهدوي : وهذا هو الصحيح ، أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا . وكذا ذكر القاضى عياض في كتاب الشفا قال : والصحيح والذي عليه الجَم الغفير أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ؛ واحتج بحديث أبي ذر ، وأن الرسل من الأنبياء ثلثمائة وثلاثة عشر ، أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم . والجهة الأخرى التي فيها الإشكال وهى :

الثالثة — الأحاديث المروية في نزول هذه الآية ، وليس منها شيء يصح . وكان مما تموه به الكفار على عوامهم قولهم : حق الأنبياء ألا يعجزوا عن شيء ، فلم لا يأتينا محمد بالعذاب وقد بالغنا في عداوته ؟ وكانوا يقولون أيضا : ينبغي ألا يجرى عليهم سهو وغلط ؛ فبين الرب سبحانه أنهم بشر ، والآتي بالعذاب هو الله تعالى على ما يريد ، ويجوز على البشر السهو والنسيان والغلط إلى أن يحكم الله آياته وينسخ حيل الشيطان . روى الليث عن يونس عن الزهرى عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » فلما بلغ « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى »

سها فقال : " إن شفاعتهم تُرْتَجَى " فلقية المشركون والذين في قلوبهم مرض فسلموا عليه وفرحوا ؛ فقال : " إن ذلك من الشيطان " فأزل الله تعالى « وما أرسلنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ » الآية . قال النحاس : وهذا حديث منقطع وفيه هذا الأمر العظيم . وكذا حديث قتادة وزاد فيه " وإِنَّهُنَّ لَهُنَّ الْغَرَانِيقُ الْعُلَا " . وأقطع من هذا ما ذكره الواقدي عن كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله قال : سجد المشركون كلهم إلا الوليد بن المغيرة فإنه أخذ تراباً من الأرض فرفعه إلى جبهته وسجد عليه ، وكان شيخاً كبيراً . ويقال إنه أبو أحيحة سعيد بن العاص ، حتى نزل جبريل عليه السلام فقرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : " ما جئتك به " ! وأزل الله « لَقَدْ كَذَبْتَ تَزَكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً » . قال النحاس : وهذا حديث منكر منقطع ولا سيما من حديث الواقدي . وفي البخاري أن الذي أخذ قبضة من تراب ورفعها إلى جبهته هو أمية بن خلف . وسيأتي تمام كلام النحاس على الحديث — إن شاء الله — آخر الباب . قال ابن عطية : وهذا الحديث الذي فيه هي الغرانيق العلاء وقع في كتب التفسير ونحوها ، ولم يدخله البخاري ولا مسلم ، ولا ذكره في علمي مصنف مشهور ؛ بل يقتضي مذهب أهل الحديث أن الشيطان ألقى ، ولا يعينون هذا السبب ولا غيره . ولا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة ؛ بها وقعت الفتنة . ثم اختلف الناس في صورة هذا الإلقاء ، فالذي في التفاسير وهو مشهور القول أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم بتلك الألفاظ على لسانه . وحدثني أبي رضي الله عنه أنه لقي بالشرق من شيوخ العلماء والمتكلمين من قال : هذا لا يجوز على النبي صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم في التبليغ ، وإنما الأمر أن الشيطان نطق بلفظ أسمع الكفار عند قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى » ، وقرب صوته من صوت النبي صلى الله عليه وسلم حتى التبس الأمر على المشركين ، وقالوا : مجد قرأها . وقد روى نحو هذا التأويل عن الإمام أبي المعالي . وقيل : الذي ألقى شيطانُ الإنسان ؛ كقوله عز وجل : « وَالْفُؤَادُ فِيهِ » . قتادة : هو ما تلاه ناعسا .

(١) آية ٧٤ سورة الإسراء . (٢) آية ٢٦ سورة فصلت .

وقال القاضي عياض في كتاب الشفا بعد أن ذكر الدليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه ، لا قصدا ولا عمدا ولا سهواً وغلطا : إعلم أكرمك الله أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما - في توهين أصله ، والثاني على تسليمه . أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا حديث لم يخرج أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة ، وإنما أولع به وبمثلته المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم . قال أبو بكر البزار : وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل يجوز ذكره ، إلا ما رواه شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب ، الشك في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة ... وذكر القصة . ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد ، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير . وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه الذي ذكرناه ، الذي لا يؤثق به ولا حقيقة معه . وأما حديث الكلبي فما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه ، كما أشار إليه البزار رحمه الله . والذي منه في الصحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « والنجم » بمكة فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس ؛ هذا توهينه من طريق النقل .

وأما المأخذ الثاني فهو مبنى على تسليم الحديث لو صح . وقد أعادنا الله من صحته ، ولكن على كل حال فقد أجاب أئمة المسلمين عنه بأجوبة ، منها الفت والسمن ، والذي يظهر ويترجح في تأويله على تسليمه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلا ، ويفصل الآي تفصيلا في قراءته ، كما رواه الثقات عنه ، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السككات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات ، محايكا نعمة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار ، فظنوها من قول النبي صلى الله عليه وسلم وأشاعوها .

ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله ، وتحققهم من حال النبي صلى الله عليه وسلم في ذم الأوثان وعيوبها ما عُرف منه ؛ فيكون ما روى من حزن النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة ، وقد قال الله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ » <sup>(١)</sup> الآية .

قلت : وهذا التأويل أحسن ما قيل في هذا . وقد قال سليمان بن حرب : إن « في » بمعنى عند ؛ أي ألقى الشيطان في قلوب الكفار عند تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ كقوله عز وجل : « وَلَبِثْتَ فِينَا <sup>(٢)</sup> » أي عندنا . وهذا هو معنى ما حكاه ابن عطية عن أبيه عن علماء الشرق ، وإليه أشار القاضي أبو بكر بن العربي ، وقال قبله : إن هذه الآية نص في غرضنا ، دليل على صحة مذهبنا ، أصل في براءة النبي صلى الله عليه وسلم مما ينسب إليه أنه قاله ؛ وذلك أن الله تعالى قال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيٍّ إلا إذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ » أي في تلاوته . فأخبر الله تعالى أن من سنته في رسله وسيرته في أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى قولاً زاد الشيطان فيه من قبل نفسه كما يفعل سائر المعاصي . تقول : ألقى في الدار كذا وألقيت في الكيس كذا ؛ فهذا نص في الشيطان أنه زاد في الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، لا أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم به . ثم ذكر معنى كلام عياض إلى أن قال : وما هُدى لهذا إلا الطبري بحلالة قدره وصفاء فكره وسعة باعه في العلم ، وشدة ساعده في النظر ؛ وكأنه أشار إلى هذا الغرض ، وصوب على هذا المرمى ، وقرطس بعدما ذكر في ذلك روايات كثيرة كلها باطل لا أصل لها ، ولو شاء ربك لما رواها أحد ولا سطرها ، ولكنه فعال لما يريد .

وأما غيره من التأويلات فما حكاه قوم أن الشيطان أكرهه حتى قال كذا فهو محال ؛ إذ ليس للشيطان قدرة على سلب الإنسان الاختيار ، قال الله تعالى مخبراً عنه : « وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلا أن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي <sup>(٣)</sup> » ؛ ولو كان للشيطان هذه القدرة لما بقي لأحد

(١) راجع كتاب الشفا للقاضي عياض ج ٢ ص ١١٦ ، ١٢١ طبع الآستانة .

(٢) آية ١٨ سورة الشعراء . (٣) آية ٢٢ سورة إبراهيم .

من بنى آدم قوة في طاعة ، ومن توهم أن للشيطان هذه القوة فهو قول الثنوية والمجوس في أن الخير من الله والشر من الشيطان . ومن قال جرى ذلك على لسانه سهوا قال : لا يبعد أنه كان سمع الكلمتين من المشركين وكانتا على حفظه بجرى عند قراءة السورة ما كان في حفظه سهوا ؛ وعلى هذا يجوز السهو عليهم ولا يُقَرَّون عليه ، وأنزل الله عز وجل هذه الآية تمهيدا لعذره وتسليته له ؛ لئلا يقال : إنه رجع عن بعض قراءته ، وبين أن مثل هذا جرى على الأنبياء سهوا ، والسهو إنما ينتفى عن الله تعالى ، وقد قال ابن عباس : إن شيطاننا يقال له الأبيض كان قد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة جبريل عليه السلام وألقى في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم : تلك الغرائق العلاء ، وأن شفاعتهم لُتَرَجَّى . وهذا التأويل وإن كان أشبه مما قبله فالتأويل الأول عليه المعول ، فلا يُعَدَّل عنه إلى غيره لاختيار العلماء المحققين إياه ، وضعف الحديث مُغْنِي عن كل تأويل ، والحمد لله . ومما يدل على ضعفه أيضا وتوهينه من الكتاب قوله تعالى : « وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ <sup>(١)</sup> » الآيتين ؛ فإنهما تردان الخبر الذي رووه ؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري ، وأنه لولا أن ثبته لكان يركن إليهم . فمضمون هذا ومفهومه أن الله تعالى عصمه من أن يفتري وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا فكيف كثيرا ، وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمُدْح آلهتهم ، وأنه قال عليه الصلاة والسلام : آفترت على الله وقلت ما لم يقل . وهذا ضد مفهوم الآية ، وهي تضعف الحديث اوضح ؛ فكيف ولا صحة له . وهذا مثل قوله تعالى : « وَاُولَآئِكَ فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ » <sup>(٢)</sup> . قال القشيري : ولقد طالبت قريش وثقيف إذ مرَّ بآلهتهم أن يُقبل بوجهه إليها ، ووعدوه بالإيمان به إن فعل ذلك ، فما فعل ! ولا كان ليفعل ! قال ابن الأنباري : ما قارب الرسول ولا ركن . وقال الزجاج : أي كادوا ، ودخلت إن واللام للتأكيد . وقد قيل : إن معنى « تمنى » حدث ، لا « تلا » . روى عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل « إِنْ تَمْنَى » قال : إلا إذا حدث « ألقى الشيطان في أمنيته » قال : في حديثه « فَيَنْسَخُ

(١) آية ٧٣ سورة الاسراء . (٢) آية ١١٣ سورة النساء .

الله ما يُلْقِي الشَّيْطَانُ» قال : فيبطل الله ما يُلْقِي الشَّيْطَانُ . قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل في الآية وأعله وأجله . وقد قال أحمد بن محمد بن حنبل بمصر صحيفةً في التفسير ، رواها علي بن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا . والمعنى عليه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حدث نفسه ألقى الشيطان في حديثه على جهة الخبطة فيقول : لو سألت الله عز وجل أن يغنك ليتسع المسلمون ؛ ويعلم الله عز وجل أن الصلاح في غير ذلك ؛ فيبطل ما يُلْقِي الشيطان كما قال ابن عباس رضي الله عنهما . وحكى الكسائي والفراء جميعا « تمنى » إذا حدث نفسه ؛ وهذا هو المعروف في اللغة . وحكى أيضا « تمنى » إذا تلا . وروى عن ابن عباس أيضا وقاله مجاهد والضحاك وغيرهما . وقال أبو الحسن بن مهدي : ليس هذا التمني من القرآن والوحى في شيء ، وإنما كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صِفرت يده من المال ، ورأى ما بأصحابه من سوء الحال ، تمنى الدنيا بقلبه ووسوسة الشيطان . وذكر المهدوي عن ابن عباس أن المعنى : إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ؛ وهو اختيار الطبري .

قلت : قوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً ﴾ الآية ، يردّ حديث النفس ، وقد قال ابن عطية : لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسبوقة ، بها وقعت الفتنة ؛ فأنه أعلم . قال النحاس : ولو صح الحديث وأتصل إسناده لكان المعنى فيه صحيحا ، ويكون معنى سها أسقط ، ويكون تقديره : أفرايتم اللات والعزى ؛ وتم الكلام ، ثم أسقط ( والغرائق العلا ) يعني الملائكة ( فإن شفاعتهم ) يعود الضمير على الملائكة . وأما من روى : فإنهن الغرائق العلا ، ففي روايته أجوبة ؛ منها أن يكون القول محذوفا كما تستعمل العرب في أشياء كثيرة ، ويجوز أن يكون بغير حذف ، ويكون توخيها ؛ لأن قبله « أفرايتم » ويكون هذا احتجاجا عليهم ؛ فإن كان في الصلاة فقد كان الكلام مباحا في الصلاة . وقد روى في هذه القصة أنه كان مما يقرأ : أفرايتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . والغرائق العلا . وأن شفاعتهن لترجي . روى معناه عن مجاهد . وقال الحسن : أراد بالغرائق العلا الملائكة ؛ وبهذا فسر الكلبي الغرائق أنها الملائكة . وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون [ أن ] الأوثان والملائكة بنات

الله ، كما حكى الله تعالى عنهم ، ورد عليهم فى هذه السورة بقوله « أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا بِرَبِّكَ آيَاتِنَا فَكَذَّبُوا بِهَا فَكَانُوا مِنَ الْغَافِلِينَ » فانكر الله كل هذا من قولهم . ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح ؛ فلما تأوله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم ولبس عليهم الشيطان بذلك ، نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما سبيلا للتلبيس ، كما نسخ كثير من القرآن ؛ ورفعت تلاوته . قال القشيري : وهذا غير -ديد- ؛ لقوله « فينسخ الله ما يلقى الشيطان » أى يبطله ، وشفاعة الملائكة غير باطلة . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ « علم » بما أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم . « حكيم » فى خلقه .

قوله تعالى : لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً ﴾ أى ضلالة . ﴿ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى شرك ونفاق . ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ فلا تلى لأمر الله تعالى . قال الثعلبي : وفى الآية دليل على أن الأنبياء يجوز عليهم السهو والنسيان والغلط بوسواس الشيطان أو عند شغل القلب حتى يغلط ، ثم يذنبه ويرجع إلى الصحيح ؛ وهو معنى قوله : « فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته » . ولكن إنما يكون الغلط على حسب ما يغلط أحدنا ، فأما ما يضاف إليه من قولهم : تلك الغرائيق العلاء ، فكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن فيه تعظيم الأصنام ، ولا يجوز ذلك على الأنبياء ، كما لا يجوز أن يقرأ بعض القرآن ثم ينشد شعرا ويقول : غلطت وظننته قرآنا . ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أى الكافرين لى خلاف وعصيان ومشاقة لله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم فى « البقرة » <sup>(١)</sup> والحمد لله وحده .

قوله تعالى : وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ۖ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أى من المؤمنين . وقيل : أهل الكتاب .  
 ﴿ أَنَّهُ ﴾ أى أن الذى أحكم من آيات القرآن هو ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى تخشع وتسكن . وقيل : تخلص . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُادِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قرأ أبو حنيفة « وإن الله لهادى الذين آمنوا » بالتثنية . ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى يثبتهم على الهداية .

قوله تعالى : وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ﴾ يعنى فى شك من القرآن ؛ قاله ابن جريج . وغيره : من الدين ؛ وهو الصراط المستقيم . وقيل : مما ألقى الشيطان على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : ما باله ذكر الأصنام بخير ثم ارتد عنها . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي « فى مِرْيَةٍ » بضم الميم . والكسر أعرف ؛ ذكره النحاس . ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ أى القيامة . ﴿ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة . ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ قال الضحاك : عذاب يوم لا ليلة له وهو يوم القيامة . النحاس : سمي يوم القيامة عقيماً لأنه ليس يعقب بعده يوماً مثله ؛ وهو معنى قول الضحاك . والعقيم فى اللغة عبارة عن من لا يكون له ولد ؛ ولما كان الولد يكون بين الأبوين وكانت الأيام تتوالى قبل وبعد ، جعل الاتباع فيها بالبعدية كهيئة الولادة ، ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقيم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : المراد عذاب يوم بدر ، ومعنى عقيم لا مثل له فى عظمته ؛ لأن الملائكة قاتلت فيه . ابن جريج : لأنهم لم ينظروا فيه إلى الليل ، بل قتلوا قبل المساء فصار يوماً لا ليلة له . وكذلك يكون معنى قول الضحاك أنه يوم القيامة ؛ لأنه لا ليلة له . وقيل : لأنه لم يكن فيه رافة ولا رحمة ، وكان عقيماً من كل خير ؛ ومنه قوله تعالى : « إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ »<sup>(١)</sup> أى التى لا خير فيها ولا تأتى بمطر ولا رحمة .



قوله تعالى : أَلَمْ لِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (( أَلَمْ لِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ )) يعنى يوم القيامة هو الله وحده لا منازع له فيه ولا مدافع . والمَلِكُ هو اتساع المقدور لمن له تدبير الأمور . ثم بين حكمه فقال : (( فالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ )) .

قلت : وقد يحتمل أن تكون الإشارة بـ « يومئذ » ليوم بدر ، وقد حكم فيه بإهلاك الكافر وسعادة المؤمن ؛ وقد قال عليه السلام لعمر : « وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلًا رَّيْضُونَ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

أفرد ذكر المهاجرين الذين ماتوا وقُتلوا تفضيلاً لهم وتشريفاً على سائر الموتى .

وسبب نزول هذه الآية أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مظعون وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس : من قُتل في سبيل الله أفضل ممن مات حتف أنفه ؛ فنزلت هذه الآية مُسَوِّيةً بينهم ، وأن الله يرزق جميعهم رزقاً حسناً . وظاهر الشريعة يدل على أن المقتول أفضل . وقد قال بعض أهل العلم : إن المقتول في سبيل الله والميت في سبيل الله شهيد ؛ ولكن للمقتول مزية ما أصابه في ذات الله . وقال بعضهم : هما سواء ؛ واحتج بالآية ، وبقوله تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ

أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ<sup>(١)</sup> ، وبحديث أم حرام ؛ فانها صُرعت عن دابتها فماتت ولم تُقتل فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : ”أنت من الأولين“ ، وبقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عبد الله ابن عتيك : ”من خرج من بيته مهاجرا في سبيل الله نفزع عن دابته فمات أو لدغته حية فمات أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله ومن مات قَعَصًا<sup>(٢)</sup> فقد استوجب المآب“ . وذكر ابن المبارك عن فضالة بن عبيد في حديث ذكر فيه رجلين أحدهما أصيب في غزاة بمنجنيق فمات والآخريات هناك ؛ فجلس فضالة عند الميت فقيل له : تركت الشهيد ولم تجلس عنده ؟ فقال : ما أبالي من أى حفرتيهما بُعثت ؛ ثم تلا قوله تعالى : « والذين هاجروا في سبيل الله ثم قُتلوا أو ماتوا » الآية كلها . وقال سليمان بن عامر : كان فضالة برؤيس أميرا على الأرباع نفرج بمنازتي رجلين أحدهما قتل والآخري متوفى ؛ فرأى ميل الناس مع جنازة القتيل إلى حفرة ؛ فقال : أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل ! فوالذى نفسى بيده ما أبالي من أى حفرتيهما بُعثت ، اقرءوا قوله تعالى : « والذين هاجروا في سبيل الله ثم قُتلوا أو ماتوا » . كذا ذكره الثعلبي في تفسيره ، وهو معنى ما ذكره ابن المبارك . واحتج من قال : إن للقتول زيادة فضل بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل : أى الجهاد أفضل ؟ قال : ”من أُهريق دمه وعُقر جواده“ . وإذا كان من أُهريق دمه وعُقر جواده أفضل الشهداء علم أنه من لم يكن بتلك الصفة مفضول . قرأ ابن عامر وأهل الشام « قُتلوا » بالتشديد على التكثير . الباقيون بالتخفيف . ﴿ لِيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَنِهِ ﴾ أى الجنان . قراءة أهل المدينة « مدخلا » بفتح الميم ؛ أى دخولا . وضمها الباقيون ، وقد مضى في « سبحان » . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ قال ابن عباس : علیم بنياتهم ، حلیم عن عقابهم . قوله تعالى : ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

(٢) القعص : أن يضرب الإنسان فيموت مكانه . وأراد بوجوب

(٣) راجع ج ١٠ ص ٣١٣

(١) آية ١٠٠ سورة النساء .

المآب حسن المرجع بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ ﴾ « ذلك » فى موضع رفع ؛ أى ذلك الأمر الذى قصصنا عليك . قال مقاتل : نزلت فى قوم من مشركى مكة لقوا قوما من المسلمين لليلتين بقينا من المحترم فقالوا : إن أصحاب محمد يكرهون القتال فى الشهر الحرام فأحملوا عليهم ؛ فنأشدهم المسلمون ألا يقاتلوهم فى الشهر الحرام ؛ فأبى المشركون إلا القتال ، فحملوا عليهم فثبت المسلمون ونصرهم الله على المشركين ؛ وحصل فى أنفس المسلمين من القتال فى الشهر الحرام شىء ؛ فنزلت هذه الآية . وقيل : نزلت فى قوم من المشركين ، مثلوا بقوم من المسلمين قتلوهم يوم أحد فعاقبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثله . فعنى « من عاقب بمثل ما عوقب به » أى من جازى الظالم بمثل ما ظلمه ؛ فسمى جزاء العقوبة عقوبة لاستواء الفعلين فى الصورة ؛ فهو مثل « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا » <sup>(١)</sup> . ومثل « قَمِينَ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ » <sup>(٢)</sup> . وقد تقدم . ( ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ) أى بالكلام والإزعاج من وطنه ؛ وذلك أن المشركين كذبوا نبيهم وآذوا من آمن به وأخرجوه وأخرجوهم من مكة ، وظاهروا على إخراجهم . ﴿ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ ﴾ أى لينصرن الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ فإن الكفار بغوا عليهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ أى عفا عن المؤمنين ذنوبهم وقتلهم فى الشهر الحرام وستر .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ أى ذلك الذى قصصت عليك من نصر المظلوم هو بآنى أنا الذى أوج الليل فى النهار فلا يقدر أحد على ما أقدر عليه ؛ أى من قدر على هذا قدر على أن ينصر عبده . وقد مضى فى « آل عمران » معنى يولج الليل فى النهار . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ يسمع الأقوال ويبصر الأفعال ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة ولا ديب .  
نحلة إلا يعلمها ويسمعها ويبصرها .

قوله تعالى : ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أى ذو الحق ؛ فدينه الحق وعبادته حق . والمؤمنون يستحقون منه النصر بحكم وعده الحق . ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ أى الأصنام التى لا استحقاق لها فى العبادات . وقرأ نافع وابن كثير وابن عاصم وأبو بكر « وأن ما تدعون » بالناء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم . الباقر بن بلياء على الخبر هنا وفى لقمان ، واختاره أبو عبيد . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ ﴾ أى العالى على كل شئ بقدرته ، والعالى عن الأشباه والأنداد ، المقدس عما يقول الظالمون من الصفات التى لا تليق بجلاله . ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ أى الموصوف بالعظمة والجلال وكبر الشأن . وقيل : الكبير ذو الكبرياء . والكبرياء عبارة عن كمال الذات ؛ أى له الوجود المطلق أبدا وأزلا ، فهو الأول القديم ، والآخر الباقي بعد فناء خلقه .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ دليل على كمال قدرته ؛ أى من قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت ؛ كما قال الله عز وجل : « فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ » . ومثله كثير . « فَتُصْبِحُ » ليس بجواب فيكون منصوبا ، وإنما هو خبر عند الخليل وسيبويه . قال الخليل : المعنى أَنْتَبِهْ ! أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا ؛ كما قال :

ألم تسال الربيع القواء فينطق \* وهل تخبرنك اليوم ببدء سملق<sup>(٢)</sup>

(١) آية ٣٠ (٢) البيت لجميل بن عبد الله صاحب بنية . والقواء (بفتح القاف) : القفر . والبدء : القفر أيضا ، الذى يبدأ من سلك فيه . والسملق (بفتح السين وسكون الميم وفتح اللام) : الأرض التى لا تنبت ، وهى السهلة المستوية . (شواهد العيني) .

معناه قد سأله فنطق . وقيل استفهام تحقيق ؛ أى قد رأيت ، فتأمل كيف تصبح ! أو عطف لأن المعنى ألم تر أن الله ينزل . وقال الفراء : « ألم تر » خبر ؛ كما تقول فى الكلام : أعلم أن الله عز وجل ينزل من السماء ماء . ( فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ) أى ذات خضرة ؛ كما تقول : مُبْقِلَةٌ وَمُسْبِغَةٌ ؛ أى ذات بقل وسباع . وهو عبارة عن استعجالها إثر نزول الماء بالنبات واستمرارها كذلك عادة . قال ابن عطية : وروى عن عكرمة أنه قال : هذا لا يكون إلا بمكة وتهامة . ومعنى هذا : أنه أخذ قوله « فتصبح » مقصودا به صباح ليلة المطر ، وذهب إلى أن ذلك الأخضرار يتأخر فى سائر البلاد ، وقد شاهدت هذا [ فى ] السوس الأقصى نزل المطر ليلا بعد حقط أصبحت تلك الأرض الرملة التى نسفتها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف رقيق . ( إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ) قال ابن عباس : « خير » بما ينطوى عليه العبد من القنوط عند تأخير المطر . « لطيف » بأرزاق عباده . وقيل : لطيف باستخراج النبات من الأرض ، خير بحاجتهم وفاقتهم .

قوله تعالى : لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ( لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ) خلقا وملكا؛ وكل محتاج إلى تديره وإتقانه . ( وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ) فلا يحتاج إلى شئ ، وهو المحمود فى كل حال .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ) ذكر نعمة أخرى ، فأخبر أنه سخر لعباده ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار . ( وَالْفُلْكَ ) أى وسخر لكم الفلك فى حال جريها . وقرأ أبو عبد الرحمن الأعرج « والفلك » رفعا على الابتداء وما بعده خبره .

الباقون بالنصب نسقا على قوله « ما في الأرض » . ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ ﴾ أى كراهية أن تقع . وقال الكوفيون : لئلا تقع . وإمساكه لها خلق السكون فيها حالا بعد حال . ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ أى إلا بإذن الله لها بالوقوع ، فتقع بإذنه ، أى بإرادته وبمحيطه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أى فى هذه الأشياء التى سخرها لهم .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ﴾ أى بعد أن كنتم نطفًا . ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم . ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أى للحساب والثواب والعقاب . ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ أى لمجود لما ظهر من الآيات الدالة على قدرته ووحدانيته . قال ابن عباس : يريد الأسود ابن عبد الأسد وأبا جهل بن هشام والعاص بن هشام وجماعة من المشركين . وقيل : إنما قال ذلك لأن الغالب على الإنسان كفر النعم ؛ كما قال تعالى : « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ » .<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا ﴾ أى شرعا . ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ أى عاملون به . ﴿ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ ﴾ أى لا ينزع عنك أحد منهم فيما يُشرع لأمتك ؛ فقد كانت الشرائع فى كل عصر . وروى فرقة أن هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار فى أمر الذبائح ، وقولهم للمؤمنين : تأكلون ما ذبحتم ولا تأكلون ما ذبح الله من الميتة ، فكان ما قتل الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم أتم بسكاكينكم ؛ فزلت الآية بسبب هذه المنازعة . وقد مضى هذا فى « الأنعام » والحمد لله . وقد تقدم فى هذه السورة ما للعلماء فى قوله تعالى « مَنَسَكًا » .<sup>(٢)</sup> وقوله : « هُمْ نَاسِكُوهُ » يعطى أن المنسك المصدر ، ولو كان الموضع لقال هم ناسكون فيه .

(١) آية ١٣ سورة سبأ . (٢) راجع ج ٧ ص ٧٢ (٣) ص ٥٨ من هذا الجزء .

وقال الزجاج : « فلا يُنَازِعَنَّكَ في الأمر » أى فلا يجادلنك ؛ ودلّ على هذا « وإن جادلوك » . ويقال : قد نازعوه فكيف قال فلا ينزعنك ؛ فالجواب أن المعنى فلا تنازعهم أنت . نزلت الآية قبل الأمر بالقتال ، تقول : لا يضاربك فلان فلا تضارب به أنت ؛ فيجرى هذا في باب المفاعلة . ولا يقال : لا يضربك زيد وأنت تريد لا تضرب زيدا . وقرأ أبو مجلز « فلا يَنزِعَنَّكَ في الأمر » أى لا يستخلفنك ولا يغلبنك عن دينك . وقرأة الجماعة من المنازعة . ولفظ النهى في القراءتين للكفار ، والمراد النبي صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أى إلى توحيده ودينه والإيمان به . ﴿ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى ﴾ أى دين . ﴿ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى قويم لا أعوجاج فيه .

قوله تعالى : وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾  
 اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾  
 قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ ﴾ أى خاصموك يا محمد ؛ يريد مشركى مكة . ﴿ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يريد من تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ عن ابن عباس . وقال مقاتل : هذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وهو في السماء السابعة لما رأى من آيات ربه الكبرى ؛ فأوحى الله إليه « وإن جادلوك » بالباطل فدافعهم بقولك « الله أعلم بما تعملون » من الكفر والتكذيب ؛ فأمره الله تعالى بالإعراض عن مماراتهم صيانة له عن الاشتغال بتعتتهم ؛ ولا جواب لصاحب العناد . ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ يريد بين النبي صلى الله عليه وسلم وقومه . ﴿ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ يريد في خلافكم آياتي ، فتعرفون حينئذ الحق من الباطل .

مسألة — في هذه الآية أدب حسن علمه الله عباده في الرد على من جادل تعتتا ومراءا ألا يجاب ولا يناظر ويدفع بهذا القول الذى علمه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : إن هذه الآية منسوخة بالسيف ؛ يعنى السكوت عن مخالفه والاكتفاء بقوله : « الله يحكم بينكم » .

قوله تعالى : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ <sup>ق</sup>  
 إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ <sup>ق</sup> إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ( أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ) أى وإذا قد علمت يا محمد هذا وأيقنت فأعلم أنه يعلم أيضا ما أنتم مختلفون فيه فهو يحكم بينكم . وقد قيل : إنه استفهام تقرير للغير . ( إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ) أى كل ما يجرى في العالم فهو مكتوب عند الله في أم الكتاب . ( إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ) أى إن الفصل بين المخلفين على الله يسير . وقيل : المعنى إن كتاب القلم الذى أمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة على الله يسير .

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا  
 وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ( وَيَعْبُدُونَ ) يريد كفار قريش . ( مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا ) أى حجة وبرهانا . وقد تقدم فى « آل عمران » . ( وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ) .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا  
 قُلْ أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ  
 الْمَصِيرُ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ( وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ) يعنى القرآن . ( تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ) أى الغضب والعبوس . ( يَكَادُونَ يَسْطُونَ ) أى يبطشون . والسطوة شدة البطش ؛ يقال : سطا به يسطو إذا بطش به ؛ كان ذلك بضرب أو بشم ، وسطا



عليه . ﴿ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ . وقال ابن عباس : يسطون يسطون إليهم أيديهم .  
 محمد بن كعب : أي يقعون بهم . الضحاك : أي يأخذونهم أخذًا باليد ، والمعنى واحد .  
 وأصل السطو القهر . والله ذو سطوات ؛ أي أخذات شديدة . ﴿ قُلْ أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ  
 ذَلِكَ النَّارِ ﴾ أي أكره من هذا القرآن الذي تسمعون هو النار ؛ فكأنهم قالوا : ما الذي هو  
 شر ؛ فقيل هو النار . وقيل : أي هل أنبئكم بشر مما يلحق تالي القرآن منكم هو النار ؛  
 فيكون هذا وعيدا لهم على سطواتهم بالذين يتلون القرآن . ويجوز في « النار » الرفع والنصب  
 والخفض ؛ فالرفع على هو النار ، أو هي النار . والنصب بمعنى أعنى ، أو على إضمار فعل مثل  
 الثاني ، أو يكون محمولا على المعنى ؛ أي أعرفكم بشر من ذلك النار . والخفض على البدل .  
 ﴿ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ في القيامة . ﴿ وَيَأْتِسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي الموضع الذي يصيرون إليه  
 وهو النار .

قوله تعالى : يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ  
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ  
 الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ هذا متصل بقوله : « وَيَعْبُدُونَ  
 مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا » . وإنما قال « ضُرِبَ مَثَلٌ » لأن حجج الله تعالى عليهم  
 بضرب الأمثال أقرب إلى أفهامهم . فإن قيل : فأين المثل المضروب ؛ ففيه وجهان :  
 الأول — قال الأخفش : ليس ثم مثل ، وإنما المعنى ضربوا لي مثلا فاستمعوا قولهم ؛ يعني  
 أن الكفار جعلوا لله مثلا بعبادتهم غيره ؛ فكأنه قال جعلوا لي شبيها في عبادتي فاستمعوا خبر هذا  
 الشبه . الثاني — قول القُتَيْبِيِّ : وأن المعنى يأيتها الناس ، مَثَلٌ من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق  
 ذبابا وإن سلها الذباب شيئا لم تستطع أن تستنقذه منه . وقال النحاس : المعنى ضرب الله  
 عز وجل ما يُعبد من دونه مثلا ، قال : وهذا من أحسن ما قيل فيه ؛ أي بين الله لكم شبا

ولمعبودكم . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قراءة العامة « تدعون » بالتاء . وقرأ السلمي وأبو العالية ويعقوب « يدعون » بالياء على الخبر . والمراد الأوثان الذين عبدوهم من دون الله . وكانت حول الكعبة ، وهي ثلثمائة وستون صنما . وقيل : السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله عز وجل . وقيل : الشياطين الذين حملوهم على معصية الله تعالى ، والأول أصوب . ﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ الذباب اسم واحد للذكر والأنثى ، والجمع القليل أذبة والكثير ذبَابان ؛ على مثل غراب وأغربة وغربان ؛ وسُمِّيَ به لكثرة حركته . الجوهرى : والذبَاب معروف الواحدة ذبابة ، ولا تقل ذبانة . والمذبذبة ما يذب به الذباب . وذُبَابُ أسنان الإبل حَذَها . وذُبَابُ السيف طَرَفه الذى يضرب به . وذُبَابُ العين إنسانها . والذَّبَابَةُ البقية من الدين . وذَبَبُ النهار إذا لم يبق منه إلا بقية . والتذبذب التحرك . والذَّبَذَةُ نَوْسُ الشيء المعلق في الهواء . والذَّبَذُ الذكر لتردده . وفي الحديث « مَنْ وَفَى شَرَّ ذَبَذِهِ » . [ وهذا مما لم يذكره ، أعنى قوله : وفي الحديث <sup>(١)</sup> ] . ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ﴾ الاستنقاذ والإيقاذ التخليص . قال ابن عباس : كانوا يَطْلُونُ أصنامهم بالزعران فتجف فَيَأْتِي فيختلسه . وقال السدي : كانوا يجعلون للأصنام طعاما فيقع عليه الذباب فيأكله . ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ قيل : الطالب الآلهة والمطلوب الذباب . وقيل بالعكس . وقيل : الطالب عابد الصنم والمطلوب الصنم ؛ فالطالب يطلب إلى هذا الصنم بالتقرب إليه ، والصنم المطلوب إليه . وقد قيل : « وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا » راجع إلى ألمه في قرص أبدانهم حتى يسلبهم الصبر لها والوفار معها . وخصَّ الذباب لأربعة أمور تخصه : لمهاتته وضعفه ولاستفذاره وكثرته ؛ فإذا كان هذا الذى هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذيته فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين وأربابا مطاعين . وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان .

قوله تعالى : مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

(١) ما بين المربعين غير واضح المعنى . وما نقله المؤلف رحمه الله عن الجوهرى مذكور كله في الصحاح الى قوله :

« ... شر ذبذبه » .

قوله تعالى : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (١) أى ما عظموه حق عظمتهم ؛ حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له . وقد مضى فى « الأنعام » . ﴿ إِنْ اللَّهَ لَقَوَّىٰ عَزِيزٌ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ ختم السورة بأن الله اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم لتبليغ الرسالة ؛ أى ليس بعنه محمدا أمرا بدعيا . وقيل : إن الوليد بن المغيرة قال : أو أنزل عليه الذكر من بيننا ؛ فنزلت الآية . وأخبر أن الاختيار إليه سبحانه وتعالى . ﴿ إِنْ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوال عباده ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بمن يختاره من خلقه لرسالته . ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يريد ما قدموا . ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ يريد ما خلفوا ؛ مثل قوله فى يس : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا » يريد ما بين أيديهم « وَآثَارَهُمْ » يريد ما خلفوا . (والى الله ترجع الأمور) .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ تقدم فى أول السورة أنها فضلت بسجدين ، وهذه السجدة الثانية لم يرها مالك وأبو حنيفة من العزائم ؛ لأنه قرن الركوع بالسجود ، وأن المراد بها الصلاة المفروضة ؛ وخص الركوع والسجود تشريفا للصلاة . وقد مضى القول فى الركوع والسجود مبينا فى « البقرة » والحمد لله وحده .

قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ أى امتثلوا أمره . ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ نذب فيما عدا الواجبات التى صح وجوبها من غير هذا الموضع .

قوله تعالى : وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ قيل : غنى به جهاد الكفار . وقيل : هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به ، والانتفاء عن كل ما نهى الله عنه ؛ أى جاهدوا أنفسكم في طاعة الله وردوها عن الهوى ، وجاهدوا الشيطان في رد وسوسته ، والظلمة في رد ظلمهم ، والكافرين في رد كفرهم . قال ابن عطية : وقال مقاتل وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » . وكذا قال هبة الله : إن قوله « حَقَّ جِهَادِهِ » وقوله في الآية الأخرى : « حَقَّ تُقَاتِيهِ » منسوخ بالتخفيف إلى الاستطاعة في هذه الأوامر . ولا حاجة إلى تقدير النسخ ؛ فإن هذا هو المراد من أول الحكم ؛ لأن « حَقَّ جِهَادِهِ » ما ارتفع عنه الحرج . وقد روى سعيد بن المسيب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ » . وقال أبو جعفر النحاس : وهذا مما لا يجوز أن يقع فيه نسخ ؛ لأنه واجب على الإنسان ، كما روى حيوة بن شريح يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المجاهد من جاهد نفسه لله عز وجل » . وكما روى أبو غالب عن أبي أمامة أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أى الجهاد أفضل ؟ عند الجمرة الأولى فلم يجبه ، ثم سألته عند الجمرة الثانية فلم يجبه ، ثم سألته عند جمرة العقبة ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أين السائل ؟ » فقال : أنا ذا ؛ فقال عليه السلام : « كلمة عدل عند سلطان جائر » .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَجْتَبَاكُمْ ﴾ أى اختاركم للذبّ عن دينه والتزام أمره ؛ وهذا تأكيد للأمر بالمجاهدة ، أى وجب عليكم أن تجاهدوا لأن الله اختاركم له .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أى من ضيق . وقد تقدّم فى « الأنعام » .<sup>(١)</sup>  
وهذه الآية تدخل فى كثير من الأحكام ؛ وهى مما خص الله بها هذه الأمة . روى معمر عن قتادة قال : أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم يُعطها إلا نبيّ : كان يقال للنبيّ آذهب فلا حرج عليك . وقيل لهذه الأمة : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » . والنبيّ شهيد على أمته ، وقيل لهذه الأمة : « لتكونوا شهداء على الناس » . ويقال للنبيّ : سَلْ تُعْطَهُ ، وقيل لهذه الأمة : « ادعوني أستجب لكم » .

الثانية — واختلف العلماء فى هذا الحرج الذى رفعه الله تعالى ؛ فقال عكرمة : هو ما أحلّ من النساء مثنى وثلاث ورباع ، وما ملكت يمينك . وقيل : المراد قصر الصلاة ، والإفطار للسافر ، وصلاة الإيماء لمن لا يقدر على غيره ، وحطّ الجهاد عن الأعمى والأعرج والمريض والعديم الذى لا يجد ما ينفق فى غزوه ، والغريم ومن له والدان ، وحطّ الإضر الذى كان على بنى إسرائيل . وقد مضى تفصيل أكثر هذه الأشياء<sup>(٢)</sup> . وروى عن ابن عباس والحسن البصرى أن هذا فى تقديم الأهلّة وتأخيرها فى الفطر والأضحى والصوم ؛ فإذا أخطأت الجماعة هلال ذى الحجة فوقفوا قبل يوم عرفة بيوم أو وقفوا يوم النحر أجزأهم ، على خلاف فيه بيناه فى كتاب المقتبس فى شرح موطأ مالك بن أنس رضى الله عنه . وما ذكرناه هو الصحيح فى الباب . وكذلك الفطر والأضحى ؛ لما رواه حماد بن زيد عن أيوب عن محمد بن المنكدر عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” فطرکم يوم تُفطرون وأضحاکم يوم تضحون “ . نخرجه أبو داود والدارقطنى ، ولفظه ما ذكرناه . والمعنى : باجتهادكم من غير حرج يلحقكم . وقد روى الأئمة أنه عليه السلام سئل يوم النحر عن أشياء ، فما يسئل عن

أمر مما ينسى المرء أو يجهل من تقديم الأمور بعضها قبل بعض وأشباهها إلا قال فيها :  
”افعل ولا حرج“ .

الثالثة — قال العلماء : رفع الحرج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع ، وأما السلافة  
والسُّراق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج ، وهم جاءلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين ، وليس  
في الشرع أعظم حرجا من إلزام ثبوت رجل لأثنين في سبيل الله تعالى ؛ ومع صحة اليقين  
وجودة العزم ليس بحرج .

فوله تعالى : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ ﴾ قال الزجاج : المعنى آتبعوا ملة أبيكم . الفزاء : انتصب  
على تقدير حذف الكاف ؛ كأنه قال كلمة . وقيل : المعنى وآفعلوا الخير فعل أبيكم ؛ فأقام  
الفعل مقام الملة . وإبراهيم هو أبو العرب قاطبة . وقيل : الخطاب لجميع المسلمين ، وإن  
لم يكن الكل من ولده ؛ لأن حرمة إبراهيم على المسلمين كحرمة الوالد على الولد . ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ  
الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ قال ابن زيد والحسن : « هو » راجع إلى إبراهيم ؛ والمعنى : هو سماكم  
المسلمين من قبل النبي صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَفِي هَذَا ﴾ أى وفي حكمه أن من أتبع محمدا  
صلى الله عليه وسلم فهو مسلم . قال ابن زيد : وهو معنى قوله : « رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ  
وَمِنْ دُرَيْتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ »<sup>(١)</sup> . قال النحاس : وهذا القول مخالف لقول عطاء الأمة . روى  
على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : سماكم الله عز وجل المسلمين من قبل ، أى فى الكتب  
المتقدمة وفى هذا القرآن ؛ قاله مجاهد وغيره . ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ﴾ أى بتبليغه  
إياكم . ﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ أن رسلكم قد بلغتهم ؛ كما تقدم فى « البقرة »<sup>(٢)</sup> .  
﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾<sup>(٣)</sup> تقدم  
مستوفى والحمد لله .

(١) آية ١٢٨ سورة البقرة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٥٤ طبعة ثانية .

(٣) راجع ج ١ ص ١٦٤ ، ٣٤٣ طبعة ثانية أو الثالثة . و ج ٤ ص ١٥٦

## سورة المؤمنون

مكية كلها فى قول الجميع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ  
 خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلَتِهِمْ وَمَعْرُوضَاتِهِمْ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ  
 فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ  
 أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُنَّ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ أَتَبَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ  
 فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾  
 وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾  
 الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ روى البيهقي من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” لما خلق الله جنة عدن وغرس أشجارها بيده قال لها تكلمى فقالت قد أفلح المؤمنون “ . وروى النسائي عن عبد الله بن السائب قال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فصلّى في قِبَلِ الكعبة ، نخلع نعليه فوضعهما عن يساره فأففتح سورة المؤمنين ، فلما جاء ذكر موسى أو عيسى عليهما السلام أخذته سَعْلَةٌ فركع . خرجه مسلم بمعناه . وفى الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحي شمع عند وجهه كدوى النحل ؛ وأنزل عليه يوما فكشنا ساعة فسرّى عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : ” اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَقْصِنَا وَارْضَنَا وَارْضَ عَنَّا — ثم قال —

أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة — ثم قرأ — قد أفلح المؤمنون حتى ختم عشر آيات ؛ صححه ابن العربي . وقال النحاس : معنى "من أقامهن" من أقام عليهن ولم يخالف ما فيهن ؛ كما تقول : فلان يقوم بعمله . ثم نزل بعد هذه الآيات فرض الوضوء والحج فدخل معهن . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « قد أفلح المؤمنون » بضم الألف على الفعل المجهول ؛ أى أبقوا في الثواب والخير . وقد مضى في أول « البقرة » معنى الفلاح لغة ومعنى <sup>(١)</sup> والحمد لله وحده .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ خَاشِعُونَ ﴾ روى المعتمر عن خالد بن محمد بن سيرين قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم ينظر إلى السماء في الصلاة ؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية « الذين هم في صلاتهم خاشعون » . فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر حيث يسجد . وفي رواية هُشيم : كان المسلمون يانفتون في الصلاة وينظرون حتى أنزل الله تعالى « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » ؛ فأقبلوا على صلاتهم وجعلوا ينظرون أمامهم . وقد تقدم ما للعلماء في حكم المصلي إلى حيث ينظر في « البقرة » عند قوله « فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . وتقدم أيضا معنى الخشوع لغة ومعنى في البقرة أيضا عند قوله تعالى : « وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ » <sup>(٢)</sup> . والخشوع محله القلب ؛ فإذا خشع خشعت الجوارح كلها لخشوعه ؛ إذ هو ملكها ، حسبما بيناه أول البقرة . وكان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة وقام إليها يهاب الرحمن أن يمد بصره إلى شيء وأن يحدث نفسه بشيء من الدنيا . وقال عطاء : هو ألا يعبت بشيء من جسده في الصلاة . وأبصر النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يعبت بلحيته في الصلاة فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » . وقال أبو ذر قال النبي صلى الله عليه وسلم . « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرحمة تواجهه فلا يحركن الحصى » . رواه الترمذي . وقال الشاعر :

(١) راجع ج ١ ص ١٨١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٥٨ طبعة ثانية .

(٣) راجع ج ١ ص ٣٧٤ طبعة ثانية أو ثالثة .



أَلَا فِي الصَّلَاةِ الْخَيْرُ وَالْفَضْلُ أَجْمَعُ \* لَأَنْبَ بِهَا الْآرَابُ<sup>(١)</sup> لَهِ تَخَضَعُ  
وَأَوَّلُ فَرِيضٍ مِنْ شَرِيعَةِ دِينِنَا \* وَآخِرُ مَا يَبْقَى إِذَا الدِّينُ يُرْفَعُ  
فَمَنْ قَامَ لِلتَّكْبِيرِ لَأَقْتَهُ رَحْمَةٌ \* وَكَانَ كَعْبِدٍ بَابَ مَوْلَاهُ يَقْرَعُ  
وَصَارَ لِرَبِّ الْعَرْشِ حِينَ صَلَاتِهِ \* نَجِيًّا فَيَا طُوبَاهُ لَوْ كَانَ يَخْشَعُ

وروى أبو عمر أن الجَوْنِيَّ قال : قيل لعائشة ما كان خلقُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟  
قالت : أنقرءون سورة المؤمنين ؟ قيل نعم . قالت : اقرءوا ؛ فقرأ عليها « قد أفلح  
المؤمنون — حتى بلغ — يحافظون » . وروى النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :  
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلحظ في صلاته يمينا وشمالا ، ولا يلوى عنقه خلف ظهره .  
وقال كعب بن مالك في حديثه الطويل : ثم أصلى قريبا منه — يعني من النبي صلى الله  
عليه وسلم — وأسارقه النظر ، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إلى وإذا التفت نحوه أعرض  
عني ... الحديث ؛ ولم يأمره بإعادة .

الثالثة — اختلف الناس في الخشوع ، هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها  
ومكملاتها على قولين . والصحيح الأول ، ومحل القلب ، وهو أول علم يرفع من الناس ؛ قاله  
عبادة بن الصامت ، رواه الترمذي من حديث جبير بن نفير عن أبي الدرداء ، وقال : هذا  
حديث حسن غريب . وقد أخرجه النسائي من حديث جبير بن نفير أيضا عن عوف بن مالك  
الأشجعي من طريق صحيحة . قال أبو عيسى : ومعاوية بن صالح ثقة عند أهل الحديث ،  
ولا نعلم أحدا تكلم فيه غير يحيى بن سعيد القطان .

قلت : معاوية بن صالح أبو عمرو ويقال أبو عمر الحضرمي الحمصي قاضي الأندلس ،  
سئل عنه أبو حاتم الرازي فقال : صالح الحديث ، يكتب حديثه ولا يحتج به . واختلف  
فيه قول يحيى بن معين ، ووثقه عبد الرحمن بن مهدي وأحمد بن حنبل وأبو زرعة الرازي ،  
واحتج به مسلم في صحيحه . وتقدم في « البقرة » معنى اللغو والزكاة فلا معنى للإعادة<sup>(٣)</sup> . وقال

(١) الآراب : جمع الإرب (بكسر فسكون) وهو العضو . (٢) هو أحد رجال سند الحديث المتقدم .

(٣) راجع ج ١ ص ٣٤٣ ، ج ٣ ص ٩٩

الضحاك : إن اللغو هنا الشرك . وقال الحسن : إنه المعاصي كلها . فهذا قول جامع يدخل فيه قول من قال : هو الشرك ؛ وقول من قال هو الغناء ؛ كما روى مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر ، على ما يأتي في «لُقمان» بيانه . ومعنى «فاعلون» أى مؤدّون ؛ وهى فصيحة ، وقد جاءت فى كلام العرب . قال أُمّية بن أبى الصلت :

المطعمون الطعام فى السنة الأُز \* مة والفاعلون للزكوات

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ قال ابن العربى : « من غريب القرآن أن هذه الآيات العشر عامة فى الرجال والنساء ، كسائر ألفاظ القرآن التى هى محتملة لهم فإنها عامة فيهم ، إلا قوله «والذين هم لفروجهم حافظون» وإنما خاطب بها الرجال خاصة دون الزوجات ؛ بدليل قوله : «إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم» . وإنما عُرف حفظ المرأة فرجها من أدلة أحركات آيات الإحصان عموما وخصوصا وغير ذلك من الأدلة » . قلت : وعلى هذا التأويل فى الآية فلا يحل لامرأة أن يطأها من تملكه إجماعا من العلماء ؛ لأنها غير داخلية فى الآية ، ولكنها لو أعتقته بعد ملكها له جاز له أن يترجها كما يجوز لغيره عند الجمهور . وروى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة والشَّعْبِيّ والنَّخَعِيّ أنها لو أعتقته حين ملكته كانا على نكاحهما . قال أبو عمر : ولا يقول هذا أحد من فقهاء الأمصار ؛ لأن تملكها عندهم يبطل النكاح بينهما ، وإس ذلك بطلاق وإنما هو فسخ للنكاح ؛ وأنها لو أعتقته بعد ملكها له لم يراجعها إلا بنكاح جديد ولو كانت فى عدّة منه .

الخامسة — قال محمد بن عبد الحكم : سمعت حرملة بن عبد العزيز قال : سألت مالكاً عن الرجل يجلد عُمَيْرَةً ، فتلا هذه الآية «والذين هم لفروجهم حافظون» — إلى قوله — العادون » . وهذا لأنهم يَكُونُونَ عن الذَّكْرِ بَعْمَيْرَةٍ ؛ وفيه يقول الشاعر :

إذا حَلَّتْ بِرَادٍ لا أنيس به \* فأجلد عُمَيْرَةً لا داء ولا حرج

ويسميه أهل العراق الاستمئاء ، وهو استفعال من المنى . وأحمد بن حنبل على ورعه يجوز ، ويحتج بأنه إخراج فضلة من البدن بفاز عند الحاجة ؛ أصله الفصد والحجامة . وعامة

العلماء على تحريره . وقال بعض العلماء : إنه كالفاعل بنفسه ، وهى معصية أحدثها الشيطان وأجراها بين الناس حتى صارت قسيلة ، وباليتهى لم تُقَل ؛ ولو قام الدليل على جوازها لكان ذو المروءة يعرض عنها لدناءتها . فإن قيل : إنها خير من نكاح الأئمة ؛ قلنا : نكاح الأئمة ولو كانت كافرة على مذهب بعض العلماء خير من هذا ، وإن كان قد قال به قائل أيضا ، ولكن الاستمناء ضعيف في الدليل عار بالرجل الدنيء فكيف بالرجل الكبير .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ ﴾ قال الفراء : أى من أزواجهم اللاتى أحل الله لهم لا يجاوزون . ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ فى موضع خفض معطوفة على « أزواجهم » و « ما » مصدرية . وهذا يقتضى تحريم الزنى وما قلناه من الاستمناء ونكاح المتعة ؛ لأن المتمتع بها لا تجرى مجرى الزوجات ، لا ترث ولا تورث ، ولا يلحق به ولدها ، ولا يخرج من نكاحها بطلاق يستأنف لها ، وإنما يخرج بانقضاء المدة التى عُقدت عليها وصارت كالمسأجرة . ابن العربى : إن قلنا إن نكاح المتعة جائز فهى زوجة إلى أجل ينطلق عليها اسم الزوجية . وإن قلنا بالحق الذى أجمعت عليه الأمة من تحريم نكاح المتعة لما كانت زوجة فلم تدخل فى الآية .

قلت : وفائدة هذا الخلاف هل يجب الحد ولا يلحق الولد كالزنى الصريح أو يدفع الحد للشبهة ويلحق الولد ؛ قولان لأصحابنا . وقد كان للمتعة فى التحليل والتحریم أحوال ؛ فمن ذلك أنها كانت مباحة ثم حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن خيبر ، ثم حلها فى غزاة الفتح ، ثم حرمها بعد ؛ قاله ابن خُوَيْرِزَمَنَدَاد من أصحابنا وغيره ، وإليه أشار ابن العربى . وقد مضى فى « النساء » القول فيها مستوفى <sup>(١)</sup> .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ فسمى من نكح ما لا يحل عاديًا ، وأوجب عليه الحد لعدوانه ، واللائط عادٍ قرآنا ولغة ، بدليل قوله تعالى : « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ » وكما تقدم فى « الأعراف » ؛ فوجب أن يقام الحد عليهم ، وهذا ظاهر لا غبار عليه .

قلت : فيه نظر ، ما لم يكن جاهلا او متأولا ، وإن كان الإجماع منعقدا على أن قوله تعالى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُمْ غَيْرَ مُلْؤِمِينَ » خص به الرجال دون النساء ؛ فقد روى معمر عن قتادة قال : تسررت امرأة غلامها ؛ فذكر ذلك لعمر فساها : ما حملك على ذلك ؟ قالت : كنت أراه يحل لي بملك يميني كما يحل للرجل المرأة بملك اليمين ؛ فاستشار عمر في رَجْمِهَا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : « قُلْتُ كَتَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ ، لَا رَجْمَ عَلَيْهَا . فَقَالَ عُمَرُ : لَا جَرَمَ ! وَاللَّهِ لَا أُحِلُّكَ لِحَرْبِهِ أَبَدًا . عَاقِبَهَا بِذَلِكَ وَدَرَأَ الْحَدَّ عَنْهَا ، وَأَمَرَ الْعَبْدَ أَلَّا يَقْرَبَهَا . وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَاهُ يَقُولُ : أَنَا حَضَرْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ جَاءَتْهُ أَمْرَأَةٌ بِغَلَامٍ لَهَا وَضِيءٌ فَقَالَتْ : إِنِّي اسْتَسَرَّرْتُهُ فَمَنْعَنِي بَنُو عَمِّي عَنْ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا أَنَا بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ تَكُونُ لَهُ الْوَلِيدَةُ فَيَطْوُهَا ؛ فَأَنَّهُ عَنِ ابْنِ عَمِّي ؛ فَقَالَ عُمَرُ : أَتُرَوِّجِي قَبْلَهُ ؟ قَالَتْ نَعَمْ ؛ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا مَنَزِلَتُكَ مِنَ الْجَهَالَةِ لَرَجَمْتُكَ بِالْحِجَارَةِ ، وَلَكِنْ أَذْهَبُوا بِهِ فَيَبِيعُوهُ إِلَى مَنْ يَخْرُجُ بِهِ إِلَى غَيْرِ بَلَدِهَا . وَ « وَرَاءَ » بِمَعْنَى سِوَى ، وَهُوَ مَفْعُولٌ بِ « مَا بَتَغَى » أَيْ مِنْ طَلَبِ سِوَى الْأَزْوَاجِ وَالْوَلَدِ الْمَمْلُوكَةِ لَهُ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : أَيْ فَمَنْ ابْتَغَى مَا بَعْدَ ذَلِكَ ؛ فَمَفْعُولُ الْابْتِغَاءِ مَحْذُوفٌ ، وَ « وَرَاءَ » ظَرْفٌ . وَ « ذَلِكَ » يُشَارُ بِهِ إِلَى كُلِّ مَذْكُورٍ مُؤَنَّثًا كَانَ أَوْ مَذْكُورًا . ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ أَيْ الْمَجَاوِزُونَ الْحَدَّ مِنْ عَدَا أَيْ جَاوَزَ الْحَدَّ وَجَاوَزَهُ .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ قرأ الجمهور « لِأَمَانَاتِهِمْ » بالجمع . وابن كثير بالإفراد . والأمانة والعهد يجمع كل ما ينحله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعلًا . وهذا يعم معاشرته الناس والمواعيد وغير ذلك ؛ وغاية ذلك حفظه والقيام به . والأمانة أعم من العهد ، وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد .

التاسعة — قرأ الجمهور « صَلَوَاتِهِمْ » وحمزة والكسائي « صَلَاتِهِمْ » بالإفراد ؛ وهذا الإفراد اسم جنس فهو في معنى الجميع . والمحافظة على الصلاة لإقامتها والمبادرة إليها أوائل

أوقاتها ، وإتمام ركوعها وسجودها . وقد تقدم في « البقرة » مستوفى . ثم قال : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ أى من عمل بما ذكر في هذه الآيات فهم الوارثون ؛ أى يرثون منازل أهل النار من الجنة . وفي الخبر عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم "إن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكناً في الجنة ومسكناً في النار فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون منازل الكفار ويجعل الكفار في منازلهم في النار" . نخرجه ابن ماجه بمعناه . عن أبى هريرة أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار وراثته أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى : « أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ » " . إسناده صحيح . ويحتمل أن يسمى الحصول على الجنة وراثته من حيث حصولها دون غيرهم ، فهو اسم مستعار على الوجهين . والفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها . نخرجه الترمذى من حديث الربيع بنت النضر أم حارثة ، وقال : حديث حسن صحيح . وفي حديث مسلم "فإذا سألت الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تفتجر أنهار الجنة" . قال أبو حاتم محمد بن حبان : قوله صلى الله عليه وسلم "فإنه أوسط الجنة" يريد أن الفردوس في وسط الجنان في العرض وهو أعلى الجنة ؛ يريد في الارتفاع . وهذا كله يصحح قول أبى هريرة : إن الفردوس جبل الجنة التى تفتجر منه أنهار الجنة . واللفظة فيما قال مجاهد : رُومِيَّةٌ عُرْبِيَّةٌ . وقيل : هى فارسية عربية . وقيل حبشية ؛ وإن ثبت ذلك فهو وفاق بين اللغات . وقال الضحاك : هو عربية وهو الكرم ؛ والعرب تقول للكرم فراديس . ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فأنت على معنى الجنة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخِرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ الإنسان هنا آدم عليه الصلاة والسلام ؛ قاله قتادة وغيره ، لأنه استل من الطين . ويحىء الضمير في قوله : « ثم جعلناه » عائدا على ابن آدم ، وإن كان لم يذكر لشهرة الأمر ؛ فإن المعنى لا يصلح إلا له . نظير ذلك « حتى توارت بالحجاب »<sup>(١)</sup> . وقيل : المراد بالسلالة ابن آدم ؛ قاله ابن عباس وغيره . والسلالة على هذا صفوة الماء ، يعنى المنى . والسلالة فعالة من السل وهو استخراج الشيء من الشيء ؛ يقال : سللت الشعر من العجين ، والسيف من الغمد فأنسل ؛ ومنه قوله :

\* فسلّ ثيابي من ثيابك تنسل<sup>(٢)</sup> \*

فالنطفة سلالة ، والولد سليل وسلالة ؛ عنى به الماء يسيل من الظهر سلا . قال الشاعر :  
بجاءت به عصب الأديم غصنفراً \* سلالة فرج كان غير حصين<sup>(٣)</sup>

وقال آخر :

وما هند إلا ماهرة عريّة \* سيلة أفراس تجالها بغل<sup>(٤)</sup>

وقوله « من طين » أى أن الأصل آدم وهو من طين .

قلت : أى من طين خالص ؛ فأما ولده فهو من طين ومنى ، حسبما بيناه في أول سورة الأنعام . وقال الكلبي : السلالة الطين إذا عصرته أنسل من بين أصابعك ؛ فالذى يخرج هو السلالة .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ نُطْفَةٍ ﴾ قد مضى القول في النطفة والعلة والمضغة وما في ذلك من الأحكام في أول الحج ، والحمد لله على ذلك .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ اختلف الناس في الخلق الآخر ؛ فقال ابن عباس والشَّعْبِيُّ وأبو العالية والضحاك وابن زيد : هو نفخ الروح فيه بعد أن كان

(١) آية ٣٢ سورة ص . (٢) هذا عجز بيت من معلقة امرئ القيس . وصدده :

\* وإن تك قد ساءت لك منى خليفة \*

(٣) البيت لحسان بن ثابت . (٤) نسب صاحب لسان العرب هذا البيت لهند بنت النعمان (مادة سلل) . وتجللها : ملامها . وقوله « بغل » قال ابن برى : وذكر بعضهم أنها تصحيف ، وأن صوابه « نغل » بالنون وهو الخسيس من الناس والدواب ؛ لأن البغل لا ينسل . (٥) راجع ج ٦ ص ٣٨٧ (٦) راجع ص ٦ من هذا الجزء .

جمادا . وعن ابن عباس : نروجه إلى الدنيا . وقال قتادة عن فرقة : نبات شعره . الضحاك : خروج الأسنان ونبات الشعر . مجاهد : كمال شبابه ؛ وروى عن ابن عمر . والصحيح أنه عام في هذا وفي غيره من النطق والإدراك وحسن المحاولة وتحصيل المعقولات إلى أن يموت .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ يروى أن عمر بن الخطاب لما سمع صدر الآية إلى قوله « خلقا آخر » قال فتبارك الله أحسن الخالقين ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هكذا أنزلت » . وفي مسند الطيالسي : « ونزلت » ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين « الآية ؛ فلما نزلت قلت أنا : تبارك الله أحسن الخالقين ؛ فنزلت « تبارك الله أحسن الخالقين » . ويروى أن قائل ذلك معاذ بن جبل . وروى أن قائل ذلك عبد الله بن أبي سرح ، وبهذا السبب ارتد وقال : آتى بمثل ما يأتي مجد ؛ وفيه نزل « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » على ما تقدم بيانه في « الأنعام » . وقوله تعالى « تبارك » تفاعل من البركة . ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ أتقن الصانعين . يقال لمن صنع شيئا خلقه ؛ ومنه قول الشاعر :

ولأنت تَفَرِّي ما خلقتَ وبع \* ضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفَرِّي<sup>(٢)</sup>

وذهب بعض الناس إلى نفي هذه اللفظة عن الناس وإنما يضاف الخلق إلى الله تعالى . وقال ابن جرير : إنما قال « أحسن الخالقين » لأنه تعالى قد أذن لعيسى عليه السلام أن يخلق ؛ واضطرب بعضهم في ذلك . ولا تُنتفى اللفظة عن البشر في معنى الصنع ؛ وإنما هي منفية بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم .

مسئلة<sup>(٣)</sup> — من هذه الآية قال ابن عباس لعمر حين سأل مشيخة الصحابة عن ليلة القدر فقالوا : الله أعلم ؛ فقال عمر : ما تقول يا ابن عباس ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى خلق السموات سبعا والأرضين سبعا ، وخلق ابن آدم من سبع وجعل رزقه في سبع ، فأراها

(١) راجع ج ٧ ص ٣٩ (٢) البيت لزهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان . والفري : القطع .

(٣) ذكر المؤلف أن المسائل خمس ، ولم يذكر إلا أربعا ؛ ولعل هذه المسألة هي الخامسة .

في ليلة سبع وعشرين . فقال عمر رضى الله عنه : <sup>(١)</sup> أعجزكم أن تأتوا بمثل ما أتى هذا الغلام الذى لم تجتمع شؤون رأسه . وهذا الحديث بطوله في مسند ابن أبى شيبة . فأراد ابن عباس « خلق ابن آدم من سبع » بهذه الآية <sup>(٢)</sup> ، وبقوله « وجعل رزقه في سبع » قوله « فأنبثنا فيها <sup>(٣)</sup> حبا . وعينا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا » الآية . السبع منها لابن آدم ، والأب للأنعام . والقضب يأكله ابن آدم ويسمن منه النساء ؛ هذا قول . وقيل : القضب البقول لأنها تُقضب ؛ فهي رزق ابن آدم . وقيل : القضب والأب للأنعام ، والست الباقية لابن آدم ، والسابعة هي للأنعام ؛ إذ هي من أعظم رزق ابن آدم .

قوله تعالى : **ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ** ﴿١٥﴾ **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ** ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ** ﴾ أى بعد الخلق والحياة . النحاس : ويقال في هذا المعنى لما توتون . ثم أخبر بالبعث بعد الموت فقال : ﴿ **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ** ﴾ .

قوله تعالى : **وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ** ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ** ﴾ قال أبو عبيدة : أى سبع سموات . وحكى عنه أنه يقال : طارقتُ الشيء ، أى جعلت بعضه فوق بعض ؛ ف قيل للسموات طرائق لأن بعضها فوق بعض . والعرب تسمى كل شيء فوق شيء طريقة . وقيل : لأنها طرائق الملائكة . ﴿ **وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ** ﴾ قال بعض العلماء : أى عن خلق السماء . وقال أكثر المفسرين : أى عن الخلق كلهم من أن تسقط عليهم فتهلكهم .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى « وما كنا عن الخلق غافلين » أى في القيام بمصالحه وحفظه ؛ وهو معنى الحى القيوم ؛ على ما تقدم <sup>(٤)</sup> .

(١) في الدور المنشور : « أعجزتم أن تقولوا كما قال هذا الغلام » . (٢) كذا في الأصول ، وسياق الكلام يقتضى أن تكون العبارة هكذا : فأراد ابن عباس بقوله « خلق ابن آدم من سبع هذه الآية ... » الخ . (٣) آية ٢٧ وما بعدها سورة عبس . (٤) راجع ج ٣ ص ٢٧١



قوله تعالى : وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ<sup>ط</sup>  
وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — هذه الآية من نعم الله تعالى على خلقه ومما آمن به عليهم ؛ ومن أعظم المنن الماء الذي هو حياة الأبدان ونماء الحيوان . والماء المنزل من السماء على قسمين : هذا الذي ذكر الله سبحانه وتعالى وأخبر بأنه استودعه في الأرض ، وجعله فيها مختزنا لسقي الناس يجدونه عند الحاجة إليه ؛ وهو ماء الأنهار والعيون وما يستخرج من الآبار . وروى عن ابن عباس وغيره أنه إنما أراد الأنهار الأربعة : سَيِّحَانٌ وَجَيْحَانٌ وَنِيلٌ مِصرٌ وَالْفُرَاتُ . وقال مجاهد : ليس في الأرض ماء إلا وهو من السماء . وهذا ليس على إطلاقه ، وإلا فالأجاج ثابت في الأرض ، فيمكن أن يقيد قوله بالماء العذب ، ولا محالة أن الله تعالى قد جعل في الأرض ماء وأنزل من السماء ماء . وقد قيل : إن قوله « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » إشارة إلى الماء العذب ، وأن أصله من البحر ، رفعه الله تعالى بلطفه وحسن تقديره من البحر إلى السماء ، حتى طاب بذلك الرفع والتصعيد ؛ ثم أنزله إلى الأرض لينتفع به ، ولو كان الأمر إلى ماء البحر لما انتفع به من ملوحته .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ أى على مقدار مصلح ، لأنه لو كثر أهلك ؛ ومنه قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ<sup>(١)</sup> » . ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ يعنى الماء المختزن . وهذا تهديد ووعيد ؛ أى في قدرتنا إذهابه وتغويره ، ويهلك الناس بالعطش وتملك مواشيهم ؛ وهذا كقوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا — أَى غَائِرًا — فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ<sup>(٢)</sup> » .

الثالثة — ذكر النحاس : قرئ على أبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن يونس عن جامع بن سواده قال : حدثنا سعيد بن سابق قال حدثنا مسلمة بن علي عن مقاتل بن حيان

(١) آية ٢١ سورة الحجر . (٢) آية ٣٠ سورة الملك .

عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أنزل الله عز وجل من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار سَيِّحُونَ وهو نهر الهند وَجَيِّحُونَ وهو نهر بَلْخ وَدِجَلَةُ والقُرَات وهما نهرا العراق والنيل وهو نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة في أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل عليه السلام فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض وجعل فيها منافع للناس في أصناف معاشهم وذلك قوله جل ثناؤه : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ » فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله عز وجل جبريل فرفع من الأرض القرآن والعلم وجميع الأنهار الخمسة فيرفع ذلك إلى السماء فذلك قوله تعالى : « وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ » فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا .

الرابعة — كل ما نزل من السماء مختزنا كان أو غير مختزن فهو طاهر مطهر يغتسل به ويتوضأ منه ، على ما يأتي في «الفرقان» <sup>(١)</sup> بيانه .

قوله تعالى : فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾  
فيه مسالتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَأَنْشَأْنَا﴾ أى جعلنا ذلك سبب النبات ، وأوجدناه به وخلقناه . وذكر تعالى النخيل والأعناب لأنها ثمرة الحجاز بالطائف والمدينة وغيرهما ، قاله الطبرى . ولأنها أيضا أشرف الثمار ، فذكرها تشريفا لها وتنبيها عليها . ﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ أى فى الجنات . ﴿فَوَاكِهِ﴾ من غير الرطب والعنب . ويحتمل أن يعود على النخيل والأعناب خاصة إذ فيها مراتب وأنواع ، والأول أعم لسائر الثمرات .

الثانية — من حلف ألا يأكل فاكهة ، ففي الرواية عندنا يحنت بالبقلاء الخضراء وما أشبهها . وقال أبو حنيفة : لا يحنت بأكل القثاء والخيار والجزر ، لأنها من البقول لا من الفاكهة . وكذلك الجوز واللوز والفسق ، لأن هذه الأشياء لا تعد من الفاكهة .

(١) فى قوله تعالى : «وهو الذى أرسل الرياح بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ...» آية ٤٨

وإن أكل تفاحاً أو خوخاً أو مشمشاً أو تيناً أو إجاصاً يحث . وكذلك البطيخ ؛ لأن هذه الأشياء كلها تؤكل على جهة التفكه قبل الطعام وبعده ؛ فكانت فاكهة . وكذلك يابس هذه الأشياء إلا البطيخ اليابس لأن ذلك لا يؤكل إلا في بعض البلدان . ولا يحث بأكل البطيخ الهندي لأنه لا يعد من الفواكه . وإن أكل عنباً أو رماناً أو رطباً لا يحث . وخالفه أصحابه فقالوا يحث ؛ لأن هذه الأشياء من أعز الفواكه ، وتؤكل على وجه التمتع . والإفراد لها بالذكر في كتاب الله عز وجل لكمال معانيها ؛ كتخصيص جبريل وميكائيل من الملائكة . واحتج أبو حنيفة بأن قال : عطف هذه الأشياء على الفاكهة مرة فقال « فيهما فاكهة ونخل ورمان » ومرة عطف الفاكهة على هذه الأشياء فقال : « وفاكهة وأبا » والمعطوف غير المعطوف عليه ، ولا يليق بالحكمة ذكر الشيء الواحد بلفظين مختلفين في موضع المنة . والعنب والرمان يكتفى بهما في بعض البلدان فلا يكون فاكهة ؛ ولأن ما كان فاكهة لا فرق بين رطبه ويابسه ، ويابس هذه الأشياء لا يعد فاكهة فكذلك رطبها .

قوله تعالى : **وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدَّهْنِ وَصِغ**

**لِلْأَكَابِينِ** ﴿٢٠﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **( وَشَجَرَةً )** شجرة عطف على جنات . وأجاز الفراء الرفع لأنه لم يظهر الفعل ، بمعنى وثم شجرة ؛ ويريد بها شجرة الزيتون . وأفردها بالذكر لعظيم منافعتها في أرض الشام والحجاز وغيرهما من البلاد ، وقلة تعاهدها بالسقي والحفر وغير ذلك من المراعة في سائر الأشجار . **( تَخْرُجُ )** في موضع الصفة . **( مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ )** أي أنبتها الله في الأصل من هذا الجبل الذي بارك الله فيه . وطور سينا من أرض الشام وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ؛ قاله ابن عباس وغيره ؛ وقد تقدم في البقرة والأعراف . والطور الجبل في كلام العرب . وقيل : هو مما عرّب من كلام العجم . وقال ابن زيد : هو جبل

بيت المقدس ممدود من مصر إلى أيلة<sup>(١)</sup> . واختلف في سَيْناء ؛ فقال قتادة : معناه الحسن ؛ ويلزم على هذا التأويل أن يُنَوَّن الطور على النعت . وقال مجاهد : معناه مبارك . وقال معمر عن فرقة : معناه شجر ؛ ويلزمهم أن ينَوَّنوا الطور . وقال الجمهور : هو اسم الجبل ؛ كما تقول جبل أُحُد . وعن مجاهد أيضا : سَيْناء حجر بعينه أضيف الجبل إليه لوجوده عنده . وقال مقاتل : كل جبل يحمل الثمار فهو سينا ؛ أى حسن . وقرأ الكوفيون بفتح السين على وزن فعْلَاء ، وفعْلَاء في كلام العرب كثير ؛ يمنع من الصرف في المعرفة والنكرة ؛ لأن في آخرها ألف التانيث ، وألف التانيث ملازمة لما هي فيه ، وليس في الكلام فعْلَاء ، ولكن من قرأ سَيْناء بكسر السين جعله فعْلَاء ؛ فالهمزة فيه كههمزة حِرباء ، ولم يصرف في هذه الآية لأنه جعل اسم بقعة . وزعم الأخفش أنه اسم أعجمي .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ تَنَبَّأَ بِالذَّهْنِ ﴾ قرأ الجمهور « تَنَبَّأَ » بفتح التاء وضم الباء ، والتقدير : تنبأ ومعهما الدهن ؛ كما تقول : خرج زيد بسلاحه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم التاء وكسر الباء . واختلف في التقدير على هذه القراءة ؛ فقال أبو علي الفارسي : التقدير تنبأ جناها ومعه الدهن ؛ فالمفعول محذوف . وقيل : الباء زائدة ؛ مثل « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » وهذا مذهب أبي عبيدة . وقال الشاعر :

\* نضرب بالسيف ونرجو بالفرج \*

وقال آخر :

هَنْ الحرائر لَا رَبَّاتُ أَنْحَرَةٍ \* سود المحاجر لَا يقرآن بالسَّوَرِ<sup>(٢)</sup>

ونحو هذا قاله أبو علي أيضا ؛ وقد تقدم . وقيل : نبت وأنبت بمعنى ؛ فيكون المعنى كما مضى في قراءة الجمهور ، وهو مذهب الفراء وأبي إسحاق ، ومنه قول زهير :

\* ... حتى إذا أنبت البقل \*

(١) أيلة : تعرف اليوم باسم « العقبة » . (٢) كذا في الأصول ولسان العرب مادة « سور » بالخاء المعجمة . وأورده صاحب خزنة الأدب بالخاء المهملة ، قال : « والأنحرة جمع حار ( بالخاء المهملة ) جمع قلة ، وخص الحبر لأنها وُدَّال المال وشرة ... وقد صحف الدمامي هذه الكلمة بالخاء المعجمة ، وقال والأنحرة جمع حمار ، وهو ما نسب به المرأة رأسا » . ( راجع الشاهد الخامس بعد السبعائة من الخزانة ) .

والأصمى ينكر أنبت . ويتم قصيدة زهير التي فيها :

رأيت ذوى الحاجات حَوْلَ بيوتهم \* قَطِينًا بها حتى إذا أنبت البقل

أى نبت . وقرأ الزهرى والحسن والأعرج « تُنْبِت بالدهن » برفع التاء ونصب الباء . قال ابن جني والزجاج : هى باء الحال ؛ أى تُنْبِتَ ومعها دهنها . وفى قراءة ابن مسعود : « تخرج بالدهن » وهى باء الحال . أبْنُ دَرَسَوَيْه : الدهن الماء اللين ؛ تنبت من الإنبات . وقرأ زرق بن حبيش « تُنْبِت — بضم التاء وكسر الباء — الدهن » بحذف الباء ونصبه . وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب « بالدهان » . والمراد من الآية تعديد نعمة الزيت على الإنسان . وهى من أركان النعم التي لا غنى بالصحة عنها . ويدخل فى معنى الزيتون شجر الزيت كله على اختلافه بحسب الأقطار .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَصَبْغٍ لِلآكِلِينَ ﴾ قراءة الجمهور . وقرأت فرقة « وأصباغ » بالجمع . وقرأ عامر بن عبد قيس « ومناعا » ؛ ويراد به الزيت الذى يصطبغ به الأكل ؛ يقال : صَبَغَ وَصْبَاغ ؛ مثل دَبْغٍ وَدِبَاغ ، وليس ولباس . وكل إدام يؤتدم به فهو — وَصْبَغ ؛ حكاه الهروى وغيره . وأصل الصَّبْغ ما يلون به الثوب ، وشبه الإدام به لأن الخبز يلون بالصَّبْغ إذا عُمِسَ فيه . وقال مقاتل : الأدم الزيتون ، والدهن الزيت . وقد جعل الله تعالى فى هذه الشجرة أَدَمًا وَدُهْنًا ؛ فالصَّبْغ على هذا الزيتون .

الرابعة — لا خلاف أن كل ما يصطبغ فيه من المائعات كالزيت والسمن والعسل والرَّبِّ والخَلِّ وغير ذلك من الأمراق أنه إدام . وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخَلِّ فقال : ” نعم الإدام الخَلُّ “ رواه تسعة من الصحابة ، سبعة رجال وأمرأتان . وممن رواه فى الصحيح جابر وعائشة وخارجة وعمر وابنه عبيد الله وابن عباس وأبو هريرة وسُمرة بن جندب وأنس وأم هانئ .

الخامسة — واختلف فيما كان جامدا كاللحم والتمر والزيتون وغير ذلك من الجوامد ؛ فالجمهور أن ذلك كله إدام ؛ فمن حلف ألا يأكل إداما فكل لحما أو جبنا حنث . وقال أبو حنيفة : لا يحنث ؛ وخالفه أصحابه . وقد روى عن أبى يوسف مثل قول أبى حنيفة . والبقل ليس بإدام فى قولهم جميعا . وعن الشافعى فى التمر وجهان ؛ والمشهور أنه ليس بإدام لقوله فى التنبيه .

وقيل يحنث ؛ والصحيح أن هذا كله إدام . وقد روى أبو داود عن يوسف بن عبد الله بن سلام قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم أخذ كسرة من خبز شعير فوضع عليها تمره فقال : ” هذه إدام هذه “ . وقال صلى الله عليه وسلم : ” سيد إدام الدنيا والآخرة اللحم “ . ذكره أبو عمر . وترجم البخاري (باب الإدام) وساق حديث عائشة ؛ ولأن الإدام مأخوذ من المؤادمة وهي الموافقة ، وهذه الأشياء توافق الخبز فكان إداما . وفي الحديث عنه عليه السلام : ” اتدموا ولو بالماء “ . ولأبي حنيفة أن حقيقة الإدام الموافقة في الاجتماع على وجه لا يقبل الفصل ؛ كالخل والزيت ونحوهما ، وأما اللحم والبيض وغيرهما لا يوافق الخبز بل يجاوزه كالبطيخ والتمر والعنب . والحاصل : أن كل ما يحتاج في الأكل إلى موافقة الخبز كان إداما ، وكل ما لا يحتاج ويؤكل على حدة لا يكون إداما ، والله أعلم .

السادسة - روى الترمذي من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” كُلُّوا الزَّيْتَ وَأَدْهَنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ “ . هذا حديث لا يعرف إلا من حديث عبد الرزاق ، وكان يضطرب فيه ، وربما يذكر فيه عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وربما رواه على الشك فقال : أحسبه عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وربما قال : عن زيد بن أسلم عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال مقاتل : خَصَّ الطُّورَ بِالزَّيْتُونِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ الزَّيْتُونِ نَبَتَ مِنْهَا . وقيل : إن الزيتون أول شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ

اللَّهُ لَا تَزَلْ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَهْدِيهِ جَنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتُ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ تقدم القول فيهما في « النحل » والحمد لله . وفي هود قصة السفينة ونوح، وركوب البحر في غير موضع .

قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أى وعلى الأنعام فى البر . ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ فى البحر . ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وإنما يحمل فى البر على الإبل فيجوز أن ترجع الكناية إلى بعض الأنعام . وروى أن رجلاً ركب بقرة فى الزمان الأول فأنطقها الله تعالى معه فقالت : إنا لم نخلق لهذا ! وإنما خلقت للحرث . قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ قرئ بالخفض رداً على اللفظ ، وبالرفع رداً على المعنى . وقد مضى فى « الأعراف » .

قوله تعالى : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى يسودكم ويشرف عليكم بأن يكون متبوعاً ونحن له تبع . ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلْنَا مَلَائِكَةً ﴾ أى لو شاء الله ألا يعبد شيء سواه لجعل رسوله ملكاً . ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ أى بمثل دعوته . وقيل : ما سمعنا بمثله بشراً ، أى برسالة ربه . ﴿ فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ أى فى الأمم الماضية ، قاله ابن عباس . والباء فى « بهذا » زائدة ، أى ما سمعنا هذا كأنا فى آبائنا الأولين ، ثم عطف بعضهم على بعض فقالوا ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَهْدِيهِ جَنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾

(١) راجع ج ١٠ ص ٦٨ ، ٨٩

(٢) راجع ج ٩ ص ٣٠

(٣) راجع ج ٢ ص ١٩٥ طبع ثانياً .

(٤) راجع ج ٧ ص ٢٣٣

يعنون نوحاً ﴿إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أى جنون لا يدرى ما يقول . ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ أى انتظروا موته . وقيل : حتى يستبين جنونه . وقال الفراء : ليس يراد بالحين هاهنا وقت بعينه ، وإنما هو كقوله : دعه إلى يومٍ ما . فقال حين تمادوا على كفرهم : ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أى انتقم ممن لم يطعن ولم يسمع رسالتى . ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أى أرسلنا إليه رسلاً من السماء ﴿أَنْ أَصْنَعْ الْفُلْكَ﴾ على ما تقدم بيانه .

قوله تعالى : ﴿فَأَسْلُكُ فِيهَا﴾ أى أدخل فيها واجعل فيها ؛ يقال : سلكته فى كذا وأسلكته فيه إذا أدخلته . قال عبد مناف بن ربيع الهذلي :

حتى إذا أسلكوهم فى قنائة \* شلاً كما تطرد الجمالة الشرداً<sup>(١)</sup>

﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ﴾ قرأ حفص « مِنْ كُلِّ » بالتثنية ، الباقون بالإضافة ؛ وقد ذكر<sup>(٢)</sup> . وقال الحسن : لم يحمل نوح فى السفينة إلا ما يلد ويبيض ، فأما البق والذباب والدود فلم يحمل شيئاً منها ، وإنما خرج من الطين . وقد مضى القول فى السفينة والكلام فيها مستوفى ، والحمد لله .

قوله تعالى : فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ

لِلَّهِ الَّذِى نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ﴾ أى علوت . ﴿أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ راكبين . ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أى أحمداً الله على تخليصه إياكم . ﴿مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ومن الفرق . والحمد لله : كلمة كل شاكر لله . وقد مضى فى الفاتحة بيانه .

قوله تعالى : وَقُلْ رَبِّ أُنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَقُلْ رَبِّ أُنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُّبَارَكاً﴾ قراءة العامة « مُنْزَلاً » بضم الميم وفتح الزاى ، على المصدر الذى هو الإنزال ؛ أى أنزلنى إنزالاً مباركاً . وقرأ زيز بن حبيش وأبو بكر

(١) قنائة : موضع بعبه . والشل : الطرد . والشرد : جمع شرود . (٢) راجع ج ٩ ص ٣٤



عن عاصم والمفضل «مَنَزَلًا» بفتح الميم وكسر الزاي على الموضع ؛ أى أنزلنى موضعا مباركا .  
 الجوهرى : المَنَزَل (بفتح الميم والزاي) النزول وهو الحلول ؛ تقول : نزلت نزولا ومَنَزَلًا . وقال :  
 أَنَّ ذَكَرْتَكَ الدَّارُ مَنَزَلًا جُمْلُ \* بِكَيْتَ فَدَمْعُ الْعَيْنِ مُنَحْدَرٌ سَجْلُ

نِصَبُ «المَنَزَل» لأنه مصدر . وأنزله غيره وأستزله بمعنى . ونزله تنزيلا ؛ والتنزيل أيضا  
 الترتيب . قال ابن عباس ومجاهد : هذا حين خرج من السفينة ؛ مثل قوله تعالى : « اهْبِطْ  
 بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ » <sup>(١)</sup> . وقيل : حين دخلها ؛ فعلى هذا يكون قوله  
 «مباركا» يعنى بالسلامة والنجاة .

قلت : وبالجمللة فالآية تعليم من الله عز وجل لعباده إذا ركبوا وإذا نزلوا أن يقولوا  
 هذا ؛ بل وإذا دخلوا بيوتهم وسلموا قالوا . وروى عن على رضي الله عنه أنه كان إذا دخل  
 المسجد قال : اللهم أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين .

قوله تعالى : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى فى أمر نوح والسفينة وإهلاك الكافرين .  
 ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ أى دلالات على كمال قدرة الله تعالى ، وأنه ينصر أنبياءه ويهلك أعداءهم .  
 ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ أى ما كنا إلا مبتلين الأمم قبلكم ؛ أى مختبرين لهم بإرسال الرسل إليهم  
 ليظهر المطيع والعاصى فيتبين لللائكة حالهم ؛ لا أن يستجد الرب علما . وقيل : أى نعاملهم  
 معاملة المختبرين . وقد تقدم هذا المعنى فى « البقرة » وغيرها . وقيل : « وَإِنْ كُنَّا »  
 أى وقد كنا .

قوله تعالى : ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ  
 رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾

(١) يلاحظ أن «منزلا» بالنصب مفعول ثانٍ لذكرتك . و «جمل» فاعل بالمصدر ، وهو المنزل .

(٢) آية ٤٨ سورة هود . (٣) راجع ج ٢ ص ١٧٣ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد هلاك قوم نوح . ﴿ قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ قيل : هم قوم عاد . ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ يعنى هودا ؛ لأنه ما كانت أمة أنشئت فى إثر قوم نوح إلا عاد . وقيل : هم قوم ثمود « فأرسلنا فيهم رسولا » يعنى صالحا . قالوا : والدليل عليه قوله تعالى آخر الآية « فأخذتهم الصيحة » ؛ نظيرها : « وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ » .

قلت : ومن أخذ بالصيحة أيضا أصحاب مدين قوم شعيب ، فلا يبعد أن يكونوا هم ، والله أعلم . ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أى من عشيرتهم . يعرفون مولده ومنشأه ليكون سكنهم إلى قوله أكثر .

قوله تعالى : وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَالِسُونَا إِیْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ ﴾ أى الأشراف والقادة والرؤساء . ﴿ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ ﴾ يريد بالبعث والحساب . ﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى وسعنا عليهم نعم الدنيا حتى يَطْرُوا وصاروا يؤتون بالترف ، وهى مثل التُّخْفَةِ . ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ فلا فضل له عليكم لأنه محتاج إلى الطعام والشراب كأتم . وزعم الفراء أن معنى « ويشرب مما تشربون » على حذف من ، أى مما تشربون منه ؛ وهذا لا يجوز عند البصريين ولا يحتاج إلى حذف التبتة ؛ لأن « ما » إذا كان مصدرا لم يحتاج إلى عائدا ، فإن جعلتها بمعنى الذى حذفت المفعول ولم يحتاج إلى إضمار من . ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَالِسُونَا ﴾ يريد لمغبونون بترككم آلهتكم واتباعكم إياه

من غير فضيلة له عليكم . (أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ) أى مبعوثون من قبوركم . و « أن » لأولى فى موضع نصب بوقوع « يعيدكم » عايبها ، والثانية بدل منها ؛ هذا مذهب سيبويه . والمعنى : أيعيدكم أنكم مخرجون إذا متم . قال الفراء : وفى قراءة عبدالله « أيعيدكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون » ؛ وهو كقولك : أظن إن خرجت أنك نادم . وذهب الفراء والجرمى وأبو العباس المبرد إلى أن الثانية مكررة للتوكيد ، لما طال الكلام كان تكريرها حسنا . وقال الأخفش : المعنى أيعيدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما يحدث إخراجكم ؛ فـ « أن » الثانية فى موضع رفع بفعل مضمر ؛ كما تقول : اليوم القتال ، فالمعنى اليوم يحدث القتال . وقال أبو إسحاق : ويجوز « أيعيدكم إنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما إنكم مخرجون » ؛ لأن معنى « أيعيدكم » أيقول إنكم .

قوله تعالى : هِيَهَاتَ هِيَهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾

قال ابن عباس : هى كلمة للبعد ؛ كأنهم قالوا بعيد ما توعدون ؛ أى أن هذا لا يكون ما يذكر من البعث . وقال أبو عليّ : هى بمنزلة الفعل ؛ أى بعد ما توعدون . وقال ابن الأبارى : وفى « هيهات » عشر لغات : هيهات لك (بفتح التاء) وهى قراءة الجماعة . وهيهات لك (بخفض التاء) ؛ ويروى عن أبى جعفر بن القمّقعاق . وهيهات لك (بالخفض والتنوين) يروى عن عيسى بن عمر . وهيهات لك (برفع التاء) ؛ الثعلبى : وبها قرأ نصر بن عاصم وأبو العالمة . وهيهات لك (بالرفع والتنوين) وبها قرأ أبو حيوة الشامي ؛ ذكره الثعلبى أيضا . وهيهاتاً لك (بالنصب والتنوين) قال الأحوص :

تذَكَّرْتُ أَيَّامًا مَضَيْنَ مِنَ الصَّبَا \* وهيهات هيهاتاً إليك رجوعها

واللغة السابعة : أيهات أيهات ؛ وأنشد الفراء :

فأيهات أيهات العقيقُ ومن به \* وأيهات خُلِّ بالعقيق نواصله

قال المهدوى : وقرأ عيسى الهمداني « هيهات هيهات » بالإسكان . قال ابن الأنبارى : ومن العرب من يقول « أيهان » بالنون ، ومنهم من يقول « أيها » بلان . وأنشد الفراء :

ومن دُونِي الأعيان والقيَمُ كله \* وَكُنَّانُ أَيُّهَا مَا أَشْتَ وَأَبْدًا<sup>(١)</sup>

فهذه عشر لغات . فمن قال «هيات» بفتح اثناء جعله مثل أين وكيف . وقيل : لأنهما أداتان مركبتان مثل خمسة عشر وبعذلك ورام هُرْمُز ، وتقف على الثانى بالهاء ؛ كما تقول : خمس عشره وسبع عشره . وقال الفراء : نصبها كنصب ثَمَّتْ ورُبَّتْ ، ويجوز أن يكون الفتح إتباعا للألف والفتحة التي قبلها . ومن كسره جعله مثل أميس وهؤلاء . قال :

\* وهيات هيات إليك رجوعها \*

قال الكسائي : ومن كسر التاء وقف عليها بالهاء ؛ فيقول هيهاه . ومن نصبها وقف بالتاء وإن شاء بالهاء . ومن ضمها فعلى مثل منذ وقط وحيث . ومن قرأ «هيات» بالنون فهو جمع ذهب به إلى التنكير ؛ كأنه قال بُعْدًا بُعْدًا . وقيل : خُفِضَ ونَوِّنَ تشبيها بالأصوات بقولهم : غاق وطاق . وقال الأخفش : يجوز في «هيات» أن تكون جماعة فتكون التاء التي فيها تاء الجميع التي للتأنيث . ومن قرأ «هيات» جاز أن يكون أخلصها أسما معربا فيه معنى البعد ، ولم يجعله اسما للفعل فيبذيه . وقيل : شبه التاء بتاء الجمع ، كقوله تعالى : « فإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ » . قال الفراء : وكأني أستحب الوقف على التاء ؛ لأن من العرب من يخفف التاء على كل حال ؛ فكأنها مثل عرفات وملكوت وما أشبه ذلك . وكان مجاهد وعيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء والكسائي وابن كثير يوقفون عليها «هيهاه» بالهاء . وقد روى عن أبي عمرو أيضا أنه كان يقف على «هيات» بالتاء ، وعليه بقية الفراء لأنها حرف . قال ابن الأنباري . من جعلهما حرفا واحدا لا يفرد أحدهما من الآخر ، وقف على الثانى بالهاء ولم يقف على الأول ؛ فيقول : هيات هيهاه ؛ كما يقول خمس عشره ، على ما تقدم . ومن نوى إفراد أحدهما من الآخر وقف فيهما جميعا بالهاء والتاء ؛ لأن أصل الهاء تاء .

قوله تعالى : إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ

بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾

(١) الأعيان والقيَمُ وكنَّان ، كلها مواضع . وفي بعض الأصول بدل «الأعيان» الأعيان . وكذا في اللسان مادة آيه . وفي مادة هبة «الأعراض» والكل مواضع .

قوله تعالى : ﴿ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ « هي » كناية عن الدنيا ؛ أى ما الحياة إلا ما نحن فيه لا الحياة الآخرة التى تعدنا بعد البعث . ﴿ نموت ونحيا ﴾ يقال : كيف قالوا نموت ونحيا وهم لا يقترنون بالبعث ؟ ففى هذا أجوبة ؛ منها أن يكون المعنى : نكون مواتا ، أى نطفأ ثم نحيا فى الدنيا . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى إن هى إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت ؛ كما قال : « واسجدى واركعى » . وقيل : « نموت » يعنى الآباء ، « ونحيا » يعنى الأولاد . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿ إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ٣٨ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿ ٣٩ ﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿ ٤٠ ﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ ٤١ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ﴾ يعنون الرسول . ﴿ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى ﴾ أى اخلق . ﴿ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿ تقدم . ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ أى عن قليل ، و « ما » زائدة مؤكدة . ﴿ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ على كفرهم ، واللام لام القسم ؛ أى والله ليصبحن . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ فى التفاسير : صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة واحدة مع الريح التى أهلكهم الله تعالى بها فماتوا عن آخرهم . ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ أى هلكى هامدين كغثاء السيل ، وهو ما يحمله من بالى الشجر من الحشيش والقصب مما يبس وتفتت . ﴿ فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى هلاكا لهم . وقيل بعدا لهم من رحمة الله ؛ وهو منصوب على المصدر . ومثله سقيا له ورعيا .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخِرِينَ ﴾ ٤٢ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعِثُّونَ ﴿ ٤٣ ﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ ٤٤ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ۖ أَى من بعد هلاك هؤلاء . ﴾ ﴿ قُرُونًا ۖ أَى أُمَمًا . ﴾ (آخرين) قال ابن عباس : يريد بنى إسرائيل ؛ وفي الكلام حذف : فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم . ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ۖ ﴾ « من » صلة ؛ أَى ما تسبق أمة الوقت المؤقت لها ولا تتأخره ؛ مثل قوله تعالى : « فإذا جاء أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » . ومعنى ﴿ تَتَرَى ۖ ﴾ لتواتر ، ويتبع بعضهم بعضا ترغيبا وترهيبا . قال الأصمعي : وارتدت كُتُبِي عليه أتبعته بعضها بعضا ؛ إلا أن بين كل واحد منها وبين الآخر مهلة . وقال غيره : الموازنة التابع بغير مهلة . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « تَتَرَى » بالتنوين على أنه مصدر أدخل فيه التنوين على فتح الراء ؛ كقولك : حمداً وشكراً ؛ فالوقوف على هذا على الألف المعوضة من التنوين . ويجوز أن يكون ملحقاً بجعفر ، فيكون مثل أرطى وعلقى ؛ كما قال :

﴿ يَسْتَنِّ فِي عَاقِي وَفِي مُكُورٍ \*

فإذا وقف على هذا الوجه جازت الإمالة ، على أن ينوى الوقف على الألف الملحقة . وقرأ ورش بين اللفظتين ؛ مثل سكرى وغضبي ، وهو اسم جمع ؛ مثل شتى وأسرى . وأصله وتترى من الموازنة والتواتر ، فقلبت الواو تاء ؛ مثل التقوى والتكلمان وتجاه ونحوها . وقيل : هو الوتر وهو الفرد ؛ فالمعنى أرسلناهم فرداً فرداً . النحاس : وعلى هذا يجوز « تَتَرَا » بكسر التاء الأولى ، وموضعها نصب على المصدر ؛ لأن معنى « ثم أرسلنا » وارتنا . ويجوز أن يكون في موضع الحال أى متواترين . ﴿ فَاتَّبَعْنَاهُمْ بِمَضْمُونٍ ۖ أَى بالهلاك . ﴾ وجعلناهم أَحَادِيثَ ۖ جمع أحادثة وهى ما يتحدث به ؛ كأعاجيب جمع أعجوبة ، وهى ما يتعجب منه . قال الأخفش : إنما يقال هذا فى الشر « جعلناهم أحاديث » ولا يقال فى الخير ؛ كما يقال : صار فلان حديثاً أى عبثاً ومثلاً ؛ كما قال فى آية أخرى : « فجعلناهم أحاديثاً ومزقناهم كُلَّ مُمَزَّقٍ ۖ » .

قلت : وقد يقال فلان حديثٌ حسنٌ ، إذا كان مقيداً بذلك ؛ ومنه قول ابن دُرَيْد :

وإنما المرء حديثٌ بعده \* فكن حديثاً حسناً لمن وعى

قوله تعالى : ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾  
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ  
لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِبِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ  
الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) تقدم . ومعنى  
(عَالِينَ) متكبرين فاهرين لغيرهم بالظلم ؛ كما قال تعالى : « إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ » .  
(فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا) الآية ، تقدم أيضا . ومعنى (مِنَ الْمُهْلَكِينَ) أى بالفرق في البحر .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾  
قوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ) يعنى التوراة ؛ وخصّ موسى بالذكرا لأن  
التوراة أنزلت عليه فى الطور ، وهارون خليفة فى قومه . ولو قال « ولقد آتيناهما » جاز ؛  
كما قال : « ولقد آتيناهما موسى وهارون الفرقان » .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ۖ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ  
ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً) تقدم فى « الأنبياء » القول فيه .  
(وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) الربوة المكان المرتفع من الأرض ؛ وقد تقدم  
فى « البقرة » . والمراد بها هاهنا فى قول أبى هريرة فلسطين . وعنه أيضا الرملة <sup>(٦)</sup> ؛ وروى  
عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس وابن المسيب وابن سلام : دمشق . وقال كعب  
وقتادة : بيت المقدس . قال كعب : وهى أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا . قال :  
فكنت هميدا تحت رَمْسِ رَبْوَةٍ \* تعاورنى ريحٌ جنوبٌ وشَمَالُ

(١) راجع ج ٩ ص ٩٣ (٢) آية ٤ سورة القصص (٣) آية ٤٨ سورة الأنبياء .

(٤) راجع ج ١١ ص ٣٣٧ (٥) راجع ج ٣ ص ٣١٥

(٦) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين وكانت فصبتها قد خربت الآن ، وكانت رباطا للسليين .

وقال ابن زيد : مصر . وروى سالم الأفطس عن سعيد بن جبير « وآويناها إلى ربوة » قال : النشز من الأرض . ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ أى مستوية يُستقر عليها . وقيل : ذات ثمار ، ولأجل الثمار يستقر فيها الساكنون . ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ ماء جارٍ ظاهر للعيون . يقال : معين ومُعْنٌ ؛ كما يقال : رغيف ورُغْفٌ ؛ قاله على بن سليمان . وقال الزجاج : هو الماء الجارى فى العيون ؛ فالميم على هذا زائدة كزيادتها فى مبيع ، وكذلك الميم زائدة فى قول من قال إنه الماء الذى يرى بالعين . وقيل : إنه فعيل بمعنى مفعول . قال على بن سليمان : يقال معن الماء إذا جرى فهو معين ومعْيُون . ابن الأعرابي : معن الماء يمعن معونا إذا جرى وسهل ، وأمعن أيضا وأمعنته ، ومياه معنان .

قوله تعالى : يَتْلُوهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾  
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » — ثم ذكر — الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذَى بالحرام فإني يستجاب لذلك » .

الثانية — قال بعض العلماء : والخطاب فى هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه أقامه مقام الرسل ؛ كما قال : « الذين قال لهم الناس » <sup>(١)</sup> يعنى نعيم بن مسعود . وقال

(١) هذه الجملة من كلام الراوى ، والضمير فيه للنبي صلى الله عليه وسلم . (٢) الرجل ، بالرفع مبتدأ ، مذكور على وجه الحكاية من لفظ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن ينصب على أنه مفعول « ذكر » . (٣) راجع ج ٤ ص ٢٧٩



الزجاج : هذه مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، ودل الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا ؛ أى كلوا من الحلال . وقال الطبرى : الخطاب لعيسى عليه السلام ؛ روى أنه كان يأكل من غزل أمه . والمشهور عنه أنه كان يأكل من بقل البرية . ووجه خطابه لعيسى ما ذكرناه من تقديره لمحمد صلى الله عليه وسلم تشريفاً له . وقيل : إن هذه المقالة خوطب بها كل نبي ؛ لأن هذه طريقتهم التى ينبغى لهم الكون عليها . فيكون المعنى : وقلنا يأياها الرسل كلوا من الطيبات ؛ كما نقول لتاجر : يا تاجر ينبغى أن تجتنبوا الربا ؛ فأنت مخاطبه بالمعنى . وقد اقترن بذلك أن هذه المقالة تصلح لجميع صنفه ، فلم يخاطبوا قط مجتمعين صلوات الله عليهم أجمعين ، وإنما خوطب كل واحد فى عصره . قال الفراء : هو كما نقول للرجل الواحد : كُفُوا عنا إذا كنتم .

الثالثة — سوى الله تعالى بين النبيين والمؤمنين فى الخطاب بوجوب أكل الحلال وتجنب الحرام ، ثم شمل الكل فى الوعيد الذى تضمنه قوله تعالى : « إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » صلى الله على رسله وأتنيائه . وإذا كان هذا معهم فما ظن كل الناس بأنفسهم . وقد مضى القول فى الطيبات والرزق فى غير موضع<sup>(١)</sup> ، والحمد لله . وفى قوله عليه السلام " يمد يديه " دليل على مشروعية مد اليدين عند الدعاء إلى السماء ؛ وقد مضى الخلاف فى هذا والكلام فيه والحمد لله . وقوله عليه السلام " فأنى يستجاب لذلك " على جهة الاستبعاد ؛ أى أنه ليس أهلاً لإجابة دعائه لكن يجوز أن يستجيب الله له تفضلاً ولطفاً وكرماً .

قوله تعالى : وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾

(١) راجع ج ١ ص ١٧٧ طبعة ثانية أو ثالثة ، وج ٧ ص ١٩٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٢٢

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ <sup>(١)</sup> المعنى : هذا الذى تقدم ذكره هو دينكم وملتكم فالتموه . والأمة هنا الدين ؛ وقد تقدم محامله ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ <sup>(٢)</sup> » أى على دين . وقال النابغة :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبَةً \* وهل يَأْتَمَنُ ذِوَأُمَةٍ وهو طائع

الثانية — قرئ « وإن هذه » بكسر « إن » على القطع ، وبفتحها وتشديد النون . قال الخليل : هى فى موضع نصب لما زال الخلاف ؛ أى أنا عالم بأن هذا دينكم الذى أمرتكم أن تؤمنوا به . وقال الفراء : « أن » متعلقة بفعل مضمر تقديره : واعلموا أن هذه أمتكم . وهى عند سيبويه متعلقة بقوله « فأتقون » ؛ والتقدير فاتقون لأن أمتكم واحدة . وهذا كقوله تعالى : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » ؛ أى لأن المساجد لله فلا تدعوا معه غيره . وكقوله : « لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ » ؛ أى فليعبدوا ربَّ هذا البيت لإيلاف قريش . الثالثة — وهذه الآية تقوى أن قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ » إنما هو مخاطبة لجميعهم ، وأنه بتقدير حضورهم . وإذا قدرت « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ » مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم فلق اتصال هذه الآية واتصال قوله « فتقطعوا » . أما أن قوله « وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ » وإن كان قيل للأنبياء فأمهم داخلون فيه بالمعنى ؛ فيحسن بعد ذلك اتصال « فَتَقَطَّعُوا » أى افترقوا ، يعنى الأمم ، أى جعلوا دينهم أديانا بعد ما أمروا بالاجتماع . ثم ذكر تعالى أن كلا منهم معجب برأيه وضلالته وهذا غاية الضلال .

الرابعة — هذه الآية تنظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا إِنَّ مَن قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَفْتَرَقُوا عَلَى ثَنَيْنِ وَسَبْعِينَ مَلَّةً وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ ثَنَانٍ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ » الحديث . نرجه أبو داود ، ورواه

(١) راجع ج ٢ ص ١٢٧ طبع ثانية وج ٣ ص ٣٠ طبع أولى أو ثانية . (٢) آية ٢٢ وما بعدها سورة الزخرف . (٣) آية ١٨ سورة الجن . (٤) كذا فى نسخ الأصل . والمعنى المراد واضح ، وهو أن هذا التقدير يغلط ويقطع الاتصال بين الاثنين .

الترمذى وزاد : قالوا ومن هى يا رسول الله؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابى » خرجه من حديث عبد الله بن عمرو . وهذا يبين أن الافتراق المحذر منه فى الآية والحديث إنما هو فى أصول الدين وقواعده ، لأنه قد أطلق عليها ملأً ، وأخبر أن التمسك بشئ من تلك الملل موجب لدخول النار . ومثل هذا لا يقال فى الفروع ، فإنه لا يوجب تعديد الملل ولا عذاب النار ، قال الله تعالى : « لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا <sup>(١)</sup> » .

قوله تعالى : ﴿ زُبُرًا ﴾ يعنى كتباً وضعوها وضلالات ألفوها ، قاله ابن زيد . وقيل : إنهم فزقوا الكتب فأتبعت فرقة الصحف وفرقة التوراة وفرقة الزبور وفرقة الإنجيل ، ثم حرف الكل وبدل ، قاله قتادة . وقيل : أخذ كل فريق منهم كتاباً آمن به وكفر بما سواه . و « زُبُرًا » بضم الباء قراءة نافع ، جمع زبور . والأعمش وأبو عمرو بخلاف عنه « زُبْرًا » بفتح الباء ، أى قطعاً كقطع الحديد ، كقوله تعالى : « آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ <sup>(٢)</sup> » . ﴿ كُلُّ حِزْبٍ ﴾ أى فريق وملة . ﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أى عندهم من الدين . ﴿ فِرْحُونَ ﴾ أى معجبون به . وهذه الآية مثال لقريش خاطب محمداً صلى الله عليه وسلم فى شأنهم متصلاً بقوله ﴿ فَذَرُّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ ﴾ أى فذر هؤلاء الذين هم بمنزلة من تقدم ، ولا يضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم ، فكل شئ وقت . والغمرة فى اللغة ما يغمرك ويعلوك ، وأصله السترة ومنه الغمر الحقد لأنه يغطى القلب . والغمر الماء الكثير لأنه يغطى الأرض . وغمر الرداء الذى يشمل الناس بالعطاء ، قال :

غَمَرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا \* غَلِقَتْ لَضَحْكَتُهُ رِقَابُ الْمَالِ

المراد هنا الحيرة والغفلة والضلالة . ودخل فلان فى غمار الناس ، أى فى زحمتهم . وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ قال مجاهد : حتى الموت ، فهو تهديد لا توقيت ، كما يقال : سيأتى لك يوم .

قوله تعالى : أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ اَيَحْسَبُونَ اَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ « ما » بمعنى الذى ؛ أى يحسبون يا محمد أن الذى نعطيهم فى الدنيا من المال والأولاد هو ثواب لهم ، إنما هو استدراج وإملاء ، ليس إسراعا فى الخيرات . وفى خبر « أن » ثلاثة أقوال ، منها أنه محذوف . وقال الزجاج : المعنى نسارع لهم به فى الخيرات ، وحذفت به . وقال هشام الضرير قولاً دقيقاً ، قال : « إنما » هى الخيرات ؛ فصار المعنى : نسارع لهم فيه ، ثم أظهر فقال « فى الخيرات » ، ولا حذف فيه على هذا التقدير . ومذهب الكسائى أن « إنما » حرف واحد فلا يحتاج إلى تقدير حذف ، ويجوز الوقف على قوله « وبنين » . ومن قال « إنما » حرفان فلا بد من ضمير يرجع من الخبر إلى اسم « أن » ولم يتم الوقف على « وبنين » . وقال السخيتانى : لا يحسن الوقف على « وبنين » ؛ لأن « يحسبون » يحتاج إلى مفعولين ، فقام المفعولين « فى الخيرات » . قال ابن الأنبارى : وهذا خطأ ؛ لأن « أن » كافية من اسم أن وخبرها ولا يجوز أن يؤتى بعد « أن » بمفعول ثان . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وعبد الرحمن بن أبى بكرة « يسارع » بالياء ، على أن يكون فاعله إمدادنا . وهذا يجوز أن يكون على غير حذف ؛ أى يسارع لهم الإمداد . ويجوز أن يكون فيه حذف ، ويكون المعنى يسارع الله لهم . وقرأ « يسارع لهم فى الخيرات » وفيه ثلاثة أوجه : أحدها على حذف به . ويجوز أن يكون يسارع الإمداد . ويجوز أن يكون « لهم » اسم ما لم يسم فاعله ؛ ذكره النحاس . قال المهدوى : وقرأ الحزى النحوى « نسرع لهم فى الخيرات » وهو معنى قراءة الجماعة . قال الثعلبى : والصواب قراءة العامة ؛ لقوله « نمدهم » . ﴿ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أن ذلك فتنة لهم واستدراج .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَائِلَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ لما فرغ من ذكر الكفرة وتوعدهم عقب ذلك بذكر المؤمنين المسارعين في الخيرات ووعدهم ، وذكر ذلك بأبلغ صفاتهم . و ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون وجلون مما خوفهم الله تعالى . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ قال الحسن : يؤتون الإخلاص ويخافون ألا يقبل منهم . وروى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية «والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة» قالت عائشة : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : «لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات» . وقال الحسن : لقد أدركنا أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم أشفق منكم على سيئاتكم أن تعذبوا عليها . وقرأت عائشة رضى الله عنها وابن عباس والنخعي «والذين يأتون ما أتوا» مقصورا من الإتيان . قال الفراء : ولو صححت هذه القراءة عن عائشة لم تخالف قراءة الجماعة ؛ لأن الهمز من العرب من يلزم فيه الألف في كل الحالات إذا كتب ؛ فيكتب سُئِلَ الرجل بألف بعد السين ، ويستهلثون بألف بين الزاي والواو ، وشيءٌ وشيءٌ بألف بعد الياء ، فغير مستنكر في مذهب هؤلاء أن يكتب «يؤتون» بألف بعد الياء ، فيحتمل هذا اللفظ بالبناء على هذا الخط قراءتين «يؤتون ما أتوا» و «يأتون ما أتوا» . وينفرد ما عليه الجماعة باحتمال تأويلين : أحدهما — والذين يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقة وقلوبهم خائفة . والآخر — والذين يؤتون الملائكة الذين يكتبون الأعمال على العباد ما أتوا وقلوبهم وجلة ؛ فحذف مفعول في هذا الباب لوضوح معناه ؛ كما حذف في قوله عز وجل : «فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ»<sup>(١)</sup> والمعنى يعصرون السمسمة والعنب ؛ فاخترل المفعول لوضوح تأويله . ويكون الأصل في الحرف على هجائه الموجود في الإمام «يأتون» بألف مبدلة من الهمزة فكتبت الألف

(١) آية ٤٩ سورة يوسف .

وأولاً لتأخى حروف المد واللين فى الخفاء ؛ حكاه ابن الأنبارى . قال النحاس : المعروف من قراءة ابن عباس « والذين يأتون ما أتوا » وهى القراءة المروية عن النبىِّ صلى الله عليه وسلم وعن عائشة رضى الله عنها ، ومعناها يعملون ما عملوا ؛ كما روى فى الحديث . والوجل نحو الإشفاق والخوف ؛ فالتقى والتائب خوفه أمر العاقبة وما يطعم عليه بعد الموت . وفى قوله ﴿ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ تنبيه على الخاتمة . وفى صحيح البخارى « وإنما الأعمال بالخواتيم » . وأما المخاط فينبغى له أن يكون تحت خوف من أن ينفذ عليه الوعيد بتخليطه . وقال أصحاب الخواطر : وجل العارف من طاعته أكثر وجل من وجهه من مخالفته ؛ لأن المخالفة تمحوها التوبة ، والطاعة تطلب بتصحيح الفرض . ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أى لأنهم ، أو من أجل أنهم إلى ربهم راغبون .

قوله تعالى : أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿١١﴾  
قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ أى فى الطاعات ، كى ينالوا بذلك أعلى الدرجات والغرفات . وقرئ « يُسْرِعُونَ » فى الخيرات ، أى يكونوا سراعاً إليها . ويسارعون على معنى يسابقون من سابقهم إليها ؛ فالمفعول محذوف ، قال الزجاج : يسارعون أبلغ من يسرعون . ﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ أحسن ما قيل فيه : أنهم يسبقون إلى أوقاتها . ودل بهذا أن الصلاة فى أول الوقت أفضل ؛ كما تقدم فى « البقرة »<sup>(١)</sup> . وكل من تقدم فى شىء فهو سابق إليه ، وكل من تأخر عنه فقد سبقه وفاته ؛ فاللام فى « لها » على هذا القول بمعنى إلى ؛ كما قال « بَأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » أى أوحى إليها . وأنشد سيبويه :

تَجَانَّفَ عَنْ جَوْ أَيْمَامَةِ نَاقِي \* وَمَا قَصَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا لَسْوَائِكَا<sup>(٢)</sup>

وعن ابن عباس فى معنى « وهم لها سابقون » سبقت لهم من الله السعادة ؛ فلذلك سارعوا فى الخيرات . وقيل : المعنى وهم من أجل الخيرات سابقون .

(١) راجع ج ٢ ص ١٦٥ طبعة ثانية . (٢) البيت للأعشى . والتجانف : الانحراف .

قوله تعالى : وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ<sup>ط</sup>  
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ قد مضى في « البقرة » وأنه ناسخ لجميع ما ورد في الشرع من تكليف ما لا يطاق . ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ أظهر ما قيل فيه : إنه أراد كتاب إحصاء الأعمال الذي ترفعه الملائكة ؛ وأضافه إلى نفسه لأن الملائكة كتبت فيه أعمال العباد بأمره ، فهو ينطق بالحق . وفي هذا تهديد وتأنييس من الحيف والظلم . ولفظ النطق يجوز في الكتاب ؛ والمراد أن النبيين تنطق بها فيه . والله أعلم . وقيل : غنى اللوح المحفوظ ، وقد أثبت فيه كل شيء ، فهم لا يجاوزون ذلك . وقيل : الإشارة بقوله « ولدينا كتاب » القرآن ، فانه أعلم ، وكل محتمل والأول أظهر .

قوله تعالى : بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ  
ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ  
يَجْعَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تَنْصُرُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ قال مجاهد : أى في غطاء وغفلة وعمية عن القرآن . ويقال : غمره الماء إذا غطاه . ونهر غمر يغطى من دخله . ورجل غمر يغمره آراء الناس . وقيل : « غمرة » لأنها تغطي الوجه . ومنه دخل في غمار الناس ونجارهم ، أى فيما يغطيه من الجمع . وقيل : « بل قلوبهم في غمرة » أى في حيرة وعمى ؛ أى مما وصف من أعمال البر في الآيات المتقدمة ؛ قاله قتادة . أو من الكتاب الذى ينطق بالحق . ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ قال قتادة ومجاهد : أى لهم خطايا لا بد أن يعملوها من دون الحق . وقال الحسن وابن زيد : المعنى ولهم أعمال رديئة لم يعملوها من

(١) راجع ج ٣ ص ٢٧٧ (٢) كذا في الأصول . والذي في كتب اللغة : « ورجل غمر وغمر لا تجربة له بحرب ولا أمر ، ولم تحنكه التجارب .

دون ما هم عليه، لابد أن يعملوها دون أعمال المؤمنين، فيدخلون بها النار، لما سبق لهم من الشَّقوة. ويحتمل ثالثاً - أنه ظلم الخلق مع الكفر بالخالق؛ ذكره الماوردي. والمعنى متقارب. ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ يعنى بالسيف يوم بدر؛ قاله ابن عباس. وقال الضحاك: يعنى بالجوع حين قال النبي صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُمَّ أَشَدَّ وَطْأَتِكَ عَلَى مُضَرَّ اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سَنِينَ كَسَنِي يَوْسُفَ". فابتلاههم الله بالقحط والجوع حتى أكلوا العظام والميتة والكلاب والحيف، وهلك الأموال والأولاد. ﴿إِذَا هُمْ يَنجَارُونَ﴾ أى يضجون ويستغيثون. وأصل الجؤار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور. وقال الأعشى يصف بقرة:

فطافت ثلاثاً بين يوم وليلة \* وكان التكير أن تُضيف وتجاراً

قال الجوهري: الجؤار مثل الخوار؛ يقال: جأر الثور يجأر أى صاح. وقرأ بعضهم «عَجَلًا جَسَدًا لَهُ جَوَّار» حكاه الأخفش. وجأر الرجل إلى الله عز وجل تضرع بالدعاء. قتادة: يَصْرُخُونَ بالتوبة فلا تقبل منهم. قال:

يراوح من صلوات المليك \* فطَوَّراً سجدوا وطَوَّراً جؤارا

وقال ابن جريح: «حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ» هم الذين قتلوا ببدر «إِذَا هُمْ يَنجَارُونَ» هم الذين بمكة؛ بجمع بين القولين المتقدمين، وهو حسن. ﴿لَا تَنجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا﴾ أى من عذابنا. ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾ لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم. وقال الحسن: لا تنصرون بقبول التوبة. وقيل: معنى هذا النهي الإخبار؛ أى إنكم إن تضرعتم لم ينفعكم.

قوله تعالى: قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ

تَنكِصُونَ ﴿١٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿١٧﴾



قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنْثَلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴾ الآيات يريد بها القرآن . ﴿ تُنْثَلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أى تقرأ . قال الضحاك : قبل أن تعذبوا بالقتل و ﴿ تَنْكِصُونَ ﴾ ترجعون وراءكم . مجاهد : تستأخرون ؛ وأصله أن ترجع القهقري . قال الشاعر :

زعموا بأنهم على سبيل النجا \* ة وإنا نكص على الأعقاب

وهو هنا استعارة للإعراض عن الحق . وقرأ على بن أبي طالب رضى الله عنه « على أدباركم » بدل « على أعقابكم » ، « تنكصون » بضم الكاف . و ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ ﴾ حال ، والضمير فى « به » قال الجمهور : هو عائذ على الحرم أو المسجد أو البلد الذى هو مكة ، وإن لم يتقدم له ذكر لشهرته فى الأمر ؛ أى يقولون نحن أهل الحرم فلا نخاف . وقيل : المعنى أنهم يعتقدون فى نفوسهم أن لهم بالمسجد والحرم أعظم الحقوق على الناس والمنازل ؛ فيستكبرون لذلك ، وليس الاستكبار من الحق . وقالت فرقة : الضمير عائذ على القرآن من حيث ذكرت الآيات ؛ والمعنى : يحدث لكم سماع آياتى كبرا وطغيانا فلا تؤمنوا به . قال ابن عطية : وهذا قول جيد . النحاس : والقول الأول أولى ، والمعنى : أنهم يفتخرون بالحرم ويقولون نحن أهل حرم الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ « سَامِرًا » نصب على الحال ، ومعناه سُمَّارًا ، وهو الجماعة يتحدثون بالليل ، مأخوذ من السَّمر وهو ظل القمر ؛ ومنه سُمره اللون . وكانوا يتحدثون حول الكعبة فى سَمَر القمر ؛ فسُمى يتحدث به . قال الثورى : يقال لظل القمر السَّمر ؛ ومنه السُّمره فى اللون ، ويقال له : الفَحْخُ ؛ ومنه قيل فاختة . وقرأ أبو رجاء « سُمَّارًا » وهو جمع سامر ؛ كما قال :

(٢) \* أَلَسْتَ تَرَى السَّمَارَ وَالنَّاسَ أَحْوَالِي \*

(١) فى الأصول : « أنهم » والبيت لا يترن إلا بدخول الباء ، وهى هنا زائدة ؛ كقول النابغة :

\* زعم الغداف بأن رحلتنا غدا \*

(٢) هذا بحز بيت لامرئ القيس . وصدده :

\* فقالت سبائك الله إنك فاضحى \*

وفي حديث قَبِيلَة : إذا جاء زوجها من السامر ؛ يعنى من القوم الذين يَسْمُرُونَ بالليل ؛ فهو اسم مفرد بمعنى الجمع ، كالحاضر وهم القوم النازلون على الماء ، والباقر جمع البقر ، والحامل جمع الإبل ، ذكورها وإناثها ؛ ومنه قوله تعالى : « ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً » أى أطفالاً . يقال : قوم سَمْرٌ وسَمْرٌ وسامِرٌ ، ومعناه سهر الليل ؛ مأخوذ من السَمَر وهو ما يقع على الأشجار من ضوء القمر . قال الجوهري : السامر أيضا السَّمار ، وهم القوم الذين يَسْمُرُونَ ؛ كما يقال للحاج حُجَّاج ، وقول الشاعر :

\* وسامِرٍ طال فيه اللهُو والسَمَرُ \*

كأنه سَمِيَ المكان الذى يجتمع فيه للسمر بذلك . وقيل : وحد سامرا وهو بمعنى السَّمار ؛ لأنه وضع موضع الوقت ، كقول الشاعر :

مِنْ دُونِهِمْ إِنْ جِئْتَهُمْ سَمْرًا \* عَزَفُ الْقِيَانِ وَمَجْلِسُ غَمْرٍ

فقال : سَمْرًا ، لأن معناه : إِنْ جِئْتَهُمْ لَيْلاً وجِئْتَهُمْ وهم يَسْمُرُونَ . وآبنا سَمِيرَ : الليل والنهار ؛ لأنه يُسْمَرُ فيهما ، يقال : لا أفعله ما سَمَر آبنا سَمِير أبدا . ويقال : السَّمير الدهر ، وآبناه الليل والنهار . ولا أفعله السَمَر والقمر ؛ أى ما دام الناس يَسْمُرُونَ فى ليلة قمر . ولا أفعله سَمِير الليالى . قال الشَّنْفَرى :

هناك لا أرجو حياة تُسَرِّنى \* سَمِيرَ الليالى مُبَسَّلاً بالحرائر

والسَّمار ( بالفتح ) اللبن الرقيق . وكانت العرب تجلس للسمر تتحدث ، وهذا أوجب معرفتها بالنجوم ؛ لأنها تجلس فى الصحراء فترى الطوالع من الغوارب . وكانت قریش تُسْمِر حول الكعبة مجالس فى أباطيلها وكفرها ، فعابهم الله بذلك . و « تهجرون » قرئ بضم التاء وكسر الجيم من أجهز ، إذا نطق بالفحش . وبنصب التاء وضم الجيم من هجر المريض إذا هذى . ومعناه : يتكلمون بهوس وسَيِّئ من القول فى النبی صلى الله عليه وسلم وفى القرآن ؛ عن ابن عباس وغيره .

الثانية — روى سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال : إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية « مستكبرين به سامرا تهجرون » ؛ يعنى أن الله تعالى ذم أقواما يَسْمُرُونَ فى غير

طاعة الله تعالى : إما في هَدْيَان وإما في إِذَايَة . وكان الأعمش يقول : إذا رأيت الشيخ ولم يكتب الحديث فأصغعه فإنه من شيوخ القمر ؛ يعني يجتمعون في ليالي القمر فيتحدثون بأيام الخلفاء والأمراء ولا يحسن أحدهم يتوضأ للصلاة .

الثالثة — روى مسلم عن أبي بَرَزَة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤخر العشاء إلى ثلث الليل ويكره النوم قبلها والحديث بعدها . قال العلماء : أما الكراهية للنوم قبلها فلثلاثا . ومن كره النوم قبلها عمر وأبنة عبد الله وآبن عباس وغيرهم ، وهو مذهب مالك . ورخص فيه بعضهم ، منهم علي وأبو موسى وغيرهم ؛ وهو مذهب الكوفيين . وشرط بعضهم أن يجعل معه من يوقظه للصلاة . وروى عن ابن عمر مثله ، وإليه ذهب الطحاوي . وأما كراهية الحديث بعدها فالأن الصلاة قد كفرت خطاياهم فينام على سلامة ، وقد ختم الكتاب صحيفته بالعبادة ؛ فإن هو سمر وتحدث فملأوها بالهوس ويعمل خاتمها اللغو والباطل ، وليس هذا من فعل المؤمنين . وأيضا فإن السمر في الحديث مظنة غلبة النوم آخر الليل فينام عن قيام آخر الليل ، وربما ينام عن صلاة الصبح . وقد قيل : إنما يكره السمر بعدها لما روى جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إياكم والسمر بعد هذأة الرجل فإن أحدكم لا يدري ما يبث الله تعالى من خلقه أغلقوا الأبواب وأوْكُوا السقاء ونحروا الإناء وأطفئوا المصابيح “ . وروى عن عمر أنه كان يضرب الناس على الحديث بعد العشاء ، ويقول : أسمرا أول الليل ونوما آخره ! أريحوا كُتَابكم . حتى أنه روى عن ابن عمر أنه قال : من قرض بيت شعر بعد العشاء لم تقبل له صلاة حتى يُصبح . وأسنده شَدَاد بن أَوْس إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : إن الحكمة في كراهية الحديث بعدها إنما هو لما أن الله تعالى جعل الليل سَكَنًا ، أي يُسكن فيه ، فإذا تحدث الإنسان فيه فقد جعله في النهار الذي هو متصرف المعاش ؛ فكأنه قصد إلى مخالفة حكمة الله تعالى التي أجرى عليها وجوده فقال « وهو الذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا <sup>(١)</sup> » .

الرابعة - هذه الكراهة إنما تختص بما لا يكون من قبيل القرب والأذكار وتعليم العلم ، ومسامرة الأهل بالعلم وبتعليم المصالح وما شابه ذلك ، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن السلف ما يدل على جواز ذلك ، بل على نديته . وقد قال البخاري : ( باب السمر في الفقه والخير بعد العشاء ) وذكر أن قُتُزَةَ بن خالد قال : انتظرنا الحسن وراث<sup>(١)</sup> علينا حتى جاء قريبا من وقت قيامه ، بخاء فقال : دعانا جيراننا هؤلاء . ثم قال أنس : انتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة حتى كان شطر الليل بخاء فصلى ثم خطبنا فقال : " إن الناس قد صلُّوا وإنكم لم تزالوا في صلاة ما انتظرتهم الصلاة " . قال الحسن : فإن القوم لا يزالون في خير ما أنتظروا الخير . قال : ( باب السمر مع الضيف والأهل ) وذكر حديث أبي بكر بن عبد الرحمن أن أصحاب الصُّفَّة كانوا فقراء ... الحديث . أخرجه مسلم أيضا . وقد جاء في حراسة الثغور وحفظ العساكر بالليل من الثواب الجزيل والأجر العظيم ما هو مشهور في الأخبار . وقد مضى من ذلك جملة في آخر « آل عمران » والحمد لله وحده .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ  
الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ يعني القرآن ؛ وهو كقوله تعالى : « أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ » . وسُمِّيَ القرآن قولاً لأنهم خطبوا به . ﴿ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فأنكروه وأعرضوا عنه . وقيل : « أَمْ » بمعنى بل ؛ أي بل جاءهم ما لا عهد لآبائهم به ، فلذلك أنكروه وتركوا التدبر له . وقال ابن عباس : وقيل المعنى أَمْ جاءهم أمان من العذاب ، وهو شيء لم يأتِ آباءهم الأولين فتركوا الأعر .

قوله تعالى : أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾

(١) راث : أبطأ . (٢) راجع ج ٤ ص ٣٢٣ وما بعدها . (٣) آية ٨٢ سورة النساء .

هذا تستعمله العرب على معنى التوقيف والتقييد ، فيقولون : الخير أحب إليك أم الشر ؛ أى قد أخبرت الشر فتجنبه ، وقد عرفوا رسولهم وأنه من أهل الصدق والأمانة ؛ ففى اتباعه النجاة والخير لولا العنت . قال سفيان : بلى ! قد عرفوه ولكنهم حسدوه !

قوله تعالى : **أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرُهُمْ لِلْحَقِّ كَذِرُهُونَ** ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : **( أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ )** أى أم يحتجون فى ترك الإيمان به بأنه مجنون ، فليس هو هكذا ! لزوال أمارات الجنون عنه . **( بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ )** يعنى القرآن والتوحيد الحق والدين الحق . **( وَكَثُرُهُمْ )** أى كلهم **( لِلْحَقِّ كَذِرُهُونَ )** حسدا وبغيا وتقليدا .

قوله تعالى : **وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ** ﴿٧١﴾

قوله تعالى : **( وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ )** « الحق » هنا هو الله سبحانه وتعالى ؛ قاله الأكثرون ، منهم مجاهد وابن جريج وأبو صالح وغيرهم . وتقديره فى العربية : ولو اتبع صاحب الحق ؛ قاله النحاس . وقد قيل : هو مجاز ، أى لو وافق الحق أهواءهم ؛ فجعل موافقته اتباعا مجازا ؛ أى لو كانوا يكفرون بالرسول ويعصون الله عز وجل ثم لا يعاقبون ولا يحازون على ذلك إما عجزا وإما جهلا لفست السموات والأرض . وقيل : المعنى ولو كان الحق ما يقولون من اتخاذ آلهة مع الله تعالى لتنافت الآلهة ، وأراد بعضهم ما لا يريده بعض ، فاضطرب التفسير وفست السموات والأرض ، وإذا فسدنا فسد من فيهما . وقيل : « لو آتبع الحق أهواءهم » أى بما يهواه الناس ويشتهونه لبطل نظام العالم ؛ لأن شهوات الناس تختلف وتضاد ، وسبيل الحق أن يكون متبوعا ، وسبيل الناس الانقياد للحق . وقيل : « الحق » القرآن ؛ أى لو نزل القرآن بما يحبون لفست السموات والأرض . **( وَمَنْ فِيهِنَّ )** إشارة إلى من يعقل من ملائكة السموات وإنس الأرض وجنّها ، المأوردي . وقال الكلبي : يعنى وما بينهما من

خلق ؛ وهى قراءة ابن مسعود « لفسدت السموات والأرض وما بينهما » . فيكون على تأويل الكلبي وقراءة ابن مسعود محمولا على فساد من يعقل وما لا يعقل من حيوان وجماد . وظاهر التنزيل فى قراءة الجمهور يكون محمولا على فساد ما يعقل من الحيوان ؛ لأن ما لا يعقل تابع لما يعقل فى الصلاح والفساد ، فعلى هذا ما يكون من الفساد يعود على من فى السموات من الملائكة بأن جعلت أربابا وهى مربوبة ، وعُبدت وهى مستعبدة . وفساد الإنس يكون على وجهين : أحدهما — باتباع الهوى ، وذلك مهلك . الثانى — بعبادة غير الله ، وذلك كفر . وأما فساد ما عدا ذلك فيكون على وجه التبع ؛ لأنهم مدبرون بذوى العقول فعاد فساد المدبرين عليهم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ ﴾ أى بما فيه شرفهم وعزّهم ؛ قاله السدّي وسفيان . وقال قتادة : أى بما لهم فيه ذكر ثوابهم وعقابهم . ابن عباس : أى ببيان الحق وذكر ما لهم به حاجة من أمر الدين . ﴿ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ .

قوله تعالى : أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا نَخْرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ <sup>ط</sup> وَهُوَ خَيْرٌ

### الرَّازِقِينَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ﴾ أى أجرا على ما جئتهم به ؛ قاله الحسن وغيره . ﴿ نَخْرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ﴾ وقرا حمزة والكسائي والأعمش ويحيى بن وثاب « خراجا » بألف . الباقيون بغير ألف . وكلهم قد قرءوا « نخراج » بالألف إلا ابن عامر وأبا حيوة لأنهما قرأوا بغير الألف . والمعنى : أم تسألهم رزقا فرزق ربك خير . ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أى ليس يقدر أحد أن يرزق مثل رزقه ، ولا يُنعم مثل إنعامه . وقيل : أى ما يؤتيك الله من الأجر على طاعتك له والدعاء إليه خيرا من عَرْض الدنيا ، وقد عرضوا عليك أموالهم حتى تكون كأعين رجل من قريش فلم تجبهم إلى ذلك ؛ قال معناه الحسن . والنخرج والنخراج واحد ، إلا أن اختلاف الكلام أحسن ؛ قاله الأخفش . وقال أبو حاتم : النخرج الجعل ، والنخراج العطاء .

المبرّد : الخرج المصدر ، والخراج الآسم . وقال النضر بن شميل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج فقال : الخراج مالزملك ، والخرَج ما تبرّعت به . وعنه أن الخرج من الرقاب ، والخراج من الأرض . ذكر الأول الثعلبى والثانى الماوردى .

قوله تعالى : وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَالِكُونَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى إلى دين قويم . والصراط فى اللغة الطريق ؛ فُسِّمَ الدين طريقاً لأنه يؤدى إلى الجنة فهو طريق إليها . ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى بالبعث . ﴿ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَالِكُونَ ﴾ قيل : هو مثل الأول . وقيل : إنهم عن طريق الجنة لناكبون حتى يصيروا إلى النار . نَكَبَ عن الطريق يَنْكُبُ نَكُوباً إذا عدل عنه ومال إلى غيره ؛ ومنه نكبت الريح إذا لم تستقم على مجرى . وشرّ الريح النكباء .

قوله تعالى : وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ ﴾ أى لو رددناهم إلى الدنيا ولم ندخلهم النار وأمتحناهم ﴿ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ قال السدى : فى معصيتهم . ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ قال الأعمش : يترددون . وقال ابن جرير : « ولو رحمتهم » يعنى فى الدنيا « وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ » أى من حُطٍّ وجوع « لَلَجُّوا » أى لتأدّوا « فِي طُغْيَانِهِمْ » وضلاتهم وتجاوزهم الحد « يَعْمَهُونَ » يتذبذبون ويحيطون .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴾ قال الضحاك : بالجوع . وقيل : بالأمراض والحاجة والجوع . وقيل : بالقتل والجوع . ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا لِلرَّبِّهِمْ ﴾ أى ما خضعوا . ﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أى ما يخشعون لله عز وجل فى الشدائد تصيبيهم . قال ابن عباس : نزلت فى قصة ثمامة بن أثال لما أسرته السرية وأسلم وختل رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيله ، حال بين مكة وبين الميرة وقال : والله لا يأتىكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأخذ الله قريشا بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعليز ، قيل وما العليز ؟ قال : كانوا يأخذون الصوف والوبر فيبئونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه . فقال له أبو سفيان : أنشدك الله والرحم ! أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين ؟ قال " بلى " . قال : فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع ، فنزل قوله « وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

قوله تعالى : حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قال عكرمة : هو باب من أبواب جهنم ، عليه من الخزنة أربعائة ألف ، سود وجوههم ، كاللحة أنيابهم ، قد قُلعت الرحمة من قلوبهم ؛ إذا بلغوه فتحه الله عز وجل عليهم . وقال ابن عباس : هو قتلهم بالسيف يوم بدر . مجاهد : هو القحط الذى أصابهم حتى أكلوا العليز من الجوع ؛ على ما تقدم . وقيل فتح مكة . ﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أى يأسون متحيرون لا يدرون ما يصنعون ، كالآيس من الفرج ومن كل خير . وقد تقدم فى « الأنعام » .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾



قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ عرفهم كثرة نعمه وكمال قدرته .  
﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أى ما تشكرون إلا شكرا قليلا . وقيل : أى لا تشكرون ألبتة .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾  
قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى أنشاكم وبشكم وخلقكم . ﴿ وَإِلَيْهِ  
تُحْشَرُونَ ﴾ أى تجمعون للجزاء .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ط  
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا  
وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا  
مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا  
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ  
السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا  
تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ  
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى جعلهما  
مختلفين ، كقولك : لك الأجر والصلوة ، أى إنك تؤجر وتوصل ، قاله الفراء . وقيل :  
اختلافهما نقصان أحدهما وزيادة الآخر . وقيل : اختلافهما فى النور والظلمة . وقيل :  
تكررها يوما بعد ليلة وليلة بعد يوم . ويحتمل خامسا : اختلاف ما مضى فيهما من سعادة  
وشقاء وضلال وهدى . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ كنه قدرته وربوبيته ووحدانيته ، وأنه لا يجوز  
أن يكون له شريك من خلقه ، وأنه قادر على البعث . ثم عيرهم بقولهم وأخبر عنهم أنهم

﴿ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ هذا لا يكون ولا يتصور . ﴿ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل يحيى ؑ محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم نر له حقيقة . ﴿ إِنْ هَذَا ﴾ أى ما هذا ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى أباطيلهم وتُرَاهُم ؛ وقد تقدم هذا كله . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد جواباً لهم عما قالوه ﴿ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾ يخبر بربوبيته ووحدانيته وملكوته الذى لا يزول ، وقدرته التى لا تحول ؛ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ ولا بُدَّ لهم من ذلك . فـ ﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى أفلا تتعظون وتعلمون أن من قدر على خلق ذلك ابتداء فهو على إحياء الموتى بعد موتهم قادر . ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نَتَّقُونَ ﴾ يريد أفلا تخافون حيث تعملون لى ما تكرهون ؛ زعمتم أن الملائكة بناتى ، وكرهتم لأنفسكم البنات . ﴿ قُلْ مَنْ مِنْ يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يريد السموات وما فوقها وما بينهن ، والأرضين وما تحتين وما بينهن ، وما لا يعلمه أحد إلا هو . وقال مجاهد : « ملكوت كل شيء » خزائن كل شيء . الضحاك : ملك كل شيء . والملكوت من صفات المبالغة كالجبروت والرهبوت ؛ وقد مضى فى « الأنعام » . ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أى يمنع ولا يُمنع منه . وقيل : « يُجِيرُ » يؤمن من شاء . « وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ » أى لا يؤمن من أخافه . ثم قيل : هذا فى الدنيا ؛ أى من أراد الله إهلاكه وخوفه لم يمنعه منه مانع ، ومن أراد نصره وأمنه لم يدفعه من نصره وأمنه دافع . وقيل : هذا فى الآخرة ؛ أى لا يمنعه من مستحق الثواب مانع ولا يدفعه من مستوجب العذاب دافع . ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ أى فكيف تخدعون وتصرفون عن طاعته وتوحيده . أو كيف يخيل إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع ! والسحر هو التخيل . وكل هذا احتجاج على العرب المقرين بالصانع . وقرأ أبو عمرو « سيقولون الله » فى الموضعين الأخيرين ؛ وهى قراءة أهل العراق . الباقون « لله » ، ولا خلاف فى الأول أنه « لله » ؛ لأنه جواب لـ « قل لمن الأرض ومن فيها » فلما تقدمت اللام فى « لمن » رجعت فى الجواب . ولا خلاف أنه

مكتوب في جميع المصاحف بنير ألف . وأما من قرأ « سيقولون الله » فلان السؤال بغير لام بغاء الجواب على لفظه ، وجاء في الأول « لله » لما كان السؤال باللام . وأما من قرأ « لله » باللام في الآخرين وليس في السؤال لام فلأن معنى « قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم » : قل لمن السموات السبع ورب العرش العظيم . فكان الجواب « لله » ؛ حين قدرت اللام في السؤال . وعلّة الثالثة كعلة الثانية . وقال الشاعر :

إذا قيل من رب المزالف والقرى \* ورب الجياد الجرد قلت لخالد<sup>(١)</sup>

أى لمن المزالف .

ودلت هذه الآيات على جواز جدال الكفار وإقامة الحجّة عليهم . وقد تقدم في « البقرة » . ونهت على أن من ابتدأ بالخلق والاختراع والإيجاد والإبداع هو المستحق للألوهية والعبادة .

قوله تعالى : **بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾**

قوله تعالى : **( بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ )** أى بالقول الصدق ، لا ما تقوله الكفار من إثبات الشريك ونفى البعث . **( وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ )** أن الملائكة بنات الله . فقال الله تعالى : **( مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ )** « من » صلة . **( وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ )** « من » زائدة ؛ والتقدير : ما اتخذ الله ولدا كما زعمتم ، ولا كان معه إله فيما خلق . وفي الكلام حذف ؛ والمعنى : لو كانت معه آلهة لأفرد كل إله بحلقه . **( وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ )** أى ولعلّالب وطلب القوى الضعيف كالعادة بين الملوك ، وكان الضعيف المغلوب لا يستحق الإلهية . وهذا الذى يدل على نفى الشريك يدل على نفى الولد أيضا ؛ لأن الولد ينازع الأب في الملك منازعة الشريك .

(١) المزالف : القرى التى بين البر والبحر ؛ الواحدة مزلفة . والأجرد من الخيل والدواب : القصير الشعر .

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ تنزيهاً له عن الولد والشريك . ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيهه وتقديسه . وقرأ نافع وأبو بكر وحمزة والكسائي «عالمٌ» بالرفع على الاستئناف ؛ أى هو عالم الغيب . الباقون بالجر على الصفة لله . وروى رويس عن يعقوب «عالمٌ» إذا وصل خفضاً . و «عالمٌ» إذا ابتدأ رفعاً .

قوله تعالى : قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾

علمه ما يدعوه ؛ أى قل رب ، أى يارب إن أريتني ما يوعدون من العذاب . ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى فى نزول العذاب بهم ، بل أخرجني منهم . وقيل : النداء معترض ؛ و «ما» فى «إمّا» زائدة . وقيل : إن أصل إمّا إن ما ؛ ف «إن» شرط و «ما» شرط ، بجمع بين الشرطين تأكيداً ، والجواب «فلا تجعلني فى القوم الظالمين» ؛ أى إذا أردت بهم عقوبة فأخرجني منهم . وكان عليه السلام يعلم أن الله تعالى لا يجعله فى القوم الظالمين إذا نزل بهم العذاب ، ومع هذا أمره الرب بهذا الدعاء والسؤال ليعظم أجره وليكون فى كل الأوقات ذاكراً للرب تعالى .

قوله تعالى : وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾

نبه على أن خلاف المعلوم مقدور ، وقد أراه الله تعالى ذلك فيهم بالجوع والسيوف ، ونجاء الله ومن آمن به من ذلك .

قوله تعالى : ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ أمر بالصفح ومكارم الأخلاق ؛ فما كان منها لهذه الأمة فيما بينهم فهو محكم باقٍ فى الأمة أبداً . وما كان فيها من موادة الكفار وترك التعرض لهم والصفح عن أمورهم فمُتَسَوِّخٌ بالقتال . ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أى من الشرك والتكذيب . وهذا يقتضى أنها آية موادة ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ  
بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ الهمزات هي جمع همزة . والهمز في اللغة النخس والدفع ؛ يقال : همزه ولمزه ونخسه دفعه . قال الليث : الهمز كلام من وراء القفا ، والأنز مواجهة . والشيطان يوسوس فيهمس في وسواسه في صدر ابن آدم ؛ وهو قوله : « أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ » أي نزغات الشياطين الشاغلة عن ذكر الله تعالى . وفي الحديث : كان يتعوذ من همز الشيطان ولمزه وهمسه . قال أبو الهيثم : إذا أسر الكلام وأخفاه فذلك الهمس من الكلام . وسمى الأسد هموسا ؛ لأنه يمشي بخفة فلا يُسمع صوت وطئه . وقد تقدم في « طه » .

الثانية - أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالتعوذ من الشيطان في همزاته ، وهي سورات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه ، وكأنها هي التي كانت تصيب المؤمنين مع الكفار فتقع المحادة فلذلك اتصلت بهذه الآية . فالنزغات وسورات الغضب الواردة من الشيطان هي المتعوذ منها في الآية ؛ وقد تقدم في آخر « الأعراف »<sup>(٢)</sup> بيانه مستوفى ، وفي أول الكتاب أيضا . وروى عن علي بن حرب بن محمد الطائي حدثنا سفيان عن أيوب عن محمد بن حبان أن خالدا كان يؤزق من الليل ؛ فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره أن يتعوذ بكلمات الله التامة من غضب الله وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون . وفي كتاب أبي داود قال عمر : وهمزة الموت ؛ قال ابن ماجه : الموتة يعني الجنون . والتعوذ أيضا من الجنون وكيد . وفي قراءة أبي « رَبِّ عَائِذَا بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ » ، وعائذا بك أن يحضروا ؛ أي يكونوا معي في أموري ،

(١) راجع ج ١١ ص ٢٤٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٧ ص ٣٤٧

(٣) راجع ج ١ ص ٨٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

فإنهم إذا حضروا الإنسان كانوا معدين للهمز ، وإذا لم يكن حضور فلا همز . وفي صحيح مسلم عن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضره عند طعامه فإذا سقطت من أحدكم اللقمة فليعط ما كان بها من أذى ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان فإذا فرغ فليعلق أصابعه فإنه لا يدرى في أي طعامه البركة " .

قوله تعالى : **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ** ﴿١٩﴾  
**لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ**  
**بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ عاد الكلام إلى ذكر المشركين ؛ أى قالوا «أئذا متنا - إلى قوله - إن هذا إلا أساطير الأولين» . ثم احتج عليهم وذكّرهم قدرته على كل شيء ، ثم قال هم مصرّون على ذلك حتى إذا جاء أحدهم الموت تيقّن ضلّالته وعاین الملائكة التى تقبض روحه ؛ كما قال تعالى : «وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ» . ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ تمنى الرجعة كى يعمل صالحا فيما ترك . وقد يكون القول فى النفس ؛ قال الله عز وجل : «وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُهُ اللَّهُ بِمَا نَقُولُ» . فاما قوله «ارْجِعُونِ» وهو مخاطب ربه عز وجل ولم يقل «ارجعنى» جاء على تعظيم الذكر للمخاطب . وقيل : استغاثوا بالله عز وجل أولا . فقال قائلهم : رب ، ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال : ارجعون إلى الدنيا ؛ قاله ابن جريج . وقيل : إن معنى «ارجعون» على جهة التكرير ؛ أى ارجعنى ارجعنى ارجعنى وهكذا . قال المزمزى فى قوله تعالى «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ» قال : معناه ألقي ألقى . قال الضحاك : المراد به أهل الشرك .

قلت : ليس سؤال الرجعة مختصا بالكافر فقد يسألها المؤمن كما فى آخر سورة المنافقين على ما يأتى . ودلت الآية على أن أحدا لا يموت حتى يعرف اضطرابا أهو من أولياء

الله أم من أعداء الله، ولولا ذلك لما سأل الرجعة، فيعلموا ذلك قبل نزول الموت وذواقه .  
 ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ قال ابن عباس : يريد أشهد أن لا إله إلا الله . ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾  
 أى فيما ضيّعت وتركت العمل به من الطاعات . وقيل : «فِيمَا تَرَكْتُ» من المال فأنصديق .  
 و«لَعَلِّي» تتضمن تردداً، وهذا الذى يسأل الرجعة قد استيقن العذاب ، وهو يوطن نفسه على  
 العمل الصالح قطعاً من غير تردد . فالتردد يرجع إما إلى رده إلى الدنيا ، وإما إلى التوفيق ؛ أى  
 أعمل صالحاً إن وفقني ؛ إذ ليس على قطع من وجود القدرة والتوفيق لو رُدَّ إلى الدنيا .  
 ﴿كَلَّا﴾ هذه كلمة رَدٍّ ؛ أى ليس الأمر على ما يظنه من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا .  
 بل هو كلام يطيح في أدراج الريح . وقيل : لو أجيب إلى ما يطلب لما وقى بما يقول ؛  
 كما قال : «وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ» . وقيل : «كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا» ترجع  
 إلى الله تعالى ؛ أى لا خلف في خبره ، وقد أخبر أنه إن يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وأخبر بأن  
 هذا الكافر لا يؤمن . وقيل : «إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا» عند الموت ، ولكن لا تنفع . ﴿وَمِنْ  
 وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ أى ومن أمامهم وبين أيديهم . وقيل : من خلفهم . «بَرْزَخٌ» أى حاجز بين  
 الموت والبعث ؛ قاله الضحاك ومجاهد وابن زيد . وعن مجاهد أيضاً أن البرزخ هو الحاجز  
 بين الموت والرجوع إلى الدنيا . وعن الضحاك : هو ما بين الدنيا والآخرة . ابن عباس :  
 حجاب . السدى : أجل . قتادة : بقية الدنيا . وقيل : الإمهال إلى يوم القيامة ؛ حكاه  
 ابن عيسى . الكلبي : هو الأجل ما بين النفختين ، وبينهما أربعون سنة . وهذه الأقوال  
 متقاربة . وكلُّ حاجزٍ بين شيئين فهو بَرْزَخٌ . قال الجوهري : البرزخ الحاجز بين الشيئين .  
 والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث ؛ فمن مات فقد دخل في البرزخ .  
 وقال رجل بحضرة الشَّعْبِيِّ : رحم الله فلاناً فقد صار من أهل الآخرة ! فقال : لم يصِرْ من  
 أهل الآخرة ، ولكنه صار من أهل البرزخ ، وليس من الدنيا ولا من الآخرة . وأضيف  
 «يوم» إلى «يبعثون» لأنه ظرف زمان ، والمراد بالإضافة المصدر .

قوله تعالى : فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ المراد بهذا النفخ النفخة الثانية . ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : لا يفتخرون بالأنساب في الآخرة كما يفتخرون بها في الدنيا ، ولا يتساءلون فيها كما يتساءلون في الدنيا ؛ من أى قبيلة أنت ولا من أى نسب ، ولا يتعارفون لهول ما أذهلهم . وعن ابن عباس أن ذلك في النفخة الأولى حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . وسأل رجل ابن عباس عن هذه الآية وقوله : « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » <sup>(١)</sup> فقال : لا يتساءلون في النفخة الأولى ؛ لأنه لا يبقى على الأرض حي ، فلا أنساب ولا تساؤل . وأما قوله « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » فإنهم إذا دخلوا الجنة تساءلوا . وقال ابن مسعود : إنما عني في هذه الآية النفخة الثانية . وقال أبو عمر زاذان : دخلت على ابن مسعود فوجدت أصحاب الخير واليمنة قد سبقوني إليه ، فناديت بأعلى صوتي : يا عبد الله بن مسعود ! من أجل أنى رجل أعجمى أدنيت هؤلاء وأقصيتنى ! فقال : أدنؤه ؛ فدنوت ، حتى ما كان بينى وبينه جليس فسمعته يقول : يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة فينصب على رهوس الأولين والآخرين ثم ينادى مناد : هذا فلان بن فلان ، من كان له حق فليأت إلى حقه ؛ فتفرح المرأة أن يدور لها الحق على أيها أو على زوجها أو على أخيها أو على ابنها ؛ ثم قرأ ابن مسعود : « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » فيقول الرب سبحانه وتعالى " آت هؤلاء حقوقهم " فيقول : يارب قد فزيت الدنيا فمن أين أوتيهم ؛ فيقول الرب للملائكة : " خذوا من حسناته فأعطوا كل إنسان بقدر طلبته " فإن كان ولياً لله فضلت من حسناته مثقال حبة من نردل فيضاعفها الله تعالى حتى يدخله بها الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ



مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا<sup>(١)</sup> . وَإِنْ كَانَ شَقِيًّا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : رَبِّ ! فَنِيَتْ حَسَنَاتِهِ وَبَقِيَ طَالِبُونَ ، فيقول الله تعالى : ” خذوا من أعمالهم فأضيفوها إلى سيئاته وصُكُّوا له صَكًّا إِلَى جَهَنَّمَ “ .

قوله تعالى : فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾  
تقدم الكلام فيهما .

قوله تعالى : تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تَتْلُوا عَلَيْنَكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ ويقال « تنفح » بمعناه ، ومنه « وَلَيْنَ مَسْتَقَرُّهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ »<sup>(٢)</sup> . إلا أن « تلفح » أبلغ بأسا ، يقال : لفحته النار والسُّمُومُ بحرهما أحرقتة . ولفحته بالسيف لفحة إذا ضربته به [ ضربة ] خفيفة . ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ قال ابن عباس : عابسون . وقال أهل اللغة : الكالوح تكشُّر في عبوس . والكالح : الذي قد تشمرت شفتاه وبدت أسنانه . قال الأعشى :

وله المقدم لا مثل له \* ساعة الشدق عن الناب كالخ

وقد كالخ الرجل كالأحوا وكالأحوا . وما أقبح كالخته ؛ يراد به القم وما حواليه . ودهر كالخ أى شديد . وعن ابن عباس أيضا « وهم فيها كالخون » يريد كالذى كالخ وتقلصت شفتاه وسال صديده . وقال ابن مسعود : ألم تر إلى الرأس المشيط بالنار، وقد بدت أسنانه وقلصت شفتاه . وفي الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” وهم فيها كالخون — قال — تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتستريح شفته السفلى حتى تضرب سُرته “ قال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(١) آية ٤٠ سورة النساء . (٢) راجع ج ٧ ص ١٦٦ (٣) آية ٤٦ سورة الأنبياء .

قوله تعالى : **قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْسَعُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٨﴾**

قوله تعالى : **( قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا )** قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم « شِقْوَتُنَا » وقرأ الكوفيون إلا عاصم « شقاوتنا » . وهذه القراءة مروية عن ابن مسعود والحسن . ويقال : شقاء وشقاء بالمد والقصر . وأحسن ما قيل في معناه : غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا ؛ فسمى الذات والأهواء شقوة ، لأنهما يؤديان إليها ، كما قال الله عز وجل : **« إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا »** <sup>(١)</sup> ؛ لأن ذلك يؤديهم إلى النار . وقيل : ما سبق في علمك ، وكتب علينا في أم الكتاب من الشقاوة . وقيل : حسن الظن بالنفس وسوء الظن بالخلق . **( وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ )** أى كنا في فعلنا ضالين عن الهدى . وليس هذا اعتذارا منهم إنما هو إقرار ، ويدل على ذلك قولهم **( رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ )** طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت . **( فَإِنْ عُدْنَا )** إلى الكفر **( فَإِنَّا ظَالِمُونَ )** لأنفسنا بالعود إليه فيجانون بعد ألف سنة : **( اخْسَعُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ )** أى أبعدوا في جهنم ؛ كما يقال للكلب : اخسأ ؛ أى أبعد . خسأت الكلب خسئا طردته . وخسأ الكلب بنفسه خسوءا ؛ يتعدى ولا يتعدى . وانخسأ الكلب أيضا . وذكر ابن المبارك قال : حدثنا سعيد بن أبى عمرو عن قتادة يذكره عن أبى أيوب عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال : إن أهل جهنم يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما ، ثم يرد عليهم : إنكم ما كنتم . قال : هانت والله دعوتهم على مالك ورب مالك . قال : ثم يدعون ربهم فيقولون : **« رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ »** . قال : فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين . قال : ثم يرد عليهم اخسأوا فيها . قال : فوالله ما تبس القوم بعدها بكلمة ، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم .

فشبه أصواتهم بصوت الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق . أخرجه الترمذى مرفوعاً بمعناه من حديث أبي الدرداء . وقال قتادة : صوت الكفار في النار كصوت الحمار ، أوله زفير وآخره شهيق . وقال ابن عباس : يصير لهم نباح كنباح الكلاب . وقال محمد بن كعب القرظي : بلغني أو ذكر لي أن أهل النار استغاثوا بالخيزنة ... الخبر بطوله ، ذكره ابن المبارك ، وقد ذكرناه بكامله في التذكرة ، وفي آخره : ثم مكث عنهم ما شاء الله ، ثم ناداهم « أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنْتَلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » قال : فلما سمعوا صوته قالوا الآن يرحمنا ربنا فقالوا عند ذلك « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا » أي الكتاب الذي كتب علينا « وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » فقال عند ذلك « آخَسُوا فِيهَا وَلَا تَكَلَّمُونَ » فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء ، وأقبل بعضهم على بعض ينبج بعضهم في وجوه بعض ، وأطبقت عليهم .

قوله تعالى : **إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٢٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١٣٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَآيُزُونَ ﴿١٣١﴾**

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ﴾ الآية ، قال مجاهد : هم بلال وخباب وصهيب ، وفلان وفلان من ضعفاء المسلمين ، كان أبو جهل وأصحابه يهزءون بهم . ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا ﴾ بالضم قراءة نافع وحمة والكسائي هاهنا وفي « ص » . وكسر الباقون . قال النحاس : وفرق أبو عمرو بينهما ، فجعل المكسورة من جهة التهزؤ ، والمضمومة من جهة السخرة ، ولا يعرف هذا التفريق الخليل ولا سيبويه ولا الكسائي ولا الفراء . قال الكسائي : هما لغتان بمعنى واحد ، كما يقال : عَصِيَّ وَعِصِيَّ ، وَلِحِيَّ وَلِحِيَّ . وحكى التعليق عن الكسائي والفراء الفرق الذي ذكره أبو عمرو ، وأن الكسر بمعنى الاستهزاء

والسخرية بالقول ، والضم بمعنى التسخير والاستعباد بالفعل . وقال المبرد : إنما يؤخذ التقريب بين المعاني عن العرب ، وأما التأويل فلا يكون . والكسر في سخرى في المعنيين جميعاً ؛ لأن الضمة تستثقل في مثل هذا . ﴿ حَتَّىٰ أَنسَوُكُمْ ذِكْرِي ﴾ أى اشتغلتم بالاستهزاء بهم عن ذكرى . ﴿ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء بهم ، وأضاف الإنساء إلى المؤمنين لأنهم كانوا سبباً لاشتغالهم عن ذكره ؛ وتعذى شؤم استهزائهم بالمؤمنين إلى استيلاء الكفر على قلوبهم . ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على أذاكم ، وصبروا على طاعتي . ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة على ابتداء المدح من الله تعالى لهم ، وفتح الباقي ؛ أى لأنهم هم الفائزون . ويجوز نصبه بوقوع الجزاء عليه ، تقديره : إني جزيتهم اليوم الفوز بالجنة .

قلت : وينظر إلى معنى هذا قوله تعالى في آخر المطففين : « فَأَلْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » إلى آخر السورة ، على ما يأتي بيانه هناك إن شاء الله تعالى . ويستفاد من هذا : التحذير من السخرية والاستهزاء بالضعفاء والمساكين والاحتقار لهم ، والإضرار عليهم والاشتغال بهم فيما لا يعنى ، وأن ذلك مبعّد من الله عز وجل .

قوله تعالى : قَلَّ كَمَ لَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَيْتَنَّا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَعَلَ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قَلَّ إِن لَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ كَمْ لَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ قيل : معنى في القبور . وقيل : هو سؤال لهم عن مدة حياتهم في الدنيا . وهذا السؤال للمشركين في عَرَصات القيامة أو في النار . ﴿ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ بفتح النون على أنه جمع مسلم ، ومن العرب من يخفضها وينونها . ﴿ قَالُوا لَيْتَنَّا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ أنساهم شدة العذاب مدة مكثهم في القبور . وقيل : لأن العذاب رفع عنهم بين النفختين فنسوا ما كانوا فيه من العذاب في قبورهم . قال ابن عباس : أنساهم ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى إلى الثانية ؛ وذلك أنه ليس من أحد قتله نبي أو قتل نبياً

أو مات بحضرة نبي إلا عذب من ساعة يموت إلى النفخة الأولى ، ثم يمسك عنه العذاب فيكون كالماء حتى ينفخ الثانية . وقيل : استقصوا مدة آبتهم في الدنيا وفي القبور ورأوه يسيرا بالنسبة إلى ما هم بصدد . ﴿ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ ﴾ أى سأل الحُساب الذين يعرفون ذلك فإننا قد نسيناه ، أو فأسأل الملائكة الذين كانوا معنا في الدنيا ، الأول قول قتادة ، والثاني قول مجاهد . وقرأ ابن كثير وحمة والكسائي « قل كم لبثتم في الأرض » على الأمر . ويحتمل ثلاثة معانٍ : أحدها — قولوا كم لبثتم ، فأخرج الكلام مخرج الأمر للواحد والمراد الجماعة ، إذ كان المعنى مفهوما . الثاني — أن يكون أمراً للملك ليسألهم يوم البعث عن قدر مكثهم في الدنيا . أو أراد قل أيها الكافر كم لبثتم ، وهو الثالث . الباقيون « قال كم » على الخبر ، أى قال الله تعالى لهم ، أو قالت الملائكة لهم كم لبثتم . وقرأ حمزة والكسائي أيضاً ﴿ قل إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ الباقيون « قال » على الخبر ، على ما ذكر من التأويل في الأول ، أى ما لبثتم في الأرض إلا قليلاً ، وذلك أن مكثهم في القبور وإن طال كان متناهياً . وقيل : هو قليل بالنسبة إلى مكثهم في النار ، لأنه لا نهاية له . ﴿ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : **الْخَسِيبَةُ** أَمْثَلًا خَلَقْنَاكُمْ عِبَادًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ الْخَسِيبَةُ أَمْثَلًا خَلَقْنَاكُمْ عِبَادًا ﴾ أى مهمالين كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب عليها ، مثل قوله تعالى : « أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى »<sup>(١)</sup> يريد كالبهائم مهملاً غير فائدة . قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي : إن الله تعالى خلق الخلق عبداً ليعبدوه ، فيثيبهم على العباداة ويعاقبهم على تركها . فإن عبدوه فهم اليوم له عبيد أحرار كرام من رق الدنيا ، ملوك في دار الإسلام ، وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أبق سقاط لئام ، وغداً أعداء في السجون بين أطباق النيران . و « عِبَادًا » نصب على الحال عند سيبويه وقطرب . وقال أبو عبيدة : هو نصب على المصدر أو لأنه مفعول له . ﴿ وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ فتجاوزون بأعمالكم . قرأ حمزة والكسائي « تُرْجَعُونَ » بفتح التاء وكسر الجيم من الرجوع .

قوله تعالى : فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ أى تَزَه وتقدس الله الملك الحق عن الأولاد والشركاء والأنداد ، وعن أن يخلق شيئاً عبثاً أو سفهاً ؛ لأنه الحكيم . ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ ليس في القرآن غيرها . وقرأ ابن محيصة وروى عن ابن كثير « الكريم » بالرفع معناه الله .

قوله تعالى : وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ أى لا حجة له عليه ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ أى هو يعاقبه ويحاسبه . ﴿ إِنَّهُ ﴾ الهاء ضمير الأمر والشان . ﴿ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ وقرأ الحسن وقتادة « لا يفلح » — بالفتح — من كذب ومحمد ما جئت به وكفر نعمتى . ثم أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالاستغفار لتقتدى به الأمة . وقيل : أمره بالاستغفار لأئمة . وأسند الثعلبي من حديث ابن أبي عمير عن عبد الله بن هبيرة عن حنبل بن عبد الله الصنعاني عن عبد الله بن مسعود أنه مر بمصاب مبتلى فقرأ في أذنه « ألحسبتم أنما خلقناكم عبثاً » حتى ختم السورة فبرأ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماذا قرأت في أذنه ؟ » فأخبره ، فقال : « والذي نفسى بيده لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال » .

(١) في روح المعاني : « الكريم بالرفع على أنه صفة الرب ، وجوز أن يكون صفة للعرش على القطع » .

## سورة النور

مدينة بالإجماع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾

مقصود هذه السورة ذكر أحكام العفاف والستر . وكتب عمر رضى الله عنه إلى أهل الكوفة : علموا نساءكم سورة النور . وقالت عائشة رضى الله عنها : لا تُنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن سورة النور والغزل . ﴿ وَفَرَضْنَاهَا ﴾ قرئ بتخفيف الراء ؛ أى فرضنا عليكم وعلى من بعدكم ما فيها من الأحكام . وبالتشديد : أى أنزلنا فيها فرائض مختلفة . وقرأ أبو عمرو : « وفرضناها » بالتشديد أى قطعناها فى الإنزال نُجْمًا نُجْمًا . والفرض القطع ؛ ومنه فُرْضة القوس . وفرائض الميراث وفرض التفقة . وعنه أيضا « فرضناها » فصلناها وبنناها . وقيل : هو على التكثير ؛ لكثرة ما فيها من الفرائض . والسورة فى اللغة اسم للأنزلة الشريفة ؛ ولذلك سُميت السورة من القرآن سورة . قال زهير <sup>(١)</sup> :

ألم تر أن الله أعطاك سورة \* ترى كل ملكٍ دونها يتذبذب

وقد مضى فى مقدمة الكتاب القول فيها <sup>(٢)</sup> . وقرئ « سورة » بالرفع على أنها مبتدأ وخبرها « أنزلناها » ؛ قاله أبو عبيدة والأخفش . وقال الزجاج والفراء والمبرد : « سورة » بالرفع لأنها خبر الابتداء ؛ لأنها نكرة ولا يتبدأ بالنكرة فى كل موضع ، أى هذه سورة . ويحتمل أن يكون قوله « سورة » ابتداء وما بعدها صفة لها أخرجتها عن حد النكرة المحضة لحسن الابتداء لذلك ، ويكون الخبر فى قوله « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي » . وقرئ « سورة » بالنصب ، على تقدير أنزلنا سورة أنزلناها . وقال الشاعر <sup>(٣)</sup> :

(١) كذا فى الأصول . والمعروف أن هذا البيت للناطقة الذبياني من قصيدة يمدح بها النعمان ويعتذر .

(٢) راجع ج ١ ص ٦٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) هو الربيع بن ضبيع بن وهب (عن شرح الشواهد الكبرى للعيني) .

والذئب أخشاه إن مررت به \* وحدي وأخشى الرياح والمطرا  
أو تكون منصوبة بإضمار فعل ؛ أي آتت سورة . وقال الفراء : هي حال من الهاء والألف ،  
والحال من المكنى يجوز أن يتقدم عليه .

قوله تعالى : **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**  
**وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**  
**وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴿٢﴾

فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : **(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي)** كان الزنى في اللغة معروفا قبل الشرع ، مثل  
اسم السرقة والقتل . وهو اسم لوطء الرجل امرأة في فرجها من غير نكاح ولا شبهة نكاح  
بمطاوعتها . وإن شئت قلت : هو إدخال فرج في فرج مشتهى طبعاً محرم شرعاً ، فإذا كان  
ذلك وجب الحد . وقد مضى الكلام في حد الزنى وحقيقته وما للعلماء في ذلك . وهذه  
الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين في سورة «النساء» <sup>(١)</sup> باتفاق .

الثانية — قوله تعالى : **(مِائَةَ جَلْدَةٍ)** هذا حد الزانى الحر البالغ البكر ، وكذلك  
الزانية البالغة البكر الحرة . وثبت بالسنة تغريب عام ؛ على الخلاف في ذلك . وأما المملوكات  
فالواجب خمسون جلدة ؛ لقوله تعالى : **« فَإِنْ أَتَيْنِ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ**  
**مِنَ الْعَذَابِ »** <sup>(٢)</sup> وهذا في الأمة ، ثم العبد في معناها . وأما المحصن من الأحرار فعليه التجم دون  
الجلد . ومن العلماء من يقول : يجلد مائة ثم يُرجم . وقد مضى هذا كله ممهداً في «النساء»  
فأغنى عن إعادته ، والحمد لله .

الثالثة — قرأ الجمهور «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي» بالرفع . وقرأ عيسى بن عمر الثقفي «الزانية»  
بالنصب ، وهو أوجه عند سيبويه ؛ لأنه عنده كقولك : زيدا أضرب . ووجه الرفع عنده :

(٢) آية ٢٥ سورة النساء .

(١) راجع ج ٥ ص ٨٢ وما بعدها .



خبر ابتداء<sup>(١)</sup> ، وتقديره : فيما يتلى عليكم [حكم<sup>(٢)</sup>] الزانية والزاني . وأجمع الناس على الرفع وإن كان القياس عند سيبويه النصب . وأما الفراء والمبرد والزجاج فإن الرفع عندهم هو الأوجه ، والخبر في قوله « فأجلدوا » ؛ لأن المعنى : الزانية والزاني مجلودان بحكم الله ؛ وهو قول جيد ، وهو قول أكثر النحاة . وإن شئت قدرت الخبر : ينبغي أن يجلدوا . وقرأ ابن مسعود « والزاني » بغير ياء .

الرابعة — ذكر الله سبحانه وتعالى الذَّكَرَ والأنثى ، والزاني كان يكفي منهما ؛ فقليل : ذكرهما للتأكيـد ؛ كما قال تعالى : « والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا » . ويحتمل أن يكون ذكرهما هنا لئلا يظن ظان أن الرجل لما كان هو الواطئ والمرأة محل ليست بواطئة فلا يجب عليها حد ؛ فذكرها رفعاً لهذا الإشكال الذي أوقع جماعة من العلماء منهم الشافعي . فقالوا : لا كفارة على المرأة في الوطء في رمضان ؛ لأنه قال جامعت أهلي في نهار رمضان ؛ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « كُفِّرَ » . فأمره بالكفارة ، والمرأة ليست بمجامعة ولا واطئة .

الخامسة — قُدمت « الزانية » في هذه الآية من حيث كان في ذلك الزمان زنى النساء فاش ، وكان لإماء العرب وبغايا الوقت رايات ، وكُنَّ مجاهرات بذلك . وقيل : لأن الزنى في النساء أعم وهو لأجل الحبـل أضر . وقيل : لأن الشهوة في المرأة أكثر وعليها أغلب ؛ فصَدَّرها تغليظاً لتردع شهوتها ، وإن كان قد رُكِّب فيها حياء لكنها إذا زنت ذهب الحياء كله . وأيضاً فإن العار بالنساء ألحق إذ موضوعهن المحجب والصيانة فقدم ذكرهن تغليظاً واهتماماً .

السادسة — الألف واللام في قوله « الزانية والزاني » للجنس ، وذلك يعطى أنها عامة في جميع الزناة . ومن قال بالجلد مع الرجم قال : السُّنة جاءت بزيادة حكم فيقام مع الجلد . وهو قول إسحاق بن راهويه والحسن بن أبي الحسن ، وفعله علي بن أبي طالب رضي الله عنه بَشْرَاحَةً ، وقد مضى في « النساء » بيانه . وقال الجمهور : هي خاصة في البكرين ، واستدلوا على أنها غير عامة بخروج العبيد والإماء منها .

(١) في هذه العبارة تساهل ؛ فإن التقدير الذي ذكره يقتضى أن يكون مبتدأ محذوف الخبر ، كما ذكر ذلك غير واحد من المفسرين . (٢) زيادة من كتب التفسير . (٣) في الأصول : « المجبة » . (٤) راجع ج ٥ ص ٨٧

السابعة - نص الله سبحانه وتعالى [على] ما يجب على الزانين إذا شهد بذلك عليهما؛ على ما يأتي، وأجمع العلماء على القول به. واختلفوا فيما يجب على الرجل يوجد مع المرأة في ثوب واحد؛ فقال إسحاق بن راهويه: يضرب كل واحد منهما مائة جلدة. وروى ذلك عن عمرو بن علي، وليس يثبت ذلك عنهما. وقال عطاء وسفيان الثوري: يؤذبان. وبه قال مالك وأحمد؛ على قدر مذاهمهم في الأدب. قال ابن المنذر: والأكثر من رأينا يرى على من وجد على هذه الحال الأدب. وقد مضى في «هود» اختيار ما في هذه المسئلة، والحمد لله وحده.

الثامنة - قوله تعالى: ﴿فَأَجْلِدُوا﴾ دخلت الفاء لأنه موضع أمر والأمر مضارع للشرط. وقال المبرد: فيه معنى الجزاء، أي إن زنى زان فافعلوا به كذا، ولهذا دخلت الفاء؛ وهكذا «السارق والسارقة فأقطعوا أيديهما».

التاسعة - لا خلاف أن المخاطب بهذا الأمر الإمام ومن ناب منابه. وزاد مالك والشافعي: السادة في العبيد. قال الشافعي: في كل جلد وقطع. وقال مالك: في الجلد دون القطع. وقيل: الخطاب للمسلمين؛ لأن إقامة مراسم الدين واجبة على المسلمين، ثم الإمام ينوب عنهم؛ إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود.

العاشرة - أجمع العلماء على أن الجلد بالسوط يجب. والسوط الذي يجب أن يجلد به يكون سوطاً بين سوطين، لا شديداً ولا ليناً. وروى مالك عن زيد بن أسلم أن رجلاً اعترف على نفسه بالزنى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوط، فأتى بسوط مكسور، فقال: «فوق هذا» فأتى بسوط جديد لم تقطع ثمرته، فقال: «دون هذا» فأتى بسوط قد ركب به ولان. فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم بجلد... الحديث. قال أبو عمر: هكذا روى هذا الحديث مرسلًا جميعاً.

(١) كذا في الأصول، ولعله يريد سورة النساء. راجع المسألة الثانية ج ٥ ص ٨٦.

(٢) الثمرة: الطرف. يريد أن طرفه محدد لم تنكسر حذته ولم يخلق بعد.

(٣) يريد قد انكسرت حذته ولم يخلق ولا بلغ من اللين مبلغاً لا يألم من ضرب به. (راجع الموطأ كتاب الحدود).

رواة الموطأ، ولا أعلمه يستند بهذا اللفظ بوجه من الوجوه، وقد روى معمر عن يحيى بن أبي كثير عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله سواء . وقد تقدّم في « المائدة » ضرب عمر <sup>(١)</sup> قُدَّامة في الخمر بسوط تام . يريد وسطاً .

الحادية عشرة — اختلف العلماء في تجريد المجلود في الزنى ؛ فقال مالك وأبو حنيفة وغيرهما : يحترق ، ويترك على المرأة ما يسترها دون ما يقيها الضرب . وقال الأوزاعي : الإمام محبر إن شاء جرد وإن شاء ترك . وقال الشَّعْبِيُّ والنَّخَعِيُّ : لا يحترق، ولكن يترك عليه قميص . قال ابن مسعود : لا يحل في هذه الأئمة تجريد ولا مد ، وبه قال الثوري .

الثانية عشرة — اختلف العلماء في كيفية ضرب الرجال والنساء ؛ فقال مالك : الرجل والمرأة في الحدود كلها سواء ، لا يقام واحد منهما ؛ ولا يحزى عنده إلا في الظهر . وأصحاب الرأي والشافعي يرون أن يُجلد الرجل وهو واقف ، وهو قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وقال الليث وأبو حنيفة والشافعي : الضرب في الحدود كلها وفي التعزير مجزئاً قائماً غير ممدود ؛ إلا حد القذف فإنه يضرب وعليه ثيابه . وحكا المهدوي في التحصيل عن مالك . وينزع عنه الحشؤ والفرو . وقال الشافعي : إن كان مده صلاحاً مده .

الثالثة عشرة — واختلفوا في المواضع التي تضرب من الإنسان في الحدود ؛ فقال مالك : الحدود كلها لا تضرب إلا في الظهر ، وكذلك التعزير . وقال الشافعي وأصحابه : يُتَّقَى الوجه والفرج وتضرب سائر الأعضاء ؛ وروى عن علي . وأشار ابن عمر بالضرب إلى رِجْلَي أمة جلدها في الزنى . قال ابن عطية : والإجماع في تسليم الوجه والعورة والمقائل . واختلفوا في ضرب الرأس ؛ فقال الجمهور : يُتَّقَى الرأس . وقال أبو يوسف : يضرب الرأس . وروى عن عمرو وابنه فقالا : يضرب الرأس . وضرب عمر رضي الله عنه صَبِيحاً<sup>(٢)</sup> في رأسه وكان تعزيراً لا حداً . ومن حجة مالك ما أدرك عليه الناس ، وقوله عليه السلام : « البينة وإلا حد في ظهرك » وسيأتي .

(١) في الأصول : « الجارود » وهو تحريف ؛ لأن الذي ضربه سيدنا عمر رضي الله عنه هو قُدَّامة بن مظعون ، وقد ذكر المؤلف رحمه الله تعالى نصه في ج ٦ ص ٢٩٧ فراجعه هناك ، وراجع ترجمته في كتب الصحابة .  
(٢) هو صبيغ ( كأمير ) بن عسل ، كان بعثت الناس بالغوامض والسؤالات ؛ فنقاه سيدنا عمر إلى البصرة .

الرابعة عشرة - الضرب الذى يجب هو أن يكون مؤلماً لا يجرح ولا يبضع ، ولا يُخرج الضارب يده من تحت إبطه . وبه قال الجمهور ، وهو قول عليّ وابن مسعود رضى الله عنهما . وأُتِيَ عمر رضى الله عنه برجل فى حدٍّ فأتى بسوط بين سوطين وقال للضارب : اضرب ولا يَرى إبطك ؛ وأعطى كلَّ عضو حقه . وأتى رضى الله عنه بشارب فقال : لأبعثنك إلى رجل لا تأخذه فيك هواة ؛ فبعثته إلى مطيع بن الأسود العدوى فقال : إذا أصبحت الغد فأضربه الحد ؛ فجاء عمر رضى الله عنه وهو يضربه ضرباً شديداً فقال : قتل الرجل ! كم ضربته ؟ فقال ستين ؛ فقال : أَقْصَ عنه بعشرين . قال أبو عبيدة : « أَقْصَ عنه بعشرين » يقول : اجعل شدة هذا الضرب الذى ضربته قصاصاً بالعشرين التى بقيت ولا تضربه العشرين . وفى هذا الحديث من الفقه أن ضرب الشارب ضرب خفيف ، وقد اختلف العلماء فى أشد الحدود ضرباً وهى :

الخامسة عشرة - فقال مالك وأصحابه والليث بن سعد : الضرب فى الحدود كلها سواء ، ضربٌ غير مُبرَّح ، ضربٌ بين ضربين . وهو قول الشافعى رضى الله عنه . وقال أبو حنيفة وأصحابه : التعزير أشدَّ الضرب ؛ وضرب الزنى أشدَّ من الضرب فى الخمر ، وضرب الشارب أشدَّ من ضرب القذف . وقال الثورى : ضرب الزنى أشدَّ من ضرب القذف ، وضرب القذف أشدَّ من ضرب الخمر . احتج مالك بورود التوقيف على عدد الجلدات ، ولم يرد فى شىء منها تخفيف ولا تنقيح عمن يجب التسليم له . احتج أبو حنيفة بفعل عمر ، فإنه ضرب فى التعزير ضرباً أشدَّ منه فى الزنى . احتج الثورى بأن الزنى لما كان أكثر عدداً فى الجلدات استحال أن يكون القذف أبلغ فى النكابة . وكذلك الخمر ؛ لأنه لم يثبت فيه الحد إلا بالاجتهاد ، وسبيل مسائل الاجتهاد لا يقوى قوة مسائل التوقيف .

السادسة عشرة - الحد الذى أوجب الله فى الزنى والخمر والقذف وغير ذلك ينبغى أن يقام بين أيدي الحكام ، ولا يقيمه إلا فضلاء الناس وخيارهم يختارهم الإمام لذلك . وكذلك كانت الصحابة تفعل كلما وقع لهم شىء من ذلك ، رضى الله عنهم . وسبب ذلك أنه

قيام بقاعدة شرعية وقُرْبَة تعبديّة ، تجب المحافظة على فعلها وقدرها ومحلها وحالها ، بحيث لا يُتعدى شيء من شروطها ولا أحكامها ؛ فإن دم المسلم وحرمة عظيمة ، فيجب مراعاته بكل ما أمكن . روى الصحيح عن حُضَيْن بن المنذر أبي ساسان قال : شهدت عثمان بن عفان وأتى بالوليد قد صلى الصبح ركعتين ثم قال : أزيدكم ؟ فشهد عليه رجلان ، أحدهما حُمران أنه شرب الخمر ، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ ؛ فقال عثمان : إنه لم يتقيأ حتى شربها ؛ فقال : يا عليّ قم فأجلده . فقال عليّ : قم يا حسن فأجلده . فقال الحسن : ولّ حازها من تَوَلَّى قازها (فكأنه وجد عليه) فقال : يا عبد الله بن جعفر ، قم فأجلده ؛ بجلده وعليّ يعدّ ... الحديث . وقد تقدم في المائدة . فأنظر قول عثمان للإمام عليّ : قم فأجلده .

السابعة عشرة — نص الله تعالى على عدد الجلد في الزنى والقذف ، وثبت التوقيف في الخمر على ثمانين من فعل عمر في جميع الصحابة — على ما تقدم في المائدة<sup>(٢)</sup> — فلا يجوز أن يُتعدى الحد في ذلك كله . قال ابن العربي : « وهذا ما لم يتتابع الناس في الشر ولا آحلّوا لهم المعاصي ، حتى يتخذوها ضراوة ويمطفون عليها بالهوادة فلا يتناهوا عن منكّر فعلوه ؛ فينبذ تنعين الشدة ويزاد الحد لأجل زيادة الذنب . وقد أتى عمر بسكران في رمضان فضربه مائة ؛ ثمانين حدّ الخمر وعشرين لهتك حرمة الشهر . فهكذا يجب أن تركب العقوبات على تغليظ الجنايات وهتك الحرمات . وقد لعب رجل بصبيّ فضربه الوالى ثلثمائة سوط فلم يغيّر [ذلك] مالك حين بلغه ، فكيف لو رأى زماننا هذا بهتك الحرمات والاستهتار بالمعاصي ، والتظاهر بالمنكر وبيع الحدود واستيفاء العبيد لها في منصب القضاة ، لمات كمدا ولم يجالس أحدا ؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

(١) بحاء مهملة مضمومة وضاد معجمة . (٢) قال النووي في شرح هذا الحديث « الحار : الشديد المكروه ، والقارّ : البارد الهنيء الطيب . وهذا مثل من أمثال العرب ، معناه : ولّ شدتها وأساخها من تولى هيتها ولذاتها ؛ والضمير عائد الى الخلافة والولاية ؛ أى كما أن عثمان وأقاربه يتولون هنى الخلافة ويختصون به يتولون نكدها وقاذوراتها . ومعناه : ليتولّ هذا الجلد عثمان بنفسه أو بعض خاصة أقاربه الأذنين » .

(٣) راجع ج ٦ ص ٢٩٧ (٤) الضراوة : العادة . (٥) زيادة عن ابن العربي .

قلت : ولهذا المعنى — والله أعلم — زيد في حد الخمر حتى انتهى إلى ثمانين . وروى الدارقطني « حدثنا القاضي الحسين بن إسماعيل حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا أسامة بن زيد عن الزهري قال أخبرني عبد الرحمن بن أزهر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وهو يتخال الناس يسأل عن منزل خالد بن الوليد ، فاتى بسكران ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن عنده فضر يوه بما في أيديهم . وقال : وحنّا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه التراب . قال : ثم أتى أبو بكر رضى الله عنه بسكران ، قال : فتونخى الذى كان من ضربهم يومئذ ، فضرب أربعين . قال الزهري : ثم أخبرني حميد بن عبد الرحمن عن ابن وبرة الكلبي قال : أرسلني خالد بن الوليد إلى عمر ، قال فأتيته ومعه عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى وطاحه والزيير وهم معه متكئون في المسجد فقلت : إن خالد بن الوليد أرسلني إليك وهو يقرأ عليك السلام ويقول : إن الناس قد انهمكوا في الخمر ! وتحاقروا العقوبة فيه ، فقال عمر : هم هؤلاء عندك فسألهم . فقال على : نراه إذا سكر هذى وإذا هذى افتري وعلى المفتري ثمانون ، قال فقال عمر : أبلغ صاحبك ما قال . قال : بخلد خالد ثمانين وعمر ثمانين . قال : وكان عمر إذا أتى بالرجل الضعيف الذى كانت منه الذلة ضربه أربعين . قال : وجلد عثمان أيضا ثمانين وأربعين . ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : « لو تأنر الهلال لرداكم » كالمُنْكَلْ لهم حين أبوا أن ينتهوا . في رواية « لو مُدّ لنا الشهر لو اصلنا وصالا يدع المتعمقون تعمقهم » . وروى حامد بن يحيى عن سفيان عن مسعر عن عطاء بن أبي مروان أن عليا ضرب النجاشي في الخمر مائة جلدة ، ذكره أبو عمر ولم يذكر سببا .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أى لا تمتنعوا عن إقامة الحدود شفقة على المحدود ، ولا تخففوا الضرب من غير إيجاع ، هذا قول جماعة أهل التفسير . وقال الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير : « لا تأخذكم بهما رأفة » قالوا

(١) الحديث ذكر في صحيح مسلم في (كتاب الصوم . باب النهى عن الوصال في الصوم) . وصحيح البخاري في (كتاب الاعتصام . باب ما يكره من التعمق والتنازع ... الخ) .

في الضرب والجلد . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : إقامة حدٍّ بأرضٍ خيرٌ لأهلها من مطر أربعين ليلة ؛ ثم قرأ هذه الآية . والرافة أرق الرحمة . وقرئ « رَافَةٌ » بفتح الألف على وزن فَعْلَةٍ . وقرئ « رَافَةٌ » على وزن فَعَالَةٍ ؛ ثلاث لغات ، وهي كلها مصادر ، أشهرها الأولى ؛ من رَؤُفٍ إذا رَقَّ ورحِم . ويقال : رَافَةٌ ورَافَةٌ ؛ مثل كَأْبَةٍ وكَأَبَةٍ . وقد رَافَتْ به ورؤُفَتْ به . والرؤوف من صفات الله تعالى : العطوف الرحيم .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أى فى حُكْمِ اللَّهِ ؛ كما قال تعالى : « مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ <sup>(١)</sup> » أى فى حكمه . وقيل : « فى دِينِ اللَّهِ » أى فى طاعة الله وشرعه فيما أمركم به من إقامة الحدود . ثم قرزهم على معنى التثبيت والحض بقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . وهذا كما تقول لرجل تحضه : إن كنت رجلاً فأفعل كذا ! أى هذه أفعال الرجال .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ وَلَيَشْهَدَنَّ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : لا يشهد التعذيب إلا من لا يستحق التأديب . قال مجاهد : رَجُلٌ فما فوقه إلى ألف . وقال ابن زيد : لابد من حضور أربعة قياساً على الشهادة على الزنى ، وأن هذا باب منه ؛ وهو قول مالك والليث والشافعي . وقال عكرمة وعطاء : لابد من اثنين ؛ وهذا مشهور قول مالك ، فأما موضع شهادة . وقال الزهري : ثلاثة ؛ لأنه أقل الجمع . الحسن : واحد فصاعداً ، وعنه عشرة . الربيع : ما زاد على الثلاثة . وحجة مجاهد قوله تعالى : « فَلَوْلَا نَفَرَ <sup>(٢)</sup> مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ » ، وقوله : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ <sup>(٣)</sup> » ، ونزلت فى تقابل رجلين ؛ فكذاك قوله تعالى : « وَلَيَشْهَدَنَّ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ » . والواحد يسمى طائفة إلى الألف ؛ وقاله ابن عباس وإبراهيم . وأمر أبو بَرزَةَ الأسلمي بجارية له قد زنت وولدت فألقى عليها ثوباً ، وأمر ابنه أن يضربها خمسين ضربة غير مُبرَّح ولا خفيفٍ لكن مؤلم ، ودعا جماعة ثم تلا « وَلَيَشْهَدَنَّ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

(١) آية ٧٦ سورة يوسف . (٢) آية ١٢٢ سورة التوبة . (٣) آية ٩ سورة الحجرات .

الحادية والعشرون — اختلف في المراد بحضور الجماعة ، هل المقصود بها الإغلاظ على الزناة والتوبيخُ بحضرة الناس ، وأن ذلك يُردع المحدود ، ومن شهده وحضره يتعظ به ويزدجر لأجله ، ويتشيع حديثه فيعتبر به من بعده ، أو الدعاء لها بالتوبة والرحمة ، قولان للعلماء .

(١) الثانية والعشرون — روى عن حذيفة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” يا معاشر الناس اتقوا الزنى فإن فيه ست خصال ثلاثا في الدنيا وثلاثا في الآخرة فأما اللواتى في الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر وأما اللواتى في الآخرة فيوجب السخط وسوء الحساب والخلود في النار “ . وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إن أعمال أمتي تعرض على في كل جمعة مرتين فاشتد غضب الله على الزناة “ . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إذا كان ليلة النصف من شعبان أطلع الله على أمتي فغفر لكل مؤمن لا يشرك بالله شيئا إلا خمسة ساحرا أو كاهنا أو عاقا والوالديه أو مدمنا نحرأ أو ميسرا على الزنى “ .

قوله تعالى : **الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** (٢)

فيه سبع مسائل :

الأولى — اختلف العلماء في معنى هذه الآية على ستة أوجه من التأويل :

الأول — أن يكون مقصد الآية تشنيع الزنى وتبشيع أمره ، وأنه محرم على المؤمنين . واتصال هذا المعنى بما قبل حسن بلاغ . ويريد بقوله « لا ينكح » أى لا يوطأ ، فيكون النكاح بمعنى الجماع . وردد القصص مبالغة وأخذًا من كلا الطرفين ، ثم زاد تقسيم المشركة والمشرک من حيث الشرك أعم في المعاصي من الزنى ، فالمعنى : الزانى لا يوطأ في وقت زناه إلا زانية من المسلمين ، أو من هى أحسن منها من المشركات . وقد روى عن ابن عباس وأصحابه أن النكاح في هذه الآية الوطء . وأنكر ذلك الزجاج وقال : لا يعرف النكاح في كتاب الله تعالى إلا

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر أن المسائل إحدى وعشرون مسألة .



بمعنى الترويح . وليس كما قال ؛ وفي القرآن « حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » وقد بينه النبي صلى الله عليه وسلم أنه بمعنى الوطء ، وقد تقدم في « البقرة » . وذكر الطبري ما يتخو إلى هذا التأويل عن سعيد بن جبيرة وابن عباس وعكرمة ، ولكن غير مخلص ولا مكمل . وحكاها الخطابي عن ابن عباس ، وأن معناه الوطء ؛ أي لا يكون زنى إلا بزانية ، ويفيد أنه زنى في الجهتين ؛ فهذا قول .

الثاني — ما رواه أبو داود والترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن مرثد ابن أبي مرثد كان يحمل الأسارى بمكة ، وكان بمكة ينفى يقال لها « عناق » وكانت صديقتها ، قال : بخت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، أنكح عناق ؟ قال : فسكت عني ؛ فترلت « والزانية لا ينكحها إلا زان أو مُشرك » ؛ فدعاني فقرأها علي وقال : « لا تنكحها » . لفظ أبي داود ، وحديث الترمذي أكمل . قال الخطابي : هذا خاص بهذه المرأة إذ كانت كافرة ، فأما الزانية المسلمة فإن العقد عليها لا يفسخ .

الثالث — أنها مخصوصة في رجل من المسلمين أيضا استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في نكاح امرأة يقال لها « أم مهزول » وكانت من بغايا الزانيات ، وشرطت أن تنفق عليه ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ؛ قاله عمرو بن العاصي ومجاهد .

الرابع — أنها نزلت في أهل الصفة ، وكانوا قوما من المهاجرين ، ولم يكن لهم في المدينة مساكن ولا عشاير فنزلوا صفة المسجد ، وكانوا أربعمائة رجل يلتمسون الرزق بالنهار ويأوون إلى الصفة بالليل ، وكان بالمدينة بغايا متعالتات بالفجور ، محاصيب بالكسوة والطعام ؛ فهم أهل الصفة أن يتزوجوهن فيأووا إلى مساكنهن ويأكلوا من طعامهن وكسوتهن ؛ فنزلت هذه الآية صيانة لهم عن ذلك ؛ قاله ابن أبي صالح .

الخامس — ذكره الزجاج وغيره عن الحسن ، وذلك أنه قال : المراد الزاني المحدود والزانية المحدودة ، قال : وهذا حكم من الله ، فلا يجوز لزان محدود أن يتزوج إلا محدودة .

وقال إبراهيم النخعي نحوه . وفي مصنف أبي داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا ينكح الزاني المحدود إلا مثله " . وروى أن محدودا تزوج غير محدودة ففترق على رضى الله عنه بينهما . قال ابن العربي : وهذا معنى لا يصح نظرا كما لم يثبت نقلا ، وهل يصح أن يوقف نكاح من حد من الرجال على نكاح من حد من النساء ! فبأي أثر يكون ذلك ، وعلى أي أصل يقاس من الشريعة !

قلت -- وحكى هذا القول اليكنا عن بعض أصحاب الشافعي المتأخرين ، وأن الزاني إذا تزوج غير زانية فُزق بينهما لظاهر الآية . قال اليكنا : وإن هو عمل بالظاهر فيلزمه عليه أن يجوز للزاني الزوج بالمشاركة ، ويجوز للزانية أن تزوج نفسها من مشرك ، وهذا في غاية البعد ، وهو خروج عن الإسلام بالكلية ، وربما قال هؤلاء : إن الآية منسوخة في المشرك خاصة دون الزانية .

السادس -- أنها منسوخة ؛ روى مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال : « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك » قال : نسخت هذه الآية التي بعدها « وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ » ؛ وقاله ابن عمرو ، قال : دخلت الزانية في أيامي المسلمين . قال أبو جعفر النحاس : وهذا القول عليه أكثر العلماء . وأهل الفتيا يقولون : إن من زنى بامرأة فله أن يتزوجها ولغيره أن يتزوجها . وهو قول ابن عمر وسالم وجابر ابن زيد وعطاء وطاوس ومالك بن أنس ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه . وقال الشافعي : القول فيها كما قال سعيد بن المسيب ، إن شاء الله هي منسوخة . قال ابن عطية : وذكر الإشراك في هذه الآية يضعف هذه المناحي . قال ابن العربي : والذي عندي أن النكاح لا يخلو أن يراد به الوطء كما قال ابن عباس أو العقد ؛ فإن أريد به الوطء فإن معناه : لا يكون زنى إلا بزانية ، وذلك عبارة عن أن الوطئين من الرجل والمرأة زنى من الجهتين ؛ ويكون تقدير الآية : وطء الزانية لا يقع إلا من زان أو مشرك ؛ وهذا يؤثر عن ابن عباس ، وهو معنى صحيح .

فإن قيل : فإذا زنى بالغ بصبية ، أو عاقل مجنونة ، أو مستيقظ بنائمة فإن ذلك من جهة الرجل زنى ؛ فهذا زانٍ نكح غير زانية ، فيخرج المراد عن باب الذي تقدم . قلنا : هو زنى من كل جهة ، إلا أن أحدهما سقط فيه الحد والآخر ثبت فيه . وإن أريد به العقد كان معناه : أن متزوج الزانية التي قد زنت ودخل بها ولم يستبرئها يكون بمنزلة الزاني ، إلا أنه لا حد عليه لاختلاف العلماء في ذلك . وأما إذا عقد عليها ولم يدخل بها حتى يستبرئها فذلك جائز إجماعاً . وقيل : ليس المراد في الآية أن الزاني لا ينكح قط إلا زانية ؛ إذ قد يتصور أن يتزوج غير زانية ، ولكن المعنى أن من تزوج بزانية فهو زان ؛ فكأنه قال : لا ينكح الزانية إلا زان ؛ فقلب الكلام ، وذلك أنه لا ينكح الزانية إلا وهو راض بزناها ، وإنما يرضى بذلك إذا كان هو أيضاً يزنى .

الثانية — في هذه الآية دليل على أن التزوج بالزانية صحيح . وإذا زنت زوجة الرجل لم يفسد النكاح ، وإذا زنى الزوج لم يفسد نكاحه مع زوجته ؛ وهذا على أن الآية منسوخة . وقيل إنها محكمة . وسيأتى .

الثالثة — روى أن رجلاً زنى بامرأة في زمن أبي بكر رضى الله عنه فجلدهما مائة جلدة ، ثم زوج أحدهما من الآخر مكانه ، ونفاهما سنة . وروى مثل ذلك عن عمرو ابن مسعود وجابر رضى الله عنهم . وقال ابن عباس : أوله سفاح وآخره نكاح . ومثّل ذلك مثّل رجل سرق من حائط ثمره ثم أتى صاحب البستان فأشترى منه ثمره ؛ فما سرق حرام وما اشترى حلال . وبهذا أخذ الشافعي وأبو حنيفة ، ورأوا أن المراء لا حرمة له . وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعد ذلك فهما زانيان أبداً . وبهذا أخذ مالك رضى الله عنه ؛ فرأى أنه لا ينكحها حتى يستبرئها من مائه الفاسد ؛ لأن النكاح له حرمة ، ومن حرمة ألا يُصَبَّ على ماء السَّفاح ؛ فيختلط الحرام بالحلال ، ويمتزج ماء المهانة بماء العزة .

(١) عبارة ابن العربي كما في أحكامه : « مثل رجل سرق ثمرة ثم اشتراها » .

الرابعة - قال ابن خُوَيزَمَنداد : من كان معروفا بالزنى أو بغيره من الفسوق مُعْلَنًا به فترج إلى أهل بيت ستر وغرهم من نفسه فلهم الخيار في البقاء معه أو فراقه ؛ وذلك كعيب من العيوب ، واحتج بقوله عليه السلام : " لا ينكح الزانى المجلود إلا مثله " . قال ابن خُوَيزَمَنداد : وإنما ذكر المجلود لاشتهاره بالفسق ، وهو الذى يجب أن يفرق بينه وبين غيره ؛ فأما من لم يشتهر بالفسق فلا .

الخامسة - قال قوم من المتقدمين : الآية محكمة غير منسوخة . وعند هؤلاء : من زنى فسد النكاح بينه وبين زوجته ، وإذا زنت الزوجة فسد النكاح بينها وبين زوجها . وقال قوم من هؤلاء : لا يفسخ النكاح بذلك ، ولكن يؤمر الرجل بطلاقها إذا زنت ، ولو أمسكها أثم ، ولا يجوز التزوج بالزانية ولا من الزانى ، بل لو ظهرت التوبة فحينئذ يجوز النكاح .

السادسة - ﴿ وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى نكاح أولئك البغايا ؛ فيزعم بعض أهل التأويل أن نكاح أولئك البغايا حرمه الله تعالى على أمة محمد عليه السلام ، ومن أشهرهن عناق . السابعة - حرم الله تعالى الزنى في كتابه ؛ فحينما زنى الرجل فعليه الحد . وهذا قول مالك والشافعى وأبى ثور . وقال أصحاب رأى فى الرجل المسلم إذا كان فى دار الحرب بأمان وزنى هنالك ثم خرج لم يحد . قال ابن المنذر : دار الحرب ودار الإسلام سواء ، ومن زنى فعليه الحد ؛ على ظاهر قوله « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٥﴾

فيه ست وعشرون مسألة :

الأولى - هذه الآية نزلت في القاذفين . قال سعيد بن جبیر : كان سببها ما قيل في عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها . وقيل : بل نزلت بسبب القذفة عاماً لا في تلك النازلة . وقال ابن المنذر : لم نجد في أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم خبراً يدل على تصريح القذف ، وظاهر كتاب الله تعالى مستغنى به ، دالاً على القذف الذي يوجب الحد ، وأهل العلم على ذلك مجمعون .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ ﴾ يريد يسبون ، وأستعير له اسم الرمي لأنه اذابة بالقول ، كما قال النابغة :

\* وجرح اللسان بجرح اليد \*

وقال آخر :

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي \* بَرِيئاً وَمِنْ أَجْلِ الطَّوِي رَمَانِي<sup>(١)</sup>

ويسمى قذفاً ، ومنه الحديث : إن ابن أمية قذف امرأته بشريك بن السحماء ، أى رماها .

الثالثة - ذكر الله تعالى في الآية النساء من حيث هن أهم ، ورميهن بالفاحشة أشنع وأنتكى للنفوس . وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى ، وإجماع الأمة على ذلك . وهذا نحو نصه على تحريم لحم الخنزير ودخل شحمه وغضاريفه ، ونحو ذلك بالمعنى والإجماع . وحكى الزهراوى أن المعنى : والأنفس المحصنات ، فهى بلفظها تعم الرجال والنساء ، ويدل على ذلك قوله : « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ » . وقال قوم : أراد بالمحصنات الفروج ، كما قال تعالى : « وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا »<sup>(٢)</sup> فيدخل فيه فروج الرجال والنساء . وقيل : إنما ذكر المرأة الأجنبية إذا قُذفت ليعطف عليها قذف الرجل زوجته ، والله أعلم . وقرأ الجمهور « الْمُحْصَنَاتُ » بفتح الصاد ، وكسرها يحى بن وثاب . والمحصنات العفاف في هذا الموضع . وقد مضى في « النساء » ذكر الإحصان<sup>(٣)</sup> ومراتبه . والحمد لله .

(١) البيت لابن أحرر . والطوى : البئر . (٢) في الأصول : « من حيث هو أهم » . وعبرة البحر المحيط لأبى حيان أبين ، وهى : « ونخص النساء بذلك وإن كان الرجال يشركونهن في الحكم لأن القذف فيهن أشنع وأنتكى للنفوس ، ومن حيث هو الرجال » الخ . (٣) آية ٢٤ سورة النساء . (٤) آية ٩١ سورة الأنبياء . (٥) راجع ج ٥ ص ١٣٩ وما بعدها .

الرابعة - للقذف شروط عند العلماء تسعة : شرطان في القاذف ، وهما العقل والبلوغ ؛ لأنهما أصلا التكليف ، إذ التكليف ساقط دونهما . وشرطان في الشيء المقذوف به ، وهو أن يقذف بوء يلزمه فيه الحد ، وهو الزنى واللواط ؛ أو بنفيه من أبيه دون سائر المعاصي . وخمسة في المقذوف ، وهي العقل والبلوغ والإسلام والحرية والعفة عن الفاحشة التي رُمي بها كان عفيفا من غيرها أم لا . وإنما شرطنا في المقذوف العقل والبلوغ كما شرطناهما في القاذف وإن لم يكونا من معاني الإحصان لأجل أن الحد إنما وضع للزجر عن الإذابة بالمضرة الداخلة على المقذوف ، ولا مضرة على من عدم العقل والبلوغ ؛ إذ لا يوصف اللواط فيهما ولا منهما بأنه زنى .

الخامسة - اتفق العلماء على أنه إذا صرح بالزنى كان قذفا ورَميًا موجبا للحد ، فإن عَرَض ولم يُصْرَح فقال مالك : هو قذف . وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا يكون قذفا حتى يقول أردت به القذف . والدليل لما قاله مالك هو أن موضوع الحد في القذف إنما هو لإزالة المعزة التي أوقعتها القاذف بالمقذوف ، فإذا حصلت المعزة بالتعريض وجب أن يكون قذفا كالتيصریح والمَعُول على الفهم ؛ وقد قال تعالى مخبرا عن شعيب : « إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ » أي السفيه الضال ؛ فعرضوا له بالسب بكلام ظاهره المدح في أحد التأويلات . حسبا تقدم في هود . وقال تعالى في أبي جهل : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » . وقال حكاية عن مريم : « يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا » ؛ فمدحوا أباهما ونفّسوا عن أمها البغاء ، أي الزنى ، وعرضوا لمريم بذلك ؛ ولذلك قال تعالى : « وَيَكْفُرُهُمْ قَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا » ، وكفرهم معروف ، والبهتان العظيم هو التعريض لها ؛ أي ما كان أبوك امرا سوء وما كانت أمك بغيا ، أي أنت بخلافهما وقد أتيت بهذا الولد . وقال تعالى : « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » ؛ فهذا اللفظ قد فهم منه أن المراد به أن الكفار على غير هدى ، وأن الله تعالى ورسوله على الهدى ؛ ففهم من هذا التعريض ما يفهم من صريحه . وقد حبس عمر رضى الله عنه الخطيئة لما قال :

(١) راجع ج ٩ ص ٨٧ طبة أول أو ثانية . (٢) آية ٤٩ سورة الدخان .

(٣) آية ٢٨ سورة مريم . (٤) آية ١٥٦ سورة النساء . (٥) آية ٢٤ سورة سبأ .

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لُبَّيْهَا \* وَأَقْعِدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي  
لأنه شبهه بالنساء في أنهم يُطْعَمُونَ وَيُسْقَوْنَ وَيُكْسَوْنَ . ولما سمع قول النجاشي :  
قِيلَ لَهُ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ \* وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ  
قال : لَيْتَ الْخَطَّابُ كَذَلِكَ ؛ وَإِنَّمَا أَرَادَ الشَّاعِرُ ضَعْفَ الْقَبِيلَةِ ؛ وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ .

السادسة — الجمهور من العلماء على أنه لا حد على من قذف رجلا من أهل الكتاب  
أو امرأة منهم . وقال الزهري وسعيد بن المسيب وابن أبي ليلى : عليه الحد إذا كان لها ولد  
من مسلم . وفيه قول ثالث — وهو أنه إذا قذف النصرانية تحت المسلم جلد الحد . قال  
ابن المنذر : وجّل العلماء مجمعون وقائلون بالقول الأول ، ولم أدرك أحدا ولا لقيته يخالف  
في ذلك . وإذا قذف النصراني المسلم الحز فعليه ما على المسلم ثمانون جلدة ؛ لا أعلم  
في ذلك خلافا .

السابعة — والجمهور من العلماء على أن العبد إذا قذف حراً يجلد أربعين ؛ لأنه حد  
يتشطر بالرق كحد الزنى . وروى عن ابن مسعود وعمر بن عبد العزيز وقبيصة بن ذؤيب يجلد  
ثمانين . وجلد أبو بكر بن محمد عبدا قذف حرا ثمانين ؛ وبه قال الأوزاعي . احتج الجمهور  
بقول الله تعالى : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ »<sup>(١)</sup> .  
وقال الآخرون : فهما هناك أن حد الزنى لله تعالى ، وأنه ربما كان أخف فيمن قلت نعم  
الله عليه ، وأخف فيمن عظمت نعم الله عليه . وأما حد القذف فحق للآدمي وجب للحناية  
على عرض المقدوف ، والحناية لا تختلف بالرق والحرية . وربما قالوا : لو كان يختلف  
لذكر كما ذكر في الزنى . قال ابن المنذر : والذي عليه علماء الأمصار القول الأول ، وبه أقول .

الثامنة — وأجمع العلماء على أن الحز لا يجلد للعبد إذا افتري عليه ؛ لتباين مرتبتهما ،  
ولقوله عليه السلام : ” من قذف مملوكه بالزنى أقيم عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون  
كما قال ” نحرجه البخاري ومسلم . وفي بعض طرقه : ” من قذف عبده بزنى ثم لم يثبت أقيم

عليه يوم القيامة الحد ثمانون“ ذكره الذارقطني . قال العلماء : وإنما كان ذلك في الآخرة لأرتفاع الملك واستواء الشريف والوضيع والخز والعبد ، ولم يكن لأحد فضل إلا بالتقوى ، ولما كان ذلك تكافاً للناس في الحدود والحرمة ، وأقتص من كل واحد لصاحبه إلا أن يعفو المظلوم عن الظالم . وإنما لم يتكافؤوا في الدنيا لئلا تدخل الداخلة على المالكين في مكافأتهن لهم ، فلا تصح لهم حرمة ولا فضل في منزلة ، وتبطل فائدة التسخير ، حكمة من الحكيم العليم ، لا إله إلا هو .

الناسعة — قال مالك والشافعي : من قذف من يحسبه عبداً فإذا هو حر فعليه الحد ، وقاله الحسن البصري واختاره ابن المنذر . قال مالك : ومن قذف أم الولد حد ، وروى عن ابن عمر ، وهو قياس قول الشافعي . وقال الحسن البصري : لا حد عليه .

العاشرة — واختلف العلماء فيمن قال لرجل : يا من وطئ بين الفخذين ، فقال ابن القاسم : عليه الحد ، لأنه تعريض . وقال أشهب : لا حد فيه ، لأنه نسبة إلى فعل لا يعد زنى إجماعاً .

الحادية عشرة — إذا رمى صبية يمكن وطؤها قبل البلوغ بالزنى كان قذفاً عند مالك . وقال أبو حنيفة والشافعي وأبو ثور : ليس بقذف ، لأنه ليس بزنى إذ لا حد عليها ، ويعزر . قال ابن العربي : والمسئلة محتملة مشككة ، لكن مالك طلب<sup>(١)</sup> حماية عرض المقدوف ، وغيره راعى حماية ظهر القاذف ، وحماية عرض المقدوف أولى ، لأن القاذف كشف ستره بطرف لسانه فلزمه الحد . قال ابن المنذر : وقال أحمد في الجارية بنت تسع : يجلد قاذفها ، وكذلك الصبي إذا بلغ عشرين ضرب قاذفه . قال إسحاق : إذا قذف غلاماً يطأ مثله فعليه الحد ، والجارية إذا تجاوزت تسعاً مثل ذلك . قال ابن المنذر : لا يحد من قذف من لم يبلغ ، لأن ذلك كذب ، ويعزر على الأذى . قال أبو عبيد : في حديث علي رضي الله عنه أن امرأة جاءت فذكرت أن زوجها يأتي جاريته فقال : إن كنت صادقةً رجمناه وإن كنت كاذبة

(١) في ابن العربي : « غلب » .



جلدناك . فقالت : رُدُونِي إِلَى أَهْلِ غَيْرِي نَغْرَةً <sup>(١)</sup> . قال أبو عبيد : في هذا الحديث من الفقه أن على الرجل إذا واقع جارية أمرأته الحَدَّ .

وفيه أيضا إذا قذفه بذلك قاذف كان على قاذفه الحَدَّ ؛ ألا تسمع قوله : وإن كنت كاذبة جلدناك . ووجه هذا كله إذا لم يكن الفاعل جاهلا بما يأتي وبما يقول ، فإن كان جاهلا وادعى شبهة دُرِيَّ عنه الحَدَّ في ذلك كله .

وفيه أيضا أن رجلا لو قذف رجلا بحضرة حاكم وليس المقذوف بحاضر أنه لا شيء على القاذف حتى يجيء فيطلب حده ؛ لأنه لا يدرى لعله يصدقه ؛ ألا ترى أن علياً عليه السلام لم يعرض لها .

وفيه أن الحاكم إذا قُذِفَ عنده رجل ثم جاء المقذوف فطلب حقه أخذه الحاكم بالحَدِّ بسماعه ؛ ألا تراه يقول : وإن كنت كاذبة جلدناك ؛ وهذا لأنه من حقوق الناس .

قلت : اختلف هل هو من حقوق الله أو من حقوق الآدميين ؛ وسيأتي . قال أبو عبيد : قال الأصمعي سألني شعبة عن قوله « غَيْرِي نَغْرَةً » ؛ فقلت له : هو مأخوذ من نَغَرَ القَدْرُ ، وهو غلبانها وقورها ؛ يقال منه : نَغَرَتْ تَنْغَرُ ، وَنَغَرَتْ تَنْغَرُ إذا غلت . فمعناه أنها أرادت أن جوفها يغلي من الغيظ والغيرة لما لم تجد عنده ما تريد . قال : ويقال منه رأيت فلانا يتنغر على فلان ؛ أي يغلي جوفه عليه غيظا .

الثانية عشرة — من قذف زوجة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حَدَّ حَدين ؛ قاله مسروق . قاله ابن العربي : والصحيح أنه حَدَّ واحد ؛ لعموم قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ » الآية ، ولا يقتضى شرفهن زيادة في حَدٍّ من قذفهن ؛ لأن شرف المتزلة لا يؤثر في الحدود ، ولا نقصها يؤثر في الحد بتنقيص . والله أعلم . وسيأتي الكلام فيمن قذف عائشة رضي الله عنها ، هل يقتل أم لا .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ الذي يفتقر إلى أربعة <sup>(٢)</sup> شهداء دون سائر الحقوق هو الزنى ؛ رحمة بعباده وسترا لهم . وقد تقدم في سورة النساء .

(١) سيأتي الكلام على هذه الكلمة بعد قليل . (٢) راجع ج ٥ ص ٨٢ طبعة أولى أو ثانية .

الرابعة عشرة — من شرط أداء الشهود الشهادة عند مالك رحمه الله أن يكون ذلك في مجلس واحد ؛ فإن اختلفت لم تكن شهادة . وقال عبد الملك : تقبل شهادتهم مجتمعين ومفترقين . فرأى مالك أن اجتماعهم تعبد ؛ وبه قال ابن الحسن . ورأى عبد الملك أن المقصود أداء الشهادة واجتماعها وقد حصل ؛ وهو قول عثمان البتي وأبي ثور واختاره ابن المنذر لقوله تعالى : « ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ » وقوله : « فَإِنْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ » ولم يذكر مفترقين ولا مجتمعين .

الخامسة عشرة — فإن تمت الشهادة إلا أنهم لم يعدلوا ؛ فكان الحسن البصري والشَّعْبِيّ يريان أن لا حدّ على الشهود ولا على المشهود ؛ وبه قال أحمد والنعمان ومحمد بن الحسن . وقال مالك : إذا شهد عليه أربعة بالزنى فإن كان أحدهم مسقوطا عليه أو عبدا يجلدون جميعا . وقال سفيان الثوري وأحمد وإسحاق في أربعة عريان يشهدون على امرأة بالزنى : يضربون . السادسة عشرة — فإن رجع أحد الشهود وقد رجم المشهود عليه في الزنى ؛ فقالت طائفة : يغرم ريع الدية ولا شيء على الآخرين . وكذلك قال قتادة وحماد وعكرمة وأبو هاشم ومالك وأحمد وأصحاب الرأي . وقال الشافعي : إن قال عمدت ليقتل ؛ فالأولياء بالخيار إن شاءوا قتلوا وإن شاءوا عفووا وأخذوا ريع الدية ، وعليه الحد . وقال الحسن البصري : يقتل ، وعلى الآخرين ثلاثة أرباع الدية . وقال ابن سيرين : إذا قال أخطأت وأردت غيره فعليه الدية كاملة ، وإن قال تعمّدت قتل ؛ وبه قال ابن شبرمة .

السابعة عشرة — واختلف العلماء في حدّ القذف هل هو من حقوق الله أو من حقوق الأدميين أو فيه شائبة منهما ؛ الأول — قول أبي حنيفة . والثاني — قول مالك والشافعي . والثالث — قاله بعض المتأخرين . وفائدة الخلاف أنه إن كان حقا لله تعالى وبلغ الإمام أقامه وإن لم يطلب ذلك المقذوف ، ونفعت القاذف التوبة فيما بينه وبين الله تعالى ، ويتشطر فيه الحد بالرق كالزنى . وإن كان حقا للأدمى فلا يقيمه الإمام إلا بمطالبة المقذوف ، ويسقط بعفوه ، ولم تنفع القاذف التوبة حتى يحلله المقذوف .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ ﴾ قراءة الجمهور على إضافة الأربعة إلى الشهداء . وقرأ عبدالله بن مسلم بن يسار وأبو زرعة بن عمرو بن جرير « بأربعة » (بالتنوين) « شُهَدَاءَ » . وفيه أربعة أوجه : يكون في موضع جر على النعت لأربعة ، أو بدلا . ويجوز أن يكون حالا من نكرة أو تمييزا ، وفي الحال والتمييز نظر ؛ إذ الحال من نكرة ، والتمييز مجموع . وسيبويه يرى أنه تنوين العدد ، وترك إضافته إنما يجوز في الشعر . وقد حسن أبو الفتح عثمان <sup>(١)</sup> ابن جني هذه القراءة وحسب على قراءة الجمهور . قال النحاس : ويجوز أن يكون « شهداء » في موضع نصب ؛ بمعنى ثم لم يحضروا أربعة شهداء .

التاسعة عشرة — حكم شهادة الأربعة أن تكون على معانئة يرثون ذلك كالمروء في المكحلة ؛ <sup>(٢)</sup> على ما تقدم في « النساء » في نص الحديث . وأن تكون في موطن واحد ؛ على قول مالك . وإن اضطرب واحد منهم جلد الثلاثة ؛ كما فعل عمر في أمر المغيرة بن شعبة ؛ وذلك أنه شهد عليه بالزنى أبو بكره نقيع بن الحارث وأخوه نافع ؛ وقال الزهراوى : عبد الله بن الحارث ، وزيد أخوهما لأم وهو مستلحق معاوية ، وشبل بن معبد البجلي ، فلما جاءوا لأداء الشهادة وتوقف زيد ولم يؤدها ، جلد عمر الثلاثة المذكورين .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ فَأَجْلِدُوهُمْ ﴾ الجلد الضرب . والمجالد المصاربة في الجلود أو بالجلود ؛ ثم استعير الجلد لغير ذلك من سيف أو غيره . ومنه قول قيس بن الخطيم :  
أجلدهم يوم الحديقة حاسراً \* كأن يدي بالسيف يحرق لاعِبِ  
﴿ ثَمَانِينَ ﴾ نصب على المصدر . ﴿ جَلْدَةً ﴾ تمييز . ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ هذا يقتضى مدة أعمارهم ، ثم حكم عليهم بأنهم فاسقون ؛ أى خارجون عن طاعة الله عز وجل .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ في موضع نصب على الاستثناء . ويجوز أن يكون في موضع خفض على البدل . والمعنى ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا إلا الذين تابوا وأصلحوا من بعد القذف ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . فتضمنت الآية ثلاثة أحكام في القاذف :

(١) وردت هذه الكلمة مضطربة في نسخ الأصل ؛ ففي نسخة « خبث » وفي أخرى « وجبت » وفي رابعة « وجيت » . (٢) راجع ج ٥ ص ٨٣

جلده، وردّ شهادته أبداً، وفسقه . فالاستثناء غير عامل في جلده بإجماع ؛ إلا ما روى عن الشعبيّ على ما يأتي . وعاملٌ في فسقه بإجماع . واختلف الناس في عمله في ردّ الشهادة ؛ فقال شريح القاضي وإبراهيم النخعيّ والحسن البصريّ وسفيان الثوريّ وأبو حنيفة : لا يعمل الاستثناء في ردّ شهادته ، وإنما يزول فسقه عند الله تعالى . وأما شهادة القاذف فلا تقبل ألّبتة ولو تاب وأكذب نفسه ولا بحال من الأحوال . وقال الجمهور : الاستثناء عامل في ردّ الشهادة ، فإذا تاب التاذف قبلت شهادته ؛ وإنما كان ردّها لعلة الفسق فإذا زال بالتوبة قبلت شهادته مطلقاً قبل الحدّ وبعده ، وهو قول عامة الفقهاء . ثم اختلفوا في صورة توبته ؛ فمذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه والشعبيّ وغيره ، أن توبته لا تكون إلا بأن يكذب نفسه في ذلك الفذف الذي حدّ فيه . وهكذا فعل عمر ؛ فإنه قال للذين شهدوا على المغيرة : من أكذب نفسه أبجّرت شهادته فيما استقبل ، ومن لم يفعل لم أجز شهادته ؛ فأكذب السبل بن معبد ونافع بن الحارث بن كلدة أنفسهما وتابا ، وأبى أبو بكر أن يفعل ؛ فكان لا يقبل شهادته . وحكى هذا القول النحاس عن أهل المدينة . وقالت فرقة — منها مالك رحمه الله تعالى وغيره — : توبته أن يصلح ويحسن حاله وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب ؛ وحسبه الندم على قذفه والاستغفار منه وترك العود إلى مثله ؛ وهو قول ابن جرير . ويروى عن الشعبيّ أنه قال : الاستثناء من الأحكام الثلاثة ، إذا تاب وظهرت توبته لم يُحدّ وقبلت شهادته وزال عنه التفسير ؛ لأنه قد صار ممن يرضى من الشهداء ؛ وقد قال الله عز وجل : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ » <sup>(١)</sup> الآية .

الثانية والعشرون — اختلف علماؤنا رحمهم الله تعالى متى تسقط شهادة التاذف ؛ فقال ابن الماجشون : بنفس قذفه . وقال ابن القاسم وأشهب وشُعْثُون : لا تسقط حتى يجلد ، فإن منع من جلده مانع عفو أو غيره لم تردّ شهادته . وقال الشيخ أبو الحسن اللخميّ : شهادته في مدة الأجل موقوفة ؛ ورجح القول بأن التوبة إنما تكون بالتكذيب في القذف ، وإلا فأي رجوع لعدّل إن قذف وحُدّ وبقي على عدالته .

الثالثة والعشرون — واختلفوا أيضاً على القول بجواز شهادته بعد التوبة في أى شيء تجوز ؛ فقال مالك رحمه الله تعالى : تجوز في كل شيء مطلقاً ؛ وكذلك كل من حُدَّ في شيء من الأشياء ؛ رواه نافع وابن عبد الحكم عن مالك ، وهو قول ابن كنانة . وذكر الوقار<sup>(١)</sup> عن مالك أنه لا تقبل شهادته فيما حُدَّ فيه خاصة ، وتقبل فيما سوى ذلك ؛ وهو قول مطرف وابن الماجشون . وروى العُتْبِيُّ عن أَصْبَغٍ وسُخْنُونٍ مثله . قال سُخْنُونُ : من حُدَّ في شيء من الأشياء فلا تجوز شهادته في مثل ما حُدَّ فيه . وقال مطرف وابن الماجشون : من حُدَّ في قذف أو زنى فلا تجوز شهادته في شيء من وجوه الزنى ، ولا في قذف ولا لِعَانٍ وإن كان عدلاً ؛ ورواه عن مالك . وانفقوا على ولد الزنى أن شهادته لا تجوز في الزنى .

الرابعة والعشرون — الاستثناء إذا تعقَّبَ جُمْلًا معطوفة عاد إلى جميعها عند مالك والشافعي وأصحابهما . وعند أبي حنيفة وجُلُّ أصحابه يرجع الاستثناء إلى أقرب مذكور وهو الفسق ؛ ولهذا لا تقبل شهادته ، فإن الاستثناء راجع إلى الفسق خاصة لا إلى قبول الشهادة . وسبب الخلاف في هذا الأصل سببان : أحدهما — هل هذه الجملة في حكم الجملة الواحدة للعطف الذي فيها ، أو لكل جملة حكم نفسها في الاستقلال وحرف العطف محسن لا مُشْرِك ، وهو الصحيح في عطف الجملة ؛ لجواز عطف الجملة المختلفة بعضها على بعض ، على ما يعرف من النحو .

السبب الثاني — يشبه الاستثناء بالشرط في عوده إلى الجملة المتقدمة ، فإنه يعود إلى جميعها عند الفقهاء ، أولاً يُشَبَّه به ، لأنه من باب القياس في اللغة وهو فاسد على ما يعرف في أصول الفقه . والأصل أن كل ذلك محتمل ولا ترجيح ، فتعين ما قاله القاضي من الوقف . ويتأيد الإشكال بأنه قد جاء في كتاب الله عز وجل كلاً الأمرين ؛ فإن آية المحاربة فيها عود الضمير إلى الجميع باتفاق ، وآية قتل المؤمن خطأ فيها ردُّ الاستثناء إلى الأخيرة باتفاق ، وآية القذف محتملة للوجهين ، فتعين الوقف من غير مَيَّن . قال علماؤنا : وهذا نظر

(١) الوقار (كعب) : لقب زكريا بن يحيى الفقيه المصري .

كلّ أصولي . ويترجح قول مالك والشافعي رحمهما الله من جهة نظر الفقه الحزني بأن يقال : الاستثناء راجع إلى الفسق والنهي<sup>(١)</sup> عن قبول الشهادة جميعا إلا أن يفرق بين ذلك بنجر يجب التسليم له . وأجمعت الأمة على أن التوبة تحو الكفر ، فيجب أن يكون مادون ذلك أولى ؛ والله أعلم . قال أبو عبيد : الاستثناء يرجع إلى الجمل السابقة ؛ قال : وليس من نسب إلى الزني بأعظم جرما من مرتكب الزني ، ثم الزاني إذا تاب قبلت شهادته ؛ لأن النائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وإذا قبل الله التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى ؛ مع أن مثل هذا الاستثناء موجود في مواضع من القرآن ؛ منها قوله تعالى : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ — إلى قوله — إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » . ولا شك أن هذا الاستثناء<sup>(٢)</sup> إلى الجميع ؛ وقال الزجاج : وليس القاذف بأشد جرما من الكافر ، فحقه إذا تاب وأصلح أن تقبل شهادته . قال : وقوله « أَبَدًا » أي مادام قاذفا ؛ كما يقال : لا تقبل شهادة الكافر أبدا ؛ فإن معناه ما دام كافرا . وقال الشَّعْبِيُّ للمخالف في هذه المسألة : يقبل الله توبته ولا تقبلون شهادته ! ثم إن كان الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة عند أقوام من الأصوليين فقوله : « وأولئك هم الفاسقون » تعليل لا جملة مستقلة بنفسها ؛ أي لا تقبلوا شهادتهم لفسقهم ، فإذا زال الفسق فلم لا تقبل شهادتهم . ثم توبة القاذف إكذابه نفسه ، كما قال عمر لَقَذْفَةِ المغيرة بحضرة الصحابة من غير تكبر ، مع إشاعة القضية وشهرتها من البصرة إلى الحجاز وغير ذلك من الأقطار . ولو كان تأويل الآية ما تأوله الكوفيون لم يحز أن يذهب علم ذلك عن الصحابة ، ولقالوا لعمر : لا يجوز قبول توبة القاذف أبدا ، ولم يسمعهم السكوت عن القضاء بتحريف تأويل الكتاب ؛ فسقط قولهم ، والله المستعان .

الخامسة والعشرون — قال القشيري : ولا خلاف أنه إذا لم يجد القاذف بأن مات المَقْدُوف قبل أن يطالب القاذف بالحد ، أو لم يرفع إلى السلطان ، أو عفا المَقْدُوف ، فالشهادة مقبولة ؛ لأن عند الخصم في المسألة النهي عن قبول الشهادة معطوف على الجلد ؛ قال الله تعالى :

(١) عبارة الأصل : « الاستثناء راجع إلى الفسق والتوبة جميعا ... » والتصويب عن كتب الفقه .

(٢) آية ٣٣ سورة المائدة .

« فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا » . وعند هذا قال الشافعي : هو قبل أن يُحدَّ شر منه حين حد ؛ لأن الحدود كفارات فكيف ترد شهادته في أحسن حاله دون أخسهما . قلت : هكذا قال ولا خلاف . وقد تقدم عن ابن الماجشون أنه بنفس القذف ترد شهادته . وهو قول الليث والأوزاعي والشافعي : ترد شهادته وإن لم يحد ؛ لأنه بالقذف يفسق ، لأنه من الكبائر فلا تقبل شهادته حتى تصح براءته بإقرار المذدوف له بالزنى أو بقيام اليقينة عليه . السادسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ يريد إظهار التوبة . وقيل : وأصلحو العمل . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث تابوا وقبل توبتهم .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٧﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَتَى شَهِدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

فيه ثلاثون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ ﴾ « أنفُسُهُم » بالرفع على البدل . ويجوز النصب على الاستثناء ، وعلى خبر « يكن » . ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ ﴾ بالرفع قراءة الكوفيين على الابتداء والخبر ؛ أي شهادة أحدهم التي تزيل عنه حد القذف أربع شهادات . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو « أربع » بالنصب ؛ لأن معنى « فشهادة » أن يشهد ؛ والتقدير : فعليه أن يشهد أحدهم أربع شهادات ، أو فالأمر أن يشهد أحدهم أربع شهادات ؛ ولا خلاف في الثاني أنه منصوب بالشهادة . ﴿ وَالْخَامِسَةَ ﴾ رفع بالابتداء .

والخبر « أن » وصلتها ؛ ومعنى الخففة كعنى المثقلة لأن معناها أنه . وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحة وعاصم في رواية حفص « والخامسة » بالنصب ، بمعنى وتشهد الشهادة الخامسة . الباقر بالرفع على الابتداء ، والخبر في « أن لعنة الله عليه » ؛ أى والشهادة الخامسة قوله لعنة الله عليه .

الثانية - في سبب نزولها ، وهو ما رواه أبو داود عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحابة ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « البينة أو حد في ظهرك » قال : يا رسول الله ، إذا رأى أحدنا رجلا على امرأته يلتمس البينة ! بفعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « البينة وإلا حد في ظهرك » فقال هلال : والذي بعثك بالحق إني لصادق ، ولئنزلني الله في أمرى ما يرى ظهري من الحد ؛ فنزلت « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهاد إلا أنفسهم » فقرأ حتى بلغ « من الصادقين » الحديث بكامله . وقيل : لما نزلت الآية المتقدمة في الذين يرمون المحصنات وتناول ظاهرها الأزواج وغيرهم قال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، إن وجدت مع امرأتى رجلا أمهله حتى آتى بأربعة ! والله لأضربنه بالسيف غير مضع عنه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعجبون من غير سعد لأنا أغير منه والله أغير منى » . وفي ألفاظ سعد روايات مختلفة ، هذا نحو معناها . ثم جاء من بعد ذلك هلال بن أمية الواقفي فرمى زوجته بشريك بن سحابة البلوى على ما ذكرنا ، وعزم النبي صلى الله عليه وسلم على ضربه حد القذف ؛ فنزلت هذه الآية عند ذلك ، فجعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وتلاعنا ، فلما كانت المرأة عند الخامسة لما وعظت وقبل إنها موجهة ؛ ثم قالت : لا أفصح قومي سائر اليوم ؛ فالتعننت ، وفترق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ، وولدت غلاما كأنه جمل أورق<sup>(١)</sup> - على النعت المكروه - ثم كان الغلام بعد ذلك أميرا بمصر ، وهو لا يعرف لنفسه أباً . وجاء أيضا عويمر العجلاني فرمى امرأته ولاعن . والمشهور أن نازلة هلال كانت قبل ، وأنها سبب الآية . وقيل : نازلة عويمر بن أشقر كانت قبل ؛ وهو حديث صحيح مشهور نخرجه الأئمة .

(١) أى الشهادة الخامسة موجهة للعذاب الأليم إن كانت كاذبة . (٢) أريد باليوم الجند ؛ أى جميع الأيام . (٣) الأورق من الإبل : الذى فى لونه بياض الى سواد .



قال أبو عبد الله بن أبي صُفْرة : الصحيح أن القاذف لزوجهُ عُويمر ، وهلال بن أمية خطأ .  
قال الطبري يستنكر قوله في الحديث هلال بن أمية : وإنما القاذف عويمر بن زيد بن الجَدِّ  
ابن العجلاني ، شهد أحدًا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، رماها بشريك بن السَّحَاء ، والسَّحَاء  
أُمهُ ، قيل لها ذلك لسوادها ، وهو ابن عبدة بن الجد بن العجلاني ، كذلك كان يقول أهل  
الأخبار . وقيل : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على الناس في الخطبة يوم الجمعة « والذين  
يرمُون المحصنات » فقال عاصم بن عَدِيّ الأنصاري : جعلني الله فداك ! لو أن رجلا منّا وجد  
على بطن امرأته رجلا ، فتكلم فأخبر بما جرى جُلْد ثمانين ، وسماه المسلمون فاسقا فلا تقبل  
شهادته ، فكيف لأحدنا عند ذلك بأربعة شهداء ، وإلى أن يلتمس أربعة شهود فقد فرغ  
الرجل من حاجته ! فقال عليه السلام : ” كذلك أنزلت يا عاصم بن عَدِيّ “ . فخرج عاصم سامعا  
مطيعا ، فاستقبله هلال بن أمية يسترجع ، فقال : ما وراءك ؟ فقال : شر ! وجدت شريك بن  
السَّحَاء على بطن امرأتي خولة يزني بها ، وخولة هذه بنت عاصم بن عَدِيّ ، كذا في هذا الطريق  
أن الذي وجد مع امرأته شريكا هو هلال بن أمية ، والصحيح خلافه حسبما تقدم بيانه .  
قال الكلبى : والأظهر أن الذي وجد مع امرأته شريكا عُويمر العجلاني ، لكثرة ما روى أن  
النبي صلى الله عليه وسلم لاعن بين العجلاني وامرأته . واتفقوا على أن هذا الزاني هو شريك  
ابن عبدة وأمه السَّحَاء ، وكان عُويمر وخولة بنت قيس وشريك بنى عم عاصم ، وكانت هذه  
القصة في شعبان سنة تسع من الهجرة ، منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك إلى  
المدينة ، قاله الطبري . وروى الدَّرَاقُطْنِي عن عبد الله بن جعفر قال : حضرت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم حين لاعن بين عُويمر العجلاني وامرأته ، مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم  
من غزوة تبوك ، وأنكر حملها الذي في بطنها وقال هو لأبن السَّحَاء ، فقال له رسول الله صلى  
الله عليه وسلم : ” هايتِ امرأتك فقد نزل القرآن فيكما “ ، فلاعن بينهما بمد العصر عند المنبر  
على نخل . في طريقه الواقدي عن الضحاك بن عثمان عن عمران بن أبي أنس قال : سمعت  
عبد الله بن جعفر يقول ... .. فذكره .

(١) الخمل : هُدْب القطيفة ونحوها بما ينسج وتفضل له فضول تكمل الطَّفِسة .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ عام في كل رَمَى ، سواء قال : زنى أو يازانية أو رأيتها تزنى ، أو هذا الولد ليس منى ، فإن الآية مشتملة عليه . ويجب اللعان إن لم يأت بأربعة شهداء ، وهذا قول جمهور العلماء وعامة الفقهاء وجماعة أهل الحديث . وقد روى عن مالك مثل ذلك . وكان مالك يقول : لا يلاعن إلا أن يقول : رأيتك تزنى ، أو ينفي حملا أو ولدا منها . وقول أبي الزناد ويحيى بن سعيد والبتى مثل قول مالك : إن الملاعنة لا تجب بالقذف ، وإنما تجب بالرؤية أو نفي الحمل مع دعوى الاستبراء ، هذا هو المشهور عند مالك ، وقاله ابن القاسم . والصحيح الأول لعموم قوله : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ » . قال ابن العربي : وظاهر القرآن يكفى لإيجاب اللعان بمجرد القذف من غير رؤية ، فلتعولوا عليه ، لا سيما وفي الحديث الصحيح : أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « فآذهب فأت بها » ولم يكلفه ذكر الرؤية . وأجمعوا أن الأعمى يلاعن إذا قذف امرأته . ولو كانت الرؤية من شرط اللعان ما لاعن الأعمى ، قاله ابن عمر رضى الله عنهما . وقد ذكر ابن القصار عن مالك أن لعان الأعمى لا يصح إلا أن يقول : لمست فرجه في فرجها . والحجة لمالك ومن أتبعه ما رواه أبو داود عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ، بجاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلا ، فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهجه حتى أصبح ، ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني جئت أهلى عشاء فوجدت عندهم رجلا ، فرأيت بعيني وسمعت بأذنى ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به واشتد عليه ، فنزلت « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ » الآية ، وذكر الحديث . وهو نص على أن الملاعنة التى قضى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كانت فى الرؤية ، فلا يجب أن يتعدى ذلك . ومن قذف امرأته ولم يذكر رؤية حد ، لعموم قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ » .

الرابعة — إذا نفى الحمل فإنه يلتزم ؛ لأنه أقوى من الرؤية ولا بد من ذكر عدم الوطء والاستبراء بعده . واختلف علماؤنا في الاستبراء ؛ فقال المغيرة ومالك في أحد قوليهما : يحزى في ذلك حيضة . وقال مالك أيضا : لا ينفية إلا بثلاث حيض . والصحيح الأول ؛ لأن براءة الرحم من الشغل يقع بها كما في استبراء الأمة ، وإنما راعينا الثلاث حيض في العدد لحكم آخر يأتي بيانه في الطلاق إن شاء الله تعالى . وحكى القمي عن مالك أنه قال مرة : لا يُنفى الولد بالاستبراء ؛ لأن الحيض يأتي على الحمل . وبه قال أشهب في كتاب ابن الموزان ، وقاله المغيرة . وقال : لا يُنفى الولد إلا بخمس سنين لأنه أكثر مدة الحمل على ما تقدم .

الخامسة — اللعان عندنا يكون في كل زوجين حرين كانا أو عبيدين ، مؤمنين أو كافرين ، فاسقين أو عدلين . وبه قال الشافعي . ولا لعان بين الرجل وأُمته ، ولا بينه وبين أم ولده . وقيل : لا ينفى ولد الأمة عنه إلا بيمين واحدة ؛ بخلاف اللعان . وقد قيل : إنه إذا نفى ولد أم الولد لآعن . والأول تحصيل مذهب مالك ، وهو الصواب . وقال أبو حنيفة : لا يصح اللعان إلا من زوجين حرين مسلمين ؛ وذلك لأن اللعان عنده شهادة ، وعندنا وعند الشافعي يمين ، فكل من صحت يمينه صح قذفه ولعانه . واتفقوا على أنه لا بد أن يكونا مكلفين . وفي قوله : « وجد مع امرأته رجلا » . دليل على أن الملاعنة تجب على كل زوجين ؛ لأنه لم يخص رجلا من رجل ولا امرأة من امرأة ، ونزلت آية اللعان على هذا الجواب فقال : « والذين يرمون أزواجهم » ولم يخص زوجا من زوج . وإلى هذا ذهب مالك وأهل المدينة ؛ وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد وأبي ثور . وأيضا فإن اللعان يوجب فسخ النكاح فأشبهه الطلاق ؛ فكل من يجوز طلاقه يجوز لعانه . واللعان أيمان لا شهادات ؛ قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « لَشَّهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا » أي أيماننا . وقال تعالى : « إذا جاءك المنافقون قَالُوا تَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ » . ثم قال تعالى : « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً » .

(١) أي قول عويمر ، أو غيره على الخلاف المتقدم . وفي الأصول : « وفي قوله صلى الله عليه وسلم وجد ... الخ » وهو تحريف .  
(٢) آية ١٠٧ سورة المائدة . راجع ج ٦ ص ٣٥٩  
(٣) آية ١٦ سورة المجادلة .

وقال عليه السلام: "لولا الأيمان لكان لي ولها شأن". وأما ما احتج به الثوري وأبو حنيفة فهي حجج لا تقوم على ساق؛ منها حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أربعة ليس بينهم لعان ليس بين الحر والأمة لعان وليس بين الحر والعبد لعان وليس بين المسلم واليهودية لعان وليس بين المسلم والنصرانية لعان". أخرجه الدارقطني من طرق ضعفها كلها. وروى عن الأوزاعي وابن جريج وهما إمامان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قوله، ولم يرفعه<sup>(١)</sup> إلى النبي صلى الله عليه وسلم. واحتجوا من جهة النظر أن الأزواج لما استثنوا من جملة الشهداء بقوله «ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم» وجب ألا يلاعن إلا من تجوز شهادته. وأيضا فلو كانت يمينا ما رددت، والحكمة في ترديدها قيامها في الأعداد مقام اليهود في الزنى. قلنا: هذا يبطل بين القسامة فإنها تكرر وليست بشهادة إجماع؛ والحكمة في تكرارها التغليظ في الفروج والدماء. قال ابن العربي: والفصل في أنها يمين لا شهادة أن الزوج يخلف لنفسه في إثبات دعواه وتخليصه من العذاب، وكيف يجوز لأحد أن يدعى في الشريعة أن شاهدا يشهد لنفسه بما يوجب حكما على غيره! هذا بعيد في الأصل معدوم في النظر.

السادسة - واختلف العلماء في ملاعنة الأخرس؛ فقال مالك والشافعي: يلاعن؛ لأنه ممن يصح طلاقه وظهاره وإيلاؤه، إذا فهم ذلك عنه. وقال أبو حنيفة: لا يلاعن؛ لأنه ليس من أهل الشهادة، ولأنه قد ينطق بلسانه فينكر اللعان، فلا يمكننا إقامة الحد عليه. وقد تقدم هذا المعنى في سورة «مريم» والدليل عليه، والحمد لله.

السابعة - قال ابن العربي: رأى أبو حنيفة عموم الآية فقال: إن الرجل إذا قذف زوجته بالزنى قبل أن يتزوجها فإنه يلاعن؛ ونسى أن ذلك قد تضمنه قوله تعالى: «والذين يرمون المحصنات» وهذا رماها محصنة غير زوجة؛ وإنما يكون اللعان في قذف يلحق فيه النسب، وهذا قذف لا يلحق فيه نسب فلا يوجب لعانا، كما لو قذف أجنبية.

(١) في سنن الدارقطني: «يرفعه». (٢) راجع ج ١١ ص ١٠١ طبعة أولى أو ثانية.

الثامنة — إذا قذفها بعد الطلاق نظرت ؛ فإن كان هنالك نسب يريد أن ينفيه أو حمل يتبرأ منه لاعن وإلا لم يلاعن . وقال عثمان البتي : لا يلاعن بحال لأنها ليست بزوجة . وقال أبو حنيفة . لا يلاعن في الوجهين ؛ لأنها ليست بزوجة . وهذا ينتقض عليه بالقذف قبل الزوجية كما ذكرناه آنفاً ، بل هذا أولى ؛ لأن النكاح قد تقدم وهو يريد الانتفاء من النسب وتبرئته من ولد يلحق به فلا بُدَّ من اللعان . وإذا لم يكن هنالك حمل يرجى ولا نسب يخاف تعاقبه لم يكن للعان فائدة فلم يحكم به ، وكان قذفاً مطلقاً داخلاً تحت عموم قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات » الآية ، فوجب عليه الحد وبطل ما قاله البتي لظهور فساد .

التاسعة — لا ملاعنة بين الرجل وزوجته بعد انقضاء العدة إلا في مسألة واحدة ، وهي أن يكون الرجل غائباً فتأتى امرأته بولد في مغيبه وهو لا يعلم فيطلقها فتنتقض عدتها ، ثم يقدم فينفيه فله أن يلاعنها هاهنا بعد العدة . وكذلك لو قدم بعد وفاتها ونفى الولد لاعن لنفسه وهي ميتة بعد مدة من العدة ، ويرثها لأنها ماتت قبل وقوع الفرقة بينهما .

العاشرة — إذا انتفى من الحمل ووقع ذلك بشرطه لاعن قبل الوضع ؛ وبه قال الشافعي . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن إلا بعد أن تضع ، لأنه يحتمل أن يكون ريحاً أو داء من الأدوية . ودليلنا النص الصريح بأن النبي صلى الله عليه وسلم لاعن قبل الوضع ، وقال : « إن جاءت به كذا فهو لأبيه وإن جاءت به كذا فهو لفلان » بخات به على النعت المكروه .

الحادية عشرة — إذا قذف بالوطء في الدبر [لزوجته] لاعن . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن ؛ وبناء على أصله في أن اللواط لا يوجب الحد . وهذا فاسد ؛ لأن الرمي به فيه معزة وقد دخل تحت عموم قوله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم » وقد تقدم في « الأعراف » والمؤمنون<sup>(١)</sup> أنه يجب به الحد .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤٣ وما بعدها . (٢) راجع ص ١٠٦ من هذا الجزء .

الثانية عشرة — قال ابن العربي : من غريب أمر هذا الرجل أنه <sup>(١)</sup> [قال] إذا قذف زوجته وأتمها بالزنى : إنه إن حدّ للأم سقط حدّ البنت ، وإن لاعن للبنت لم يسقط حدّ الأم ، وهذا لا وجه له ، وما رأيت لهم [فيه] شيئا يحكى ، وهذا باطل جدا ؛ فإنه خص عموم الآية في البنت وهي زوجة بحد الأم من غير أثر ولا أصل قاسه عليه .

الثالثة عشرة — إذا قذف زوجته ثم زنت قبل التعانه فلا حد ولا لعان . وبهذا قال أبو حنيفة والشافعي وأكثر أهل العلم . وقال الثوري والمزني : لا يسقط الحد عن القاذف ، وزنى المقذوف بعد أن قذف لا يقدح في حصانته المتقدمة ولا يرفعها ؛ لأن الاعتبار الحصانة والعفة في حال القذف لا بعده . كما لو قذف مسلما فارتد المقذوف بعد القذف وقبل أن يحد القاذف لم يسقط الحد عنه . وأيضا فإن الحدود كلها معتبرة بوقت الوجوب لا وقت الإقامة . ودليلا هو أنه قد ظهر قبل استيفاء اللعان والحد معنى لو كان موجودا في الابتداء منع صحة اللعان ووجوب الحد ، فكذلك إذا طرأ في الثاني ؛ كما إذا شهد شاهدان ظاهرهما العدالة فلم يحكم الحاكم بشهادتهما حتى ظهر فسقهما بأن زنيا أو شربا محرما فلم يجوز للحاكم أن يحكم بشهادتهما تلك . وأيضا فإن الحكم بالعفة والإحصان يؤخذ من طريق الظاهر لا من حيث القطع واليقين ، وقد قال عليه السلام : ”ظَهَرُ الْمُؤْمِنِ حَمِيٌّ“ ؛ فلا يحد القاذف إلا بدليل قاطع ، وبالله التوفيق .

الرابعة عشرة — من قذف امرأته وهي كبيرة لا تحمل تلاعنا ؛ هو لدفع الحد ، وهي لدرء العذاب . فإن كانت صغيرة لا تحمل لاعن هو لدفع الحد ولم تلاعن هي لأنها لو أقرت لم يلزمها شيء . وقال ابن الماجشون : لا حدّ على قاذف من لم تبلغ . قال الخيمى : فعلى هذا لا لعان على زوج الصغيرة التي لا تحمل .

الخامسة عشرة — إذا شهد أربعة على امرأة بالزنى أحدهم زوجها فإن الزوج يلاعن ويُحَدّ الشهود الثلاثة ؛ وهو أحد قولي الشافعي . والقول الثاني أنهم لا يحسدون . وقال أبو حنيفة : إذا شهد الزوج والثلاثة ابتداء قبلت شهادتهم وحُددت المرأة . ودليلا قوله

(١) زيادة عن ابن العربي .

تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ » الآية . فأخبر أن من قذف محصنا ولم يأت بأربعة شهداء حُذِّبَ فظاهره يقتضى أن يأتى بأربعة شهداء سوى الرامى، والزوج رَامَ لزوجته فخرج عن أن يكون أحد الشهود . والله أعلم .

السادسة عشرة — إذا ظهر بامرأته حمل فترك أن ينفيه لم يكن له نفيه بعد سكوته . وقال شريح ومجاهد : له أن ينفيه أبدا . وهذا خطأ ؛ لأن سكوته بعد العلم به رضى به ؛ كما لو أقرب به ثم ينفيه فإنه لا يقبل منه ، والله أعلم .

السابعة عشرة — فإن أئردلك إلى أن وضعت وقال : رجوت أن يكون رِيحاً يَنْفَشُ أو تسقطه فاستريح من القذف ؛ فهل لنفيه بعد وضعه مدة ما فإذا تجاوزها لم يكن له ذلك ؛ فقد اختلف فى ذلك ، فنحن نقول : إذا لم يكن له عذر فى سكوته حتى مضت ثلاثة أيام فهو راض به ليس له نفيه ؛ وبهذا قال الشافعى . وقال أيضا : متى أمكنه نفيه على ما جرت به العادة من تمكنه من الحاكم فلم يفعل لم يكن له نفيه من بعد ذلك . وقال أبو حنيفة : لا أعتبر مدة . وقال أبو يوسف ومحمد : يعتبر فيه أربعون يوما ، مدة النفاس . قال ابن القصار : والدليل لقولنا هو أن نفى ولده محرم عليه ، وأستلحاق ولد ليس منه محرم عليه ، فلا بد أن يوسع عليه لكى ينظر فيه ويفكر ، هل يجوز له نفيه أولا . وإنما جعلنا الحد ثلاثة لأنه أول حد الكثرة وآخر حد القلة ، وقد جعلت ثلاثة أيام يختبر بها حال المصرة<sup>(١)</sup> ؛ فكذلك ينبى أن يكون هنا . وأما أبو يوسف ومحمد فليس اعتبارهم بأولى من اعتبار مدة الولادة والرضاع ؛ إذ لا شاهد لهم فى الشريعة ، وقد ذكرنا نحن شاهدا فى الشريعة من مدة المصرة .

الثامنة عشرة — قال ابن القصار : إذا قالت امرأة لزوجها أَوْلَاجُنِي يَازَانِيَه — بالهاء — وكذلك الأجنبي لأجنبي ، فليست أعرف فيه نصا لأصحابنا ، ولكنه عندى يكون قذفا وعلى قائله الحد ، وقد زاد حرفا ؛ وبه قال الشافعى ومحمد بن الحسن . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف :

(١) المصرة : الناقة أو البقرة أو الشاة تصر أخلافها ولا تحلب أيا ما حتى يجتمع اللبن فى ضرعها ، فإذا حلبها المشتري استغزرها . ومنه الحديث : « من اشترى مصرة فهو بخير النظرين » أى خير الأمرين له ؛ إما إمساك المبيع أو رده .

لا يكون قذفا . وانفقوا أنه إذا قال لأمرأته يازان أنه قذف . والدليل على أنه يكون في الرجل قذفا هو أن الخطاب إذا فهم منه معناه ثبت حكمه ، سواء كان بلفظ أعجمي أو عربي . ألا ترى أنه إذا قال للمرأة زينت (بفتح التاء) كان قذفا ؛ لأن معناه يفهم منه . ولأبي حنيفة وأبي يوسف أنه لما جاز أن يُخاطَبَ المؤنث بخطاب المذكر لقوله تعالى : « وقال نسوة » صالح أن يكون قوله يازان للمؤنث قذفا . ولما لم يحز أن يؤنث فعل المذكر إذا تقدم عليه لم يكن لخطابه بالمؤنث حكم ، والله أعلم .

التاسعة عشرة — يلاعن في النكاح الفاسد زوجته لأنها صارت فراشا ويلحق النسب فيه بغيري اللعان عليه .

الموفية عشرين — اختلفوا في الزوج إذا أبى من الألتعان ؛ فقال أبو حنيفة : لا حد عليه ؛ لأن الله تعالى جعل على الأجنبي الحد وعلى الزوج اللعان ، فلما لم ينتقل اللعان إلى الأجنبي لم ينتقل الحد إلى الزوج ، ويسجن أبدا حتى يلاعن لأن الحدود لا تؤخر قياسا . وقال مالك والشافعي وجمهور الفقهاء : إن لم يلتعن الزوج حد ؛ لأن اللعان له براءة كالشهود للأجنبي ، فإن لم يأت الأجنبي بأربعة شهداء حد ، فكذلك الزوج إن لم يلتعن . وفي حديث العجلاني ما يدل على هذا ؛ لقوله : إِنْ سَكَتُ سَكَتٌ عَلَى غَيْظٍ وَإِنْ قُلْتُ قُلْتُ وَإِنْ نَطَقْتُ جُلِدْتُ .

الحادية والعشرون — واختلفوا أيضا هل للزوج أن يلاعن مع شهوده ؛ فقال مالك والشافعي : يلاعن كان له شهود أو لم يكن ؛ لأن الشهود ليس لهم عمل في غير دره الحد ، وأما رفع الفراش ونفى الولد فلا بد فيه من اللعان . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إنما جعل اللعان للزوج إذا لم يكن له شهود غير نفسه ؛ لقوله تعالى : « وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ » .

الثانية والعشرون — البداءة في اللعان بما بدأ الله به ، وهو الزوج ؛ وفائدته درء الحد عنه ونفى النسب منه ؛ لقوله عليه السلام : « البينة وإلا حد في ظهرك » . ولو بدئ بالمرأة قبله لم يجز ؛ لأنه عكس ما رتبته الله تعالى . وقال أبو حنيفة : يجزى . وهذا باطل ؛ لأنه



خلاف القرآن، وليس له أصل يردّه إليه ولا معنى يقوّى به، بل المعنى لنا؛ لأن المرأة إذا بدأت باللعان فتفى ما لم يُثبت وهذا لا وجه له.

الثالثة والعشرون — وكيفية اللعان أن يقول الحاكم للملاعن: قل أشهد بالله لأيتها تزنى ورأيت فرج الزانى فى فرجها كالمروء فى المكحلة وما وطئتها بعد رؤيتى. وإن شئت قلت: لقد زنت وما وطئتها بعد زناها. يردّد ما شاء من هذين اللفظين أربع مرات. فإن نكّل عن هذه الأيمان أو عن شيء منها حدّ. وإذا نفى حملاً قال: أشهد بالله لقد استبرأتها وما وطئتها بعد، وما هذا الحمل منى؛ ويشير إليه؛ فيحلف بذلك أربع مرات ويقول فى كل يمين منها: وإنى لمن الصادقين فى قولى هذا عليها. ثم يقول فى الخامسة «على لعنة الله إن كنت من الكاذبين». وإن شاء قال: إن كنت كاذباً فيما ذكرت عنها. فإذا قال ذلك سقط عنه الحدّ وانتفى عنه الولد. فإذا فرغ الرجل من التعانه قامت المرأة بعده غلخت بالله أربعة أيمان، تقول فيها: أشهد بالله إنه لكاذب، أو إنه لمن الكاذبين فيما أدعاه على وذكر عنى. وإن كانت حاملاً قالت: وإن حملى هذا منه. ثم تقول فى الخامسة: وعلى غضب الله إن كان صادقاً، أو إن كان من الصادقين فى قوله ذلك. ومن أوجب اللعان بالقذف يقول فى كل شهادة من الأربع: أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميت به فلانة من الزنى. ويقول فى الخامسة: على لعنة الله إن كنت كاذباً فيما رميت به من الزنى. وتقول هى: أشهد بالله إنه لكاذب فيما رمانى به من الزنى. وتقول فى الخامسة: على غضب الله إن كان صادقاً فيما رمانى به من الزنى. وقال الشافعى: يقول الملاعن أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميت به زوجى فلانة بنت فلان، ويشير إليها إن كانت حاضرة، يقول ذلك أربع مرات، ثم يوعظه الإمام ويذكره الله تعالى ويقول: إنى أخاف إن لم تكن صدقت أن تبوء بلعنة الله؛ فإن رآه يريد أن يمضى على ذلك أمر من يضع يده على فيه، ويقول: إن قولك وعلى لعنة الله إن كنت من الكاذبين موجّباً؛ فإن أبى تركه يقول ذلك: لعنة الله على إن كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة من الزنى. احتج بما رواه أبو داود عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رجلاً حيث أمر المتلاعنين أن يضع يده على فيه عند الخامسة يقول: إنها موجبة.

الرابعة والعشرون — اختلف العلماء في حكم من قذف امرأته برجل ستماء ، هل يحسد أم لا ؛ فقال مالك : عليه اللعان لزوجه ، وحّد للرمي . وبه قال أبو حنيفة ؛ لأنه قاذف إن لم يكن له ضرورة إلى قذفه . وقال الشافعي : لا حدّ عليه ؛ لأن الله عز وجل لم يجعل على من رمى زوجته بالزنى إلا حدّا واحدا بقوله : « والذين يرمون أزواجهم » ، ولم يفرق بين من ذكر رجلا بعينه وبين من لم يذكر ؛ وقد رمى العجلاني زوجته بشريك وكذلك هلال ابن أمية ؛ فلم يحّد واحد منهما . قال ابن العربي : وظاهر القرآن لنا ؛ لأن الله تعالى وضع الحدّ في قذف الأجنبية والزوجة مطلقين ، ثم خص حدّ الزوجة بالخلاص باللعان وبقي الأجنبية على مطلق الآية . وإنما لم يُحدّ العجلاني لشريك ولا هلال لأنه لم يطلبه ؛ وحدّ القذف لا يقيمه الإمام إلا بعد المطالبة إجماعا منا ومنه .

الخامسة والعشرون — إذا فرغ المتلاعنان من تلاعنها جميعا تفرقا وخرج كل واحد منهما على باب من المسجد الجامع غير الباب الذي يخرج منه صاحبه ، ولو خرجا من باب واحد لم يضر ذلك لعانتهما . ولا خلاف في أنه لا يكون اللعان إلا في مسجد جامع تجتمع فيه الجمعة بحضرة السلطان أو من يقوم مقامه من الحكام . وقد استحب جماعة من أهل العلم أن يكون اللعان في الجامع بعد العصر . وتلتعن النصرانية من زوجها المسلم في الموضع الذي تعظمه من كنيستها مثل ما تلتعن به المسلمة .

السادسة والعشرون — قال مالك وأصحابه : وبتمام اللعان تقع الفركة بين المتلاعنين ، فلا يجتمعان أبدا ولا يتوارثان ، ولا يحل له مراجعتها أبدا لا قبل زوج ولا بعده ؛ وهو قول الليث بن سعد وزُفر بن الهذيل والأوزاعي . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن : لا تقع الفركة بعد فراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما ؛ وهو قول الثوري ؛ لقول ابن عمر : فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المتلاعنين ؛ فأضاف الفركة إليه ، ولقوله عليه السلام : " لا سبيل لك عليها " . وقال الشافعي : إذا أكمل الزوج الشهادة والألتعان فقد زال فراش أمرأته ، التّعنّت أو لم تلتعن . قال : وأما التعان المرأة فإنما هو لدرء الحد عنها لا غير ؛ وليس لألتعانها في زوال الفراش معنى . ولما كان لعان الزوج ينفي

الولد ويسقط الحدُّ رفع الفراش . وكان عثمان البَتي لا يرى التلاعن ينقص شيئاً من عصمة الزوجين حتى يطلق . وهذا قول لم يتقدمه إليه أحد من الصحابة ؛ على أن البَتي قد استحب للتلاعن أن يطلق بعد اللعان ، ولم يستحسنه قبل ذلك ؛ فدلَّ على أن اللعان عنده قد أحدث حكماً . وبقول عثمان قال جابر بن زيد فيما ذكره الطبري ، وحكاه النخعي عن محمد بن أبي صفرة . ومشهور المذهب أن نفس تمام اللعان بينهما فرقة . وأحتج أهل هذه المقالة بأنه ليس في كتاب الله تعالى إذا لاعن أو لاعنت يجب وقوع الفرقة ، وبقول عويمر : كذبت عليها إن أمسكتها ؛ فطلقها ثلاثاً ، قال : ولم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عليه ولم يقل له لم قلت هذا ، وأنت لا تحتاج إليه ؛ لأن باللعان قد طلقت . والحجة لمالك في المشهور ومن وافقه قوله عليه السلام "لا سبيل لك عليها" . وهذا إعلام منه أن تمام اللعان رفع سبيله عنها وليس تفريقه بينهما باستئناف حكم ، وإنما كان تنفيذا لما أوجب الله تعالى بينهما من المباحة ، وهو معنى اللعان في اللغة .

السابعة والعشرون — ذهب الجمهور من العلماء أن المتلاعنين لا يتناكحان أبداً ، فإن أ كذب نفسه جلد الحد ولحق به الولد ، ولم ترجع إليه أبداً . وعلى هذا السنة التي لا شك فيها ولا اختلاف . وذكر ابن المنذر عن عطاء أن الملاعن إذا أ كذب نفسه بعد اللعان لم يحد ، وقال : قد تفرقا بلعنة من الله . وقال أبو حنيفة ومحمد : إذا أ كذب نفسه جلد الحد ولحق به الولد ، وكان خاطباً من الخطاب إن شاء ؛ وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وسعيد بن جبيرة وعبد العزيز بن أبي سلمة . وقالوا : يعود النكاح حالاً كما لحق به الولد ؛ لأنه لا فرق بين شيء من ذلك . وحجة الجماعة قوله عليه السلام : "لا سبيل لك عليها" ؛ ولم يقل إلا أن تكذب نفسك . وروى ابن إسحاق وجماعة عن الزهري قال : فمضت السنة أنهما إذا تلاعنا فُرق بينهما فلا يجتمعان أبداً . ورواه الدارقطني ، ورواه مرفوعاً من حديث سعيد بن جبيرة عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "المتلاعنان إذا افترقا لا يجتمعان أبداً" . وروى عن علي وعبد الله قالا : مضت السنة ألا يجتمع المتلاعنان . عن علي : أبداً .

الثامنة والعشرون — اللعان يفقر إلى أربعة أشياء :

عدد الألفاظ — وهو أربع شهادات على ما تقدم .

والمكان — وهو أن يقصد به أشرف البقاع بالبلدان ، إن كان بمكة فعند الركن والمقام ، وإن كان بالمدينة فعند المنبر ، وإن كان ببيت المقدس فعند الصخرة ، وإن كان في سائر البلدان ففي مساجدها ، وإن كانا كافرين بُعث بهما إلى الموضع الذي يعتقدان تعظيمه ، إن كانا يهوديين فالكنيسة ، وإن كانا مجوسيين ففي بيت النار ، وإن كانا لا دين لهما مثل الوثنيين فإنه يلاعن بينهما في مجلس حكمه .

والوقت — وذلك بعد صلاة العصر .

وجمع الناس — وذلك أن يكون هناك أربعة أنفس فصاعداً ، فاللفظ وجمع الناس مشروطان ، والزمان والمكان مستحبان .

التاسعة والعشرون — من قال : إن الفراق لا يقع إلا بتمام التعانها ، فعليه لو مات أحدهما قبل تمامه ورثه الآخر . ومن قال : لا يقع إلا بتفريق الإمام فمات أحدهما قبل ذلك وتام اللعان ورثه الآخر . وعلى قول الشافعي : إن مات أحدهما قبل أن تلتعن المرأة لم يتوارثا .

الموفية ثلاثين — قال ابن القصار : تفريق اللعان عندنا ليس بفسخ ، وهو مذهب المدونة : فإن اللعان حكم تفريقه حكم تفريق الطلاق ، ويعطى لغير المدخول بها نصف الصداق . وفي مختصر ابن الجلاب : لا شيء لها ، وهذا على أن تفريق اللعان فسخ .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِنْفِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا**

عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ  
 الْكَذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
 لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنَنِكُمْ  
 وَتَقُولُونَ بِإِفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ  
 عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا  
 سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا  
 إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾  
 إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ  
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ  
 عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا  
 لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ  
 بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ  
 مَنْ أَحَدٌ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾  
 وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى  
 وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ  
 أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾

فيه ثمان وعشرون مسألة<sup>(١)</sup> :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ « عُصْبَةٌ » خبر « إن » . ويجوز نصبها على الحال ، ويكون الخبر « لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ » . وسبب نزولها ما رواه الأئمة من حديث الإفك الطويل في قصة عائشة رضوان الله عليها ، وهو خبر صحيح مشهور ، أغنى اشتهاره عن ذكره ، وسيأتي مختصراً . وأخرجه البخاري تعليقا ، وحديثه أتم . قال : وقال أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، وأخرجه أيضا عن محمد بن كثير عن أخيه سليمان من حديث مسروق عن أم رومان أم عائشة أنها قالت : لما رُميت عائشة نَحَرَتْ مَغْشِيًا عليها . وعن موسى بن إسماعيل من حديث أبي وائل قال : حدثني مسروق بن الأجدع قال حدثتني أم رومان وهي أم عائشة قالت : بينا أنا قاعدة أنا وعائشة إذ وَبَحَتْ امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله بفلان وفعل [ بفلان ] ! فقالت أم رومان : وما ذاك ؟ قالت أبى فيمن حدث الحديث ! قالت : وما ذاك ؟ قالت كذا وكذا . قالت عائشة : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت نعم . قالت : وأبو بكر ؟ قالت نعم ! نَحَرْتُ مَغْشِيًا عليها ، فما أفاقت إلا وعليها حُمَّى بِنَافِضٍ<sup>(٢)</sup> ، فطَرَحْتُ عليها ثيابها فغَطَّيْتُهَا ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « ما شأن هذه ؟ » فقالت : يا رسول الله ، أخذتها الحُمَّى بِنَافِضٍ . قال : « فلعَلَّ في حديثٍ تُحَدِّثُ به » قالت نعم . فقعدت عائشة فقالت : والله ، لئن حلفت لا تصدقوني ! ولئن قلت لا تعذروني ! مَثَلِي ومَثَلُكُمْ كيعقوب<sup>(٣)</sup> وبنيه ، والله المستعان على ما تصفون . قالت : وانصرف ولم يقل شيئا ، فأنزل الله عذرها . قالت : بحمد الله لا بحمد أحد ولا بحمدك . قال أبو عبد الله الحميدي : كان بعض من لقينا من الحفاظ البغداديين يقول الإرسال في هذا الحديث أئبن ، واستدل على ذلك بأن أم رومان تُوفيت في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومسروق لم يشاهد النبي صلى الله عليه وسلم بلا خلاف . وللبخاري من حديث عبيد الله بن عبد الله بن أبي مليكة أن عائشة كانت تقرأ « إِذْ تَلَقَّوهُ »

(١) يلاحظ أن المسائل سبع وعشرون . (٢) أى برعدة . (٣) إذ قال في نسخة : والله المستعان ... الخ .

يَا لَيْسَتَكُمْ» وتقول : الوثائق الكذب . قال ابن أبي مليكة : وكانت أعلم بذلك من غيرها لأنه نزل فيها . قال البخاري : وقال معمر بن راشد عن الزهري : كان حديث الإفك في غزوة المُرَيْسِع . قال ابن إسحاق : وذلك سنة ست . وقال موسى بن عقبة : سنة أربع . وأخرج البخاري من حديث معمر عن الزهري قال قال لي الوليد بن عبد الملك : أبلغك أن علياً كان فيمن قَذَف ؟ قال : قلت لا ، ولكن قد أخبرني رجلان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن عائشة قالت لهما : كان عليٌّ مسلماً في شأنها . وأخرجه أبو بكر الإسماعيلي في كتابه المخرج على الصحيح من وجه آخر من حديث معمر عن الزهري ، وفيه : قال كنت عند الوليد بن عبد الملك فقال : الذي تولى كبره منهم علي بن أبي طالب ؟ فقلت لا ، حدثني سعيد بن المسيّب وعُروة وعلقمة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة كلهم يقول سمعت عائشة تقول : والذي تولى كبره عبد الله بن أبي . وأخرج البخاري أيضاً من حديث الزهري عن عروة عن عائشة : والذي تولى كبره منهم عبد الله بن أبي .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ يَا لَيْفَكَ ﴾ الإفك الكذب . والعصبة ثلاثة رجال ؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضاً من الثلاثة إلى العشرة . ابن عيينة : أربعون رجلاً . مجاهد : من عشرة إلى خمسة عشر . وأصلها في اللغة وكلام العرب الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض . والخير حقيقة ما زاد نفعه على ضره ، والشر ما زاد ضره على نفعه . وإن خيراً لا شراً فيه هو الجنة . وشرّاً لا خير فيه هو جهنم . فأما البلاء النازل على الأولياء فهو خير ؛ لأن ضرره من الألم قليل في الدنيا ، وخيره هو الثواب الكثير في الآخرة . فبِهِ الله تعالى عائشة وأهلها وصفوان ، إذ الخطاب لهم في قوله « لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » ؛ لرجحان النفع والخير على جانب الشر .

الثالثة — لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة معه في غزوة بني المصطلق وهي غزوة المُرَيْسِع ، وقفل ودنا من المدينة آذن ليلته بالرحيل قامت حين آذنوا بالرحيل (١) أي بالذي قرأته . (٢) الذي في البخاري «العمان بن راشد» . (٣) قوله : « مسلماً » بكسر اللام المشددة من التسليم ؛ أي مسلماً في شأنها . وقيل بفتح اللام ، من السلامة من الخوض فيه .

فمشت حتى جاوزت الجيش ، فلما فرغت من شأنها أقبلت إلى الزحل فلمست صدرها فإذا عقد من جَزَع ظَفَارٍ قد انقطع<sup>(١)</sup> ، فرجعت فالتمسته فبسها ابتغاؤه ، فوجدته وانصرفت فلم تجد أحداً ، وكانت شابة قليلة اللحم ، فرفع الرجال هودجها ولم يشعروا بزوالها منه ؛ فلما لم تجد أحدا اضطجعت في مكانها رجاء أن تُفتقد فيُرجع إليها ، فنامت في الموضع ولم يوقظها إلا قول صفوان بن المعطل : إنا لله وإنا إليه راجعون ؛ وذلك أنه كان تخلف وراء الجيش لحفظ الساقة . وقيل : إنها استيقظت لاسترجاعه ، ونزل عن ناقته وتحنى عنها حتى ركبت عائشة ، وأخذ يقودها حتى بلغ بها الجيش في نحر الظهيرة ؛ فوقع أهل الإفك في مقاتلهم ، وكان الذي يُجتمع إليه فيه ويستوشيه<sup>(٢)</sup> ويسعله عبد الله بن أبي آبن سلول المناق ، وهو الذي رأى صفوان آخذا بزمام ناقة عائشة فقال : والله ما نجت منه ولا نجا منها ، وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل . وكان من قائله حسان بن ثابت ومسطح بن أثانة وحننة بنت جحش . هذا اختصار الحديث ، وهو بكامله وإتقانه في البخاري ومسلم ، وهو في مسلم أكل . ولما بلغ صفوان قول حسان في الإفك جاء فضربه بالسيف ضربة على رأسه وقال :

تَلَقَّ دُبَابَ السَّيْفِ عَنِّي فَإِنِّي \* غَلَامٌ إِذَا هُوَ جِيتَ لَيْسَ بِشَاعِرٍ

فأخذ جماعة حسان ولببوه وجاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم جرح حسان واستوهبه إياه . وهذا يدل على أن حسان ممن تولى الكبر ، على ما يأتي والله أعلم . وكان صفوان هذا صاحب ساقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته لشجاعته ، وكان من خيار الصحابة . وقيل : كان حصورا لا يأتي النساء ؛ ذكره ابن إسحاق من طريق عائشة . وقيل : كان له ابنان ؛ يدل على ذلك حديثه المروى مع امرأته ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في ابنه : ”لها أشبه به من الغراب بالغراب“ . وقوله في الحديث : والله ما كشفت كنف أنثى قط ؛ يريد بزني . وقتل شهيدا رضي الله عنه في غزوة أرمينية سنة تسع عشرة في زمان عمر ، وقيل : ببلاد الروم سنة ثمان وخمسين في زمان معاوية .

(١) الجزع (يفتح الجيم وسكون الزاي) : نحر معروف في سواده يابض كالعروق . وظفار (تكضار) : مدينة باليمن . (٢) يستوشيه : يستخرجه بالبحث والمسألة ثم يفشيه ويشيعه ويعركه . (٣) لبب فلان فلانا : أخذ بتليبه ؛ أي جمع ثيابه عند صدره ونحره في الخصر ثم جره .



الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَرٍيٍّ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ يعني ممن تكلم بالإفك . ولم يُسمَّ من أهل الإفك إلا حسان ومسطح وحننة وعبد الله ؛ وجُهل الغير ؛ قاله عروة بن الزبير ، وقد سأله عن ذلك عبد الملك بن مروان ، وقال : إلا أنهم كانوا عَصَبَةً ؛ كما قال الله تعالى . وفي مصحف حَفْصَةَ « عَصَبَةُ أَرْبَعَةٌ » .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ ﴾ وقرأ حميد الأعرج ويعقوب « كُبْرَهُ » بضم الكاف . قال الفراء : وهو وجه جيد ؛ لأن العرب تقول : فلان تَوَلَّى عَظْمٌ كذا وكذا ؛ أى أكبره . روى عن عائشة أنه حسان ، وأنها قالت حين عَمِيَ : لعل العذاب العظيم الذى أوعده الله به ذهابُ بصره ؛ رواه عنها مسروق . وروى عنها أنه عبد الله بن أبى ؛ وهو الصحيح ، وقاله ابن عباس . وحكى أبو عمر بن عبد البر أن عائشة برأت حسان من الفِرْيَةِ ، وقالت : إنه لم يقل شيئا . وقد أنكر حسان أن يكون قال شيئا من ذلك فى قوله :

حَصَانُ رَزَانٌ مَا تُرَنِّ بِرِيَّةٍ \* وَتُصْبِحُ غَرْنَى مِنَ الْحُومِ الْغَوَافِلِ<sup>(١)</sup>  
حَلِيلَةُ خَيْرِ النَّاسِ دِينًا وَمَنْصَبًا \* نَبِيُّ الْهُدَى وَالْمَكْرَمَاتِ الْفَوَاضِلِ  
عَقِيلَةٌ حَتَّى مِنْ لُؤَى بْنِ غَالِبٍ \* كَرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهَا غَيْرُ زَائِلِ  
مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللَّهُ خِيَمَهَا \* وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ شَيْنٍ وَبَاطِلِ<sup>(٢)</sup>  
فَإِنْ كَانَ مَا بُلِّغَتْ أَنَّى قَلْتُهُ \* فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَى أَنَا مَلِي  
فَكَيْفَ وَوَدَّى مَا حَيِّتُ وَنُضْرَتِي \* لَأَلْ رَسُولِ اللَّهِ زَيْنَ الْمَخَافِلِ  
لَهُ رُتَبٌ عَالٍ عَلَى النَّاسِ فَضْلُهَا \* تَقَاصَرُ عَنْهَا سَوْرَةُ الْمُتَطَاوِلِ

وقد روى أنه لما أنشدتها : حصان رزان ؛ قالت له : لست كذلك ؛ تريد أنك وقعت فى الغوافل . وهذا تعارض ، ويمكن الجمع بأن يقال : إن حسانا لم يقل ذلك نصا وتصريحا ، ويكون عَرَضَ بذلك وأومأ إليه فنُسب ذلك إليه ؛ والله أعلم .

(١) الحصان : العقيفة . ورزان : ذات ثبات ووقار وعفاف . وغرنى : جائعة . ما ترن : ما تنهم . الغوافل :

جمع غافلة ؛ أى لا ترتع فى أعراض الناس . (٢) الخيم (بالكسر) : الشيعة والطبيعة والخلق والأصل .

وقد اختلف الناس فيه هل خاض في الإفك أم لا ، وهل جلد الحد أم لا ، فانه أعلم أى ذلك كان ، وهى المسألة :

السادسة — فروى محمد بن إسحاق وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم جلد في الإفك رجلين وامرأة : مسطحا وحسان وحنّة ، وذكره الترمذى . وذكر القشيري عن ابن عباس قال : جلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبي ثمانين جلدة ، وله في الآخرة عذاب النار . قال القشيري : والذي ثبت في الأخبار أنه ضرب ابن أبي وضرب حسان وحنّة ، وأما مسطح فلم يثبت عنه قذف صريح ، ولكنه كان يسمع ويشيع من غير تصريح . قال الماوردي وغيره : اختلفوا هل حد النبي صلى الله عليه وسلم أصحاب الإفك ، على قولين : أحدهما أنه لم يحد أحدا من أصحاب الإفك لأن الحدود إنما تقام بإقرار أو بيّنة ، ولم يتعبده الله أن يقيمها بإخباره عنها ، كما لم يتعبده بقتل المنافقين ، وقد أخبره بكفرهم .

قلت : وهذا فاسد مخالف لنص القرآن ، فإن الله عز وجل يقول : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ » أى على صدق قولهم « فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً » . والقول الثانى — أن النبي صلى الله عليه وسلم حد أهل الإفك عبد الله بن أبي مسطح

ابن أثانة وحسان بن ثابت وحنّة بنت جحش ، وفى ذلك قال شاعر من المسلمين :

لقد ذاق حسان الذى كان أهله \* وحنّة إذ قالوا هجيراً ومسطح

وإبن سلول ذاق فى الحد خزية \* كما خاض فى إفك من القول يفضح

تعاطوا برجم الغيب زوج نبيهم \* وسخطة ذى العرش الكريم فأبرحوا

وآذوا رسول الله فيها بخللوا \* مخازى تبق عموها وفضحوا

فصب عليهم محصّات كأنها \* شآبيب قطر من ذرى المزن تسفح

قلت : المشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذى حد حسان ومسطح وحنّة ، ولم يسمع بحد لعبد الله بن أبي . روى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما نزل عذرى قام النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك ، وتلا القرآن ، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين

والمرأة فُضِرُوا حَدَّهم، وسَمَّاهم : حسان بن ثابت ومسطح بن أثانة وحننة بنت جحش .  
وفي كتاب الطحاوي « ثمانين ثمانين » . قال علماؤنا . وإنما لم يُحدِّد عبد الله بن أبيّ لأن الله تعالى قد أعد له في الآخرة عذابا عظيما ؛ فلو حدّ في الدنيا لكان ذلك تقصا من عذابه في الآخرة وتخفيفا عنه مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضي الله عنها وبكذب كل من رماها ؛ فقد حصلت فائدة الحدّ ، إذ متصوده إظهار كذب القاذف وبراءة المقدوف ؛ كما قال الله تعالى :  
« فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » . وإنما حدّ هؤلاء المسلمون ليكفر عنهم لائم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعه من ذلك في الآخرة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحدود « إنها كفارة لمن أقيمت عليه » ؛ كما في حديث عبادة بن الصامت . ويحتمل أن يقال : إنما ترك حدّ ابن أبيّ استئلافا لقومه واحتراما لابنه ، وإطفاء لثائرة الفتنة المتوقعة من ذلك ، وقد كان ظهر مبادئها من سعد بن عبادة ومن قومه ؛ كما في صحيح مسلم . والله أعلم .  
السابعة — قوله تعالى : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾  
هذا عتاب من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين في ظنهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا . قال ابن زيد : ظن المؤمنون أن المؤمن لا يفجر بأمره ؛ قاله المهدوي . و « لولا » بمعنى هلا .  
وقيل : المعنى أنه كان ينبغي أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات الأمر على أنفسهم ؛ فإن كان ذلك يبعد فيهم فذلك في عائشة وصفوان أبعد . وروى أن هذا النظر الشديد وقع من أبي أيوب الأنصاري وأمراته ؛ وذلك أنه دخل عليها فقالت له : يا أبا أيوب ، أسمع ما قيل ! فقال نعم ! وذلك الكذب ! أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك ! قالت : لا والله ! قال : فعائشة والله أفضل منك ؛ قالت أم أيوب نعم . فهذا الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله تعالى عليه المؤمنين إذ لم يفعله جميعهم .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ قال النحاس : معنى « بأنفسهم » بإخوانهم . فأوجب الله على المسلمين إذا سمعوا رجلا يقذف أحدا ويذكره بقبیح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكذبوه . وتواعد من ترك ذلك ومن نقله .

(١) في الأصول وتفسير ابن عطية : « عاتب الله تعالى على المؤمنين » .

قلت : ولأجل هذا قال العلماء : إن الآية أصل في أن درجة الإيمان التي حازها الإنسان ، ومنزلة الصلاح التي حلها المؤمن ، ولُبسة العفاف التي يستتر بها المسلم لا يزيلها عنه خبر محتمل وإن شاع ، إذا كان أصله فاسداً أو مجهولاً .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ هذا توبيخ لأهل الإفك . و «لولا» بمعنى هلا ؛ أى هلا جاءوا بأربعة شهداء على ما زعموا من الافتراء . وهذا رد على الحكم الأول ، وإحالة على الآية السابقة في آية القذف .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أى هم في حكم الله كاذبون . وقد يعجز الرجل عن إقامة البينة وهو صادق في قذفه ، ولكنه في حكم الشرع وظاهر الأمر كاذب لا في علم الله تعالى ، وهو سبحانه إنما رتب الحدود على حكمه الذي شرعه في الدنيا لا على مقتضى علمه الذي تعلق بالإنسان على ما هو عليه ، وإنما يبنى على ذلك حكم الآخرة .

قلت : ومما يقوى هذا المعنى ويعضده ما خرجه البخارى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : أيها الناس إن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً أقنأه وقربناه ، وليس لنا من سريره شيء الله يحاسبه في سريره ، ومن أظهر لنا سوءاً لم نؤمنه ولم نصدق ، وإن قال إن سريره حسنة . وأجمع العلماء أن أحكام الدنيا على الظاهر ، وأن السرائر إلى الله عز وجل .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ «فَضْلٌ» رفع بالابتداء عند سيبويه ، والخبر محذوف لا تظهره العرب . وحذف جواب «لولا» لأنه قد ذكر مثله بعد ، قال الله عز وجل «ولولا فضل الله عليكم ورحمته» لمستم أى بسبب ما قلتم في عائشة عذاب عظيم في الدنيا والآخرة . وهذا عتاب من الله تعالى ببلغ ، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا ويرحم في الآخرة من أتاه تأبياً . والإفاضة : الأخذ في الحديث ، وهو الذي وقع عليه العتاب ، يقال : أفاض القوم في الحديث أى أخذوا فيه .

(١) يريد آية ١٠ من قوله تعالى : «ولولا فضل الله عليكم ورحمته وإن الله تواب حكيم» .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ قراءة محمد بن السَّمِيعِ بضم التاء وسكون اللام وضم القاف ؛ من الإلقاء ، وهذه قراءة بَيِّنَةٌ . وقرأ أُبَيٌّ وابن مسعود « إِذْ تَلَقَّوْنَهُ » من التَّلَقَّى ، بتأين . وقرأ جمهور السبعة بحرف التاء الواحدة وإظهار الذال دون إدغام ؛ وهذا أيضا من التلقَّى . وقرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي بإدغام الذال في التاء . وقرأ ابن كثير بإظهار الذال وإدغام التاء في التاء ؛ وهذه قراءة قَلِيلَةٌ ؛ لأنها تقتضى اجتماع ساكنين ، وليست كالإدغام في قراءة من قرأ « فَلَا تَنَاجَوْا . وَلَا تَنَابَزُوا » لأن دونه الألف الساكنة ، وكونها حرف لين حسنت هنالك ما لا تحسن مع سكون الذال . وقرأ ابن يَعْمَرُ وعائشة رضى الله عنهما — وهم أعلم الناس بهذا الأمر — « إِذْ تَلَقَّوْنَهُ » بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف ؛ ومعنى هذه القراءة من قول العرب : وَلَقِيَ الرَّجُلُ يَلْقَى وَلَقَاءً إِذَا كَذَبَ وَاسْتَمَرَّ عَلَيْهِ ؛ بَخَاءٍ بِالْمُتَعَدِّي شَاهِدًا عَلَى غَيْرِ الْمُتَعَدِّي . قال ابن عطية : وعندى أنه أراد إِذْ تَلَقَّوْنَ فِيهِ ؛ فحذف حرف الجر فأتصل الضمير . وقال الخليل وأبو عمرو : أصل الْوَلَقَى الْإِسْرَاعُ ؛ يقال : جاءت الإبل تَلْقَى ؛ أى تسرع . قال :

لَمَّا رَأَوْا جَيْشًا عَلَيْهِمْ قَدْ طَرَقَ \* جَاءُوا بِأَسْرَابٍ مِنَ الشَّامِ وَلَقِيَ

إِنَّ الْحَصِينَ زَلَقَ وَزُمْلَقَ \* جَاءَتْ بِهِ عَذَسٌ<sup>(١)</sup> مِنَ الشَّامِ تَلْقَى

يقال : رجل زَلَقَ وَزُمْلَقَ ؛ مثال هُدَيْدَ ، وَزُمْلَقَ وَزُمْلَقَ (بتشديد الميم) وهو الذى ينزل قبل أن يجامع ؛ قال الراجز :

\* إِنَّ الْحَصِينَ زَلَقَ وَزُمْلَقَ \*

وَالْوَلَقَى أَيْضًا أَخَفَّ الطَّعْنِ . وَقَدْ وَلَقَهُ يَلْقَهُ وَلَقَاءً . يقال : وَلَقَهُ بِالسَّيْفِ وَلَقَاتَ ، أى ضربات ؛ فهو مشترك .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ مبالغة وإلزام وتأكيد . والضمير فى « تَحْسِبُونَهُ » عائد على الحديث والخوض فيه والإذاعة له . و﴿ هَيَّا ﴾ أى شيئًا يسيرًا لا يلحقكم فيه إثم . ﴿ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فى الوزر ﴿ عَظِيمٌ ﴾ . وهذا مثل قوله عليه السلام فى حديث القبرين : « إِنَّهُمَا لِعَذَابَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فى كَبِيرٍ » أى بالنسبة إليكم .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عتاب لجميع المؤمنين ؛ أى كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل ، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام ، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان ؛ وحقيقة البهتان أن يقال فى الإنسان ما ليس فيه ، والغيبة أن يقال فى الإنسان ما فيه . وهذا المعنى قد جاء فى صحيح الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم وعظهم تعالى فى العودة إلى مثل هذه الحالة . و « أن » مفعول من أجله ، بتقدير : كراهية أن ، ونحوه .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ توقيف وتوكيد ؛ كما تقول : يذنبى لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ يعنى فى عائشة ؛ لأن مثله لا يكون إلا نظير القول فى المقول عنه بعينه ، أو فيمن كان فى مرتبته من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لما فى ذلك من إذاية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عرضه وأهله ؛ وذلك كفر من فاعله .

السابعة عشرة — قال هشام بن عمار سمعت مالكا يقول : من سب أبا بكر وعمر أذب ، ومن سب عائشة قُتل ؛ لأن الله تعالى يقول : « يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ؛ فمن سب عائشة فقد خالف القرآن ، ومن خالف القرآن قُتل . قال ابن العربى : « قال أصحاب الشافعى من سب عائشة رضى الله عنها أذب كما فى سائر المؤمنين ، وليس قوله « إن كنتم مؤمنين » فى عائشة [لأن ذلك] كفر ، وإنما هو كما قال عليه السلام : " لا يؤمن من لا يأمن جأره بوائقه " . ولو كان سلب الإيمان فى سب من سب عائشة حقيقة لكان سلبه فى قوله : " لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن " حقيقة . قلنا : ليس كما زعمتم ؛ فإن

(١) زيادة عن ابن العربى . (٢) فى الأصول : « لئن كان كما زعمت أنت أهل » والتصويب عن ابن العربى . (٣) فى الأصول وابن العربى : « أن » بدون فاء .

أهل الإفك رَمَوْا عائشة المطهرة بالفاحشة فبرأها الله تعالى فكل من سبها بما برأها الله منه مكذب لله . ومن كذب الله فهو كافر ؛ فهذا طريق قول مالك ، وهى سبيل لائحة لأهل البصائر . ولو أن رجلا سب عائشة بغير ما برأها الله منه لكان جزاؤه الأدب » .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِن الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴾ أى تفشوا ؛ يقال : شاع الشيء شُيُوعًا وشَيْعًا وشَيْعَانًا وشَيْعُوعَةً ؛ أى ظهر وتفترق . ﴿ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى فى المحصنين والمحصنات . والمراد بهذا اللفظ العام عائشة وصفوان رضى الله عنهما . والفاحشة : الفعل القبيح المفرط القبح . وقيل : الفاحشة فى هذه الآية القول السيئ . ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى الحد . وفى الآخرة عذاب النار ؛ أى للمنافقين ، فهو مخصوص . وقد بينا أن الحد للمؤمنين كفارة . وقال الطبرى : معناه إن مات مُصِرًّا غير تائب .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ أى يعلم مقدار عظم هذا الذنب والمجازاة عليه ، ويعلم كل شيء . ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ روى من حديث أبى الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” أئما رجل شَدَّ عَصْدَ أَمْرٍ مِنَ النَّاسِ فى خصوصة لا علم له بها فهو فى سخط الله حتى يترع عنها . وأئما رجل قال بشفاعته دون حد من حدود الله أن يقام فقد عاند الله حقا وأقدم على سخطه وعليه لعنة الله تتابع إلى يوم القيامة . وأئما رجل أشاع على رجل مسلم كلمة وهو منها برىء يرى أن يشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله تعالى أن يرميه بها فى النار — ثم تلا مصداقه من كتاب الله تعالى : — إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا “ الآية .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ يعنى مسالكه ومذاهبه ؛ المعنى : لا تسلكوا الطريق الذى يدعوكم إليها الشيطان . وواحد الخطوات خُطْوَةٌ ، وهو ما بين القدمين . والخطوة (بالفتح) المصدر ؛ يقال : خَطَوْتُ خُطْوَةً ، وجمعها خَطَوَاتٌ . وتخطى إلينا فلان ؛ ومنه الحديث أنه رأى رجلا يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة .

(١) فى الأصول : « الآية » . (٢) فى الأصول : « ولو أن رجلا سب عائشة بعين ما برأها الله منه لكان جزاؤه الكفر » . والتصويب عن ابن العربى .

وقرأ الجمهور « خُطوات » بضم الطاء . وسكنها عاصم والأعمش . وقرأ الجمهور « مَزَكِي » بتخفيف الكاف ؛ أى ما اهتدى ولا أسلم ولا عرف رُشداً . وقيل : « مازكى » أى ما صلح ؛ يقال : زَكََّا يَزْكُو زَكاءً ؛ أى صلح . وشددها الحسن وأبو حيوة ؛ أى أن تزكيتهم لكم وتطهيره وهدايته إنما هى بفضلهم لا بأعمالكم . وقال الكسائي : « يأبى الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان » معترض ، وقوله « مازكى منكم من أحد أبداً » جواب لقوله أولاً وثانياً « ولولا فضل الله عليكم » .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتِلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ الآية . المشهور من الروايات أن هذه الآية نزلت فى قصة أبى بكر بن أبى خُفافة رضى الله عنه ومسطح بن أثاثه . وذلك أنه كان ابن بنت خالته وكان من المهاجرين البدريين المساكين . وهو مسطح بن أثاثه ابن عباد بن المطالب بن عبد مناف . وقيل : اسمه عوف ، ومسطح لقب . وكان أبو بكر رضى الله عنه ينفق عليه لمسكنته وقرباته ؛ فلما وقع أمر الإفك وقال فيه مسطح ما قال ، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبداً ، بغاء مسطح فاعتذر وقال : إنما كنت أغشى مجالس حسان فاسمع ولا أقول . فقال له أبو بكر : لقد ضحكت وشاركت فيما قيل ؛ ومررت على يمينه ، فنزلت الآية . وقال الضحاک وابن عباس : إن جماعة من المؤمنين قطعوا منافعهم عن كل من قال فى الإفك وقالوا : والله لا نصل من تكلم فى شأن عائشة ؛ فنزلت الآية فى جميعهم . والأول أصح ؛ غير أن الآية لتناول الأمة إلى يوم القيامة بالألا يغتاز ذو فضل وسعة فيحالف ألا ينفع من هذه صفته غابر الدهر . روى الصحيح أن الله تبارك وتعالى لما أنزل « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم » العشر آيات ، قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقربته وفقره : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشة ؛ فأنزل الله تعالى « وَلَا يَأْتِلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ » — إلى قوله — « أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ » . قال عبد الله بن المبارك : هذه أرجى آية فى كتاب الله تعالى ؛ فقال أبو بكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ؛ فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال : لا أنزعها منه أبداً .



الثانية والعشرون — في هذه الآية دليل على أن القذف وإن كان كبيراً لا يُحبط الأعمال؛ لأن الله تعالى وصف مسطحاً بعد قوله بالهجرة والإيمان؛ وكذلك سائر الكبائر؛ ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله؛ قال الله تعالى: «<sup>(١)</sup> إِنْ أَشْرَكَ أَتَّخِذَنَّ عَمَلُكَ<sup>(٢)</sup>» .

الثالثة والعشرون — من حلف على شيء لا يفعله فرأى فعله أولى منه أتاها وكفر عن يمينه، أو كفر عن يمينه وأتاها؛ كما تقدم في «<sup>(٣)</sup> المائدة<sup>(٤)</sup>» . ورأى الفقهاء أن من حلف ألا يفعل سنة من السنن أو مندوباً وأبد ذلك أنها جرحه في شهادته؛ ذكره الباجي في المنتقى .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى: «<sup>(٥)</sup> وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلِ<sup>(٦)</sup>» «<sup>(٧)</sup> ولا يأتل<sup>(٨)</sup>» معناه يحلف؛ وزنها يفتعل؛ من الألية وهي اليمين؛ ومنه قوله تعالى «<sup>(٩)</sup> لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ<sup>(١٠)</sup>» ؛ وقد تقدم في «<sup>(١١)</sup> البقرة<sup>(١٢)</sup>» . وقالت فرقة: معناه يقصر؛ من قولك: ألوت في كذا إذا قصرت فيه؛ ومنه قوله تعالى «<sup>(١٣)</sup> لَا يَأْلُوْنَكُمْ خِيَالًا<sup>(١٤)</sup>» .

الخامسة والعشرون — قوله تعالى: «<sup>(١٥)</sup> أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ<sup>(١٦)</sup>» تمثيل وحجة؛ أي كما تحبون عفو الله عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم؛ وينظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام: «من لا يرحم لا يرحم» .

السادسة والعشرون — قال بعض العلماء: هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى، من حيث لطف الله بالقذفة العصاة بهذا اللفظ . وقيل . أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: «<sup>(١٧)</sup> وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(١٨)</sup> بِأَنْ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا<sup>(١٩)</sup>» . وقد قال تعالى في آية أخرى: «<sup>(٢٠)</sup> وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ<sup>(٢١)</sup>» ؛ فشرح الفضل الكبير في هذه الآية، وبشر به المؤمنين في تلك . ومن آيات الرجاء قوله تعالى: «<sup>(٢٢)</sup> قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ<sup>(٢٣)</sup>» وقوله تعالى: «<sup>(٢٤)</sup> اللَّهُ لَطِيفٌ<sup>(٢٥)</sup>» .

(١) آية ٦٥ سورة الزمر . (٢) راجع ج ٦ ص ٢٦٤ وما بعدها . (٣) راجع ج ٣ ص ١٠٣ .

(٤) راجع ج ٤ ص ١٧٨ . (٥) آية ٤٧ سورة الأناب . (٦) آية ٢٢ سورة الشورى .

(٧) آية ٥٣ سورة الزمر .

(١) «وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى»؛ وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَرْضَى بَبَقَاءِ أَحَدٍ مِنْ أُمَّتِهِ فِي النَّارِ .

السابعة والعشرون — قوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾ أى ألا يؤتوا، لحذف «لا»؛ كقول القائل: \* فقلت يمين الله أبرحُ قاعداً \* .

ذكره الزجاج . وعلى قول أبي عبيدة لا حاجة إلى إضمار «لا» . ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ من عفا الربح أى دَرَسَ ؛ فهو محو الذنب حتى يعفو كما يعفو أثر الربح .

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ أَلَمْ يُؤْمِنْتَ لِعُنُوتٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾  
فيه مسالتان :

الاولى — قوله تعالى: ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ تقدم في «النساء» . وأجمع العلماء على أن حكم المحصنين في القذف كحكم المحصنات قياساً واستدلالاً ، وقد بيناه أول السورة والحمد لله . واختلاف فيمن المراد بهذه الآية ؛ فقال سعيد بن جبیر : هى فى رُمَاة عائشة رضوان الله عليها خاصة . وقال قوم : هى فى عائشة وسائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس والضحاك وغيرهما . ولا تنفع التوبة . ومن قذف غيرهن من المحصنات فقد جعل الله له توبة ؛ لأنه قال : «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ — إِلَى قَوْلِهِ — إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا» فجعل الله لهؤلاء توبة ، ولم يجعل لأولئك توبة ؛ قاله الضحاك . وقيل : هذا الوعيد لمن أصرّ على القذف ولم يتب . وقيل : نزلت فى عائشة ، إلا أنه يراد بها كل من اتّصف بهذه الصفة . وقيل : إنه عام لجميع الناس القذفة من ذكر وأنثى ؛ ويكون التقدير : إن الذين يرمون الأنفس المحصنات ؛ فدخل فى هذا المذكر والمؤنث ؛ واختاره النحاس . وقيل : نزلت فى مشركى مكة ؛ لأنهم يقولون للمرأة إذا هاجرت إنما خرجت لتفجر .

(١) آية ١٩ سورة النور . (٢) آية ٥ سورة الضحى . (٣) هذا صدر بيت لامرئ القيس ، وتماه .

\* ولو نظموا رأسى لديك وأوصالى \*

(٤) راجع ج ٥ ص ١٢٠

الثانية : ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قال العلماء : إن كان المراد بهذه الآية المؤمنين من القذفة فالمراد باللعنة الإبعاد وضربُ الحد واستيحاشُ المؤمنين منهم وهجرهم لهم ، وزوالهم عن رتبة العدالة والبعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين . وعلى قول من قال : هي خاصة لعائشة تترتب هذه الشدائد في جانب عبد الله بن أبي وأشباهه . وعلى قول من قال : نزلت في مشركي مكة فلا كلام ، فإنهم مبعدون ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم ؛ ومن أسلم فالإسلام يحب ما قبله . وقال أبو جعفر النحاس : من أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية إنه عام لجميع الناس القذفة من ذكر وأنثى ؛ ويكون التقدير : إن الذين يرمون الأنفس المحصنات ، فدخل في هذا المذكر والمؤنث ، وكذا في الذين يرمون ؛ إلا أنه غالب المذكر على المؤنث .

قوله تعالى : يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾

قراءة العامة بالتاء ، واختاره أبو حاتم . وقرأ الأعمش ويحيى وحمة والكسائي وخلف «يشهد» بالياء ، واختاره أبو عبيد ؛ لأن الجار والمجرور قد حال بين الاسم والفعل ، والمعنى : يوم تشهد ألسنة بعضهم على بعض بما كانوا يعملون من القذف والبهتان . وقيل : تشهد عليهم ألسنتهم ذلك اليوم بما تكلموا به . ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ أى وتكلم الجوارح بما عملوا في الدنيا .

قوله تعالى : يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

أى حسابهم وجزاؤهم . وقرأ مجاهد «يومئذ يوفيههم الله دينهم الحق» برفع «الحق» على أنه نعت لله عز وجل . قال أبو عبيد : ولولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع ؛ ليكون نعتا لله عز وجل ، وتكون موافقة لقراءة أبي ، وذلك أن جرير بن حازم قال : رأيت في مصحف أبي «يُوفِّيهِمُ اللَّهُ الْحَقَّ دِينَهُمْ» . قال النحاس : وهذا الكلام من أبي عبيد غير

مَرْضَى؛ لأنه احتج بما هو مخالف للسواد الأعظم . ولا حجة أيضا فيه لأنه لو صح هذا أنه في مصحف أبي كذا جاز أن تكون القراءة : يومئذ يوفيه الله الحق دينهم ، يكون «دينهم» بدلا من الحق . وعلى قراءة العامة «دِينُهُمُ الْحَقُّ» يكون «الحق» نعتا لدينهم ، والمعنى حسن ؛ لأن الله عز وجل ذكر المسيئين وأعلم أنه يجازيهم بالحق ؛ كما قال الله عز وجل : «وَهَلْ يُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ»<sup>(١)</sup> ؛ لأن مجازاة الله عز وجل للكافر والمسيء بالحق والعدل ، ومجازاته للحسن بالإحسان والفضل . ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ اسمان من أسمائه سبحانه . وقد ذكرناهما في غير موضع ، وخاصة في الكتاب الأسنى .

قوله تعالى : **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴿٢١﴾

قال ابن زيد : المعنى الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون للخبيثات ، وكذا الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات . وقال مجاهد وابن جبير وعطاء وأكثر المفسرين : المعنى الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، وكذا الكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس ، والطيبون من الناس للطيبات من القول . قال النحاس في كتاب معاني القرآن : وهذا أحسن ما قيل في هذه الآية . ودل على صحة هذا القول «أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ» أي عائشة وصفوان مما يقول الخبيثون والخبيثات . وقيل : إن هذه الآية مبنية على قوله «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً» الآية ، فالخبيثات الزواني ، والطيبات العفاف ، وكذا الطيبون والطيبات . واختار هذا القول النحاس أيضا ، وهو معنى قول ابن زيد . ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ يعني به الجنس . وقيل : عائشة وصفوان ، بجمع ؛ كما قال : «فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ» والمراد أخوان ؛ قاله الفراء .

و (مُبْرَأُونَ) يعنى مبرَّهين مما رُموا به . قال بعض أهل التحقيق : إن يوسف عليه السلام لما رُمى بالفاحشة برأه الله على لسان صبيّ في المهد ، وإن مريم لما رُميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى صلوات الله عليه ، وإن عائشة لما رُميت بالفاحشة برأها الله تعالى بالقرآن ؛ فما رضى لها براءة صبيّ ولا نبيّ حتى برأها الله بكلامه من القذف والبهتان . وروى عن عليّ بن زيد بن جدعان عن جدّته عن عائشة رضى الله عنها قالت : لقد أعطيت تسعا ما أعطيتهنّ أمراة : لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتى في راحته حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوجنى ، ولقد تزوجنى بكرا وما تزوج بكرا غيرى ، ولقد تُوفّى صلى الله عليه وسلم وإن رأسه لفى حجرى ، ولقد قُبر فى بيتى ، ولقد حَفَّت الملائكة بيتى ، وإن كان الوحي لينزل عليه وهو فى أهله فينصرفون عنه ، وإن كان لينزل عليه وأنا معه فى لحافه فما يُبيننى عن جسده ، وإنى لأبنة خليفته وصديقه ، ولقد نزل عُذرى من السماء ، ولقد خُلقت طيبة وعند طيب ، ولقد وُعدت مغفرة ورزقا كريما ؛ تعنى قوله تعالى « لَّهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهو الجنة .

قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

فيه سبع عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا) لما خصّص الله سبحانه ابن آدم الذى كرمه وفضله بالمنازل وسترهم فيها عن الأبصار ، وملّكهم الاستمتاع بها على الأنفراد ، وحجّر على الخلق أن يطلعوا على ما فيها من خارج أو يلجوها من غير إذن أربابها ، أنذبههم بما يرجع إلى الستر عليهم لئلا يطلع أحد منهم على عورة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : ” من أطلع فى بيت قوم من غير إذنه حلّ لهم أن يفقهوا عينه “ . وقد اختلف فى تأويله ؛ فقال بعض العلماء : ليس هذا على ظاهره ،

فإن فقا فعليه الضمان، والخبر منسوخ، وكان قبل نزول قوله تعالى: «وَأِنْ عَاقَبْتُمْ فَمَا قَبُولُا». ويحتمل أن يكون خرج على وجه الوعيد لا على وجه الحتم، والخبر إذا كان مخالفاً للكتاب الله تعالى لا يجوز العمل به. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم بالكلام في الظاهر وهو يريد شيئاً آخر؛ كما جاء في الخبر أن عباس بن مرداس لما مدحه قال لبلال: «قم فاقطع لسانه» وإنما أراد بذلك أن يدفع إليه شيئاً، ولم يرد به القطع في الحقيقة. وكذلك هذا يحتمل أن يكون ذكر فقء العين والمراد أن يعمل به عمل حتى لا ينظر بعد ذلك في بيت غيره. وقال بعضهم: لا ضمان عليه ولا قصاص؛ وهو الصحيح إن شاء الله تعالى؛ لحديث أنس، على ما يأتي.

الثانية — سبب نزول هذه الآية ما رواه الطبري وغيره عن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، لا والد ولا ولد فيأتي الأب فيدخل عليّ وإنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فزلت الآية. فقال أبو بكر رضى الله عنه: يا رسول الله، أفرأيت الخانات والمسكن في طرق الشام ليس فيها ساكن؛ فأنزل الله تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ».

الثالثة — مد الله سبحانه وتعالى التحريم في دخول بيت ليس هو بيتك إلى غاية هي الاستئناس، وهو الاستئذان. قال ابن وهب قال مالك: الاستئناس فيما نرى والله أعلم الاستئذان؛ وكذا في قراءة أبي وابن عباس وسعيد بن جبیر «حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا». وقيل: إن معنى «تسألنوا» تستعلموا؛ أى تستعلموا من في البيت. قال مجاهد: بالتنجس أو بأى وجه أمكن، ويتأني قدر ما يعلم أنه قد شعِر به، ويدخل إثر ذلك. وقال معناه الطبري؛ ومنه قوله تعالى: «فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا» أى علمتم. وقال الشاعر:

آتَيْتُ نَبَأَهُ وَأَفْرَعَهَا الْقَدَّ \* نَاصَ عَصْرًا وَقَدْ دَنَا الْإِمْسَاءُ

قلت : وفي سنن ابن ماجه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن واصل ابن السائب عن أبي سَورة عن أبي أيوب الأنصاري قال قلنا : يا رسول الله ، هذا السلام ، فما الاستئذان ؟ قال : ” يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ويتنحنح ويؤذن أهل البيت “ . قلت : وهذا نص في أن الاستئناس غير الاستئذان ؛ كما قال مجاهد ومن وافقه .

الرابعة — وروى عن ابن عباس وبعض الناس يقول عن سعيد بن جبير « حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا » خطأ أو وَهَم من الكاتب ، إنما هو « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا » . وهذا غير صحيح عن ابن عباس وغيره ؛ فإن مصاحف الإسلام كلها قد ثبت فيها « حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا » ، وصح الإجماع فيها من لدن مدة عثمان ، فهي التي لا يجوز خلافها . وإطلاق الخطأ والوهَم على الكاتب في لفظ أجمع الصحابة عليه قول لا يصح عن ابن عباس ؛ وقد قال عز وجل : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » ، وقال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . وقد روى عن ابن عباس أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا ؛ والمعنى : حتى تسلموا على أهلها وتستأنسوا ؛ حكاه أبو حاتم . قال ابن عطية : ومما ينفي هذا القول عن ابن عباس وغيره أن « تستأنسوا » متمكنة في المعنى ، بيّنة الوجه في كلام العرب . وقد قال عمر للنبي صلى الله عليه وسلم : استأنس يا رسول الله ؛ وعمر واقف على باب الغرفة ، الحديث المشهور . وذلك يقتضي أنه طاب الأنس به صلى الله عليه وسلم ، فكيف يخطئ ابن عباس أصحاب الرسول في مثل هذا .

قلت : قد ذكرنا من حديث أبي أيوب أن الاستئناس إنما يكون قبل السلام ، وتكون الآية على بابها لا تقديم فيها ولا تأخير ، وأنه إذا دخل سلم . والله أعلم .

الخامسة — السنة في الاستئذان ثلاث مرات لا يزداد عليها . قال ابن وهب قال مالك : الاستئذان ثلاث ، لا أحب أن يزيد أحد عليها ، إلا من علم أنه لم يسمع ، فلا أرى بأسًا أن يزيد إذا استيقن أنه لم يسمع . وصورة الاستئذان أن يقول الرجل : السلام عليكم أَدْخَلَ ؛ فإن أُذِنَ له دخل ، وإن أمر بالرجوع انصرف ، وإن سكت عنه استأذن

ثلاثاً ؛ ثم ينصرف من بعد الثلاث . وإنما قلنا : إن السنة الاستئذان ثلاث مرات لا يزداد عليها لحديث أبي موسى الأشعري ، الذي استعمله مع عمر بن الخطاب وشهد به لأبي موسى أبو سعيد الخدري ، ثم أبي بن كعب . وهو حديث مشهور أخرجه الصحيح ، وهو نص صريح ؛ فإن فيه : فقال — يعني عمر — ما منعك أن تأتينا ؟ فقلت : أتيت فسلمت على بابك ثلاث مرات فلم ترد عليّ فرجعت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع “ . وأما ما ذكرناه من صورة الاستئذان فما رواه أبو داود عن ربيعة قال : حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في بيت ، فقال : ألب ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه : ” اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان — فقال له — قل السلام عليكم أَدْخُلْ “ فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم أَدْخُلْ ؟ فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم فدخل . وذكره الطبري وقال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمة له يقال لها « روضة » : ” قولي لهذا يقول السلام عليكم أَدْخُلْ ؟ “ الحديث . وروى أن ابن عمر آذنه الرضاء يوماً فأتى فسقاطاً لأمراً من قريش فقال : السلام عليكم أَدْخُلْ ؟ فقالت المرأة : ادخل بسلام ، فأعاد فأعادت ، فقال لها : قولي ادخل . فقالت ذلك فدخل ؛ فتوقف لما قالت : بسلام ؛ لاحتمال اللفظ أن تريد بسلامك لا بشخصك .

السادسة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إنما خُصَّ الاستئذان بثلاث لأن الغالب من الكلام إذا كرر ثلاثاً سُمِعَ وفُهِمَ ؛ ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى يفهم عنه ، وإذا سَلَّمَ على قوم سَلَّمَ عليهم ثلاثاً . وإذا كان الغالب هذا ؛ فإذا لم يؤذن له بعد ثلاث ظهر أن رب المنزل لا يريد الإذن ، أو لعله يمنعه من الجواب عنه عذر لا يمكنه قطعه ؛ فينبغي للمستأذن أن ينصرف ؛ لأن الزيادة على ذلك قد تقلق رب المنزل ، وربما يضره الإلحاح حتى ينقطع عما كان مشغولاً به ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي أيوب حين استأذن عليه فخرج مستعجلاً فقال : ” لعلنا أعجلناك ... “ الحديث . وروى عقيل عن ابن شهاب قال : أما سنة التسليمات الثلاث فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى سعد



ابن عبادة فقال : "السلام عليكم" فلم يردوا ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "السلام عليكم" فلم يردوا ، فأنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما فقد سعد تسليمه عرف أنه قد انصرف ؛ فخرج سعد في أثره حتى أدركه ، فقال : وعليك السلام يا رسول الله ، إنما أردنا أن نستكثر من تسليمك ، وقد والله سمعنا ؛ فأنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سعد حتى دخل بيته . قال ابن شهاب : فلانما أخذ التسليم ثلاثا من قبل ذلك ؛ رواه الوليد بن مسلم عن الأوزاعي قال : سمعت يحيى بن أبي كثير يقول حدثني محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زُرارة [عن قيس بن سعد<sup>(١)</sup>] قال : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزلنا فقال : "السلام عليكم ورحمة الله" قال فردّ سعد ردّا خفيا ، قال قيس : فقلت ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ذره يكثر علينا من السلام ... الحديث ، أخرجه أبو داود وليس فيه « قال ابن شهاب فلانما أخذ التسليم ثلاثا من قبل ذلك » . قال أبو داود : ورواه عمر بن عبد الواحد وابن سماعة عن الأوزاعي مرسلان لم يذكرهما قيس بن سعد .

السابعة — روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الاستئذان ترك العمل به الناس . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وذلك لاتخاذ الناس الأبواب وقرعها ؛ والله أعلم . روى أبو داود عن عبد الله بن بسر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول : "السلام عليكم السلام عليكم" وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور .

الثامنة — فإن كان الباب مردودا فله أن يقف حيث شاء منه ويستأذن ، وإن شاء دق الباب ؛ لما رواه أبو موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في حائط بالمدينة على قف البئر فمد رجله في البئر فدق الباب أبو بكر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إيذن له وبشره بالجنة" . هكذا رواه عبد الرحمن بن أبي الزناد وتابعه صالح بن كيسان ويونس بن يزيد ؛ فرووه جميعا عن أبي الزناد عن أبي سلمة عن عبد الرحمن بن نافع

(١) زيادة عن سنن أبي داود يقتضيا السياق .

(٢) قف البئر : هو الدكة التي تجعل حولها . وأصل القف : ما غلظ من الأرض وارتفع .

عن أبي موسى . وخالفهم محمد بن عمرو الليثي فرواه عن أبي الزناد عن أبي سلمة عن نافع ابن عبد الحارث عن النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ؛ وإسناده الأول أصح ، والله أعلم .

التاسعة — وصفة الدق أن يكون خفيفا بحيث يسمع ، ولا يعنف في ذلك ؛ فقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كانت أبواب النبي صلى الله عليه وسلم تقرع بالأظافر ؛ ذكره أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب في جامعه .

العاشرة — روى الصحيحان وغيرهما عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : استأذنت على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ” من هذا ؟ “ فقلت أنا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” أنا أنا “ ! كأنه كره ذلك . قال علماؤنا : إنما كره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لأن قوله أنا لا يحصل بها تعريف ، وإنما الحكم في ذلك أن يذكر اسمه كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأبو موسى ؛ لأن في ذكر الاسم إسقاط لكلفة السؤال والجواب . ثبت عن عمر بن الخطاب أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مشربة له فقال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليكم أيدخل عمر ؟ وفي صحيح مسلم أن أبا موسى جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : السلام عليكم ، هذا أبو موسى ، السلام عليكم ، هذا الأشعري ... الحديث .

الحادية عشرة — ذكر الخطيب في جامعه عن علي بن عاصم الواسطي قال : قدمت البصرة فأريت منزل شعبة فدققت عليه الباب فقال : من هذا ؟ قلت أنا ؛ فقال : يا هذا ! ما لي صديق يقال له أنا ؛ ثم خرج إلى فقال : حدثني محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة لي فطرقت عليه الباب فقال : ” من هذا ؟ “ فقلت أنا ؛ فقال : ” أنا أنا “ ! كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره قولي هذا ، أو قوله هذا . وذكر عن عمر بن شبة حدثنا محمد بن سلام عن أبيه قال : دققت على عمرو بن عبيد الباب فقال لي : من هذا ؟ فقلت أنا ؛ فقال : لا يعلم الغيب إلا الله . قال الخطيب : سمعت علي بن الحسن القاضي يحكي عن بعض الشيوخ أنه كان إذا دق بابهُ فقال من ذا ؟ فقال الذي على الباب أنا ، يقول الشيخ : أنا هم دق .

الثانية عشرة — ثم لكل قوم في الاستئذان عُرْفُهُمْ في العبارة؛ كما رواه أبو بكر الخطيب مسندا عن أبي عبد الملك مولى أم مسكين بنت عاصم بن عمر بن الخطاب قال : أرسلتني مولاتي إلى أبي هريرة بجاء معي ، فلما قام بالباب قال : أندر؟ قالت أندرون . وترجم عليه (باب الاستئذان بالفارسية) . وذكر عن أحمد بن صالح قال : كان الذراوردي من أهل أصبهان<sup>(١)</sup> نزل المدينة ، فكان يقول للرجل إذا أراد أن يدخل : أندرون ، فلقبه أهل المدينة الدراوردي .

الثالثة عشرة — روى أبو داود عن كَلْدَةَ بن حنبل أن صفوان بن أمية بعثه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلبن وجداية وضغائيس<sup>(٢)</sup> والنبي صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة ، فدخلت ولم أسلم فقال : ” ارجع فقل السلام عليكم ” وذلك بعد ما أسلم صفوان بن أمية . وروى أبو الزبير عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” من لم يبدأ بالسلام فلا تأذنوا له ” . وذكر ابن جريح أخبرني عطاء قال : سمعت أبا هريرة يقول : إذا قال الرجل أدخل؟ ولم يسلم فقل لا حتى تأتي بالمفتاح؛ فقلت السلام عليكم؟ قال نعم . وروى أن حذيفة جاءه رجل فنظر إلى ما في البيت فقال : السلام عليكم أأدخل؟ فقال حذيفة : أما بعينك فقد دخلت ! وأما بآستك فلم تدخل .

الرابعة عشرة — ومما يدخل في هذا الباب ما رواه أبو داود عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” رسول الرجل إلى الرجل إذنه ” ؛ أي إذا أرسل إليه فقد أذن له في الدخول ، يبينه قوله عليه السلام : ” إذا دُعِيَ أحدكم [ إلى طعام ] بجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن ” . أخرجه أبو داود أيضا عن أبي هريرة .

الخامسة عشرة — فإن وقعت العين على العين فالسلام قد تعين ، ولا تعذر رؤيته إذا نالك في دخولك عليه ، فإذا قضيت حق السلام لأنك الوارد عليه تقول : أأدخل؟ فإن أذن لك وإلا رجعت .

(١) هو عبد العزيز بن محمد بن عبيد بن أبي عبيد . (راجع ترجمته في كتاب تهذيب التهذيب) . (٢) الهداية : الذكر والأنثى من أولاد الظباء إذا بلغ ستة أشهر أو سبعة ؛ بمنزلة الجدي من المعز . والضغائيس : القنأ ؛ واحدا ضغوبوس . وقيل : هي نبت ينبت في أصول النخيل ، يسلق بالنخل والزيت ويؤكل . (٣) زيادة عن سنن أبي داود .

السادسة عشرة — هذه الأحكام كلها إنما هي في بيت ليس لك ، فأما بيتك الذي تسكنه فإن كان فيه أهلك فلا إذن عليها ، إلا أنك تسلم إذا دخلت . قال قتادة : إذا دخلت بيتك فسلم على أهلك ، فهم أحق من سلمت عليهم . فإن كان فيه معك أمك أو أختك فقالوا : تتحج وأضرب برجلك حتى ينتبها لدخولك ؛ لأن الأهل لا حشمة بينك وبينها . وأما الأم والأخت فقد يكونا على حالة لا تحب أن تراهما فيها . قال ابن القاسم قال مالك : ويستأذن الرجل على أمه وأخته إذا أراد أن يدخل عليهما . وقد روى عطاء بن يسار أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أستاذن على أمي ؟ قال "نعم" قال : إني أخدمها ؟ قال : "أستاذن عليها" فعاوده ثلاثا ؛ قال "أتحب أن تراها عريانة" ؟ قال لا ؛ قال : "فأستاذن عليها" ذكره الطبري .

السابعة عشرة — فإن دخل بيت نفسه وليس فيه أحد ؛ فقال علماءنا : يقول السلام علينا ، من ربنا التحيات الطيبات المباركات ، لله السلام . رواه ابن وهب عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وسنده ضعيف . وقال قتادة : إذا دخل بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ؛ فإنه يؤمر بذلك . قال : وذكر لنا أن الملائكة ترد عليهم . قال ابن العربي : والصحيح ترك السلام والأستاذان ، والله أعلم .

قلت : قول قتادة حسن .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا ۚ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٢٠ ﴾  
فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا ﴾ الضمير في «تجدوا فيها» للبيوت التي هي بيوت الغير . وحكى الطبري عن مجاهد أنه قال : معنى قوله « فإن لم تجدوا فيها أحدا » أى لم يكن لكم فيها متاع . وضعف الطبري هذا التأويل ، وكذلك هو في غاية الضعف ؛ وكأن مجاهدا رأى أن البيوت غير المسكونة إنما تدخل دون إذن إذا كان للدخل فيها متاع .

ورأى لفظة «المتاع» متاع البيت، الذي هو البُسْط والثياب؛ وهذا كله ضعيف. والصحيح أن هذه الآية مرتبطة بما قبلها والأحاديث؛ التقدير: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا، فإن أذن لكم فادخلوا وإلا فارجعوا؛ كما فعل عليه السلام مع سعد، وأبو موسى مع عمر رضى الله عنهما. فإن لم تجدوا فيها أحدا يأذن لكم فلا تدخلوها حتى تجدوا إذنا. وأسند الطبري عن قتادة قال قال رجل من المهاجرين: لقد طلبت عمرى هذه الآية فما أدركتها أن أستأذن على بعض إخواني فيقول لى أرجع فارجع وأنا مقتبط؛ لقوله تعالى: «هو أركى لكم».

الثانية — سواء كان الباب مغلقا أو مفتوحا؛ لأن الشرع قد أغلقه بالتحريم للدخول حتى يفتحه الإذن من ربه، بل يجب عليه أن يأتى الباب ويحاول الإذن على صفة لا يطلع منه على البيت لا في إقباله ولا في انقلابه. فقد روى علماءنا عن عمر بن الخطاب أنه قال: من ملا عينيه من قاعة بيت فقد فسق. وروى الصحيح عن سهل بن سعد أن رجلا أطلع في جحر في باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم مِذْرَى<sup>(١)</sup> يرجل به رأسه؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أعلم أنك تنظر لَطَعْتُ<sup>(٢)</sup> به في عينك إنما جعل الله الإذن من أجل البصر". وروى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لو أن رجلا أطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاة ففقات عينه ما كان عليك من جناح".

الثالثة — إذا ثبت أن الإذن شرط في دخول المنزل فإنه يجوز من الصغير والكبير. وقد كان أنس بن مالك دون البلوغ يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك الصحابة مع آبائهم وغلمانهم رضى الله عنهم. وسيأتى لهذا مزيد بيان في آخر السورة إن شاء الله تعالى.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ توعده لأهل التجسس على البيوت وطلب الدخول على غفلة للعاصي والنظر إلى ما لا يحل ولا يجوز، ولغيرهم ممن يقع في محذور.

(١) المِذْرَى والمِذْرَاة: شئ، يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه يسرج به الشعر.

(٢) الخذف: رميك حصاة أو نواة تأخذها بين مباينيك وترى بها.

قوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾  
فيه مسائلتان :

الأولى — روى أن بعض الناس لما نزلت آية الاستئذان تعمق في الأمر ، فكان لا يأتي موضعا خربا ولا مسكونا إلا سلم واستأذن ؛ فنزلت هذه الآية ، أباح الله تعالى فيها رفع الاستئذان في كل بيت لا يسكنه أحد ؛ لأن العلة في الاستئذان إنما هي لأجل خوف الكشفة على الحرمات ؛ فإذا زالت العلة زال الحكم .

الثانية — اختلف العلماء في المراد بهذه البيوت ؛ فقال محمد بن الحنفية وقتادة ومجاهد : هي الفنادق التي في طرق السابلة . قال مجاهد : لا يسكنها أحد بل هي موقوفة لياوى إليها كل ابن سبيل ، وفيها متاع لهم ؛ أى استمتاع بمنفعتها . وعن محمد بن الحنفية أيضا أن المراد بها دور مكة ؛ ويبيته قول مالك . وهذا على القول بأنها غير مملوكة ، وأن الناس شركاء فيها ، وأن مكة أخذت عنوة . وقال ابن زيد والشَّعْبِيُّ : هي حوانيت القيساريات . قال الشعبي : لأنهم جاءوا ببيعهم بفعلوها فيها ، وقالوا للناس هلم . وقال عطاء : المراد بها الحُرَب التي يدخلها الناس للبول والغائط ؛ ففي هذا أيضا متاع . وقال جابر بن زيد : ليس يعنى بالمتاع الجهاز ، ولكن ما سواه من الحاجة ؛ أما منزل يتزله قوم من ليل أو نهار ، أو خربة يدخلها لقضاء حاجة ، أو دار ينظر إليها ، فهذا متاع وكل منافع الدنيا متاع . قال أبو جعفر النحاس : وهذا شرح حسن من قول إمام من أئمة المسلمين ، وهو موافق للغة . والمتاع في كلام العرب : المنفعة ؛ ومنه أمتع الله بك . ومنه « فمتعوهن » .

قلت : واختاره أيضا القاضي أبو بكر بن العربي وقال : أما من فسر المتاع بأنه جميع الاستفاد فقد طبق المفصل وجاء بالفيصل ، وبين أن الداخل فيها إنما هو لما له من الانتفاع ؛ فالطالب يدخل في الخانات وهي المدارس لطلب العلم ، والساكن يدخل الخانات

وهي الفئاتق ، أى الفنادق . والزبون يدخل الدكان للابتياح ، والحاقد يدخل الخلاء للحاجة ، وكل يؤتى على وجهه من بابه . وأما قول ابن زيد والشَّعْبِيّ فقول ! وذلك أن بيوت القيساريات محظورة بأموال الناس ، غير مباحة لكل من أراد دخولها بإجماع ، ولا يدخلها إلا من أذن له ربها ، بل أربابها موكلون بدفع الناس .

قوله تعالى : **قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ**  
**ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴿٣٠﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ وصل تعالى بذكر الستّر ما يتعلق به من أمر النظر؛ يقال : غَضَّ بصره يَغْضُهُ غَضًّا ، قال الشاعر :

فَغَضَّ الطَّرْفُ إِنَّكَ مِنْ تُمَيْرٍ \* فَلَا كَغَبًّا بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابًا

وقال عنترة :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتِي \* حتى يُسَوِّرِي جَارَتِي ما وَاها

ولم يذكر الله تعالى ما يُغْضُ البصر عنه ويحفظ الفرج ، غير أن ذلك معلوم بالعادة ، وأن المراد منه المحترم دون المحلّل . وفي البخارى : « وقال سعيد بن أبى الحسن للحسن إن نساء العجم يكشفن صدورهن وروسمهن ؟ قال : اصرف بصرك ؛ يقول الله تعالى « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ » وقال قتادة : عما لا يحلّ لهم ؛ « وقيل للمؤمنات يَغُضُّنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ » خاتمة الأئمة [ من ] النظر إلى ما نُهي عنه . »

الثانية — قوله تعالى : ﴿مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ « من » زائدة ؛ كقوله « فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » (٢) . وقيل : « من » للتبويض ؛ لأن من النظر ما يباح . وقيل : الغض التقصان ؛ يقال : غَضَّ فلان من فلان أى وضع منه ؛ فالبصر إذا لم يمكن من عمله فهو موضوع منه ومنقوص . فـ « مِنْ » صلة للغض ، وليست للتبويض ولا للزيادة .

(١) زيادة عن صحيح البخارى . (٢) آية ٤٧ سورة الحاقة .

الثالثة - البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأغمر طرق الخواص إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته . ووجب التحذير منه ، وغضه واجب عن جميع المحرمات ، وكل ما يخشى الفتنة من أجله ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إياكم والجلوس على الطُّرُقَات " فقالوا : يا رسول الله ، ما لنا من مجالسنا بدُّ نتحدث فيها . فقال : " فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه " قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال . " غَضُّ البصر وكَفُّ الأذى وردُّ السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " . رواه أبو سعيد الخُدْرِيّ ، نَحْرَجُه البخاريّ ومسلم . وقال صلى الله عليه وسلم لعلّ : " لا تُتَّبِعِ النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية " . وروى الأوزاعيّ قال : حدثني هارون بن رِثَاب أن غَزَوَان وأبا موسى الأشعريّ كانا في بعض مغازيهم ، فكشفت جارية فنظر إليها غَزَوَان ، فرفع يده فلطم عينه حتى نفرت<sup>(١)</sup> ، فقال : إنك للعاطاة إلى ما يضرّك ولا ينفعك ؛ فلقى أبا موسى فسأله فقال : ظلمت عينك ، فاستغفر الله وثب ، فإن لها أول نظرة وعليها ما كان بعد ذلك . قال الأوزاعي : وكان غَزَوَان ملك نفسه فلم يضحك حتى مات رضى الله عنه . وفي صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة القُبَاءة ؛ فأمرني أن أصرف بصري . وهذا يقوى قول من يقول : إن « من » للتبويض ؛ لأن النظرة الأولى لا تُملِكُ فلا تدخل تحت خطاب تكليف ، إذ وقوعها لا يتأتى أن يكون مقصودا ، فلا تكون مكتسبة فلا يكون مكافا بها ؛ فوجب التبويض لذلك ، ولم يقل ذلك في الفرج ؛ لأنها تُملِكُ . ولقد كره الشعبي أن يُدِيمَ الرجل النظر إلى أخته أو أمه أو أخته ؛ وزمانه خير من زماننا هذا !! وحرام على الرجل أن ينظر إلى ذات محزمة نظر شهوة يردها .

الرابعة - قوله تعالى : ( وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ) أى يستروها عن أن يراها من لا يحل . وقيل : « ويحفظوا فروجهم » أى عن الزنى ؛ وعلى هذا القول لو قال : « من فروجهم » لجاز . والصحيح أن الجميع مراد واللفظ عام . وروى بهز بن حكيم بن معاوية القشيريّ عن أبيه عن جده قال : قلت يا رسول الله ، عوراتنا ما نأبئ منها وما ندر ؟ قال : " احفظ

(١) نفرت العين وغيرها من الأعضاء تنفّر نفورا : هاجت وولدت .



عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك “ . قال : الرجل يكون مع الرجل ؟ قال :  
 ” إن استطعت ألا يراها فافعل “ . قلت : فالرجل يكون خالياً ؟ فقال : ” الله أحق أن  
 يُستحيا منه من الناس “ . وقد ذكرت عائشة رضى الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 وحالها معه فقالت : ما رأيت ذلك منه ، ولا رأى ذلك منى .

الخامسة — بهذه الآية حرم العلماء نصاً دخول الحمام بغير ميتر . وقد روى عن  
 ابن عمر أنه قال : أطيب ما أنفق الرجل درهم يعطيه للحمام في خلوة . وصح عن ابن عباس أنه  
 دخل الحمام وهو مُحَرَّم بالمحفة . فدخوله جائز للرجال بالمآزر ، وكذلك النساء للضرورة كغسلهن  
 من الحيض أو النفاس أو مرض يلحقهن ؛ والأولَى بهن والأفضَلُ لهن غسلهن إن أمكن  
 ذلك في بيوتهن ، فقد روى أحمد بن محمد بن منيع حدثنا الحسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا  
 زَبَّان عن سهل بن معاذ عن أبيه عن أم الدرداء أنه سمعها تقول : لَقِيتُ رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم وقد خرجت من الحمام فقال : ” من أين يا أم الدرداء “ ؟ فقالت من الحمام ؛  
 فقال : ” والذي نفسى بيده ما من امرأة تضع ثيابها في غير بيت أحد من أمهاتها إلا وهى  
 هاتكة كل ستر بينها وبين الرحمن عز وجل “ . وخرج أبو بكر البزار عن طاوس عن ابن عباس  
 رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” احذروا بيتنا يقال له الحمام “ . قالوا :  
 يا رسول الله ، ينقى الوسخ ؟ قال : ” فاستروا “ . قال أبو محمد عبد الحق : هذا أصح إسناد  
 حديث في هذا الباب ؛ على أن الناس يرسلونه عن طاوس ، وأما ما خرجه أبو داود في هذا  
 من الحظر والإباحة فلا يصح منه شيء لضعف الأسانيد ؛ وكذلك ما خرجه الترمذى .

قلت : أما دخول الحمام في هذه الأزمان فحرام على أهل الفضل والدين ؛ لغلبة الجهل  
 على الناس واستسهاهم إذا توسطوا الحمام رمى مآزرهم ، حتى يرى الرجل البهي ذو الشيبة قائماً  
 منتصباً وسط الحمام وخارجه بادياً عن عورته ضاماً بين نخذه ولا أحد يغير عليه . هذا أمر  
 بين الرجال فكيف من النساء ! لا سيما بالديار المصرية إذ حماماتهم خالية عن المظاهر التى  
 هى عن أعين الناس سواتر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ! .

- السادسة — قال العلماء : فإن استر فليدخل بعشرة شروط :
- الأول — ألا يدخل إلا بنية التداوى أو بنية التطهير عن الرِّحْضاء <sup>(١)</sup> .
- الثاني — أن يعتمد أوقات الخلو أو قلة الناس .
- الثالث — أن يستر عورته بإزار صفيق .
- الرابع — أن يكون نظره إلى الأرض أو يستقبل الحائط لئلا يقع بصره على محظور .
- الخامس — أن يُغيّر ما يرى من منكربرفق ، يقول : استر سترك الله !
- السادس — إن ذلك أحد لا يمكنه من عورته ، من سرته إلى ركبته إلا امرأته أو جاريته . وقد اختلف في الفخذين هل هما عورة أم لا .
- السابع — أن يدخله بأجرة معلومة بشرط أو بعادة الناس .
- الثامن — أن يصب الماء على قدر الحاجة .
- التاسع — إن لم يقدر على دخوله وحده آتفق مع قوم يحفظون أديانهم على كرائه .
- العاشر — أن يتذكر به جهنم . فإن لم يمكنه ذلك كله فليستتر وليجتهد في غض البصر .
- ذكر الترمذي أبو عبد الله في نواذر الأصول من حديث طاوس عن عبد الله بن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” آتقوا بيتنا يقال له الحمام “ . قيل : يا رسول الله ، إنه يذهب به الوسخ ويذكر النار ، فقال : ” إن كنتم لا بُد فاعلين فأدخلوه مستترين “ . وخرج من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” نعم البيت يدخله الرجل المسلم بيت الحمام — وذلك لأنه إذا دخله سأل الله الجنة وأستعاذ به من النار — وبئس البيت يدخله الرجل بيت العروس “ . وذلك لأنه يرغب في الدنيا وينسيه الآخرة . قال أبو عبد الله : فهذا لأهل الغفلة ، صير الله هذه الدنيا بما فيها سببا للذكر لأهل الغفلة ليدكروا بها آخرتهم ؛ فأما أهل اليقين فقد صارت الآخرة نُصب أعينهم فلا بيت حمام يزعمه ولا بيت عروس

(١) الرِّحْضاء : العرق في أثراحي .

يستفزه، لقد دقت الدنيا بما فيها من الصنفين والضررين في جنب الآخرة، حتى أن جميع نعيم الدنيا في أعينهم كثارة الطعام من مائدة عظيمة، وجميع شدائد الدنيا في أعينهم كتفلة عوقب بها مجرم أو مسيء قد كان استوجب القتل أو الصلب من جميع عقوبات أهل الدنيا.

السابعة - قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي غُضُّ البصر وحفظ الفرج أظهر في الدين وأبعد من دنس الأثام. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ﴾ أي عالم. ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ تهديد ووعيد.

قوله تعالى: وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّبِيعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ إلى قوله ﴿مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ فيه ثلاث وعشرون مسألة:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ﴾ خص الله سبحانه وتعالى الإناث هنا بالخطاب على طريق التأكيد؛ فإن قوله «قل للمؤمنين» يكفي؛ لأنه قول عام يتناول الذكور والإناث من المؤمنين، حسب كل خطاب عام في القرآن. وظهر التضعيف في «يَغْضُضْنَ» ولم يظهر في «يَغْضُوا» لأن لام الفعل من الثاني ساكنة ومن الأول متحركة، وهما في موضع

جزم جواباً . وبدأ بالغَضَّ قبل الفرج لأن البصر رائد للقلب ؛ كما أن الحمى رائد الموت .  
وأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

ألم تر أن العين للقلب رائد \* فما تألف العينان فالقلب آلف

وفي الخبر "النظر سهم من سهام إبليس مسموم فمن غَضَّ بصره أورثه الله الحلاوة في قلبه" .  
وقال مجاهد : إذا أقبلت المرأة جلس الشيطان على رأسها فزيئها لمن ينظر ؛ فإذا أدبرت جلس على عجزها فزيئها لمن ينظر . وعن خالد بن أبي عمران قال . لا تُتَبِعَنَّ النظرة النظرة فربما نظر العبد نظرةً نَغَلْ منها قلبه كما يَنَغَلُ الأديم فلا يُنتَفِعُ به . فأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار عما لا يحل ؛ فلا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة ، ولا المرأة إلى الرجل ؛ فإن علاقتها به كملاقته بها ؛ وقصدها منه كقصده منها . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فالعينان تزنيان وزناهما النظر ..." الحديث . وقال الزهري في النظر إلى التي لم تحض من النساء : لا يصلح النظر إلى شيء منهن ممن يُشْتَمَى النظر إليهن وإن كانت صغيرة . وكره عطاء النظر إلى الجوارى اللاتي يبعن بمكة إلا أن يريد أن يشتري . وفي الصحيحين عنه عليه السلام أنه صرف وجهه الفضل عن الخنعمية حين سأله ، وطَفِقَ الفضل ينظر إليها <sup>(١)</sup> . وقال عليه السلام : "الغيرة من الإيمان والمِذاء من النفاق" . والمِذاء هو أن يجمع الرجل بين النساء والرجال ثم يخلِّمهم بما ذى بعضهم بعضاً ؛ مأخوذ من المَذَى . وقيل : هو إرسال الرجال إلى النساء ؛ من قولهم : مَذَيْتُ الفرس إذا أرسلتها ترعى . وكلّ ذَكَرٍ يَمْذَى ، وكلّ أنثى تَقْذَى ؛ فلا يحلّ لأمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تبدى زيتها إلا لمن تحلّ له ، أو لمن هي محزومة عليه على التأبيد ؛ فهو آمن أن يتحرك طبعه إليها لوقوع اليأس له منها .

(١) النغل (بالتحريك) : الفساد . ونغل الأديم إذا غفر وتهرى في الدباغ فيفسد ويهلك .

(٢) في البخارى : «عن ابن عباس قال : كان الفضل رديف النبي صلى الله عليه وسلم بغايات امرأة من خنعم ، بفعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه ، بفعل النبي صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر ؛ فقالت : إن فرصة الله أدركت أبي شبحاً كبيراً لا يثبت على الراحلة أفأجعه؟ قال نعم » .

الثانية — روى الترمذی عن نَهَان مولى أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها ولیمونة وقد دخل عليها ابن أم مكتوم : ” احتجبا “ فقالتا : إنه أعمى ؛ قال : ” أفعميَا وإن أنما أُلستما تُبصرانه “ . فإن قيل : هذا الحديث لا يصح عند أهل النقل لأن راويه عن أم سلمة نَهَان مولاها وهو ممن لا يحتج بحديثه . وعلى تقدير صحته فإن ذلك منه عليه السلام تغليظ على أزواجه لحرمتن كما غلظ عليهن أمر الحجاب ؛ كما أشار إليه أبو داود وغيره من الأئمة . ويبقى معنى الحديث الصحيح الثابت وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر فاطمة بنت قيس أن تعتد في بيت أم شريك ؛ ثم قال : ” تلك امرأة يغشاها أصحابي آتدي عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك ولا يراك “ . قلنا : قد استدل بعض العلماء بهذا الحديث على أن المرأة يجوز لها أن تطلع من الرجل على ما لا يجوز للرجل أن يطلع من المرأة كالرأس ومعلق القُرْط ؛ وأما العورة فلا . فعلى هذا يكون مخصصا لعموم قوله تعالى : «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن» ، وتكون « من » للتبعض كما هي في الآية قبلها . قال ابن العربي : وإنما أمرها بالانتقال من بيت أم شريك إلى بيت ابن أم مكتوم لأن ذلك أولى بها من بقاءها في بيت أم شريك ؛ إذ كانت أم شريك مؤثرة بكثرة الداخل إليها ، فيكثر الرأى لها ، وفي بيت ابن أم مكتوم لا يراها أحد ؛ فكان إمساك بصرها عنه أقرب من ذلك وأولى ، فرخص لها في ذلك ، والله أعلم .

الثالثة — أمر الله سبحانه وتعالى النساء ألا يبدن زينتهن للناظرين ، إلا ما استثناه من الناظرين في باقي الآية حذارا من الافتتان ، ثم استثنى ما يظهر من الزينة ؛ واختلف الناس في قدر ذلك ؛ فقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب . وزاد ابن جبير الوجه . وقال سعيد بن جبير أيضا وعطاء والأوزاعي : الوجه والكفان والثياب . وقال ابن عباس وقتادة والمُسَوَّر بن مَحْرَمَة : ظاهر الزينة هو الكحل والسوار والحضاب إلى نصف الذراع والقرطة <sup>(١)</sup> والفتخ ؛ ونحو هذا فمباح أن تُبدى المرأة لكل من دخل عليها من الناس . وذكر الطبري عن

(١) الفتخ ( بفتحين جمع الفتحة ) : خواتيم كبار تلبس في الأبدى .

فتادة في معنى نصف الذراع حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر آخر عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عرَّكت<sup>(١)</sup> أن تظهر إلا وجهها ويديها إلى هاهنا “ وقبض على نصف الذراع . قال ابن عطية : ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بالأبتدئ وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه ، أو إصلاح شأن ونحو ذلك . فـ«ما ظهر» على هذا الوجه مما تؤدي إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه . قلت : هذا قول حسن ، إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة وذلك في الصلاة والحج ، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما . يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لها : ” يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا “ وأشار إلى وجهه وكفيه . فهذا أقوى في جانب الاحتياط ؛ وللمراعاة فساد الناس فلا تبدئ المرأة من زينتها إلا ما ظهر من وجهها وكفيها ، والله الموفق لا رب سواه . وقد قال ابن خُوَيزِمَنَدَاد من علمائنا : إن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك ؛ وإن كانت عجوزا أو مُقَبَّحة جاز أن تكشف وجهها وكفيها .

الرابعة — الزينة على قسمين : خَلْقِيَّة ومُكْتَسِبَة ؛ فالخَلْقِيَّة وجهها فإنه أصل الزينة وجمال الخلقة ومعنى الحيوانية ؛ لما فيه من المنافع وطرق العلوم . وأما الزينة المكتسبة فهي ما تحاوله المرأة في تحسين خلقتها ؛ كالثياب والحلي والكحل والحضاب ؛ ومنه قوله تعالى : « خُذُوا زِينَتَكُمْ » . وقال الشاعر :

يأخذن زينتَهُنَّ أحسنَ ما ترى \* وإذا عَظَنَ فهنَّ خير عواطل

الخامسة — من الزينة ظاهر وباطن ؛ فما ظهر فباح أبدا لكل الناس من المحارم والأجانب ؛ وقد ذكرنا ما للعلماء فيه . وأما ما بطن فلا يحل إبدائه إلا لمن سَمَّاهم الله تعالى في هذه

(١) عرَّكت المرأة : حاضت .

الآية ، أو حلّ محلهم . واختلف في السّوار ؛ فقالت عائشة : هي من الزينة الظاهرة لأنها في اليدين . وقال مجاهد : هي من الزينة الباطنة ؛ لأنها خارج عن الكفين وإنما تكون في الذراع . قال ابن العربي : وأما الخضاب فهو من الزينة الباطنة إذا كان في القدمين . السادسة - قوله تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بُحْرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ قرأ الجمهور بسكون اللام التي هي لا مر . وقرأ أبو عمرو في رواية ابن عباس بكسرها على الأصل ؛ لأن الأصل [ في لام ] الأمر الكسر ، وحذفت الكسرة لثقلها ، وإنما تسكينها لتسكين عَضُدٍ وَخَذَ . و « يَضْرِبْنَ » في موضع جزم بالأمر ، إلا أنه بُنِيَ على حالة واحدة إتباعاً لماضي عند سيبويه . وسبب هذه الآية أن النساء كنّ في ذلك الزمان إذا غطين رؤوسهنّ بالأنحره وهي المقانع سَدَنَها من وراء الظهر . قال النقاش : كما يصنع النبط ؛ فيبقى النحر والعنق والأذنان لا ستر على ذلك ؛ فأمر الله تعالى بَلَى الخمار على الجيوب ، وهيئة ذلك أن تضرب المرأة ببحرها على جيبها لتستر صدرها . روى البخاري عن عائشة أنها قالت : رحم الله نساء المهاجرات<sup>(١)</sup> الأوّل ؛ لما نزل « وليضربن بحرهن على جيوبهن » شَقَقْنَ أَزْرَهُنَّ فَأَخْتَمَرْنَ بها . ودخلت على عائشة حفصة بنت أخيها عبد الرحمن رضى الله عنهم وقد اختمرت بشيء يَشِفُّ عن عنقها وما هنا لك ؛ فشقته عليها وقالت : إنما يُضْرَبُ بالكثيف الذي يستر .

السابعة - الخمر : جمع الخمار ، وهو ما تغطى به رأسها ؛ ومنه آختمرت المرأة وتخمّرت ، وهي حَسَنَةُ الخمر . والجيب : جمع الجيب ، وهو موضع القطع من الدرع والقميص ؛ وهو من الجُوب وهو القطع . ومشهور القراءة ضم الجيم من « جيوبهن » . وقرأ بعض الكوفيين بكسرها بسبب الياء ؛ كقراءتهم ذلك في : بيوت وشيوخ . والنحويون القدماء لا يميزون هذه القراءة ويقولون : بيت وبيوت كفّلس وفُلوس . وقال الزجاج : يجوز على أن تبدل من الضمة كسرة ؛ فأما ما روى عن حمزة من الجمع بين الضم والكسر فمحال ، لا يقدر أحد أن ينطق به إلا على الإيماء إلى ما لا يجوز . وقال مقاتل : « على جيوبهن » أى على صدورهن ؛ يعنى على مواضع جيوبهن .

(١) أى النساء المهاجرات . وهو نحو شجر الأراك ؛ أى شجر هو الأراك .

الثامنة - في هذه الآية دليل على أن الجيب إنما يكون في الثوب موضع الصدر . وكذلك كانت الجيوب في ثياب السلف رضوان الله عليهم ؛ على ما يصنعه النساء عندنا بالأندلس وأهل الديار المصرية من الرجال والصبيان وغيرهم . وقد ترجم البخاري رحمه الله تعالى عليه ( باب جيب القميص من عند الصدر وغيره ) وساق حديث أبي هريرة قال : ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرتت أيديهما إلى تذيئهما وتراقيهما ... " الحديث ، وقد تقدم بكأله ، وفيه : قال أبو هريرة : فأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بأصبعيه هكذا في جيبه ؛ فلو رأيت يوسعهما ولا تتوسع . فهذا يبين لك أن جيبه عليه السلام كان في صدره ؛ لأنه لو كان في منكبه لم تكن يده مضمطرة إلى تذيئيه وتراقيه . وهذا استدلال حسن .

التاسعة - قوله تعالى : ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتَيْنِ ﴾ البعل هو الزوج والسيد في كلام العرب ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل : " إذا ولدت الأمة بعلاًها " يعني سيدها ؛ إشارة إلى كثرة السراري بكثرة الفتوحات ، فيأتي الأولاد من الإماء فتعتق كل أم بولدها وكأنه سيدها الذي من عليها بالعتق ، إذ كان العتق حاصلها من سببه ؛ قاله ابن العربي . قلت : ومنه قوله عليه السلام في مارية : " أعتقها ولدها " فنسب العتق إليه . وهذا من أحسن تأويلات هذا الحديث . والله أعلم .

مسألة - فالزوج والسيد يرى الزينة من المرأة وأكثر من الزينة إذ كل محل من بدنها حلال له لذة ونظراً . ولهذا المعنى بدأ بالبعولة ؛ لأن أطلاعهم يقع على أعظم من هذا ، قال الله تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين » . (٣)

العاشرة - اختلف الناس في جواز نظر الرجل إلى فرج المرأة ؛ على قولين : أحدهما - يجوز ؛ لأنه إذا جاز له التلذذ به فالنظر أولى . وقيل : لا يجوز ؛ لقول عائشة

(٢) جواب « لو » محذوف ؛ أي لتعجبت .

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٥٠ .

(٣) راجع ص ١٠٥ من هذا الجزء .



رضى الله عنها في ذكر حالها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيت ذلك منه ولا رأى ذلك مني . والأول أصح ، وهذا محمول على الأدب ؛ قاله ابن العربي . وقد قال أصبغ من علمائنا : يجوز له أن يلحسه بلسانه . وقال ابن خُوَيْرِ مَنَاد : أما الزوج والسيد فيجوز له أن ينظر إلى سائر الجسد وظاهر الفرج دون باطنه . وكذلك المرأة يجوز أن تنظر إلى عورة زوجها ، والأمة إلى عورة سيدها .

قلت : وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” النظر إلى الفرج يورث الطمس “  
أى العمى ، أى فى الناظر . وقيل : إن الولد بينهما يولد أعمى . والله أعلم .

الحادية عشرة — لما ذكر الله تعالى الأزواج وبدأ بهم ثنى بذوى المحارم وسوى بينهم فى إبداء الزينة ، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما فى نفوس البشر . فلا مَرِيَّة أن كشف الأب والأخ على المرأة أحوط من كشف ولد زوجها . وتختلف مراتب ما يُبْدَى لهم ؛ فيبْدَى للأب ما لا يجوز لإبدائه لولد الزوج . وقد ذكر القاضى إسماعيل عن الحسن والحسين رضى الله عنهما أنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين . وقال ابن عباس : إن رؤيتهما لهن تحل . قال إسماعيل : أحسب أن الحسن والحسين ذهبا فى ذلك إلى أن أبناء البُعُولَةِ لم يذكروا فى الآية التى فى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى قوله تعالى : « لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ »<sup>(١)</sup> . وقال فى سورة النور : « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ » الآية . فذهب ابن عباس إلى هذه الآية ، وذهب الحسن والحسين إلى الآية الأخرى .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ يريد ذكور أولاد الأزواج ، ويدخل فيه أولاد الأولاد وإن سفلوا ، من ذكران كانوا أو إناث ؛ كبنى البنين وبنى البنات . وكذلك آباء البعولة والأجداد وإن علوا من جهة الذكران لآباء الآباء وآباء الأمهات ، وكذلك أبناءهن وإن سفلوا . وكذلك أبناء البنات وإن سفلن ؛ فيستوى فيه أولاد البنين وأولاد البنات . وكذلك أخواتهن ، وهم من ولده الآباء والأمهات أو أحد الصنفين . وكذلك بنو الإخوة

(١) آية ٥٥ سورة الأحزاب .

وبنو الأخوات وإن سَفَلُوا من ذُكْرَانٍ كانوا أو إناث كبنى بنى الأخوات وبنى بنات الأخوات . وهذا كله في معنى ما حرم من المناكح ، فإن ذلك على المعانى فى الولادات وهؤلاء محارم ، وقد تقدم فى « النساء » . والجمهور على أن العم والخال كسائر المحارم فى جواز النظر لهما إلى ما يجوز لهم . وليس فى الآية ذكر الرضاع ، وهو كالنسب على ما تقدم . وعند الشعبي وعكرمة ليس العم والخال من المحارم . وقال عكرمة : لم يذكرهما فى الآية لأنهما تبعان لأبنائهما .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ يعنى المسلمات ، ويدخل فى هذا الإماء المؤمنات ، ويخرج منه نساء المشركين من أهل الذمة وغيرهم ؛ فلا يحل لامرأة مؤمنة أن تكشف شيئاً من بدنّها بين يدي امرأة مشركة إلا أن تكون أمة لها ؛ فذلك قوله تعالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ » . وكان ابن جريح وعبادة بن نسي وهشام القاري يكرهون أن تقبل النصرانية المسلمة أو ترى عورتها ؛ ويتأولون « أَوْ نِسَائِهِنَّ » . وقال عبادة بن نسي : كتب عمر رضى الله عنه إلى أبى عبيدة بن الجراح : أنه بلغنى أن نساء أهل الذمة يدخلن الحمامات مع نساء المسلمين ؛ فأمنع من ذلك ، وحلّ دونّه ؛ فإنه لا يجوز أن ترى الذمية عريّة المسلمة . قال : فعند ذلك قام أبو عبيدة وأبتهل وقال : أيما امرأة تدخل الحمام من غير عذر لا تريد إلا أن تبيض وجهها فسود الله وجهها يوم تبيض الوجوه . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يحل للمسلمة أن تراها يهودية أو نصرانية ؛ لثلاث تصفها لزوجها . وفى هذه المسألة خلاف للفقهاء . فإن كانت الكافرة أمةً لمسلمة جاز أن تنظر إلى سيدتها ؛ وأما غيرها فلا ، لا نقطاع الولاية بين أهل الإسلام وأهل الكفر ، ولما ذكرناه . والله أعلم .

الرابعة عشرة - قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ ظاهر الآية يشمل العبيد والإماء المسلمات والكاتبات . وهو قول جماعة من أهل العلم ، وهو الظاهر من مذهب عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما . وقال ابن عباس : لا بأس أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته . وقال أشهب : سئل مالك أتلقى المرأة نهارها بين يدي الحصى ؟ فقال نعم ، إذا كان

(١) راجع ج ٥ ص ١٠٥ وما بعدها (٢) عريّة المرأة : ما يعرى منها وينكشف .

مملوكا لها أو لغيرها ، وأما الحر فلا . وإن كان خلا كبيرا وغداً تملكه ، لا هيئة له ولا منظر فلينظر إلى شعرها . قال أشهب قال مالك : ليس بواسع أن تدخل جارية الولد أو الزوجة على الرجل المرحاض ، قال الله تعالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » . وقال أشهب عن مالك : ينظر الغلام الوغد إلى شعر سيّدته ، ولا أحبه لغلّام الزوج . وقال سعيد بن المسيب : لا تغزّنكم هذه الآية « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ » إنما عني بها الإماء ولم يعن بها العبيد . وكان الشعبي يكره أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته . وهو قول مجاهد وعطاء . وروى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها ، قال : وعلى فاطمة ثوب إذا غطت به رأسها لم يبلغ إلى رجلها ، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ إلى رأسها ؛ فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما تلقى من ذلك قال : « إنه لا بأس عليك إنما هو أبوك وغلّامك » .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ أى غير أولى الحاجة . والإربةُ الحاجة ، يقال : أربت كذا آرب أرباً . والإرب والإربة والمأربة والأرب : الحاجة ، والجمع مأرب ؛ أى حوائج . ومنه قوله تعالى : « وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى » وقد تقدم . وقال طرفة :<sup>(١)</sup>

إذا المرء قال الجهل والحب والحنأ \* تقدّم يوماً ثم ضاعت مأربه

واختلاف الناس فى معنى قوله : « أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ » فقليل : هو الأحمق الذى لا حاجة به إلى النساء . وقيل الأبله . وقيل : الرجل يتبع القوم فياً كل معهم ويرتفق بهم ، وهو ضعيف لا يكثرث للنساء ولا يشتهين . وقيل العنين . وقيل الحصى . وقيل الخنث . وقيل الشيخ الكبير ، والصبي الذى لم يُدرك . وهذا الاختلاف كلّه متقارب المعنى ، ويجتمع فيمن لا فهم له ولا همّة ينتبه بها إلى أمر النساء . وبهذه الصفة كان هيئت الخنث عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع منه ما سمع من وصف محاسن المرأة : بادية بنة غيلان ، أمر بالاحتجاب منه . أخرج حديثه مسلم وأبو داود ومالك فى الموطأ وغيرهم عن

(١) راجع ج ١١ ص ١٨٧ (٢) الحب (بضم الحاء وفتحها) : الإثم . والحنأ : الفحش .

هشام بن عروة عن عروة عن عائشة . قال أبو عمر : ذكر عبد الملك بن حبيب عن حبيب كاتب مالك قال قلت لمالك : إن سفيان زاد في حديث أبنة غيلان : «أن مخنثاً يقال له هيت» وليس في كتابك هيت ؟ فقال مالك : صدق ، هو كذلك وغربه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحمى وهو موضع من ذى الحليفة ذات الشمال من مسجدها . قال حبيب وقلت لمالك : وقال سفيان في الحديث : إذا قعدت تبتت<sup>(١)</sup> ، وإذا تكلمت تغنت . قال مالك : صدق ، هو كذلك . قال أبو عمر : ما ذكره حبيب كاتب مالك عن سفيان أنه قال في الحديث يعنى حديث هشام بن عروة «أن مخنثاً يدعى هيتاً» فغير معروف عند أحد من رواه عن هشام ، لا ابن عينة ولا غيره ، ولم يقل في نسق الحديث «إن مخنثاً يدعى هيتاً» ، وإنما ذكره عن ابن جريج بعد تمام الحديث ، وكذلك قوله عن سفيان أنه يقول في الحديث : إذا قعدت تبتت وإذا تكلمت تغنت ، هذا ما لم يقله سفيان ولا غيره في حديث هشام بن عروة ، وهذا اللفظ لا يوجد إلا من رواية الواقدي ، والعجب أنه يحكيه عن سفيان ويحكي عن مالك أنه كذلك ، فصارت رواية عن مالك ، ولم يروه عن مالك غير حبيب ولا ذكره عن سفيان غيره أيضاً ، والله أعلم . وحبيب كاتب مالك متروك الحديث ضعيف عند جميعهم ، لا يكتب حديثه ولا يلتفت إلى ما يجهل به . ذكر الواقدي والكوفي أن هيتاً المخنث قال لعبد الله بن أمية المخزومي وهو أخو أم سلمة لأبيها وأمه عاتكة عممة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال له وهو في بيت أخته أم سلمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع : إن فتح الله عليكم الطائف فملكك ببادية بنت غيلان بن سلمة الثقفي ، فإنها تقبل بأربع وتُدبر ثمان<sup>(٢)</sup> ، مع ثغر كالأقحوان ، إن جلست تبتت وإن تكلمت تغنت ، بين رجالها كالإناء المكفوء ، وهي كما قال قيس بن الخطيم :

تَفَرَّقَ الطَّرَفَ وَهِيَ لَاهِيَةٌ \* كَأَنَّمَا شَفَّ وَجْهَهَا نَزْفُ<sup>(٣)</sup>

(١) أى صارت كالمنبأة من سمنها وعظها . قال ابن الأنباري : أى فزجت رجلها لضخم ركبها (فرجها) ؛ كأنه شبهها بالقبه من الأدم . (٢) يعنى تقبل بأربع عكن وتدبر ثمان عكن . والعكن والأعكان : ما انطوى وتلنى من لحم البطن سمناً . (٣) يعنى ضخيم ركبها (فرجها) ونهوده كأنه إناء مكبوب . (٤) يقول : من نظر إليها استقرت طرفه وبصره وشغلته عن النظر إلى غيرها ، وهى لاهية غير محتفلة . والنزف (بضم فسكون) ، وحرك هنا لضرورة الشعر) : خروج الدم . وفي شرح ديوان قيس : «أراد أن في لونها مع البياض صفرة ؛ وذلك أحسن» .

بين شُكُول النساءِ خَلَقَتْهُنَّ \* قَصَدٌ فَلَا جَبَلَةٌ وَلَا قَصَفٌ<sup>(١)</sup>  
تَنَامُ عَنْ كُبرِ شَأْنِهَا إِذَا \* قَامَتْ رُوَيْدًا تَكَادُ تَنْقَصُفُ

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " لقد غلغلت النظر إليهما يا عدو الله " . ثم أجلاه عن المدينة إلى الحمى . قال : فلما أفتتحت الطائف تزوجها عبد الرحمن بن عوف فولدت له منه بُرَيْهَةَ ؛ في قول الكلبي . ولم يزل هيت بذلك المكان حتى قبض النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما ولي أبو بكر كُتِبَ فيه نأبى أن يردّه ، فلما ولي عمر كُتِبَ فيه فأبى ، ثم كُتِبَ فيه عثمان بعدُ . وقيل : إنه قد كبر وضعف واحتاج ، فأذن له أن يدخل كل جمعة فيسأل ويرجع إلى مكانه . قال : وكان هيت مولى لعبد الله بن [أبي] أمية المخزومي ، وكان له طُوَيْسٌ<sup>(٢)</sup> أيضا ، فن تمَّ قِيلَ<sup>(٣)</sup> الخَنْث . قال أبو عمر : يقال « بادية » بالياء و « بادنة » بالنون ، والصواب فيه عندهم بالياء ، وهو قول أكثرهم ، وكذلك ذكره الزبيرى بالياء .

السادسة عشرة — وصف التابعين بـ « غير » لأن التابعين غير مقصودين بأعيانهم ، فصار اللفظ كالنكرة . و « غير » لا يتمحض نكرة بجاز أن يجرى وصفا على المعرفة . وإن شئت قلت هو بدل . والقول فيها كالقول في « غير المغضوب عليهم » . وقرأ عاصم وابن عامر « غير » بالنصب فيكون استثناء ؛ أى يبين زينت للتابعين إلا إذا الإربة منهم . ويجوز أن يكون حالا ؛ أى والذين يتبعونهم عاجزين عنهم ؛ قاله أبو حاتم . وذو الحال ماقى « التابعين » من الذكر . السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَوِ الطُّفُلِ ﴾ اسم جنس بمعنى الجمع ، والدليل على ذلك نعتُه بـ « الذين » . وفي مصحف حفصة « أَوِ الأَطْفَالِ » على الجمع . ويقال : طفلٌ ما لم يراهق الحُلُم . و ﴿ يَظْهَرُوا ﴾ معناه يطلعوا بالوطء ؛ أى لم يكشفوا عن عوراتهم للجماع لصغرهن . وقيل : لم يبلغوا أن يطبقوا النساء ؛ يقال : ظهرت على كذا أى علمته ، وظهرت

(١) الشُّكُول : الضروب . وقصد : ليست بالجسيمة ولا النحيقة . والجَبَلَةُ : الغليظة ؛ من جبل ( كفرج ) فهو جَبَلٌ وجَبِلٌ . والقَصَف : الدقة وقلة اللحم . (٢) طُوَيْسٌ لقب غلب عليه ، واسمه عيسى بن عبد الله ، مولى بنى مخزوم ، وهو أول من غنى بالعربى بالمدينة ، وأول من ألقى الخنث بها . ( راجع ترجمته في الأغاني ج ٣ ص ٢٧ طبع دار الكتب المصرية ) . (٣) في الأصول : « قيل الخنث » والتصويب عن الأغاني .

على كذا أى قهرته . والجمهور على سكون الواو من « عورات » لاستثقال الحركة على الواو . وروى عن ابن عباس فتح الواو؛ مثل جَفَنَة وجَفَنَات . وحكى الفراء أنها لغة قيس « عورات » [بفتح] الواو . النحاس : وهذا هو القياس ؛ لأنه ليس بنعت ، كما تقول : جفنة وجففات ؛ إلا أن التسكين أجود في « عورات » وأشبهاهه ، لأن الواو إذا تحزكت وتحرك ما قبلها قُلبت ألفاً ؛ فلو قيل هذا لذهب المعنى .

الثامنة عشرة — اختلف العلماء في وجوب ستر ما سوى الوجه والكفين منه على قولين : أحدهما — لا يلزم ؛ لأنه لا تكليف عليه ، وهو الصحيح . والآخر — يلزمه ؛ لأنه قد يشتهى وقد تشتهى أيضاً ؛ فإن راهق فحكه حكم البالغ في وجوب السّتر . ومثله الشيخ الذى سقطت شهوته ؛ اختلف فيه أيضاً على قولين كما فى الصّبي ، والصحيح بقاء الحرمة ؛ قاله ابن العربى . التاسعة عشرة — أجمع المسلمون على أن السّوءتين عورة من الرجل والمرأة ، وأن المرأة كلّها عورة ، إلا وجهها ويديها فإنهم اختلفوا فيهما . وقال أكثر العلماء فى الرجل : من سرته إلى ركبته عورة ؛ لا يجوز أن تُرى ، وقد مضى فى « الأعراف » <sup>(١)</sup> القول فى هذا مستوفى . المؤلفية عشرين — قال أصحاب الرأى : عورة المرأة مع عبدها من السّرة إلى الركبة . ابن العربى : وكأنهم ظنّوها رجالاً أو ظنّوه امرأة ، والله تعالى قد حرّم المرأة على الإطلاق لنظر أولده ، ثم آستنى اللذة للأزواج ومِلْك اليمين ، ثم آستنى الزينة لآئنى عشر شخصاً العبد منهم ، فما لنا ولذلك ! هذا نظر فاسد واجتهاد عن السداد متباعد . وقد تأول بعض الناس قوله « أو ما ملكت أيمانهنّ » على الإمام دون العبيد ؛ منهم سعيد بن المسيّب : فكيف يحملون على العبيد ثم يلحقون بالنساء ، هذا بعيد جداً ! وقد قيل : إن التقدير أو ما ملكت أيمانهنّ من غير أولى الإربة أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ؛ حكاه المهدوى .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبَنَّ بِالْأَيْدِيَّ ﴾ الآية ؛ أى لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت لتسمع صوت خآخلها ؛ فإسماع صوت الزينة كإبداء الزينة وأشدّ ،

والفرض التستر . أسند الطبري عن المعتمر عن أبيه أنه قال : زعم حضرمي أن امرأة اتخذت برتين<sup>(١)</sup> من فضة واتخذت جزعا<sup>(٢)</sup> فجعلت في ساقها فترت على القوم فضربت برجلها الأرض فوق الخلخال على الجزع فصوت ؛ فترت هذه الآية . وسماع هذه الزينة أشد تحريكا للشهوة من إبدائها ؛ قاله الزجاج .

الثانية والعشرون — من فعل ذلك ممن فرحا بحليهن فهو مكروه . ومن فعل ذلك ممن تبرجا وتعرضا للرجال فهو حرام مذموم . وكذلك من ضرب بنعله من الرجال ، إن فعل ذلك تعجبا حرم ، فإن العجب كبيرة . وإن فعل ذلك تبرجا لم يجر .

الثالثة والعشرون — قال مكي رحمه الله تعالى : ليس في كتاب الله تعالى آية أكثر ضمائر من هذه ، جمعت خمسة وعشرين ضميرا للؤمنات من مخفوض ومرفوع .

قوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فيه مسألان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا ﴾ أمر<sup>(٣)</sup> . ولا خلاف بين الأئمة في وجوب التوبة ، وأنها فرض متعين ؛ وقد مضى الكلام فيها في « النساء » وغيرها فلا معنى لإعادة ذلك . والمعنى : وتوبوا إلى الله فإنكم لا تخلون من سهو وتقصير في أداء حقوق الله تعالى ، فلا تركوا التوبة في كل حال .

الثانية — قرأ الجمهور « آية » بفتح الهاء . وقرأ ابن عامر بضمها ؛ ووجهه أن تجعل الهاء من نفس الكلمة ، فيكون إعراب المنادى فيها . وضعف أبو علي ذلك جدا وقال : آخر الاسم هو الياء الثانية من أي ، فالمضموم ينبغي أن يكون آخر الاسم ، ولو جاز ضم الهاء هاهنا لأقترانها بالكلمة لجاز ضم الميم في « اللهم » لأقترانها بالكلمة في كلام طويل . والصحيح أنه إذا ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم قراءة فليس إلا اعتقاد الصحة في اللغة ، فإن القرآن هو الحجة . وأنشد الفراء :

يَايَهُ الْقَلْبُ الْجُجُ النَّفْسُ \* أَفَقَ عَنِ الْبَيْضِ الْحَسَانُ اللَّعْسُ

(١) البرة : الخلخال ، وكل حلقة من سوار وقرط . (٢) الجزع ( بفتح الجيم ) ضرب من الخرز .

(٣) راجع ج ٥ ص ٩٠

اللَّعْس : لون الشَّفَّة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلا ، وذلك يستملح ؛ يقال : شَفَّة لعساء ، وَفْتِيَّة ونِسوة لُعْس . وبعضهم يقف « آيَه » . وبعضهم يقف « آيها » بالألف ؛ لأن علة حذفها في الوصل إنما هو سكونها وسكون اللام ، فإذا كان الوقف ذهبت العلة فرجعت الألف كما ترجع الياء إذا وقفت على « مُحَلَّى » من قوله تعالى : « غَيْرَ مُحَلَّى الصَّيْدِ »<sup>(١)</sup> . وهذا الاختلاف الذي ذكرناه كذلك هو في « يَأَيَه الساحر » . « يَأَيَه الثقلان » .

قوله تعالى : وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾  
فيه سبع مسائل :

الأولى — هذه المخاطبة تدخل في باب الستر والصلاح ؛ أى زوّجوا من لا زوج له منكم فإنه طريق التعفف ؛ والمخاطب للأولياء . وقيل للأزواج . والصحيح الأول ؛ إذ لو أراد الأزواج لقال « وَأَنْكِحُوا » بغير همز ، وكانت الألف للوصل . وفي هذا دليل على أن المرأة ليس لها أن تنكح نفسها بغير ولي ؛ وهو قول أكثر العلماء . وقال أبو حنيفة : إذا زوّجت الثيب أو البكر نفسها بغير ولي كُفِّها لها جاز . وقد مضى هذا في « البقرة » مستوفى .

الثانية — اختلف العلماء في هذا الأمر على ثلاثة أقوال ؛ فقال علماؤنا : يختلف الحكم في ذلك باختلاف حال المؤمن من خوف العنت ، ومن عدم صبره ، ومن قوته على الصبر وزوال خشية العنت عنه . وإذا خاف الهلاك في الدين أو الدنيا أو فيهما فالنكاح حتم . وإن لم يخش شيئا وكانت الحال مطلقة فقال الشافعي : النكاح مباح . وقال مالك وأبو حنيفة : هو مستحب . تعلق الشافعي بأنه قضاء لذة فكان مباحا كالأكل والشرب . وتعلق علماؤنا بالحديث الصحيح : « مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ الْأَيَامَى مِنْكُمْ ﴾ أى الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء ؛ واحدهم أَيْم . قال أبو عمرو : أَيْمى مقلوب أَيْامى . واتفق أهل اللغة على أن الأيم في الأصل



هي المرأة التي لا زوج لها ، بكرًا كانت أو ثيبًا ؛ حكى ذلك أبو عمرو والكسائي وغيرهما . تقول العرب : تأيمت المرأة إذا أقامت لا تتزوج . وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم : ” أنا وأمراة<sup>(١)</sup> سَفَاء الخلدن تأيمت على ولدها الصغار حتى يبلغوا أو يغنيهم الله من فضله كهاتين في الجنة “ . وقال الشاعر :

فإن تنكحني أنكح وإن نتأيتي \* وإن كنت أفتى منكم أنايم

ويقال : أيم بين الأئمة . وقد آمت هي ، وإمت أنا . قال الشاعر :

لقد إمت حتى لأمي كل صاحب \* رجاء بسلمى أن تليم كما إمت

قال أبو عبيد : يقال رجل أيم وأمراة أيم ؛ وأكثر ما يكون ذلك في النساء ، وهو كالمستعار في الرجال . وقال أُمَيَّة بن أبي الصَّلت :

لله در بني عيسى أيم منهم وناح

وقال قوم : هذه الآية ناسخة لحكم قوله تعالى : « وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » . وقد بيناه في أول السورة والحمد لله .

الرابعة — المقصود من قوله تعالى : « وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ » الحرائر والأحرار ؛ ثم بين حكم المالك فقال « وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ » . وقرأ الحسن « وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبِيدِكُمْ » ، وعبيد اسم للجمع . قال الفراء : ويجوز « وإماءكم » بالنصب ، يرده على « الصالحين » يعني الذكور والإناث ؛ والصالح الإيمان . وقيل : المعنى ينبغي أن تكون الرغبة في تزويج الإماء والعبيد إذا كانوا صالحين فيجوز تزويجهم ، ولكن لا ترغب فيه ولا استعجاب ؛ كما قال « فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا » . ثم قد تجوز الكتابة وإن لم يعلم أن في العبد خيرا ، ولكن الخطاب ورد في الترغيب والاستعجاب ، وإنما يستحب كتابة من فيه خير .

الخامسة — أكثر العلماء على أن للسيد أن يكره عبده وأمته على النكاح ؛ وهو قول مالك وأبي حنيفة وغيرهما . قال مالك : ولا يجوز ذلك إذا كان ضررا . وروى نحوه عن

(١) السفح : السواد والشحوب . أراد أنها بذلت نفسها وتركزت الزينة والترفة حتى شحب لونها واسود إقامته على ولدها بعد وفاة زوجها . (٢) راجع ص ١٦٧ من هذا الجزء .

الشافعي، ثم قال : ليس للسيد أن يكره العبد على النكاح . وقال النخعي : كانوا يكرهون المالك على النكاح ويغلقون عليهم الأبواب . تمسك أصحاب الشافعي فقالوا : العبد مكلف فلا يجبر على النكاح ؛ لأن التكليف يدل على أن العبد كامل من جهة الآدمية ، وإنما تتعلق به المملوكية فيما كان حظا للسيد من ملك الرقبة والمنفعة ، بخلاف الأمة فإنه له حق المملوكية في بضعها ليستوفيه ؛ فأما بضع العبد فلا حق له فيه ، ولأجل ذلك لا تباح السيدة لعبدها . هذه عمدة أهل خراسان والعراق ، وعمدتهم أيضا الطلاق ، فإنه يملكه العبد بملك عقده . ولعلمائنا النكتة العظمى في أن مالكية العبد استغرقتها مالكية السيد ؛ ولذلك لا يتزوج إلا بإذنه بإجماع . والنكاح وبأبه إنما هو من المصالح ، ومصلحة العبد موكولة إلى السيد ، هو يراها ويقيمها للعبد .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ رجع الكلام إلى الأحرار ؛ أي لا تمتنعوا عن التزويج بسبب فقر الرجل والمرأة ؛ « إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » . وهذا وعدٌ بالغنى للزوجين طلب رضا الله واعتصاما من معاصيه . وقال ابن مسعود : التمسوا الغنى في النكاح ؛ وتلا هذه الآية . وقال عمر رضي الله عنه : عَجَبِي مَنْ لَا يَطْلُبُ الْغِنَى فِي النِّكَاحِ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى « إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » . وروى هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا . ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُ الْمَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالنَّاحِ يَرِيدُ الْعَفَافَ وَالْمَكَاتِبُ يَرِيدُ الْأَدَاءَ " . أخرجه ابن ماجه في سننه . فإن قيل : فقد نجد الناح لا يستغنى ؛ قلنا : لا يلزم أن يكون هذا على الدوام ، بل لو كان في لحظة واحدة لصدق الوعد . وقد قيل : يغنيه ؛ أي يغني النفس . وفي الصحيح " لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ " . وقد قيل : ليس وعد لا يقع فيه خُلف ؛ بل المعنى أن المال غادٍ ورَائِحٌ ، فَأَرْجُوا الْغِنَى . وقيل : المعنى يغنيهم الله من فضله إِنْ شَاءَ ؛ كقوله تعالى :

(١) العرض (بالتحريك) : مناع الدنيا وحطامها

« فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ <sup>(١)</sup> إِنْ شَاءَ » ، وقال تعالى : « يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ » . وقيل : المعنى إن يكونوا فقراء إلى النكاح يُغْنِيَهُمُ الله بالحلال ليتعففوا عن الزنى .

السابعة — هذه الآية دليل على تزويج الفقير، ولا يقول كيف أتزوج وليس لى مال؛ فإن رزقه على الله . وقد زوج النبي صلى الله عليه وسلم المرأة التي أتته تهب له نفسها لمن ليس له إلا إزار واحد، وليس لها بعد ذلك فسخ النكاح بالإعسار لأنها دخلت عليه؛ وإنما يكون ذلك إذا دخلت على اليسار نخرج معسرا، أو طرأ الإعسار بعد ذلك لأن الجوع لا صبر عليه؛ قاله علماؤنا . وقال النقاش : هذه الآية حجة على من قال : إن القاضى يفرق بين الزوجين إذا كان الزوج فقيرا لا يقدر على النفقة؛ لأن الله تعالى قال « يُغْنِيَهُمُ الله » ولم يقل يفرق . وهذا انتزاع ضعيف، وليس هذه الآية حكما فيمن عجز عن النفقة، وإنما هي وعد بالإغناء لمن تزوج فقيرا . فأما من تزوج موسرا وأعسر بالنفقة فإنه يفرق بينهما؛ قال الله تعالى : « وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ <sup>(٢)</sup> اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ » . ونفحات الله تعالى مأمولة في كل حال موعود بها .

قوله تعالى : وَلَيْسَتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۚ وَءَاتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِغْيَاءِ ۚ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحْصِنَا لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ( وَلَيْسَتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ) فيه أربع مسائل :

(١) آية ٤١ سورة الأنعام . (٢) آية ١٣٠ سورة النساء .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتَعَفِيفَ الَّذِينَ ﴾ الخطاب لمن يملك أمر نفسه ، لا لمن زمامه بيد غيره فإنه يقوده إلى ما يراه ؛ كالمحجور — قولاً واحداً — والأمة والعبد ؛ على أحد قولى العلماء .

الثانية — « وأستعفف » وزنه استفعل ؛ ومعناه طلب أن يكون عفيفاً ؛ فأمر الله تعالى بهذه الآية كل من تعذر عليه النكاح ولا يجده بأى وجه تعذر أن يستعفف . ثم لما كان أغلب الموانع على النكاح عدم المال وعد بالإغناء من فضله ؛ فيرزقه ما يتزوج به ، أو يجد امرأة ترضى باليسير من الصداق ، أو تزول عنه شهوة النساء . وروى النسائي عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” ثلاثة كلهم حق على الله عز وجل عونهم المجاهد في سبيل الله والناكح الذى يريد العفاف والمكاتب الذى يريد الأداء “ .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ أى طول نكاح ؛ لحذف المضاف . وقيل : النكاح هاهنا ما تنكح به المرأة من المهر والنفقة ؛ كاللحاف اسم لما يلتحف به . واللباس اسم لما يلبس ؛ فعلى هذا لا حذف فى الآية ، قاله جماعة من المفسرين ؛ وحملهم على هذا قوله تعالى : « حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » فظنوا أن المأمور بالاستعفاف إنما هو من عدم المال الذى يتزوج به . وفى هذا القول تخصيص المأمورين بالاستعفاف ؛ وذلك ضعيف ، بل الأمر بالاستعفاف متوجه لكل من تعذر عليه النكاح بأى وجه تعذر ، كما قدمناه ، والله تعالى أعلم .

الرابعة — من تافت نفسه إلى النكاح فإن وجد الطول فالمستحب له أن يتزوج ، وإن لم يجد الطول فعليه بالاستعفاف ما أمكن ولو بالصوم فإن الصوم له وجاء ؛ كما جاء فى الخبر الصحيح . ومن لم تنق نفسه إلى النكاح فالأولى له التخلل لعبادة الله تعالى . وفى الخبر ” خيركم الخفيف الحاذ الذى لا أهل له ولا ولد “ . وقد تقدم جواز نكاح الإماء عند عدم الطول للمرأة<sup>(١)</sup> فى « النساء » والحمد لله . ولما لم يجعل الله له من العفة والنكاح درجة دلت على أن ما عداها

(١) راجع ج ٥ ص ١٣٦ وما بعدها .

محترم، ولا يدخل فيه ملك اليمين؛ لأنه بنص آخر مباح، وهو قوله تعالى: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» بفاءت فيه زيادة، ويبقى على التحريم الاستثناء رداً على أحمد<sup>(١)</sup>. وكذلك يخرج عنه نكاح المتعة بنسخه، وقد تقدم هذا في «المؤمنين»<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فيه ست عشرة مسألة:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ﴾ «الذين» في موضع رفع. وعند الخليل وسيبويه في موضع نصب على إضمار فعل؛ لأن بعده أمراً. ولما جرى ذكر العبيد والإماء فيما سبق وصل به أن العبد إن طلب الكتاب فالمستحب كتابته؛ فربما يقصد بالكتابة أن يستقل ويكتسب ويتزوج إذا أراد، فيكون أعف له. قيل: نزلت في غلام لحويطب ابن عبد العزى يقال له صبح — وقيل صبيح — طلب من مولاه أن يكتبه فأبى؛ فانزل الله تعالى هذه الآية، فكتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين ديناراً فأذاها، وقيل بـمُحَنِّين في الحرب؛ ذكر القشيري وحكاها النقاش. وقال مكِّي: هو صبيح القبطي غلام حاطب بن أبي بلتعة. وعلى الجملة فإن الله تعالى أمر المؤمنين كافة أن يكتب منهم كل من له مملوك وطلب المملوك الكتابة وعلم سيده منه خيراً.

الثانية — الكتاب والمكتبة سواء؛ مفاعلة مما لا تكون إلا بين اثنين، لأنها معاقدة بين السيد وعنده؛ يقال: كاتب يكتب كتاباً ومكتبة، كما يقال: قاتل قتالاً ومقاتلة. فالكتاب في الآية مصدر كالقتال والجلاد والدفاع. وقيل: الكتاب هاهنا هو الكتاب المعروف الذي يكتب فيه الشيء؛ وذلك أنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتاباً. فالمعنى يطلبون العتق الذي يكتب به الكتاب فيدفع إليهم.

الثالثة — معنى المكتبة في الشرع: هو أن يكتب الرجل عبده على مال يؤديه مُنْجَاً عليه؛ فإذا أذاه فهو حر. ولها حالتان: الأولى — أن يطلبها العبد ويُجيبه السيد؛ فهذا

(١) راجع ص ١٠٥ وما بعدها من هذا الجزء.

مطلق الآية وظاهرها . الثانية — أن يطلبها العبد ويأبأها السيد؛ وفيها قولان : الأول لعكرمة وعطاء ومسروق وعمرو بن دينار والضحاك بن مزاحم وجماعة أهل الظاهر أن ذلك واجب على السيد . وقال علماء الأمصار : لا يجب ذلك . وتعلق من أوجبها بمطلق الأمر ، وأفعل بمطلقه على الوجوب حتى يأتي الدليل بغيره . وروى ذلك عن عمر بن الخطاب وابن عباس ، واختاره الطبري . واحتج داود أيضا بأن سيرين أبا محمد بن سيرين سأل أنس بن مالك الكتابة وهو مولاه فأبى أنس ؛ فرفع عمر عليه الدرة ، وتلا « فكتبوهم إن علمتم فيهم خيرا » ، فكتبه أنس . قال داود : وما كان عمر ليرفع الدرة على أنس فيما له مباح ألا يفعله . وتمسك الجمهور بأن الإجماع منعقد على أنه لو سأل أن يبيعه من غيره لم يلزمه ذلك ، ولم يجبر عليه وإن ضوعف له في الثمن . وكذلك لو قال له أعتقني أو دبّرني أو زوجني لم يلزمه ذلك بإجماع ، فكذلك الكتابة ؛ لأنها معاوضة فلا تصح إلا عن تراض . وقولهم : مطلق الأمر يقتضي الوجوب صحيح ، لكن إذا عيرى عن قرينة تقتضي صرفه عن الوجوب ، وتعليقه هنا بشرط علم الخير فيه ؛ فعلق الوجوب على أمر باطن وهو علم السيد بالخيرية . وإذا قال العبد : كاتبنني ؛ وقال السيد : لم أعلم فيك خيرا ؛ وهو أمر باطن ، فيرجع فيه إليه ويعول عليه . وهذا قوى في بابه .

الرابعة — واختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ خَيْرًا ﴾ فقال ابن عباس وعطاء : المال . مجاهد : المال والأداء . الحسن والنخعي : الدين والأمانة . وقال مالك : سمعت بعض أهل العلم يقولون هو القوة على الاكتساب والأداء . وعن الليث نحوه ، وهو قول الشافعي . وقال عبيدة السلماني : إقامة الصلاة والخير . قال الطحاوي : وقول من قال إنه المال لا يصح عندنا ؛ لأن العبد مال لمولاه ، فكيف يكون له مال . والمعنى عندنا : إن علمتم فيهم الدين والصدق ، وعلمتم أنهم يعاملونكم على أنهم متعبدون بالوفاء لكم بما عليهم من الكتابة والصدق في المعاملة فكتبوهم . وقال أبو عمر : من لم يقل إن الخير هنا المال أنكر أن يقال إن علمتم فيهم مالا ، وإنما يقال : علمت فيه الخير والصالح والأمانة ؛ ولا يقال : علمت فيه المال ، وإنما يقال علمت عنده المال .

قلت : وحديث بريرة يرد قول من قال : إن الخير المال ؛ على ما يأتي .

الخامسة — اختلف العلماء في كتابة من لا حرفة له ؛ فكان ابن عمر يكره أن يكتب عبده إذا لم تكن له حرفة ، ويقول : أنا أمرني أن آكل أوساخ الناس ؛ ونحوه عن سلمان الفارسي . وروى حكيم بن حزام قال : كتب عمر بن الخطاب إلى عُمير بن سعد : أما بعد ! فإنه من قبلك من المسلمين أن يكتبوا أرقاءهم على مسألة الناس . وكرهه الأوزاعي وأحمد وإسحاق . ورخص في ذلك مالك وأبو حنيفة والشافعي . وروى عن علي رضي الله عنه أن ابن التياح مؤذنه قال له : أكتب وليس لي مال ؟ قال نعم ؛ ثم حض الناس على الصدقة علي ؛ فأعطوني ما فضل عن مكاتبتني ، فاتيت علياً فقال : اجعلها في الرقاب . وقد روى عن مالك كراهة ذلك ، وأن الأمة التي لا حرفة لها يكره مكاتبتها لما يؤدي إليه من فسادها . والحجة في السنة لا فيما خالفها . روى الأئمة عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت علي بريرة فقالت : إن أهلي كاتبوني على تسع أواق في تسع سنين ، كل سنة أوقية ، فأعينيني ... الحديث . فهذا دليل على أن للسيد أن يكتب عبده وهو لا شيء معه ؛ ألا ترى أن بريرة جاءت عائشة تخبرها بأنها كاتبت أهلها وسألها أن تعينها ، وذلك كان في أول كتابتها قبل أن تؤدي منها شيئاً ؛ كذلك ذكره ابن شهاب عن عروة أن عائشة أخبرته أن بريرة جاءت تستعينها في كتابتها ولم تكن قضت من كتابتها شيئاً ؛ أخرجه البخاري وأبو داود . وفي هذا دليل على جواز كتابة الأمة ، وهي غير ذات صنعة ولا حرفة ولا مال ، ولم يسأل النبي صلى الله عليه وسلم هل لها كسب أو عمل واصب<sup>(١)</sup> أو مال ، ولو كان هذا واجبا لسأل عنه ليقع حكمه عليه ؛ لأنه بعث مبيناً معلماً صلى الله عليه وسلم . وفي هذا الحديث ما يدل على أن من تأول في قوله تعالى : « إن علمتم فيهم خيراً » أن المال الخير ، ليس بالتأويل الجيد ، وأن الخير المذكور هو القوة على الاكتساب مع الأمانة . والله أعلم .

السادسة — الكتابة تكون بقليل المال وكثيره ، وتكون على أنجم ؛ لحديث بريرة . وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء والحمد لله . فلو كاتبه على ألف درهم ولم يذكر أجلاً نُجِمَتْ

(١) وصب الشيء : دام .

عليه بقدر سعيته وإن كره السيد . قال الشافعي : لا بُدَّ فيها من أجل ؛ وأقلها ثلاثة أنجم .  
واختلفوا إذا وقعت على نجم واحد فأكثر أهل العلم يميزونها على نجم واحد . وقال الشافعي :  
لا تجوز على نجم واحد ، ولا تجوز حالةً ألبتةً ، وإنما ذلك عتق على صفة ؛ كأنه قال : إذا  
أديت كذا وكذا فأنت حر وليست كتابة . قال ابن العربي : اختلف العلماء والسلف في الكتابة  
إذا كانت حالة على قولين ، واختلف قول علمائنا باختلافهم . والصحيح في النظر أن الكتابة  
مؤجلة ؛ كما ورد بها الأثر في حديث بريرة حين كاتبت أهلها على تسع أواق في كل عام أوقية<sup>(١)</sup> ،  
وكما فعلت الصحابة ؛ ولذلك سُميت كتابة لأنها تُكتب ويُشهد عليها ، فقد استوسق الاسم  
والأثر . وعَصَدَه المعنى ؛ فإن المال إن جعله حالاً وكان عند العبد شيء فهو مال مقاطعة  
وعقد مقاطعة لا عقد كتابة . وقال ابن خُوَيزِ مَنَدَاد : إذا كاتبه على مال معجل كان عتقا  
على مال ، ولم تكن كتابة . وأجاز غيره من أصحابنا الكتابة الحالة وسماها مقاطعة ، وهو القياس ؛  
لأن الأجل فيها إنما هو فسحة للعبد في التكسب . ألا ترى أنه لو جاء بالمنجم عليه قبل محله  
لوجب على السيد أن يأخذه ويتعجل للكاتبة عتقه . وتجوز الكتابة الحالة ؛ قاله الكوفيون .  
قلت : لم يرد عن مالك نص في الكتابة الحالة ؛ والأصحاب يقولون : إنها جائزة ،  
ويسمونها مقاطعة . وأما قول الشافعي إنها لا تجوز على أقل من ثلاثة أنجم فليس بصحيح ؛  
لأنه لو كان صحيحا لحاز لغيره أن يقول : لا يجوز على أقل من خمسة نجوم ؛ لأنها أقل النجوم  
التي كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في بريرة ، وعلم بها النبي صلى الله عليه وسلم  
وقضى فيها ، فكان بصواب الحجة أولى . روى البخاري عن عائشة أن بريرة دخلت عليها  
تستعينها في كتابتها وعليها خمسة أواق نُجِّتَ عليها في خمس سنين ... الحديث . كذا قال الليث  
عن يونس عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة : وعليها خمسة أواق نُجِّتَ عليها في خمس  
سنين . وقال أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت :  
جاءت بريرة فقالت : إني كاتبت أهلي على تسع أواق ... الحديث . وظاهر الروايتين

(١) استوسق : اجتمع .



تعارض، غير أن حديث هشام أولى لاتصاله وانقطاع حديث يونس؛ لقول البخاري : وقال الليث حدثني يونس؛ ولأن هشاماً أثبت في حديث أبيه وجده من غيره، والله أعلم .

السابعة — المكاتب عبدٌ ما بقي عليه من مال الكتابة شيء؛ لقوله عليه السلام :  
 ”المكاتب عبد ما بقي عليه من مكاتبته درهم“ . أخرجه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . وروى عنه أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”أيُّما عبدٍ كاتب على مائة دينار فأذاها إلا عشرة دنانير فهو عبد“ . وهذا قول مالك والشافعي وأبي حنيفة وأصحابهم والثوري وأحمد وإسحاق وأبي ثور وداود والطبري . وروى ذلك عن ابن عمر من وجوه، وعن زيد بن ثابت وعائشة وأم سلمة ، لم يختلف عنهم في ذلك رضى الله عنهم . وروى ذلك عن عمر بن الخطاب ، وبه قال ابن المسيب والقاسم وسالم وعطاء . قال مالك : وكل من أدركنا ببلدنا يقول ذلك . وفيها قول آخر روى عن علي أنه إذا أدى الشطر فهو غريم ؛ وبه قال النخعي . وروى ذلك عن عمر رضى الله عنه ، والإسناد عنه بأن المكاتب عبد ما بقي عليه درهم ، خيرٌ من الإسناد عنه بأن المكاتب إذا أدى الشطر فلا رقّ عليه ؛ قاله أبو عمر . وعن علي أيضاً يعتق منه بقدر ما أدى . وعنه أيضاً أن العتاقة تجري فيه بأقل نجم يؤديه . وقال ابن مسعود : إذا أدى ثلث الكتابة فهو عتيق غريم ؛ وهذا قول شريح . وعن ابن مسعود : لو كانت الكتابة مائتي دينار وقيمة العبد مائة دينار فأدى العبد المائة التي هي قيمته عتيق ؛ وهو قول النخعي أيضاً . وقول سابع — إذا أدى الثلاثة الأربع وبقى الربع فهو غريم ولا يعود عبداً ؛ قاله عطاء بن أبي رباح ، رواه ابن جريح عنه . وحكى عن بعض السلف أنه بنفس عقد الكتابة حرّ، وهو غريم بالكتابة ولا يرجع إلى الرق أبداً . وهذا القول يردّه حديث بريرة لصحته عن النبي صلى الله عليه وسلم . وفيه دليل واضح على أن المكاتب عبد ، ولولا ذلك ما بيعت بريرة ، ولو كان فيها شيء من العتق ما أجاز بيع ذلك ؛ إذ من سنّته المجمع عليها ألا يباع الحرّ . وكذلك كتابة سلمان وجويرية ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم حكم لجميعهم بالرق حتى أدوا الكتابة . وهي حجة للجمهور في أن المكاتب عبد ما بقي

عليه شيء . وقد ناظر علي بن أبي طالب زيد بن ثابت في المكاتب ؛ فقال لعلي : أكنت راجحه لو زني ، أو مجيزا شهادته لو شهد ؟ فقال علي لا . فقال زيد : هو عبد ما بقي عليه شيء . وقد روى النسائي عن علي وابن عباس رضي الله عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” المكاتب يعتق منه بقدر ما أدى ويقام عليه الحد بقدر ما أدى ويرث بقدر ما عتق منه “ . وإسناده صحيح . وهو حجة لما روى عن علي ، ويعتضد بما رواه أبو داود عن نهبان مكاتب أم سلمة قال سمعت أم سلمة تقول : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إذا كانت لإحدائكم مكاتب وكان عنده ما يؤدى فلتحتجب منه “ . وأخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . إلا أنه يحتمل أن يكون خطابا مع زوجاته ، أخذا بالاحتياط والورع في حقهن ؛ كما قال لسودة : ” احتجبي منه “ مع أنه قد حكم بأخوتها له ، وبقوله لعائشة وحفصة : ” أفعميآ وإن أتتا ألسما تبصرانه “ يعني ابن أم مكتوم ، مع أنه قال لفاطمة بنت قيس : ” اعتدى عند ابن أم مكتوم “ وقد تقدم هذا المعنى .

الثامنة — أجمع العلماء على أن المكاتب إذا حلّ عليه نجم من نجومه أو نجان أو نجومه كلها فوقف السيد عن مطالبته وتركه بحاله أن الكتابة لا تنسخ ماداما على ذلك ثابتين .

التاسعة — قال مالك : ليس للعبد أن يعجز نفسه إذا كان له مال ظاهر ، وإن لم يظهر له مال فذلك إليه . وقال الأوزاعي : لا يمكن من تعجز نفسه إذا كان قويا على الأداء . وقال الشافعي : له أن يعجز نفسه ، علم له مال أو قوة على الكتابة أو لم يعلم ؛ فإذا قال : قد عجزت وأبطلت الكتابة فذلك إليه . وقال مالك : إذا عجز المكاتب فكل ما قبضه منه سيده قبل العجز حلّ له ، كان من كسبه أو من صدقة عليه . وأما ما أعين به على فكالك رقبته فلم يَفِ ذلك بكتابته كان لكل من أعانه الرجوع بما أعطى أو تحلل منه المكاتب . ولو أعانوه صدقة لا على فكالك رقبته فذلك إن عجز حلّ لسيده ولو تمّ به فكالك وبقيت منه فضلة . فإن كان بمعنى الفكالك ردها إليهم بالحصص أو يخلّونه منها . هذا كله مذهب مالك فيما ذكر ابن القاسم . وقال أكثر أهل العلم : إن ما قبضه السيد منه من كتابته ، وما فضل بيده بعد عجزه

من صدقة أو غيرها فهو لسيدته ، يطيب له أخذ ذلك كله . هذا قول الشافعي وأبي حنيفة وأصحابهما وأحمد بن حنبل ، ورواية عن شريح . وقال الثوري : يعمل السيد ما أعطاه في الرقاب ؛ وهو قول مسروق والنخعي ، ورواية عن شريح . وقالت طائفة : ما قبض منه السيد فهو له ، وما فضل بيده بعد العجز فهو له دون سيده ؛ وهذا قول بعض من ذهب إلى أن العبد يملك . وقال إسحاق : ما أعطى بحال الكتابة رد على أربابه .

العاشرة — حديث بريرة على اختلاف طرقه وألفاظه يتضمن أن بريرة وقع فيها بيع بعد كتابة تقدمت . واختلف الناس في بيع المكاتب بسبب ذلك . وقد ترجم البخاري ( باب بيع المكاتب إذا رضى ) . وإلى جواز بيعه للعتق إذا رضى المكاتب بالبيع ولو لم يكن عاجزا — ذهب ابن المنذر والداودي ، وهو الذي آرتضاه أبو عمر بن عبد البر ، وبه قال ابن شهاب وأبو الزناد وربيعه ؛ غير أنهم قالوا : لأن رضاه بالبيع عجز منه . وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : لا يجوز بيع المكاتب ما دام مكاتبا حتى يعجز ، ولا يجوز بيع كتابته بحال ؛ وهو قول الشافعي بمصر . وكان بالعراق يقول : بيعه جائز ، وأما بيع كتابته فغير جائزة . وأجاز مالك بيع الكتابة ؛ فإن أداها عتق ، وإلا كان رقيقا لمشتري الكتابة . ومنع من ذلك أبو حنيفة ؛ لأنه بيع غرر . واختلف قول الشافعي في ذلك بالمنع والإجازة . وقالت طائفة : يجوز بيع المكاتب على أن يمضى في كتابته ؛ فإن أدى عتق وكان ولاؤه للذي آبتاعه ، ولو عجز فهو عبد له . وبه قال النخعي وعطاء والليث وأحمد وأبو ثور . وقال الأوزاعي : لا يباع المكاتب إلا للعتق ، ويكره أن يباع قبل عجزه ؛ وهو قول أحمد وإسحاق . قال أبو عمر : في حديث بريرة إجازة بيع المكاتب إذا رضى بالبيع ولم يكن عاجزا عن أداء نجم قد حلّ عليه ؛ بخلاف قول من زعم أن بيع المكاتب غير جائز إلا بالعجز ؛ لأن بريرة لم تذكر أنها عجزت عن أداء نجم ، ولا أخبرت بأن النجم قد حلّ عليها ، ولا قال لها النبي صلى الله عليه وسلم أعاجزة أنت أم هل حل عليك نجم . ولو لم يحز بيع المكاتب والمكاتبة إلا بالعجز عن أداء ما قد حلّ لكان النبي صلى الله عليه وسلم قد سألها أعاجزة هي أم لا ، وما كان ليأذن

في شرائها إلا بعد علمه صلى الله عليه وسلم أنها عاجزة ولو عن أداء نجم واحد قد حل عليها .  
وفي حديث الزُّهري أنها لم تكن قضت من كتابتها شيئا . ولا أعلم في هذا الباب حجة أصح  
من حديث بريرة هذا ، ولم يُروَ عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء يعارضه ، ولا في شيء من  
الأخبار دليل على عجزها . استدلت من منع من بيع المكاتب بأمور : منها أن قالوا إن الكتابة  
المذكورة لم تكن آنعقدت ، وأن قولها كاتبت أهلى معناه أنها راوضتهم عليها ، وقدروا مبلغها  
وأجلها ولم يعقدوها . وظاهر الأحاديث خلاف هذا إذ تُؤمَل مساقها . وقيل : إن بريرة  
عجزت عن الأداء فاتفقت هى وأهلها على فسخ الكتابة ، وحينئذ صح البيع ؛ إلا أن هذا إنما  
يتمشى على قول من يقول : إن تعجز المكاتب غير مفتقر إلى حكم حاكم إذا اتفق العبد والسيد  
عليه ؛ لأن الحق لا يعدوهما ، وهو المذهب المعروف . وقال سُحُنُون : لا بد من السلطان ؛  
وهذا إنما خاف أن يتواطأ على ترك حق الله تعالى . ويدل على صحة أنها عجزت ما روى أن  
بريرة جاءت عائشة تستعينها في كتابتها ولم تكن قضت من كتابتها شيئا ؛ فقالت لها عائشة :  
إرجعى إلى أهلِكَ فإن أحبوا أن أفضى عنك كتابتك فعلت . فظاهر هذا أن جميع كتابتها  
أو بعضها استحق عليها ؛ لأنه لا يُقضى من الحقوق إلا ما وجبت المطالبة به ، والله أعلم .  
هذه التأويلات أشبه ما لهم وفيها من الدخَل ما يبتناه . وقال ابن المنذر : ولا أعلم حجة لمن  
قال ليس له بيع المكاتب إلا أن يقول لعل بريرة عجزت . قال الشافعى : وأظهر معانيه أن  
لمالك المكاتب بيعة .

الحادية عشرة — المكاتب إذا أدى كتابته عتق ولا يحتاج إلى ابتداء عتق من السيد .  
وكذلك ولده الذين ولدوا في كتابته من أمته ، يَعْتِقُونَ بَعْتَهُ وَيَرْقُونَ بَرْقَهُ ؛ لأن ولد الإنسان  
من أمته بمنابته اعتبارا بالحر وكذلك ولد المكاتب ، فإن كان لهما ولد قبل الكتابة لم يدخل  
في الكتابة إلا بشرط .

الثانية عشرة — ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ هذا أمر للسادة بإعانتهم في مال  
الكتابة ؛ إما بأن يعطوهم شيئا مما في أيديهم — أعنى أيدي السادة — أو يحطوا عنهم شيئا

من مال الكتابة . قال مالك : يوضع عن المكاتب من آخر كتابته . وقد وضع ابن عمر خمسة آلاف من خمسة وثلاثين ألفا . واستحسن علي رضي الله عنه أن يكون ذلك ربع الكتابة . قال الزهراوى : روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم . واستحسن ابن مسعود والحسن بن أبى الحسن ثلثها . وقال قتادة : عشرها . ابن جبير : يسقط عنه شيئا . ولم يحده ؛ وهو قول الشافعى ، واستحسنه الثورى . قال الشافعى : والشئ أقل شئ يقع عليه أسم شئ ، ويجبر عليه السيد ويحكم به الحاكم على الورثة إن مات السيد . ورأى مالك رحمه الله تعالى هذا الأمر على الندب ، ولم ير لقدرة الوضعية حدّا . احتج الشافعى بمطلق الأمر في قوله « وآتوهم » ، ورأى أن عطف الواجب على الندب معلوم في القرآن ولسان العرب ؛ كما قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى » وما كان مثله . قال ابن العربى : وذكره قبله إسماعيل بن إسحاق القاضى ، جعل الشافعى الإيتاء واجبا ، والكتابة غير واجبة ؛ بفعل الأصل غير واجب والفرع واجبا ، وهذا لا نظير له ، فصارت دعوى محضة . فإن قيل : يكون ذلك كالنكاح لا يجب فإذا انمقد وجبت أحكامه ، منها المتعة . قلنا : عندنا لا تجب المتعة فلا معنى لأصحاب الشافعى . وقد كاتب عثمان بن عفان عبده وحلف ألا يحطّه... ، فى حديث طويل .

قلت : وقد قال الحسن والنخعى وبريدة إنما الخطاب بقوله « وآتوهم » للناس أجمعين فى أن يتصدقوا على المكاتبين ، وأن يعينوهم فى فكك رقابهم . وقال زيد بن أسلم : إنما الخطاب للولاة بأن يعطوا المكاتبين من مال الصدقة حظّهم ؛ وهو الذى تضمّنه قوله تعالى « وفى الرقاب » . وعلى هذين القولين فليس لسيد المكاتب أن يضع شيئا عن مكاتبه . ودليل هذا أنه لو أراد حطّ شئ من نجوم الكتابة لقال وضّعوا عنهم كذا .

الثالثة عشرة — إذا قلنا : إن المراد بالخطاب السادة فرأى عمر بن الخطاب أن يكون ذلك من أول نجومه ، مبادرة إلى الخير خوفا ألا يدرك آخرها . ورأى مالك رحمه الله تعالى وغيره أن يكون الوضع من آخر نجم . وعلة ذلك أنه إذا وضع من أول نجم ربما عجز العبد

فرجع هو وماله إلى السيد ، فعادت إليه وَضِيعَتُهُ وهي شبه الصدقة . وهذا قول عبد الله بن عمرو وعليّ . وقال مجاهد : يترك له من كل نجم . قال ابن العربي : والأقوى عندي أن يكون في آخرها ؛ لأن الإسقاط أبداً إنما يكون في أخريات الديون .

الرابعة عشرة — المكاتب إذا بيع للعتق رضاً منه بعد الكتابة وقبض بائه ثمنه لم يجب عليه أن يعطيه من ثمنه شيئاً ، سواء باعه لعتق أو لغير عتق ، وليس ذلك كالسيد يؤدي إليه مكاتب كتابته فيؤتيه منها ، أو يضع عنه من آخرها نجماً أو ما شاء ؛ على ما أمر الله به في كتابه ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر موالى بريرة بإعطائها مما قبضوا شيئاً ، وإن كانوا قد باعوها للعتق .

الخامسة عشرة — اختلفوا في صفة عقد الكتابة ؛ فقال ابن خُوَيزَمَنْدَاد : صفتها أن يقول السيد لعبده كاتبك على كذا وكذا من المال ، في كذا وكذا نجماً ، إذا أدبته فانت حر . أو يقول له أد إلى ألفاً في عشرة أنجم وأنت حر . فيقول العبد قد قبلت ونحو ذلك من الألفاظ ؛ فتى أداها عتق . وكذلك لو قال العبد كاتبني ، فقال السيد قد فعلت ، أو قد كاتبك . قال ابن العربي : وهذا لا يلزم ؛ لأن لفظ القرآن لا يقتضيه والحال يشهد له ؛ فإن ذكره فحسن ، وإن تركه فهو معلوم لا يحتاج إليه . ومسائل هذا الباب وفروعه كثيرة ، وقد ذكرنا من أصوله جملة ، فيها لمن اقتصر عليها كفاية ، والله الموفق للهداية .

السادسة عشرة — في ميراث المكاتب ؛ واختلف العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال : فذهب مالك أن المكاتب إذا هلك وترك ما لا أكثر مما بقى عليه من كتابته وله ولد ولدوا في كتابته أو كاتب عليهم ، ورثوا ما بقى من المال بعد قضاء كتابته ؛ لأن حكمهم كحكمه ، وعليهم السعي فيما بقى من كتابته لو لم يخلف مالا ، ولا يعتقون إلا بعته ، ولو أدى عنهم ما رجع بذلك عليهم ؛ لأنهم يعتقون عليه ؛ فهم أولى بميراثه لأنهم مساوون له في جميع حاله . والقول الثاني — أنه يؤدي عنه من ماله جميع كتابته ، وجعل كأنه قد مات حراً ، ويرثه جميع ولده ، وسواء في ذلك من كان حراً قبل موته من ولده ومن كاتب عليهم أو ولدوا

في كتابته ؛ لأنهم قد استووا في الحرية كأنهم حين تأدت عنهم كتابتهم . روى هذا القول عن عليّ وابن مسعود ، ومن التابعين عن عطاء والحسن وطاوس وإبراهيم ، وبه قال فقهاء الكوفة سفيان الثوريّ وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حتح ، وإليه ذهب إسحاق .

والقول الثالث — أن المكاتب إذا مات قبل أن يؤدي جميع كتابته فقد مات عبدا ، وكل ما يخلفه من المال فهو لسيده ، ولا يرثه أحد من أولاده ، لا الأحرار ولا الذين معه في كتابته ؛ لأنه لما مات قبل أن يؤدي جميع كتابته فقد مات عبدا وماله لسيده ، فلا يصح عتقه بعد موته ؛ لأنه محال أن يعتق عبد بعد موته ، وعلى ولده الذين كاتب عليهم أو ولدوا في كتابته أن يسعوا في باقي الكتابة ، ويسقط عنهم منها قدر حصته ، فإن أدوا عتقوا لأنهم كانوا فيها تبعا لأبيهم ، وإن لم يؤديوا ذلك رَقُوا . وهذا قول الشافعي ، وبه قال أحمد بن حنبل ، وهو قول عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وعمر بن عبد العزيز والزهري وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ روى عن جابر بن عبد الله وابن عباس رضي الله عنهم أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبيّ ، وكانت له جارتان إحداهما تسمى مُعَاذَةَ والأخرى مُسَيِّكَةَ ، وكان يُكرههما على الزنى ويضربهما عليه آبتغاء الأجر وكسب الولد ؛ فشكا ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المنافقين . ومُعَاذَةُ هذه أمّ خولة التي جادلت النبيّ صلى الله عليه وسلم في زوجها . وفي صحيح مسلم عن جابر أن جارية لعبد الله بن أبيّ يقال لها مُسَيِّكَةُ وأخرى يقال لها أُمَيَّة فكان يُكرههما على الزنى ، فشكا ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عز وجل « وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ — إلى قوله — غفور رحيم » .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ راجع إلى الفتيات ، وذلك أن الفتاة إذا أرادت التحصن فينئذ يمكن ويتصور أن يكون السيد مكرها ، ويمكن أن ينهى عن الإكراه . وإذا كانت الفتاة لا تريد التحصن فلا يتصور أن يقال للسيد لا تكرهها ؛ لأن الإكراه لا يتصور فيها وهي مريدة للزنى . فهذا أمر في سادة وفتيات حالهم هذه . وإلى هذا المعنى أشار ابن العربي

فقال : إنما ذكر الله تعالى إرادة التحصن من المرأة لأن ذلك هو الذي يصور الإكراه ؛ فأما إذا كانت هي راغبة في الزنى لم يتصور إكراه ، فخصّله . وذهب هذا النظر عن كثير من المفسرين ؛ فقال بعضهم قوله : « إن أردن تحصناً » راجع إلى الأيامى . قال الزجاج والحسين بن الفضل : في الكلام تقديم وتأخير ؛ أى وأنكحوا الأيامى والصالحين من عبادكم إن أردن تحصناً . وقال بعضهم : هذا الشرط في قوله : « إن أردن » ملغى ، ونحو ذلك مما يضعف . والله الموفق .

قوله تعالى : ﴿ لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى الشيء الذى تَكْسِبُه الأمة بفرجها ، والولد يُسْتَرَقَّ فبياع . وقيل : كان الزانى يفتدى ولده من المزنى بها بمائة من الإبل يدفعها إلى سيدها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُكْرِهْن ﴾ أى يقهرهن . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهَيْهِنَّ غَفُورٌ ﴾ لمن ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهن . وقرأ ابن مسعود وجابر بن عبد الله وابن جبير « لمن غفور » بزيادة لمن . وقد مضى الكلام في الإكراه في « النحل »<sup>(١)</sup> والحمد لله . ثم عدد تعالى على المؤمنين نعمه فيما أنزل إليهم من الآيات المنيرات ، وفيها ضرب لهم من أمثال الماضين من الأمم ليقع التحفظ مما وقع أولئك فيه .

قوله تعالى : اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

(١) راجع ج ١٠ ص ١٨٠ وما بعدها .



النور في كلام العرب : الأضواء المدركة بالبصر . وأستعمل مجازاً فيما صح من المعاني  
 ولاح ؛ فيقال منه : كلام له نور . ومنه : الكتاب المنير ، ومنه قول الشاعر :  
 نسب كأن عليه من شمس الضحا \* نورا ومن فلق الصباح عمودا  
 والناس يقولون : فلان نور البلد ، وشمس العصر وقره . قال :  
 \* فإنك شمس<sup>(١)</sup> والملك كواكب \*  
 وقال آخر :

هلا خصصت من البلاد بمقصد \* قر القبايل خالد بن يزيد  
 وقال آخر :

إذا سار عبد الله من مرو ليلة \* فقد سار منها نورها وجمالها  
 فيجوز أن يقال : لله تعالى نور ، من جهة المدح لأنه أوجد الأشياء ، ونور جميع الأشياء منه  
 ابتداءؤها وعنه صدورها ، وهو سبحانه ليس من الأضواء المدركة جلّ وتعالى عما يقول الظالمون  
 علواً كبيراً . وقد قال هشام الجواليقي وطائفة من المجسّمة : هو نور لا كالأنوار ، وجسم  
 لا كالأجسام . وهذا كله محال على الله تعالى عقلا ونقلا على ما يعرف في موضعه من علم  
 الكلام . ثم إن قولهم متناقض ؛ فإن قولهم جسم أو نور حكمٌ عليه بحقيقة ذلك ، وقولهم  
 لا كالأنوار ولا كالأجسام نفى لما أثبتوه من الجسميّة والنور ؛ وذلك متناقض ، وتحقيقه  
 في علم الكلام . والذي أوقعهم في ذلك ظواهر اتبعوها منها هذه الآية ، وقوله عليه السلام  
 إذا قام من الليل يتهجد : ”اللَّهُمَّ لك الحمد أنت نور السموات والأرض“ . وقال عليه السلام  
 وقد سئل : هل رأيت ربك ؟ فقال ” رأيت نورا “ . إلى غير ذلك من الأحاديث .

وآختلف العلماء في تأويل هذه الآية ؛ فقليل : المعنى أى به وبقدرته أنارت أضواؤها ،  
 واستقامت أمورها ، وقامت مصنوعاتها . فالكلام على التقريب للذهن ؛ كما يقال : الملك نور  
 أهل البلد ؛ أى به قوام أمرها وصالح جملتها ؛ بحرّيان أموره على سنن السداد . فهو في الملك

(١) هذا صدر بيت للناطقة الديباني من قصيدة يمدح بها النعمان . وبجزة :

\* إذا طلعت لم يد منها كوكب \*

مجاز ، وهو في صفة الله حقيقة محضة ؛ إذ هو الذي أبدع الموجودات وخلق العقل نوراً هادياً ؛ لأن ظهور الموجود به حصل كما حصل بالضوء ظهور المبصرات ، تبارك الله تعالى لا ربَّ غيره . قال معناه مجاهد والزهرى وغيرهما . قال ابن عرفة : أى منور السموات والأرض . وكذا قال الضحاك والقرطبي . كما يتقاون : فلان غائثاً ؛ أى مغيثنا . وفلان زادى ؛ أى مزودى . قال جرير :

وأنت لنا نور وغيث وعِصْمة \* ونبت لمن يرجو نَدَاكَ وَرِيقُ

أى ذو ورق . وقال مجاهد : مذهب الأمور في السموات والأرض . أبى بن كعب والحسن وأبو العالية : مزين السموات بالشمس والقمر والنجوم ، ومزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين . وقال ابن عباس وأنس : المعنى الله هادى أهل السموات والأرض . والأول أعم للعانى وأصح مع التأويل .

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ أى صفة دلائله التى يقذفها في قلب المؤمن ؛ والدلائل تسمى نورا . وقد سَمَّى الله تعالى كتابه نُوراً فقال : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً » وسمى نبيه نورا فقال : « قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ » . وهذا لأن الكتاب يهdy ويبين ، وكذلك الرسول . ووجه الإضافة إلى الله تعالى أنه مثبت الدلالة ومبينها وواضعها . وتحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من المثل به ، بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة ، وذلك أن يريد مثل نور الله الذى هو هداه وإتقانه صنعة كل مخلوق وبراهينه الساطعة على الجملة ، كهذه الجملة من النور الذى تتخذونه أتم على هذه الصفة ، التى هى أبلغ صفات النور الذى بين أيدي الناس ؛ فمثل نور الله في الوضوح كهذا الذى هو متممها أى البشر . والمشكاة : الكوة في الحائط غير النافذة ؛ قاله ابن جبير وجمهور المفسرين ، وهى أجمع للضوء ، والمصباح فيها أكثر إضاءة منه في غيرها ، وأصلها الوعاء يجعل فيه الشيء . والمشكاة وطاء من آدم كالدلو يبرد فيها الماء ؛ وهو على وزن مفعلة كالمقراة والمصفاة . قال الشاعر :

(١) آية ١٧٤ سورة النساء . (٢) آية ١٥ سورة المائدة . (٣) المقراة : القصعة التى يقرى الضيف فيها .

(١)

كَأَنَّ عَيْنَيْهِ مِشْكَاَتَانِ فِي حَجَرٍ \* قِيضًا اقْتِيَاضًا بِأَطْرَافِ الْمَنَاقِيرِ

وقيل : المِشْكَاة عمود القنديل الذي فيه الفتيلة . وقال مجاهد : هي القنديل . وقال « في زجاجة » لأنه جسم شفاف ، والمصباح فيه أنور منه في غير الزجاج . والمصباح : القنديل بناره . ( كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ) أى في الإنارة والضوء . وذلك يحتمل معنيين : إما أن يريد أنها بالمصباح كذلك ، وإما أن يريد أنها في نفسها لصفاتها وجودة جواهرها كذلك . وهذا التأويل أبلغ في التعاون على النور . قال الضحاك : الكوكب الدرّي هو الزهرة .

قوله تعالى : ( يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ) أى من زيت شجرة ، فحذف المضاف . والمباركة المُنْمَاة ، والزيتون من أعظم الثمار نماء ، والرمّان كذلك ، والمعنان يقتضى ذلك . وقول أبي طالب يرثى مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس :

لَيْتَ شِعْرِي مَسَافِرَ بْنَ أَبِي عَمْرٍو وَلَيْتَ يَقُولُهَا الْحَزُونُ  
بُورِكَ الْمَيْتِ الْغَرِيبِ كَمَا بُورِكَ نَبْعُ الرِّمَانِ وَالزَّيْتُونُ

وقيل : من بركتها أن أغصانها تُورق من أسفلها إلى أعلاها . وقال ابن عباس : في الزيتون منافع ، يُسرج بالزيت ، وهو إدام ودهان ودباغ ، ووقود يوقد بحطبه وتُفله ، وليس فيه شيء إلا وفيه منفعة ، حتى الرمّاد يغسل به الإبريسم . وهى أول شجرة نبتت في الدنيا ، وأول شجرة نبتت بعد الطوفان ، وتنت في منازل الأنبياء والأرض المقدسة ، ودعا لها سبعون نبياً بالبركة ، منهم إبراهيم ، ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم فإنه قال : « اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي الزَّيْتِ وَالزَّيْتُونِ » . قاله مرتين .

قوله تعالى : ( لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ ) اختلف العلماء في قوله تعالى « لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ » فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم : الشرقية التى تصيبها الشمس إذا شَرَقَتْ

(١) ورد هذا البيت برواية أخرى في كتاب الصنائع لابن هلال العسكري وقد نسب لأبي زيد . والرواية فيه .

كَأَنَّ عَيْنَيْهِ فِي وَقَيْنِ مِنْ حَجَرٍ \* قِيضًا ... .. الخ

والوَقْب : نقرة في الصخرة يجتمع فيها الماء . وقِيضًا : شقنا . والمنشاقير : واحد منقار ، وهى حديدة كالقأس ينقر بها الحجر وغيره . (٢) هكذا وردت هذه الكلمة في بعض نسخ الأصل وفي بعضها : « والمعنان يقتضى » ولعلها « والمعنى يقتضى » . (٣) الإبريسم : معزب ، وفيه ثلاث لغات ، وهو الحرير .

ولا تصيبها إذا غربت ؛ لأن لها سترًا . والغريبة عكسها ؛ أي أنها شجرة في صحراء ومنكشف من الأرض لا يوارىها عن الشمس شيء وهو أجود لزيتها ، فليست خالصة للشرق فتسمى شرقية ولا للغرب فتسمى غربية ، بل هي شرقية غربية . وقال الطبري عن ابن عباس : إنها شجرة في دوحة قد أحاطت بها ؛ فهي غير منكشفة من جهة الشرق ولا من جهة الغرب . قال ابن عطية : وهذا قول لا يصح عن ابن عباس ؛ لأن العمرة التي بهذه الصفة يفسد جناها ، وذلك مشاهد في الوجود . وقال الحسن : ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا ، وإنما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره ، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية . الثعلبي : وقد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيا ؛ لأنها بدل من الشجرة ، فقال « زيتونة » . وقال ابن زيد : إنها من شجر الشام ؛ فإن شجر الشام لا شرقي ولا غربي ، وشجر الشام هو أفضل الشجر ، وهي الأرض المباركة . و « شرقية » نعت لـ « زيتونة » و « لا » ليست تحول بين النعت والمنعوت ، « ولا غربية » عطف عليه .

قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ مبالغة في حسنه وصفائه وجودته . ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ أي اجتمع في المشكاة ضوء المصباح إلى ضوء الزجاجة وإلى ضوء الزيت فصار لذلك نور على نور . واعتقلت هذه الأنوار في المشكاة فصارت كأنور ما يكون ؛ فكذاك براهين الله تعالى واضحة ، وهي برهان بعد برهان ، وتنبيه بعد تنبيه ؛ كإرساله الرسل وإنزاله الكتب ، ومواعظ تتكرر فيها لمن له عقل معتبر . ثم ذكر تعالى هداه لنوره من شاء وأسعد من عباده ، وذكر تفضله للعباد في ضرب الأمثال لتقع لهم العبرة والنظر المؤدى إلى الإيمان . وقرأ عبد الله بن عباس بن أبي ربيعة وأبو عبد الرحمن السلمي « الله نور » بفتح النون والواو المشددة . واختلف المتأولون في عود الضمير في « نوره » على من يعود ؛ فقال كعب الأحبار وابن جبير : هو عائد على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي مثل نور محمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن الأنباري : « الله نور السموات والأرض » وقف حسن ، ثم تبدئ « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » على معنى نور محمد صلى الله عليه وسلم . وقال أبي بن كعب وابن جبير

أيضا والضحاك : هو عائد على المؤمنين . وفي قراءة أبيّ « مثل نور المؤمنين » . وروى أن في قراءته « مثل نور المؤمن » . وروى أن فيها « مثل نور من آمن به » . وقال الحسن : هو عائد على القرآن والإيمان . قال مكّي : وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله « والأرض » . قال ابن عطية : وهذه الأقوال فيها عود الضمير على من لم يحمله ذكره ، وفيها مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثل ؛ فعلى من قال : الممثل به محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو قول كعب الحبر<sup>(١)</sup> ؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو المشكاة أو صدره ، والمصباح هو النبوة وما يتصل بها من عمله وهداه ، والزجاجة قلبه ، والشجرة المباركة هي الوحي ، والملائكة رسل الله إليه وسببه المتصل به ، والزيت هو الحجج والبراهين والآيات التي تضمنها الوحي . ومن قال : الممثل به المؤمن ، وهو قول أبيّ ؛ فالمشكاة صدره ، والمصباح الإيمان والعلم ، والزجاجة قلبه ، وزيتها هو الحجج والحكمة التي تضمنها . قال أبيّ : فهو على أحسن الحال يمشى في الناس كالرجل الحى يمشى في قبور الأموات . ومن قال : إن الممثل به هو القرآن والإيمان ؛ فتقدير الكلام : مثل نوره الذى هو الإيمان في صدر المؤمن في قلبه كمشكاة ؛ أى كهذه الجملة . وهذا القول ليس في مقابلة التشبيه كالأولين ؛ لأن المشكاة ليست تقابل الإيمان . وقالت طائفة : الضمير في « نوره » عائد على الله تعالى . وهذا قول ابن عباس فيما ذكر الثعلبيّ والمأورديّ والمهدويّ ، وقد تقدم معناه . ولا يوقف على هذا القول على « الأرض » . قال المهدويّ : الهاء لله عز وجل ؛ والتقدير : الله هادى أهل السموات والأرض ، مثل هداة في قلوب المؤمنين كمشكاة ؛ وروى ذلك عن ابن عباس . وكذلك قال زيد بن أسلم ، والحسن : إن الهاء لله عز وجل . وكان أبيّ وابن مسعود يقرأانها « مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة » . قال محمد بن علي الترمذى : فأما غيرهما فلم يقرأها في التنزيل هكذا ، وقد وافقهما في التأويل أن ذلك نوره في قلب المؤمن ، وتصديقه في آية أخرى يقول « أَقْمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ »<sup>(٢)</sup> . وأعتل الأولون بأن قالوا : لا يجوز أن يكون الهاء لله عز وجل ؛ لأن الله عز وجل لا حد

(١) الحبر (بالفتح والكسر) : العالم ذميا كان أو مسالما . وكعب الحبر (بالكسر) : منسوب الى الحبر الذي يكتب به ؛ لأنه صاحب كتب . (٢) في ابن عطية : « من علمه » . (٣) آية ٢٢ سورة الزمر .

لنوره . وأمال الكسائي فيما روى عنه أبو عمر الدؤري - الألف من « مشكاة » وكسر الكاف التي قبلها . وقرأ نصر بن عاصم « زجاجة » بفتح الزاي و « الزجاجة » كذلك ، وهي لغة . وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم « دزى » بضم الدال وشد الياء ، ولهذه القراءة وجهان : إما أن ينسب الكوكب إلى الدرّ لبياضه وصفائه ، وإما أن يكون أصله درى مهموز ، ففعل من الدرّ وهو الدفع ، وخُففت الهمزة . ويقال للنجوم العظام التي لا تعرف أسماؤها : الدراري ، بغير همز ؛ فلعلهم خففوا الهمزة ، والأصل من الدرّ الذي هو الدفع . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم « دزى » بالهمز والمد ، وهو فُعِل من الدرّ ؛ بمعنى أنها يدفع بعضها بعضها . وقرأ الكسائي وأبو عمرو « دزى » بكسر الدال والهمز من الدرّ والدفع ؛ مثل السَّكِر والفَسِق . قال سيبويه : أى يدفع بعض ضوئه بعضها من لمعانه . قال النحاس : وضعف أبو عبيد قراءة أبي عمرو والكسائي تضعيفا شديدا ، لأنه تأولها من درأت أى دفعت ؛ أى كوكب يجرى من الأفق إلى الأفق . وإذا كان التأويل على ما تأوله لم يكن فى الكلام فائدة ، ولا كان لهذا الكوكب منزلة على أكثر الكواكب ؛ ألا ترى أنه لا يقال جاءنى إنسان من بنى آدم . ولا ينبغي أن يتأول لمثل أبي عمرو والكسائي مع علمهما وجلالتهما هذا التأويل البعيد ، ولكن التأويل لهما على ما روى عن محمد بن يزيد أن معناه فى ذلك : كوكب مندفع بالنور ؛ كما يقال : اندرأ الحريق أى اندفع . وهذا تأويل صحيح لهذه القراءة . وحكى سعيد بن مسعدة أنه يقال : درأ الكوكب بضوئه إذا امتد ضوءه وعلا . وقال الجوهري فى الصحاح : ودرأ علينا فلان يدرأ دروآ أى طلع مفاجأة . ومنه كوكب دزى ، على فُعِل ؛ مثل سكير ونحير ؛ لشدة توقده وتلألؤه . وقد درأ الكوكب دروآ . قال أبو عمرو بن العلاء : سألت رجلا من سعد بن بكر من أهل ذات عِرْق فقلت : هذا الكوكب الضخم ما تُسمونه ؟ قال : الدزى ، وكان من أفصح الناس . قال النحاس : فأما قراءة حمزة فأهل اللغة جميعا قالوا : هى لحن لا تجوز ، لأنه ليس فى كلام العرب اسم على فُعِل . وقد اعترض أبو عبيد فى هذا فاحتج لحمزة فقال : ليس هو فُعِل وإنما هو فُعُول ، مثل سبوح ، أبدل من الواو ياء ؛ كما قالوا : عُتَى . قال أبو جعفر النحاس : وهذا الاعتراض والاحتجاج من أعظم الغلط

وأشده ؛ لأن هذا لا يجوز ألْبَتَّة ، ولو جاز ما قال لقليل في سُبُوح سُبَّح ، وهذا لا يقوله أحد ، وليس عُتَى من هذا ، والفرق بينهما واضح بين ؛ لأنه ليس يخلو عُتَى من إحدى جهتين : إما أن يكون جمع عاتٍ فيكون البدل فيه لازماً ، لأنَّ الجمع باب تغيير ، والواو لا تكون طرفاً في الأسماء وقبلها ضمة ، فلما كان قبل هذه ساكن وقبل الساكن ضمة والساكن ليس بحاجز حصين أبدل من الضمة كسرة فقلبت الواو ياء . وإن كان عُتَى واحداً كان بالواو أولى ، وجاز قلبها لأنها طرف ، والواو في فُعُول ليست طرفاً فلا يجوز قلبها . قال الجوهري : قال أبو عبيد إن ضمة الدال قلت دُرَى ، يكون منسوباً إلى الدر ، على فُعَلٍ ولم تهمزه لأنه ليس في كلام العرب فُعِيل . ومن همزه من القراء وإنما أراد فُعُولاً مثل سُبُوح فاستثقل فردّ بعضه إلى الكسر . وحكى الأخفش عن بعضهم « دَرَى » من درأته ، وهمزها وجعلها على فَعِيل مفتوحة الأول . قال : وذلك من تلا لئه . قال الثعلبي : وقرأ سعيد بن المسيب وأبو رجاء « دَرَى » بفتح الدال مهموزاً . قال أبو حاتم : هذا خطأ لأنه ليس في الكلام فَعِيل ؛ فإن صح عنهما فهما حجة . ( يُوقَدُ ) قرأ شيبة ونافع وأيوب وسلام وآبن عامر وأهل الشام وحفص « يوقد » بياء مضمومة وتخفيف القاف وضم الدال . وقرأ الحسن والسَّامِيّ وأبو جعفر وأبو عمرو بن العلاء البصري « تَوَقَّد » مفتوحة الحروف كلها مشددة القاف ، واختارها أبو حاتم وأبو عبيد . قال النحاس : وهاتان القراءتان متقاربتان ؛ لأنهما جميعاً للصباح ، وهو أشبه بهذا الوصف ؛ لأنه الذي ينير ويضيء ، وإنما الزجاجة وعاء له . و « تَوَقَّد » فعل ماضٍ من تَوَقَّد يتوقد ، و يُوقَد فعل مستقبل من أوقد يُوقد . وقرأ نصر ابن عاصم « تَوَقَّد » والأصل على قراءته لتوقد حذف إحدى التاءين لأن الأخرى تدل عليها . وقرأ الكوفيون « تَوَقَّد » بالتاء يعنون الزجاجة . فهاتان القراءتان على تأنيث الزجاجة . ( مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ) تقدم القول فيه . ( يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ ) على تأنيث النار . وزعم أبو عبيد أنه لا يعرف إلا هذه القراءة . وحكى أبو حاتم أن السُّدِّي روى عن أبي مالك عن ابن عباس أنه قرأ « وَلَوْ لَمْ يَمْسَسْهُ نَارٌ » بالياء . قال محمد بن يزيد : التذكير على أنه تأنيث غير حقيقي ، وكذا سبيل المؤنث عنده .

وقال ابن عمر : المشكاة جَوْف محمد صلى الله عليه وسلم ، والزجاجة قلبه ، والمصباح النور الذي جعله الله تعالى في قلبه يوقد من شجرة مباركة ؛ أى أن أصله من إبراهيم وهو شجرته ، فأوقد الله تعالى في قلب محمد صلى الله عليه وسلم النور كما جعله في قلب إبراهيم عليه السلام . وقال محمد بن كعب : المشكاة إبراهيم ، والزجاجة إسماعيل ، والمصباح محمد صلوات الله عليهم أجمعين ؛ سماه الله تعالى مصباحا كما سماه سراجا فقال : « وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا » يوقد من شجرة مباركة وهى آدم عليه السلام ، بُورِكَ في نسله وكثُر منه الأنبياء والأولياء . وقيل : هى إبراهيم عليه السلام ، سماه الله تعالى مباركا لأن أكثر الأنبياء كانوا من صُلْبِهِ . « لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ » أى لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وإنما كان حنيفاً مسلماً . وإنما قال ذلك لأن اليهود تصلى قبل المغرب والنصارى تصلى قبل المشرق . « يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ » أى يكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن أوحى الله تعالى إليه . « نُورٌ عَلَى نُورٍ » نبيٌّ من نَسْلِ نبيٍّ . وقال الضحاك : شبه عبد المطالب بالمشكاة وعبد الله بالزجاجة والنبي صلى الله عليه وسلم بالمصباح كان في قلبهما ، فورث النبوة من إبراهيم . « مِنْ شَجَرَةٍ » أى شجرة التَّقَى والرضوان وعشيرة الهدى والإيمان ، شجرة أصلها نبوة ، وفرعها مروءة ، وأغصانها تنزيل ، وورقها تأويل ، وخدمها جبريل وميكائيل . قال القاضى أبو بكر ابن العربى : ومن غريب الأمر أن بعض الفقهاء قال إن هذا مثل ضربه الله تعالى لإبراهيم ومحمد ولعبد المطالب وابنه عبد الله ؛ فالمشكاة هى الكوة بلغة الحبشة ، فشبه عبد المطالب بالمشكاة فيها القنديل وهو الزجاجة ، وشبه عبد الله بالقنديل وهو الزجاجة ؛ ومحمد كالمصباح يعنى من أصلهما ، وكأنه كوكب دُرِّيٌّ وهو المشتري « يوقد من شجرة مباركة » يعنى إرث النبوة من إبراهيم عليه السلام هو الشجرة المباركة ، يعنى حنيفية لا شرقية ولا غربية ، لا يهودية ولا نصرانية . « يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ » يقول : يكاد إبراهيم يتكلم بالوحي من قبل أن يوحى إليه . « نُورٌ عَلَى نُورٍ » إبراهيم ثم محمد صلى الله عليه وسلم . قال القاضى : وهذا كله عدول عن الظاهر ، وليس يمتنع في التمثيل أن يتوسع المرء فيه .



قلت : وكذلك في جميع الأقوال لعدم ارتباطه بالآية ما عدا القول الأول ، وأن هذا مثل ضربه الله تعالى لنوره ، ولا يمكن أن يضرب لنوره المعظم مثلاً تنبيهاً لخلقه إلا ببعض خلقه ، لأن الخلق لقصورهم لا يفهمون إلا بأنفسهم ومن أنفسهم ، ولو لا ذلك ما عرف الله إلا الله وحده ، قاله ابن العربي . قال ابن عباس : هذا مثل نور الله وهُداة في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار ، فإن مسته النار زاد ضوءه ، كذلك قلب المؤمن يكاد يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم زاده هُدى على هُدى ونورا على نور ، كقول إبراهيم من قبل أن تحيته المعرفة : « هذا ربِّي » ، من قبل أن يخبره أحد أن له رباً ، فلما أخبره الله أنه ربّه زاد هُدى ، فقال له ربّه : « أَسْلِمَ قال أسلمتُ لرب العالمين » . ومن قال إن هذا مثل للقرآن في قلب المؤمن قال : كما أن هذا المصباح يستضاء به ولا ينقص فكذلك القرآن يهتدى به ولا ينقص ؛ فالمصباح القرآن ، والزجاجة قلب المؤمن ، والمشكاة لسانه وفهمه ، والشجرة المباركة شجرة الوحي . ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ تكاد حجج القرآن تضيح ولو لم يقرأ . ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ يعنى أن القرآن نور من الله تعالى لخلقه ، مع ما أقام لهم من الدلائل والإعلام قبل نزول القرآن ، فأزادوا بذلك نورا على نور . ثم أخبر أن هذا النور المذكور عزيز ، وأنه لا يناله إلا من أراد الله هداة فقال : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ أى يبين الأشباه تقريبا إلى الأفهام . ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى بالمهتدى والضال . وروى عن ابن عباس أن اليهود قالوا : يا محمد ، كيف يخلص نور الله تعالى من دون السماء ؛ فضرب الله تعالى ذلك مثلاً لنوره .

قوله تعالى : فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ فيه تسعة عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾ الباء في «بيوت» تضم وتكسر؛ وقد تقدّم<sup>(١)</sup> . واختلف في الفاء من قوله «في» فقيل : هي متعلقة بـ «مصباح» . وقيل : بـ «يسبح له» ؛ فعلى هذا التأويل يوقف على «عليم» . قال ابن الأنباري : سمعت أبا العباس يقول هو حال للمصباح والزجاجة والكوكب ؛ كأنه قال وهي في بيوت . وقال الترمذي الحكيم محمد بن علي : «في بيوت» منفصل ، كأنه يقول : الله في بيوت أذن الله أن ترفع ؛ وبذلك جاءت الأخبار أنه «من جلس في المسجد فإنه يجالس ربه» . وكذا ما جاء في الخبر فيما يحكى عن التوراة «أن المؤمن إذا مشى إلى المسجد قال الله تبارك اسمه عبدي زارني وعلى قراه ولن أرضى له قرى دون الجنة» . قال ابن الأنباري : إن جعلت «في» متعلقة بـ «يسبح» أو رافعة للرجال حسن الوقف على قوله «والله بكل شيء عليم» . وقال الرماني : هي متعلقة بـ «يوقد» وعليه فلا يوقف على «عليم» . فإن قيل : فما الوجه إذا كان البيوت متعلقة بـ «يوقد» في توحيد المصباح والمشكاة وجمع البيوت ، ولا يكون مشكاة واحدة إلا في بيت واحد . قيل : هذا من الخطاب المتلون الذي يفتح بالتوحيد ويختم بالجمع ؛ كقوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ «ونحوه» . وقيل : رجع إلى كل واحد من البيوت . وقيل : هو كقوله تعالى : «وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِي سُدْرٍ نُورًا» وإنما هو في واحدة منها . واختلف الناس في البيوت هنا على خمسة أقوال : الأول — أنها المساجد المخصوصة لله تعالى بالعبادة ، وأنها تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض ؛ قاله ابن عباس ومجاهد والحسن . الثاني — هي بيوت بيت المقدس ؛ عن الحسن أيضا . الثالث — بيوت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ عن مجاهد أيضا . الرابع — هي البيوت كلها ؛ قاله عكرمة . وقوله «يسبح له فيها بالغدو والآصال» يقوى أنها المساجد . وقول خامس — أنها المساجد الأربعة التي

لم يبنها إلا نبي : الكعبة وبيت أريحا ومسجد المدينة ومسجد قباء؛ قاله ابن بريدة . وقد تقدم ذلك في « براءة »<sup>(١)</sup> .

قلت — الأظهر القول الأول ؛ لما رواه أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” من أحب الله عز وجل فليحبني ومن أحبني فليحب أصحابي ومن أحب أصحابي فليحب القرآن ومن أحب القرآن فليحب المساجد فإنها أفنية الله أبنيته أذن الله في رفعها وبارك فيها ميمونة ميمون أهلها محفوظة محفوظ أهلها هم في صلاتهم والله عز وجل في حوائجهم هم في مساجدهم والله من ورائهم “ .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ ﴾ « أذن » معناه أمر وقضى . وحقيقة الإذن العلم والتمكين دون حظر؛ فإن اقترن بذلك أمر وإنفاذ كان أقوى . و « ترفع » قيل : معناه تُبْنَى وتُعلَى ؛ قاله محاهد وعكرمة . ومنه قوله تعالى : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ » . وقال صلى الله عليه وسلم : ” من بنى مسجدا من ماله بنى الله له بيتا في الجنة “ . وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة تحض على بنيان المساجد . وقال الحسن البصري وغيره : معنى « ترفع » تعظم ، ويرفع شأنها ، وتطهر من الأنجاس والأقذار ؛ ففي الحديث ” أن المسجد ليستزوى من النجاسة كما يزوى الجلد من النار “ . وروى ابن ماجه في سننه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من أخرج أذى من المسجد بنى الله له بيتا في الجنة “ . وروى عن عائشة قالت : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتخذ المساجد في الدور وأن تطهر وتطيب .

الثالثة — إذا قلنا : إن المراد ببنائها فهل تزين وتنقش ؟ اختلف في ذلك ؛ فكرهه قوم وأباحه آخرون . فروى حماد بن سلمة عن أيوب عن أبي قلابة عن أنس وقتادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” لا تقوم الساعة حتى نتباهي الناس في المساجد “ . أخرجه أبو داود . وفي البخاري — وقال أنس : ” يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلا “ . وقال

ابن عباس : لَتَرْخِفُنَهَا كَمَا زَخَرَفَتِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى . وروى الترمذى الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول من حديث أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إذا زخرفتم مساجدكم وحلّيتم مصاحفكم فالدّبار عليكم “ . احتجّ من أباح ذلك بأن فيه تعظيم المساجد والله تعالى أمر بتعظيمها في قوله « في بيوت أذن الله أن ترفع » يعنى تعظم . وروى عن عثمان أنه بنى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالسّاح<sup>(١)</sup> وحسنه . قال أبو حنيفة : لا بأس بنقش المساجد بماء الذهب . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه نقش مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وبالع في عمارته وتزيينه ، وذلك في زمن ولايته قبل خلافته ، ولم ينكر عليه أحد ذلك . وذكر أن الوليد بن عبد الملك أنفق في عمارة مسجد دمشق وفي تزيينه مثل خراج الشام ثلاث مرات . وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام بنى مسجد بيت المقدس وبالع في تزيينه .

الرابعة — ومما تصان عنه المساجد وتنزه عنه الرواح الكريمة والأقوال السيئة وغير ذلك على ما نبينه ؛ وذلك من تعظيمها . وقد صح من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في غزوة تبوك : ” من أكل من هذه الشجرة — يعنى الثوم — فلا يأتين المساجد “ . وفي حديث جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” من أكل من هذه البقلة الثوم “ وقال مرة : ” من أكل البصل والثوم والكراث فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم “ . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه في خطبته : ثم إنكم أيها الناس تأكلون شجرتين ولا أراهما إلا خبيثتين ، هـذا البصل والثوم ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجد ريحهما من رجل في المسجد أمر به فأخرج إلى البقيع ، فمن أكلهما فليمتهم طبخا . خرّجه مسلم في صحيحه . قال العلماء : وإذا كانت العلة في إخراجهم من المسجد أنه يتأذى به ففى القياس أن كل من تأذى به جيرانه في المسجد بأن يكون ذرب اللسان سفيها عليهم ، أو كان ذا رائحة قبيحة لا تريعه لسوء صناعته ، أو عاهة مؤذية كالجلانام

(١) الساج : شجر يعظم جدا ، لا ينبت إلا ببلاد الهند ، وخشبها أسود رزين ، لا تكاد الأرض تبليه .

(٢) أى لا تفارقه .

وشبهه . وكل ما يتأذى به الناس كان لهم إخراجهم ما كانت العلة موجودة فيه حتى نزول . وكذلك يجتذب مجتمع الناس حيث كان لصلاة أو غيرها كجالس العلم والولائم وما أشبهها ، مَنْ أكل الثوم وما في معناه ، مما له رائحة كريهة تؤذى الناس . ولذلك جمع بين البصل والثوم والكراث ، وأخبر أن ذلك مما يتأذى به . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد شاهدت شيخنا أبا عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام<sup>(١)</sup> رحمه الله أفتى في رجل شكاه جيرانه وآتفقوا عليه أنه يؤذيهم في المسجد بلسانه ويده فشؤروا فيه ، فأفتى بإخراجه من المسجد وإبعاده عنه ، وألا يشاهد معهم الصلاة ؛ إذ لا سبيل مع جنونه واستطالته إلى السلامة منه ، فذاكرته يوما أمره وطالبته بالدليل فيما أفتى به من ذلك وراجعته فيه القول ؛ فاستدل بحديث الثوم ، وقال : هو عندي أكثر أذى من أكل الثوم ، وصاحبه يمنع من شهود الجماعة في المسجد .

قلت : وفي الآثار المرسلة « أن الرجل ليكذب الكذبة فيتباعد عنه الملك من أن ريحه » . فعلى هذا يخرج من عرف منه الكذب والتقوّل بالباطل فإن ذلك يؤذى .

الخامسة — أكثر العلماء على أن المساجد كلها سواء ؛ لحديث ابن عمر . وقال بعضهم : إنما خرج النهي على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل جبريل عليه السلام ونزوله فيه ؛ ولقوله في حديث جابر : « فلا يقربن مسجدا » . والأوّل أصح ، لأنه ذكر الصفة في الحكم وهي المسجدية ، وذكر الصفة في الحكم تعليل . وقد روى الثعلبي بإسناده عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتي الله يوم القيامة بمساجد الدنيا كأنها نجائب بيض قوائمها من العنبر وأعناقها من الزعفران ورءوسها من المسك وأزيمتها من الزبرجد الأخضر وقوائمها والمؤذنون فيها يقودونها وأئمتها يسوقونها وعمارها متعلقون بها فتجوز عرصات القيامة كالبرق الخاطف فيقول أهل الموقف هؤلاء ملائكة مقربون وأنبياء مرسلون فينادى ما هؤلاء بملائكة ولا أنبياء ولكنهم أهل المساجد والمحافظة على الصلوات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم » . وفي التزييل « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ » . وهذا عام<sup>(٢)</sup>

(١) في بعض نسخ الأصل : « هاشم » . (٢) آية ١٨ سورة التوبة . راجع ج ٨ ص ٩٠ .

في كل مسجد . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فأشهدوا له بالإيمان إن الله تعالى يقول «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر» " . وقد تقدم .

السادسة - وتصان المساجد أيضا عن البيع والشراء وجميع الاشتغال ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي دعا إلى الجمل الأحمر : <sup>(١)</sup> " لا وَجَدَتْ إنما بُنِيَت المساجد لما بُنِيَتْ له " . أخرجه مسلم من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما صلى قام رجل فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا وَجَدَتْ إنما بُنِيَت المساجد لما بُنِيَتْ له " . وهذا يدل على أن الأصل ألا يعمل في المسجد غير الصلوات والأذكار وقراءة القرآن . وكذا جاء مفسرا من حديث أنس قال : بينما نحن في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَهْ مَهْ ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تُزِرُّمُوهُ دَعُوهُ " . فتركوه حتى بال ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له : " إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن " . أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأمر رجلا من القوم بخفاء بدأوا من ماء فشنته عليه . أخرجه مسلم . ومما يدل على هذا من الكتاب قوله الحق : «وَيُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُهُ» . وقوله صلى الله عليه وسلم لمعاوية بن الحكم السلمي : <sup>(٢)</sup> " إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن " . أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحديث بطوله أخرجه مسلم في صحيحه ، وحسبك ! وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه صوت رجل في المسجد فقال : ما هذا الصوت ! أتدرى أين أنت ! وكان خلف بن أيوب جالسا في مسجده فأتاه غلامه يسأله عن شيء فقام وخرج من المسجد وأجابه ؛ ف قيل له في ذلك فقال : ما تكلمت في المسجد بكلام الدنيا منذ كذا وكذا ، فكروا أن أتكلّم اليوم .

(١) أي من وجد ضالتي ، وهو الجمل الأحمر فدعاني إليه . (٢) أي لا تقطعوا عليه بوله ؛ يقال : زرم البول (بالكسر) أنقطع ؛ وأزرمه غيره . (٣) الشق : الصب المنقطع ؛ أي رشه عليه رشاً متفرقا . (٤) الذي في صحيح مسلم : « إن هذه الصلاة ... الخ » .

السابعة - روى الترمذى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن تناشد الأشعار في المسجد ، وعن البيع والشراء فيه ، وأن يتحلق الناس يوم الجمعة قبل الصلاة . قال : وفي الباب عن بُريدة وجابر وأنس حديث عبدالله ابن عمرو حديث حسن . قال محمد بن إسماعيل : رأيت مجدا وإسحاق وذكر غيرهما يحتجون بحديث عمرو بن شعيب . وقد كره قوم من أهل العلم البيع والشراء في المسجد ؛ وبه يقول أحمد وإسحاق . وروى أن عيسى بن مريم عليهما السلام أتى على قوم يتبايعون في المسجد بفعل رداء مخرقا ، ثم جعل يسعى عليهم ضربا ويقول : يا أبناء الأفاعى ، اتخذتم مساجد الله أسواقا ! هذا سوق الآخرة .

قلت : وقد كره بعض أصحابنا تعليم الصبيان في المساجد ، ورأى أنه من باب البيع . وهذا إذا كان بأجرة ، فلو كان بغير أجرة لمنع أيضا من وجه آخر ، وهو أن الصبيان لا يتحززون عن الأقدار والوسخ ؛ فيؤدى ذلك إلى عدم تنظيف المساجد ، وقد أمر صلى الله عليه وسلم بتنظيفها وتطهيرها فقال : ” جَنَّبُوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وسلّ سيوفكم وإقامة حدودكم ورفع أصواتكم وخصوصاتكم وأجروها في الجمع وأجعلوا على أبوابها المطاهر “ . في إسناده العلاء بن كثير الدهشقي مولى بنى أمية ، وهو ضعيف عندهم ؛ ذكره أبو أحمد بن عدي الجرجاني الحافظ . وذكر أبو أحمد أيضا من حديث علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : صليت العصر مع عثمان أمير المؤمنين فرأى خياطا في ناحية المسجد فأمر بإخراجه ؛ فقليل له : يا أمير المؤمنين ، إنه يكنس المسجد ويغلق الأبواب ويرش أحيانا . فقال عثمان : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” جَنَّبُوا صنائعكم من مساجدكم “ . هذا حديث غير محفوظ ، في إسناده محمد بن مجيب الثقفى ، وهو ذاهب الحديث .

قلت : ما ورد في هذا المعنى وإن كان طريقه لينّا فهو صحيح معنى ؛ يدل على صحته ما ذكرناه قبل . قال الترمذى : وقد روى عن بعض أهل العلم من التابعين رخصة في البيع

(١) الذى فى الترمذى : « أحمد » . (٢) انخرق : ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا .

والشراء في المسجد . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في غير حديث رخصة في إنشاء الشعر في المسجد .

قلت : أما تناشد الأشعار فاختلف في ذلك ، فمن مانع مطلقا ، ومن مجيز مطلقا . والأولى التفصيل ، وهو أن يُنظر إلى الشعر فإن كان مما يقتضى الشاء على الله عز وجل أو على رسوله صلى الله عليه وسلم أو الذبّ عنهما كما كان شعر حسان ، أو يتضمن الخوض على الخير والوعظ والزهد في الدنيا والتقلل منها ، فهو حسن في المساجد وغيرها ؛ كقول القائل :

طَوَّفِي يَا نَفْسُ كِي أَقْصِدَ فَرْدًا صَمَدًا \* وَذَرِينِي لَسْتُ أَبْغِي غَيْرَ رَبِّي أَحَدًا

(١)

فهو أنسى وجليسى ودعى الناس \* فما إن تجدى من دونه ملتحدا

وما لم يكن كذلك لم يحجز ؛ لأن الشعر في الغالب لا يخلو عن الفواحش والكذب والترين بالباطل ، ولو سلم من ذلك فأقل ما فيه اللغو والهذر ، والمساجد منزهة عن ذلك ؛ لقوله تعالى : « فِي بُيُوتٍ إِذْنُ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ » . وقد يجوز إنشاده في المسجد ؛ كقول القائل :

كَفَحَلِّ الْعَذَابِ الْفَرْدِ يَضْرِبُهُ النَّدَى \* تَعَلَّى النَّدَى فِي مَتْنِهِ وَتَحَدَّرَا

وقول الآخر :

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ \* رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا

فهذا النوع وإن لم يكن فيه حمد ولا ثناء يجوز ؛ لأنه خالٍ عن الفواحش والكذب . وسيأتى ذكر الأشعار الجائزة وغيرها بما فيه كفاية في « الشعراء » إن شاء الله تعالى . وقد روى الدارقطني من حديث هشام بن عمرو عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : ذكر الشعراء عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « هو كلام حسن حسنه حسن وقيحه قبيح » . وفي الباب عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة وابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم . ذكره في السنن .

قلت : وأصحاب الشافعي يأترون هذا الكلام عن الشافعي وأنه لم يتكلم به غيره ؛ وكأنهم

لم يقفوا على الأحاديث في ذلك . والله أعلم .

(١) هكذا ورد هذا الشعر في نسخ الأصل ؛ ولم نعرف من أي وزن هو . (٢) العذاب (بالفتح والبدال

المهملة) : ما استرق من الرمل . وقيل : جانبه الذي يرق ويلى الجدد من الأرض . الواحد والجمع سواء .



الثامنة — وأما رفع الصوت فإن كان مما يقتضى مصلحة للرافع صوته دُعى عليه بتقيض قصده؛ لحديث بريرة المتقدم ، وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من سمع رجلاً يَنشُد ضالةً في المسجد فليقل لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تُبن لهذا “ . وإلى هذا ذهب مالك وجماعة ، حتى كرهوا رفع الصوت في المسجد في العلم وغيره . وأجاز أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن مسلمة من أصحابنا رفع الصوت في الحصومة والعلم ؛ قالوا : لأنهم لا بد لهم من ذلك . وهذا مخالف لظاهر الحديث ، وقولهم : « لا بد لهم من ذلك » ، ممنوع ، بل لهم بد من ذلك لوجهين : أحدهما بملازمة الوقار والحرمة ، وبإحضار ذلك بالبال والتحرز من تقيضه . والثاني أنه إذا لم يتمكن من ذلك فليتخذ لذلك موضعاً يخصه ، كما فعل عمر حيث بنى رجة تُسمَّى البطيحاء ، وقال : من أراد أن يَلْقَطَ أو يَنشُد شعراً — يعنى في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم — فليخرج إلى هذه الرجة . وهذا يدل على أن عمر كان يكره إنشاد الشعر في المسجد ، ولذلك بنى البطيحاء خارجه .

التاسعة — وأما النوم في المسجد لمن احتاج إلى ذلك من رجل أو امرأة من الغرباء ومن لا بيت له بفائز ؛ لأن في البخارى — وقال أبو قلابة عن أنس : قديم رهط من عُكْل على النبي صلى الله عليه وسلم فكانوا في الصفة <sup>(١)</sup> ، وقال عبد الرحمن بن أبي بكر : كان أصحاب الصفة فقراء . وفي الصحيحين عن ابن عمر أنه كان ينام وهو شاب أعزب لا أهل له في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم . لفظ البخارى . وترجم ( باب نوم المرأة في المسجد ) وأدخل حديث عائشة في قصة السوداء التى اتهمها أهلها بالوشاح ، قالت عائشة : وكان لها خِباء في المسجد أو حِفْش <sup>(٢)</sup> ... الحديث . ويقال : كان مبيت عطاء بن أبي رباح في المسجد أربعين سنة .

(١) موضع مظلل في أتراب المسجد النبوى تأوى إليه المساكين . (٢) السوداء : يريد أمة سوداء كانت لحنى من العرب ، قاتموها بسرقة وشاح وطفقوا يفتشون حتى فتشوا قبلها . قالت : والله إنى لقائمة معهم إذ مرت الحدياة فالتفته بينهم ... بغاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ، فكان لها خباء في المسجد ... راجع صحيح البخارى ( باب المساجد ) . (٣) الخباء : الخيمة من صوف أو وبر . والحفش ( بكسر الحاء وسكون الفاء ) : بيت صغير .

العاشرة — روى مسلم عن أبي حميد أو عن أبي أسيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل اللهم إني أسألك من فضلك “ . خرجه أبو داود كذلك ؛ إلا أنه زاد بعد قوله ” إذا دخل أحدكم المسجد : فليسلم وليصل<sup>(١)</sup> على النبي صلى الله عليه وسلم ثم ليقول اللهم افتح لي ... “ الحديث . وروى ابن ماجه عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد قال ” باسم الله والسلام على رسول الله اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج قال باسم الله والصلاة على رسول الله اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك وفضلك “ . وروى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إذا دخل أحدكم المسجد فليصل على النبي صلى الله عليه وسلم وليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وليقل اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك “ . وخرجه أبو داود عن حيوة بن شريح قال : لقيت عقبة بن مسلم فقلت له بلغني أنك حدثت عن عبد الله بن عمرو بن العاصي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا دخل المسجد قال ” أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم “ قال نعم . قال : فإذا قال ذلك قال الشيطان حُفِظَ مِنِّي سائر اليوم .

الحادية عشرة — روى مسلم عن أبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس “ وعنه قال : دخلت المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بين ظهراني الناس ، قال فجلست فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ما منعك أن ترركع ركعتين قبل أن تجلس “ ؟ فقلت : يا رسول الله ، رأيتك جالسا والناس جلوس . قال : ” فإذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين “ . قال العلماء : بفعل صلى الله عليه وسلم للمسجد منزلة يتميز بها عن سائر البيوت ، وهو ألا يجلس حتى يركع . وعامة العلماء على أن الأمر بالركوع على الندب والترغيب .

(١) الذي في سنن أبي داود ” فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم “ .

وقد ذهب داود وأصحابه إلى أن ذلك على الوجوب ؛ وهذا باطل ، ولو كان الأمر على ما قالوه لحرم دخول المسجد على المحدث الحدث الأصغر حتى يتوضأ ، ولا قائل به فيما أعلم ، والله أعلم . فإن قيل : فقد روى إبراهيم بن يزيد عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين وإذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين فإن الله جاعل من ركعته في بيته خيرا “ ، وهذا يقتضى التسوية بين المسجد والبيت . قيل : هذه الزيادة في الركوع عند دخول البيت لا أصل لها ؛ قال ذلك البخارى . وإنما يصح في هذا حديث أبي قتادة الذى تقدم لمسلم ، وإبراهيم هذا لا أعلم روى عنه إلا سعد بن عبد الحميد ، ولا أعلم له إلا هذا الحديث الواحد ؛ قاله أبو محمد عبد الحق .

الثانية عشرة — روى سعيد بن زبّان حدثني أبي عن أبيه عن جده عن أبي هند رضى الله عنه قال : حمل تميم — يعنى الدارى — من الشام إلى المدينة فناديل وزيتاً ومقطاً ، فلما انتهى إلى المدينة وافق ذلك ليلة الجمعة فأمر غلاماً يقال له أبو البراد فقام فنشط<sup>(١)</sup> المقط وعلق الفناديل وصب فيها الماء والزيت وجعل فيها الفتيل ؛ فلما غربت الشمس أمر أبا البراد فأسرجها ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا هو بها تزهراً ؛ فقال : ” من فعل هذا “ ؟ قالوا : تميم الدارى يا رسول الله ؛ فقال : ” نورت الإسلام نور الله عليك فى الدنيا والآخرة أما إنه لو كانت لى آبنة لزوجتكمها “ . قال نوفل بن الحارث : لى آبنة يا رسول الله تسمى المغيرة بنت نوفل فأفعل بها ما أردت ؛ فأنكحه إياها . زبّان (بفتح الزاى والباء وتشديد هاء بنقطة واحدة من تحتها) ينفرد بالتسمى به سعيد وحده ، فهو أبو عثمان سعيد بن زبّان بن قائد بن زبّان بن أبى هند ، وأبو هند هذا مولى ابن بياضة حجام النبى صلى الله عليه وسلم . والمقط : جمع المقاط ، وهو الحبل ، فكأنه مقلوب القباط . والله أعلم . وروى ابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى قال : أقول من أسرج فى المساجد تميم الدارى . وروى عن أنس أن النبى

(١) نشط الحبل : ربطه .

صلى الله عليه وسلم قال : "من أسرج في مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحمة العرش يصلون عليه ويستغفرون له ما دام ذلك الضوء فيه وإن كنس غبار المسجد نقد الحُور العين" .  
قال العلماء : ويستحب أن يتور البيت الذي يقرأ فيه القرآن بتعليق القناديل ونصب الشموع فيه ، ويزاد في شهر رمضان في أنوار المساجد .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ ﴾ اختلف العلماء في وصف الله تعالى المسبحين ؛ فقليل : هم المراقبون أمر الله ، الطالبون رضاه ، الذين لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا . وقال كثير من الصحابة : نزلت هذه الآية في أهل الأسواق الذين إذا سمعوا النداء بالصلاة تركوا كل شغل وبادروا . ورأى سالم بن عبد الله أهل الأسواق وهم مقبلون إلى الصلاة فقال : هؤلاء الذين أراد الله بقوله « لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » . وروى ذلك عن ابن مسعود . وقرأ عبد الله بن عامر وعاصم في رواية أبي بكر عنه والحسن « يسبح له فيها » بفتح الباء على ما لم يسم فاعله . وكان نافع وابن عمر وأبو عمرو وحمزة يقرءون « يُسَبِّح » بكسر الباء ؛ وكذلك روى أبو عمرو عن عاصم . فمن قرأ « يسبح » بفتح الباء كان على معنيين : أحدهما أن يرتفع « رجال » بفعل مضمر دل عليه الظاهر ؛ بمعنى يسبحه رجال ؛ فيوقف على هذا على « الآصال » . وقد ذكر سيبويه مثل هذا . وأنشد :

لِيُكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لَخْصُومَةٍ \* وَخُتِيطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ<sup>(١)</sup>

المعنى : يبكيه ضارع . وعلى هذا تقول : ضرب زيد عمرو ؛ على معنى ضربه عمرو . والوجه الآخر — أن يرتفع « رجال » بالابتداء ، والخبر « في بيوت » ؛ أي في بيوت أذن الله أن ترفع رجال . و « يسبح له فيها » حال من الضمير في « ترفع » ؛ كأنه قال : أن ترفع ؛

(١) اختلف في قائله ، ونسبه صاحب الخزائن لنسبل بن حري . وهذا البيت من أبيات في مرثية أخيه يزيد ، ومطلعها :

أعمرى لئن أمسى يزيد بن نهشل \* حشا جدت تسنى عليه الروائع

وقوله : « ضارع » من الضراعة ، وهو الخضوع والتذلل . و « الختيط » الذي يسألك من غير معرفة كانت بينكما ؛ وأراد به هنا المحتاج . و « تطيح » تذهب وتهلك . و « الطوائع » جمع مطيعة ، وهي القوافذ . و « الحشا » ما في البطن . و « جدت » بفتح الجيم والشاء : القبر . و « الروائع » : الأيام الروائع .

مُسَبِّحًا لَهُ فِيهَا ، ولا يوقف على « الآصال » على هذا التقدير . ومن قرأ « يسبح » بكسر الباء لم يوقف على « الآصال » ؛ لأن « يسبح » فعل للرجال ، والفعل مضطار إلى فاعله ولا إضمار فيه . وقد تقدم القول في « الغدو والآصال » في آخر « الأعراف » والحمد لله وحده .

الرابعة عشرة - قوله تعالى : ( يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ) قيل : معناه يصلي . وقال ابن عباس : كل تسبيح في القرآن صلاة ؛ ويدل عليه قوله « بِالْغَدُوِّ وَالْآصَالِ » ، أى بالغداة والعشي . وقال أكثر المفسرين : أراد الصلاة المفروضة ؛ فالغدو صلاة الصبح ، والآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين ؛ لأن أسم الآصال يجمعها .

الخامسة عشرة - روى أبو داود عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من خرج من بيته متطهرًا إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المحرم ومن خرج إلى تسبيح الضحى لا ينصبه إلا إياه فأجره كأجر المعتبر وصلاة على إثر صلاة [ لا لغو بينهما ] كتاب في عليين " . وخرج عن بريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة " . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من غدا إلى المسجد أراح أعد الله له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح " . في غير الصحيح من الزيادة " كما أن أحدكم لو زار من يحب زيارته لأجتمه في كرامته " ؛ ذكره الثعلبي . وخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداهما تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة " . وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه بضعا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة لا يريد إلا الصلاة فلم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه والملائكة يصلون على " .

(١) راجع ج ٧ ص ٣٥٥ وما بعدها طبة أولى أو ثانية . (٢) زيادة عن سنن أبي داود .

(٣) التفسير : الدفع .

أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه يقولون اللهم أرحمه اللهم أغفر له اللهم تب عليه ما لم يؤذ فيه ما لم يحدث فيه . في رواية : ما يحدث : قال ” يفسؤ أو يضطر ” . وقال حكيم بن زريق : قيل لسعيد بن المسيب أحضور الجنازة أحب إليك أم الجلوس في المسجد ؟ فقال : من صلى على جنازة فله قيراط ، ومن شهد دفنها فله قيراطان ؛ والجلوس في المسجد أحب إلى ؛ لأن الملائكة تقول : اللهم أغفر له اللهم أرحمه اللهم تب عليه . وروى عن الحكم بن عمير صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” كونوا في الدنيا أضيافا وأخذوا المساجد بيوتا وعقدوا قلوبكم الرقة وأكثروا التفكير والبكاء ولا تختلف بكم الأهواء . تبنون مالا تسكنون وتجمعون مالا تأكلون وتؤملون مالا تدركون ” . وقال أبو الدرداء لأبنته : ليكن المسجد بيتك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” إن المساجد بيوت المتقين . ومن كانت المساجد بيته ضمن الله تعالى له الروح والراحة والجواز على الصراط ” . وكتب أبو صادق الأزدي إلى شعيب بن الحبحاب : أن عليك بالمساجد فالزمها ؛ فإنه بلغني أنها كانت مجالس الأنبياء . وقال أبو إدريس الخولاني : المساجد مجالس الكرام من الناس . وقال مالك بن دينار : بلغني أن الله تبارك وتعالى يقول ” إني أهم بعذاب عبادي فأنظر إلى عمار المساجد وجلساء القرآن وولدان الإسلام فيسكن غضبي ” . وروى عنه عليه السلام أنه قال : سيكون في آخر الزمان رجال يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقا حلقا ذكروهم الدنيا وحبها فلا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة ” . وقال ابن المسيب : من جلس في مسجد فإنما يجالس ربه ، فما حقه أن يقول إلا خيرا . وقد مضى من تعظيم المساجد وحرمتها ما فيه كفاية . وقد جمع بعض العلماء في ذلك خمس عشرة خصلة ، فقال : من حرمة المسجد أن يسلم وقت الدخول إن كان القوم جلوسا ، وإن لم يكن في المسجد أحد قال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وأن يركع ركعتين قبل أن يجلس ، وألا يشتري فيه ولا يبيع ، ولا يسئل فيه سهما ولا سيفا ، ولا يطالب فيه ضالة ، ولا يرفع فيه صوتا

بغير ذكر الله تعالى، ولا يتكلم فيه بأحاديث الدنيا، ولا يتخطى رقاب الناس، ولا ينازع في المكان، ولا يضيق على أحد في الصف، ولا يمز بين يدي مصلٍّ، ولا يبصق، ولا يتنخم، ولا يتخط فيه، ولا يفرع أصابعه، ولا يعبت بشيء من جسده، وأن ينزه عن النجاسات والصبيان والمجانين، وإقامة الحدود، وأن يكثر ذكر الله تعالى ولا يغفل عنه . فإذا فعل هذه الخصال فقد أدى حق المسجد، وكان المسجد حرزاً له وحصناً من الشيطان الرجيم . وفي الخبر " أن مسجداً ارتفع بأهله إلى السماء يشكوه إلى الله لما يتحدثون فيه من أحاديث الدنيا " . وروى الدارقطني عن عامر الشعبي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أقتراب الساعة أن يرى الهلال قبلاً <sup>(١)</sup> فيقال لليلتين وأن تتخذ المساجد طُرُقاً وأن يظهر موت الفجأة " . هذا يرويه عبد الكبير بن المعافى عن شريك عن العباس بن ذريح عن الشعبي عن أنس . وغيره يرويه عن الشعبي مرسلًا، والله أعلم . وقال أبو حاتم : عبد الكبير بن معافى ثقة كان يعد من الأبدال . وفي البخاري عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من مر في شيء من مساجدنا أو أسواقنا بنبل فليأخذ على نصالها لا يعقر بكفه مسلماً " . وخرج مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " البراق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها " . وعن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " عرضت على أعمال أمتي حسنًا وسيئًا فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يُمَاط عن الطريق ووجدت في مساوي أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تُدفن " . وخرج أبو داود عن الفرغ بن فضالة عن أبي سعيد الخدري قال : رأيت وائلة بن الأسقع في مسجد دمشق بصق على الحصير ثم مسحه برجله ، فقيل له : لم فعلت هذا؟ قال : لأني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله . فرج بن فضالة ضعيف، وأيضاً فلم يكن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حُصْر . والصحيح أن رسول الله صلى

(١) قال ابن الأثير : « أي يرى ساعة ما يطلع لعظمه ووضوحه من غير أن يطلب . وهو يفتح انقاف والباء . »

(٢) الأبدال : قوم من الصالحين ، بهم يقم الله الأرض ، أربعون في الشام وثلاثون في سائر البلاد ، لا يموت منهم أحد الا قام مكانه آخر ، فذلك سموهم أبدالاً . وراحد الأبدال العباد بذل وبذل . وقال ابن دريد : الواحد بديل .

(٣) النخاعة : النخامة . (٤) في الأصول : « عن أبي سعيد الخدري » وهو تحريف ، لأن فرج بن

فضالة لم يرو عن أبي سعيد الخدري ، وإنما روى عن أبي سعيد الخدري ، وأبو سعد هذا صاحب وائلة بن الأسقع .

الله عليه وسلم إنما بصق على الأرض وذلكه بنعله اليسرى ، ولعل وائلة إنما أراد هذا فحمل الحصر عليه .

السادسة عشرة — لما قال تعالى : « رجال » وخصهم بالذكر دل على أن النساء لا حظ لهن في المساجد ؛ إذ لا جمعة عليهن ولا جماعة ، وأن صلاتهن في بيوتهن أفضل . روى أبو داود عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها » .

السابعة عشرة — قوله تعالى . ﴿ لَا تُلْهِيمُهُمْ ﴾ أى لا تشغلهم . ﴿ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ خص التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل بها الإنسان عن الصلاة . فإن قيل : فلم كرر ذكر البيع والتجارة تشمله . قيل له : أراد بالتجارة الشراء لقوله « ولا بيع » . نظيره قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا <sup>(١)</sup> آفَضُوا إِلَيْهَا » قاله الواقدي . وقال الكلبي : التجار هم الحُلاَّب المسافرون ، والباعة هم المقيمون . ﴿ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ اختلف في تأويله ؛ فقال عطاء : يعنى حضور الصلاة ؛ وقاله ابن عباس ، وقال : المكتوبة . وقيل عن الأذان ؛ ذكره يحيى بن سلام . وقيل : عن ذكره بأسمائه الحسنى ؛ أى يوحدونه ويمجدونه . والآية نزلت في أهل الأسواق ؛ قاله ابن عمر . قال سالم : جاز عبد الله بن عمر بالسوق وقد أغلقوا حوانيتهم وقاموا ليصلوا في جماعة فقال : فيهم نزلت « رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا » الآية . وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : هم الذين يضربون في الأرض ينتغون من فضل الله . وقيل : إن رجلين كانا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، أحدهما بياغا فإذا سمع النداء بالصلاة فإن كان الميزان بيده طرحه ولا يضعه وضعا ، وإن كان بالأرض لم يرفعه . وكان الآخر قينا يعمل السيوف للتجارة ، فكان إذا كانت مطرقته على السندان أبقاها موضوعة ، وإن كان قد رفعها ألقاها من وراء ظهره إذا سمع الأذان ؛ فأنزل الله تعالى هذا ثناء عليهما وعلى كل من آفدى بهما .

(١) آخر سورة الجمعة .



الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاقَامِ الصَّلَاةَ ﴾ هذا يدل على أن المراد بقوله « عن ذكر الله » غير الصلاة؛ لأنه يكون تكراراً . يقال : أقام الصلاة إقامةً، والأصل إقواماً فقلبت حركة الواو على القاف فانقلبت الواو ألفاً وبعدها ألف ساكنة لحذفت إحداهما، وأثبتت الهاء لثلاث حذفها فتجحف، فلما أضيفت قام المضاف مقام الهاء بخاز حذفها، وإن لم تضاف لم يحز حذفها؛ ألا ترى أنك تقول : وَعَدَ عِدَّةً، وَوَزَنَ زِنَةً، فلا يجوز حذف الهاء لأنك قد حذفته واواً، لأن الأصل وَعَدَ وَعِدَّةً، وَوَزَنَ وَزِنَةً، فإن أضفت حذف الهاء، وأنشد القراء :

إِنَّ الْخَلِيطَ أَجَدُّوا الْبَيْنَ فَأَنْجَرَدُوا \* وَأَخْلَفوكَ عِدَّ الْأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا

يريد عِدَّةً، لحذف الهاء لما أضاف . وروى من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يأتي الله يوم القيامة بمساجد الدنيا كأنها نُجَبٌ بيض قوائمها من العنبر وأعناقها من الزعفران ورءوسها من المسك وأذنتها من الزبرجد الأخضر وقوائمها والمؤذنون فيها يقودونها وأئمتها يسوقونها وعمارها متعلقون بها فتجوز عَرَصات القيامة كالبرق الخاطف فيقول أهل الموقف هؤلاء ملائكة مقرَّبون أو أنبياء مرسلون فينادى ما هؤلاء بملائكة ولا أنبياء ولكنهم أهل المساجد والمحافظة على الصلوات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم “ . وعن علي رضي الله عنه أنه قال : يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، يعمرون مساجدهم وهي من ذكر الله خراب، شرُّ أهل ذلك الزمن علمائهم، منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود؛ يعني أنهم يعلمون ولا يعملون بواجبات ما علموا .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ قيل : الزكاة المفروضة؛ قاله الحسن . وقال ابن عباس : الزكاة هنا طاعة الله تعالى والإخلاص؛ إذ ليس لكل مؤمن مال . ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا ﴾ يعني يوم القيامة . ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ يعني من هوله وحذر الهلاك . والتقلب التحول، والمراد قلوب الكفار وأبصارهم . فتقلب القلوب انتزاعها من أماكنها إلى الخناجر، فلا هي ترجع إلى أماكنها ولا هي تخرج . وأما تقلب الأبصار فالزرق بعد الكحل والعمى بعد البصر . وقيل : تتقلب القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من

الهلاك ، والأبصار تنظر من أى ناحية يعطون كتبهم ، وإلى أى ناحية يؤخذ بهم .  
وقيل : إن قلوب الشاكنين تحول عما كانت عليه من الشك ، وكذلك أبصارهم لرؤيتهم اليقين ؛  
وذلك مثل قوله تعالى : « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ »<sup>(١)</sup> ؛ فما كان يراه في الدنيا  
غَيًّا يراه رُشْدًا ؛ إلا أن ذلك لا ينفعهم في الآخرة . وقيل : تقاب على جمر جهنم ؛ كقوله  
تعالى : « يَوْمَ تَقَابُ وُجُوهُمْ فِي النَّارِ »<sup>(٢)</sup> ، « وَتَقَابُ أَفْئِدَتُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ »<sup>(٣)</sup> . في قول من جعل  
المعنى تقابلها على لهب النار . وقيل : تقاب بأن تلتفحها النار مرة وتُنضجها مرة . وقيل إن  
تقلب القلوب وجيبها ، وتقلب الأبصار النظر بها إلى نواحي الأهوال . ﴿ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ  
مَا عَمِلُوا ﴾ فذكر الجزاء على الحسنات ، ولم يذكر الجزاء على السيئات وإن كان يجازى عليها  
لأمرين : أحدهما — أنه ترغيب ، فأقتصر على ذكر الرغبة . الثاني — أنه في صفة قوم  
لا تكون منهم الكجائر ؛ فكانت صفائهم مغفورة . ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ يحتمل وجهين :  
أحدهما — ما يضاعفه من الحسنات بعشر أمثالها . الثاني — ما يفضل به من غير جزاء .  
﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى من غير أن يحسابه على ما أعطاه ؛ إذ لا نهاية  
لعطائه . وروى أنه لما نزلت هذه الآية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء مسجد قباء ،  
فحضر عبد الله بن رواحة فقال : يا رسول الله ، قد أفلح من بنى المساجد ؟ قال : « نعم  
يا بن رواحة » قال : وصلى فيها قائما وقاعدا ؟ قال : « نعم يا بن رواحة » قال : ولم يبيت  
لله إلا ساجدا ؟ قال : « نعم يا بن رواحة . كُفَّ عن السَّجْع فما أعطى عبد شيئا شرا من طلاقة  
في لسانه » ؛ ذكره الماوردي .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ  
مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ  
سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾

(١) آية ٢٢ سورة ق . (٢) آية ٦٦ سورة الأحزاب . (٣) آية ١١٠ سورة الأنعام .

(٤) وجب القلب وجيبا : اضطرب .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ لما ضرب مثل المؤمن ضرب مثل الكافر . قال مقاتل : نزلت في شيبة بن ربيعة بن عبد شمس ، كان يترهب متلماً للمؤمنين ، فلما نحر صلى الله عليه وسلم كفر . أبو سهل : في أهل الكتاب . الضحاك : في أعمال الخير للكافر ، كصلة الرحم ونفع الجيران . والسراب : ما يرى نصف النهار في اشتداد الحر ، كالماء في المفاوز يلتصق بالأرض . والآل الذي يكون ضحاً كالماء إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء . وسُمي السراب سرايا لأنه يسرب أي يجري كالماء . ويقال : سرب الفحل أي مضى وسار في الأرض . ويسمى الآل أيضاً ، ولا يكون إلا في البرية والحريفة غربة العطشان . قال الشاعر :

فكنت كمهريق الذي في سقائه \* لرقراق آل فوق رابية صلد

وقال آخر :

فلما كففتنا الحرب كانت عهدهم \* ككلمع سراب بالفلأ متألّق

وقال امرؤ القيس :

ألم أنض الميطى بكل خرق \* أمق الطويل لماع السراب

والقيعة جمع القاع ، مثل جيرة وجار ، قاله الهروي وقال أبو عبيدة : قيعة وقاع واحد ، حكاه النحاس . والقاع ما أنبسط من الأرض واتسع ولم يكن فيه نبت ، وفيه يكون السراب . وأصل القاع الموضع المنخفض الذي يستقر فيه الماء ، وجمعه قيعان . قال الجوهري : والقاع المستوى من الأرض ، والجمع أقوع وأقواع وقيعان ، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها ، والقيعة مثل القاع ، وهو أيضاً من الواو . وبعضهم يقول : هو جمع . ( يحسبه الظمان ) أي العطشان . ( ماء ) أي يحسب السراب ماء . ( حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ) مما قدره ووجد أرضاً لا ماء فيها . وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار ، يعولون على ثواب أعمالهم فإذا

(١) في الأصول : « طو بل الطول » والنصيب عن ديوان امرئ القيس . والأماق : الطويل . قال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب ( شارح الديوان ) : وفي البيت ما يسأل عنه من طريق العربية ، وهو إضافة « أماق » إلى « الطول » فيتوهم أنه من إضافة الشيء إلى نفسه ، لأن الأماق هو الطويل ، وليس على ما يتوهم ، إنما هو كما تقول : « بعيد البعد » .

قدموا على الله تعالى وجدوا ثواب أعمالهم محبوبة بالكفر؛ أى لم يجدوا شيئاً كما لم يجد صاحب السراب إلا أرضاً لا ماء فيها ؛ فهو يهلك أو يموت . ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ ﴾ أى وجد الله بالمرصاد . ﴿ فَوَقَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ أى جزاء عمله . قال امرؤ القيس :

قَوْلِي مُذِيرًا يَهْوِي حَيْثُا ۖ وَأَيْقَنَ أَنَّهُ لَاقَى الْحِسَابَا

وقيل : وجد وعد الله بالجزاء على عمله . وقيل : وجد أمر الله عند حشره ؛ والمعنى متقارب . وقرئ « بَقِيعَاتٍ » . المهدوى : ويجوز أن تكون الألف مُشَبَّعة من فتحة العين . ويجوز أن تكون مثل رَجُلٍ عَزْهٍ وَعِزَّاهَا ، للذى لا يقرب النساء . ويجوز أن يكون جمع قِيعَةٍ ، ويكون على هذا بالنساء في الوصل والوقف . وروى عن نافع وأبي جعفر وشيبة « الظمان » بغير همز ، والمشهور عنهما الهمز ؛ يقال : ظمئ يظماً ظمأً فهو ظمآن ، وإن خففت الهمزة قات الظمان . وقوله « وَالَّذِينَ كَفَرُوا » ابتداء « أَعْمَالُهُمْ » ابتداء ثان . والكاف من « كَسْرَابٍ » الخبر ، والجملة خبر عن « الذين » . ويجوز أن تكون « أعمالهم » بدلا من « الذين كفروا » ؛ أى وأعمال الذين كفروا كسراب ، لحذف المضاف .

قوله تعالى : أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ مُّظْلِمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ ضرب تعالى مثلاً آخر للكفار ، أى أعمالهم كسراب ببيعة أو كظلمات . قال الزجاج : إن شئت مثل بالسراب وإن شئت مثل بالظلمات ؛ فد « أو » للإباحة حسبا تقدم من القول في « أَوْ كَصَيِّبٍ <sup>(١)</sup> » . وقال الجرجاني : الآية الأولى في ذكر أعمال الكفار ، والثانية في ذكر كفرهم ، ونسق الكفر على أعمالهم لأن الكفر أيضا من أعمالهم ، وقد قال تعالى : « يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » ؛ أى من الكفر إلى

الإيمان . وقال أبو علي : « أو كظلمات » أو كذى ظلمات ؛ ودل على هذا المضاف قوله تعالى : « إذا أُنْزِلَ مِنْهُ » فالكناية تعود إلى المضاف المحذوف . قال القشيري : فعند الزجاج التمثيل وقع لأعمال الكفار ، وعند الجرجاني لكفر الكافر ، وعند أبي علي للكافر . وقال ابن عباس في رواية : هذا مثل قلب الكافر . ( في تحصيل الحقائق ) قيل : هو منسوب إلى البلعة ، وهو الذي لا يدرك قعره . والبلعة معظم الماء ، والجمع لجح . وألج البحر إذا تلاطمت أمواجه ؛ ومنه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من ركب البحر إذا ألج فقد برئت منه الذمة » . وألج الأمر إذا عظم واختلط . وقوله تعالى : « حَسْبَتْهُ لُجَّةٌ <sup>(١)</sup> » أى ماله عمق . ولججت السفينة أى خاضت اللجة ( بضم اللام ) . فأما اللجة ( بفتح اللام ) فأصوات الناس ؛ يقول : سمعت لجة الناس ؛ أى أصواتهم وصخبهم . قال أبو النجيم :

\* في لجة أميسك فلاناً عن فل \*

وألجت الأصوات أى اختلطت وعظمت . ( يغشاه موج ) أى يعملو ذلك البحر اللجج موج . ( من فوقه موج ) أى من فوق الموج موج ، ومن فوق هذا الموج الثانى سحاب ؛ فيجتمع خوف الموج وخوف الريح وخوف السحاب . وقيل : المعنى يغشاه موج من بعده موج ؛ فيكون المعنى : الموج تابع بعضه بعضاً حتى كأن بعضه فوق بعض ، وهو أخوف ما يكون إذا توالى موجه وتقارب ، ومن فوق هذا الموج سحاب . وهو أعظم للخوف من وجهين : أحدهما - أنه قد غطى النجوم التى يهتدى بها . الثانى - الريح التى تنشأ مع السحاب والمطر الذى ينزل منه . ( ظلمات بعضها فوق بعض ) قرأ ابن محيصة والبرزى عن ابن كثير « سحاب ظلمات » بالإضافة والخفض . فنبأ « سحاب » متوناً « ظلمات » بالجر والتنوين . الباقر بالرفع والتنوين . قال المهدوى : من قرأ « من فوقه سحاب ظلمات » بالإضافة فلأن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات فأضيف إليها ؛ كما يقال : سحاب رحمة ، إذا ارتفع في وقت المطر . ومن قرأ « سحاب ظلمات » بحر « ظلمات » على التأكيد « ظلمات »

الأولى أو البديل منها . و « سحاب » ابتداء و « من فوقه » الخبر . ومن قرأ « سحاب ظلمات » فظلمات خبر ابتداء محذوف ؛ التقدير : هي ظلمات أو هذه ظلمات . قال ابن الأنباري : « من فوقه موج » غير تام ؛ لأن قوله « من فوقه سحاب » صلة للموج ، والوقف على قوله « من فوقه سحاب » حسن ، ثم تبدئ « ظلمات بعضها فوق بعض » على معنى هي ظلمات بعضها فوق بعض . وروى عن أهل مكة أنهم قرءوا « ظلمات » على معنى أو كظلمات ظلمات بعضها فوق بعض ؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على السحاب . ثم قيل : المراد بهذه الظلمات ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة الليل وظلمة البحر ؛ فلا يبصر من كان في هذه الظلمات شيئا ولا كوكبا . وقيل : المراد بالظلمات الشدائد ؛ أى شدائد بعضها فوق بعض . وقيل : أراد بالظلمات أعمال الكافر ، وبالبحر الجبى قلبه ، وبالموج فوق الموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة ، وبالسحاب الرين والحمم والطبع على قلبه . روى معناه عن ابن عباس وغيره ؛ أى لا يبصر بقلبه نور الإيمان ، كما أن صاحب الظلمات في البحر إذا أخرج يده لم يكدرها . وقال أبي بن كعب : الكافر يتقلب في خميس من الظلمات : كلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات في النار وبئس المصير . ﴿ إِذَا أُخْرِجَ يَدُهُ ﴾ يعنى الناظر . ﴿ لَمْ يَكْدِرْهَا ﴾ أى من شدة الظلمات . قال الزجاج وأبو عبيدة : المعنى لم يرها ولم يكدر ؛ وهو معنى قول الحسن . ومعنى « لم يكدر » لم يطمع أن يراها . وقال الفراء : كاد صلبة ، أى لم يرها ؛ كما تقول : ما كدت أعرفه . وقال المبرد : يعنى لم يرها إلا من بعد الجهد ؛ كما تقول : ما كدت أراك من الظلمة ، وقد رآه بعد يأس وشدة . وقيل : معناه قرب من الرؤية ولم يرها ؛ كما يقال : كاد العروس يكون أميرا ، وكاد النعام يطير ، وكاد المتعل يكون راكبا . النحاس : وأصح الأقوال في هذا أن المعنى لم يقارب رؤيتها ، فإذا لم يقارب رؤيتها فلم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة . ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا ﴾ يهتدى به أظلمت عليه الأمور . وقال ابن عباس : أى من لم يجعل الله له ديناً فما له من دين ، ومن لم يجعل الله له نورا يمشى به يوم القيامة لم يهتد

إلى الجنة ، كقوله تعالى : « وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ »<sup>(١)</sup> . وقال الزجاج : ذلك في الدنيا ؛ والمعنى : من لم يهتد الله لم يهتد . وقال مقاتل بن سليمان : نزلت في عتبة بن ربيعة ، كان يلتمس الدين في الجاهلية ، وأبى المسوح ، ثم كفر في الإسلام . الماوردي : في شعبة ابن ربيعة . وكان يترهب في الجاهلية ويلبس الصوف ويطلب الدين ، فكفر في الإسلام . قلت : وكلاهما مات كافرا ، فلا يبعد أن يكونا هما المراد بالآية وغيرهما . وقد قيل : نزلت في عبد الله بن جحش ، وكان أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة ثم تنصر بعد إسلامه . وذكر الثعلبي : وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” إن الله تعالى خلقني من نور وخلق أبا بكر من نوري وخلق عمر وعائشة من نور أبي بكر وخلق المؤمنين من أمي من نور عمر وخلق المؤمنات من أمي من نور عائشة فمن لم يحبني ويحب أبا بكر وعمر وعائشة فماله من نور “ . فترت « ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور » .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾<sup>(١)</sup> وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ ﴾ لما ذكر وضوح الآيات زاد في الحجة والبيّنات ، وبين أن مصنوعاته تدلّ بتغييرها على أن لها صانعا قادرا على الكمال ، فله بعثة الرسل ، وقد بعثهم بأيديهم بالمعجزات ، وأخبروا بالجنة والنار . والخطاب في « أَلَمْ تَرَ » للنبي صلى الله عليه وسلم ، ومعناه : ألم تعلم ؛ والمراد الكل . ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ من الملائكة . ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ من الجن والإنس . ﴿ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ ﴾ قال مجاهد وغيره : الصلاة للإنسان والتسبيح لما سواه من الخلق . وقال سفيان : للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود . وقيل : إن ضربها بأجنحتها صلاة ، وإن أصواتها

تسبيح؛ حكاة النقاش . وقيل : التسبيح هاهنا ما يرى في المخلوق من أثر الصنعة . ومعنى « صافات » مصطفات الأجنحة في الهواء . وقرأ الجماعة « والطيْرُ » بالرفع عطفا على « مَنْ » . وقال الزجاج : ويجوز « والطيْرَ » بمعنى مع الطير . قال النحاس : وسمعت يخبِر « قمتُ وزيدا » بمعنى مع زيد . قال : وهو أجود من الرفع . قال : فإن قلت قمت أنا وزيد ، كان الأجود الرفع ، ويجوز النصب . ﴿ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ يجوز أن يكون المعنى : كلُّ قد علم الله صلاته وتسبيحه ؛ أى علم صلاة المصلّي وتسبيح المسبّح . ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أى لا يخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم . ومن هذه الجهة يجوز نصب « كل » عند البصريين والكوفيين بإضمار فعل يفسره ما بعده . وقد قيل : المعنى قد علم كلُّ مصلّي ومسبّح صلاة نفسه وتسبيحه الذى كلفه . وقرأ بعض الناس « كلُّ قد علمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ » غير مسمّى الفاعل . وذكر بعض النحويين أن بعضهم قرأ « كلُّ قد علمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ » ؛ فيجوز أن يكون تقديره : كلُّ قد علمه الله صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . ويجوز أن يكون المعنى : كلُّ قد علمَ غيره صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ، أى صلاة نفسه ؛ فيكون التعليم الذى هو الإفهام والمراد الخصوص ؛ لأن من الناس من لم يُعَلِّمْ . ويجوز أن يكون المعنى كلُّ قد استدل منه المستدلّ ، فعبر عن الاستدلال بالتعليم ؛ قاله المهدوى . والصلاة هنا بمعنى التسبيح ، وكرّر تأكيذا ؛ كقوله « يَعْلَمُ السِّرَّ وَالنَّجْوَى » . والصلاة قد تسمّى تسبيحا ؛ قاله القشيري . ﴿ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ تقدّم في غير موضع .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَرِ ﴿٤٤﴾



قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزِيحُ سَحَابًا ﴾ ذكر من حججه شيئاً آخر ، أى ألم تربعني قلبك . « يُزِيحُ سَحَابًا » أى يسوق إلى حيث يشاء . والريح تُزِيحُ السحاب ، والبقرة تزجي ولدها أى تسوقه . ومنه زجا الخراج يزجو زجاءً ( ممدودا ) إذا تيسرت جبايته . وقال النابغة :

إني أتيتك من أهل ومن وطني \* أزجي حُشاشة نفس ، أبهارمق

وقال أيضاً : أسرت عليه من الجوزاء سارية \* تُزجي الشمال عليه جامد البرد

﴿ ثُمَّ يُؤَلَّفُ بَيْنَهُ ﴾ أى يجمعه عند انتشائه ؛ ليقوى ويتصل ويكثف . والأصل فى التأليف الهمز ، تقول : تألف . وقرئ « يُؤَلَّفُ » بالواو تخفيفاً . والسحاب واحد فى اللفظ ، ولكن معناه جمع ؛ ولهذا قال : « يُنْشِئُ السَّحَابَ » . و « بين » لا يقع إلا لأثنين فصاعداً ، فكيف جاز بينه ؟ فالجواب أن « بينه » هنا لجماعة السحاب ؛ كما تقول : الشجر قد جلس بينه لأنه جمع ، وذكر الكناية على اللفظ ؛ قال معناه الفراء . وجواب آخر — وهو أن يكون السحاب واحداً بلجاز أن يقال بينه ؛ لأنه مشتمل على قطع كثيرة ، كما قال :

\* ... بين الدُّخُولِ وَخَوْمِلِ \*

فالواقع « بين » على الدخول ، وهو واحد لا شتماله على مواضع . وكما تقول : ما زلت أدور بين الكوفة ؛ لأن الكوفة أما كن كثيرة ؛ قاله الزجاج وغيره . وزعم الأصمعي أن هذا لا يجوز ، وكان يروى :  
\* ... بين الدُّخُولِ وَخَوْمِلِ \*

﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا ﴾ أى مجتمعاً ، يركب بعضه بعضاً ؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ » . والركم جمع الشيء ؛ يقال منه : ركم الشيء يركمه ركاماً إذا جمعه وألقى بمضه على بعض . وأرتكم الشيء وتراكم إذا اجتمع . والركمة الطين المجموع . والركام : الرمل المتراكم . وكذلك السحاب وما أشبهه . ومُرتكم الطريق ( بفتح الكاف ) جاذته . ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ فى « الودق » قولان : أحدهما — أنه البرق ؛ قاله أبو الأشهب العقيلي . ومنه قول الشاعر :

أثرنا عجاوجةً وخرجن منها \* خروج الودق من خلل السحاب

الثاني — أنه المطر؛ قاله الجمهور . ومنه قول الشاعر :

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَّتْ وَدَقَّهَا \* ولا أرضٌ أبْقَلْ إِبْقَالُهَا

وقال امرؤ القيس :

فدمعهما وَدَقُّ وَدَقَّ وَدِيمَةٌ \* وَسَكَبٌ وَتَوَكَّافٌ وَتَنَهَمَلَانِ

يقال : وَدَقَّتْ السحابة فهي وادقة . وَوَدَقَ المطر يدق ودقاً ؛ أى قطر . وَوَدَقْتُ إليه دنوت منه . وفي المثل : وَدَقَ العيرُ إلى الماء ؛ أى دنا منه . يُضْرَبُ لمن خضع للشيء لحرصه عليه . والموضع مَوْدِق . وَوَدَقْتُ [ به ] وَدَقًّا اسْتَأْنَسْتُ به . ويقال لذات الحافر إذا أرادت الفحل : وَدَقَتْ تَدِقُ وَدَقًّا ، وَأَوْدَقَتْ وَأَسْتَوْدَقَتْ . وَأَتَانُ وَدُوقَ وفرس وَدُوقَ ، وَوَدِيقُ أيضاً ، وبها وِدَاق . والوَدِيقَةُ : شدة الحر . وَخِلَالُ جمع خَلَل ؛ مثلُ الجبل والجبال ، وهي فُرْجُهُ ومخارج القطر منه . وقد تقدم في « البقرة » أن كعباً قال : إن السحاب غُرْبَالُ المطر ؛ لولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد مايقع عليه من الأرض . وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو العالية « من خلله » على التوحيد . وتقول : كنت في خلال القوم ؛ أى وسطهم . ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ قيل : خلق الله في السماء جبالا من برد ، فهو ينزل منها بَرَدًا وفيه إضممار ، أى ينزل من جبال البرد بَرَدًا ، فالمفعول محذوف . ونحو هذا قول الفراء ؛ لأن التقدير عنده : من جبال برد ؛ فالجبال عنده هي البرد . و « بَرَدٍ » في موضع خفض ؛ ويجب أن يكون على قوله المعنى : من جبالٍ بردٍ فيها ، بتنوين جبال . وقيل : إن الله تعالى خلق في السماء جبالا فيها برد ؛ فيكون التقدير : وينزل من السماء من جبال فيها برد . و « مِنْ » صلة . وقيل : المعنى وينزل من السماء قدر جبال ، أو مثل جبال من برد إلى الأرض ؛ ف « من » الأولى للغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء ، والثانية للتبويض لأن البرد بعض الجبال ، والثالثة لتبيين الجنس لأن جنس تلك الجبال من البرد . وقال الأخفش : إن « مِنْ » في الجبال و « بَرَدٍ » زائدة في الموضعين ، والجبال والبرد في موضع نصب ؛ أى ينزل من السماء بَرَدًا يكون كالجبال . والله أعلم . ﴿ فَيَصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ ﴾

(١) راجع ج ٢ ص ٢٠١ طبعه ثانية .

فيكون إصابته نعمة، وصرفه نعمة . وقد مضى في « البقرة »<sup>(١)</sup> . و« الرعد »<sup>(٢)</sup> أن من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثاً عوفي مما يكون في ذلك الرعد . ( يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ) أى ضوء ذلك البرق الذى فى السحاب ( يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ) من شدة بريقه وضوئه . قال الشماخ :

وما كادت إذا رفعت سناها \* ليُبْصِرَ ضوءها إلا البصيرُ

وقال امرؤ القيس :

يضيء سناه أو مصابيحُ راهبٍ \* أهان السليط في الذبال المُفْتَلِ

فالسَّنا (مقصور) ضوء البرق . والسَّنا أيضا نبت يتداوى به . والسَّناء من الرفعة ممدود . وكذلك قرأ طلحة بن مُصَرِّف « سناء » بالمد على المبالغة فى شدة الضوء والصفاء ؛ فأطلق عليه اسم الشرف . قال المبرد : السَّنا (مقصور) وهو اللع ؛ فإذا كان من الشرف والحسب فهو ممدود ، وأصلهما واحد وهو الالتماع . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « سناء بَرْقِهِ » قال أحمد بن يحيى : وهو جمع بَرْقَةٍ . قال النحاس : البرقة المقدار من البرق ، والبرقة المرة الواحدة . وقرأ الجحدري وابن القَعْقَاع « يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » بضم الياء وكسر الهاء ؛ من الإذهاب ، وتكون الباء فى « بِالْأَبْصَارِ » صلة زائدة . الباقر « يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » بفتح الياء والهاء ، والباء للإصاق . والبرق دليل على تكاثف السحاب ، وبشير بقوة المطر ، ومخذر من نزول الصواعق . ( يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ) قيل : تقلبيهما أن يأتى بأحدهما بعد الآخر . وقيل : تقلبيهما نقصهما وزيادتهما . وقيل : هو تغيير النهار بظلمة السحاب مرة وبضوء الشمس أخرى ؛ وكذا الليل مرة بظلمة السحاب ومرة بضوء القمر ؛ قاله النقاش . وقيل : تقلبيهما باختلاف ما يقدر فيهما من خير وشر ونفع وضرر . ( إِنْ فِي ذَلِكَ ) أى فى الذى ذكرناه من تقلب الليل والنهار ، وأحوال المطر والصيف والشتاء ( لَعِبْرَةٌ ) أى اعتبارا ( لِأُولِي الْأَبْصَارِ ) أى لأهل البصائر من خلق .

(١) راجع ج ١ ص ٢١٨ طبعة ثانية أو ثالثة . وج ٩ ص ٢٩٨

(٢) السليط : الزيت . والذبال : جمع ذبالة ، وهى الفتيلة .

قوله تعالى : **وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ** وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : **(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ)** قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي « **وَاللَّهُ خَالِقُ كُلِّ** » بالإضافة . الباقيون « **خلق** » على الفعل . قيل : إن المعنيين في القراءتين صحيحان . أخبر الله عز وجل بخبرين ، ولا ينبغي أن يقال في هذا : إحدى القراءتين أصح من الأخرى . وقد قيل : إن « **خلق** » لشيء مخصوص ، وإنما يقال خالق على العموم ؛ كما قال الله عز وجل : « **الخالق الباري** » . وفي الخصوص « **الحمد لله الذي خلق السموات والأرض** » وكذا « **هو الذي خلقكم من نفس واحدة** » . فكذا يجب أن يكون « **الله خالق كل دابة من ماء** » . والدابة كل ما دبَّ على وجه الأرض من الحيوان ؛ يقال : دبَّ يدب فهو داب ؛ والماء للبالغة . وقد تقدم في « **البقرة** » (١) . **(مِنْ مَّاءٍ)** لم يدخل في هذا الجن والملائكة ؛ لأننا لم نشاهدهم ، ولم يثبت أنهم خلقوا من ماء ، بل في الصحيح « **أن الملائكة خلقوا من نور والجن من نار** » . وقد تقدم . وقال المفسرون : « **من ماء** » أي من نطفة . قال النقاش : أراد أمانة الذكور . وقال جمهور النظار : أراد أن خلقة كل حيوان فيها ماء كما خلق آدم من الماء والطين ؛ وعلى هذا يخرج قول النبي صلى الله عليه وسلم للشيخ الذي سأله في غزاة بدر : ممن أنتم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن من ماء » . الحديث . وقال قوم : لا يستثنى الجن والملائكة ، بل كل حيوان خلق من الماء ؛ وخلق النار من الماء ، وخلق الريح من الماء ؛ إذ أول ما خلق الله تعالى من العالم الماء ، ثم خلق منه كل شيء .

(١) راجع ج ٢ ص ١٩٦ طبعة ثانية . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٣ وما بعدها .

قلت : ويدل على صحة هذا قوله تعالى : « فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ » المشى على البطن للحيات والحيت ، ونحوه من الدود وغيره . وعلى الرجلين للإنسان والطيور إذا مشى . والأربع لسائر الحيوان . وفي مصحف أبي « ومنهم من يمشى على أكثر » ؛ فعم بهذه الزيادة جميع الحيوان كالسرتان والحشاش ؛ ولكنه قرآن لم يشته إجماع ؛ لكن قال النقاش : إنما اكتفى في القول بذكر ما يمشى على أربع عن ذكر ما يمشى على أكثر ؛ لأن جميع الحيوان إنما اعتمده على أربع ، وهى قوام مشيه ، وكثرة الأرجل فى بعضه زيادة فى خلقته ، لا يحتاج ذلك الحيوان فى مشيه إلى جميعها . قال ابن عطية : والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلا بل هى محتاج إليها فى تنقل الحيوان ، وهى كلها تتحرك فى تصرفه . وقال بعضهم : ليس فى الكتاب ما يمنع من المشى على أكثر من أربع ؛ إذ لم يقل ليس منها ما يمشى على أكثر من أربع . وقيل فيه إضمار : ومنهم من يمشى على أكثر من أربع ؛ كما وقع فى مصحف أبي . والله أعلم . و« دابة » تشمل من يعقل ومالا يعقل ؛ فقلب من يعقل لما اجتمع مع من لا يعقل ؛ لأنه المخاطب والمتعبد ؛ ولذلك قال « فمنهم » . وقال « من يمشى » فأشار بالاختلاف إلى ثبوت الصانع ؛ أى لولا أن للجميع صانعا مختارا لما اختلفوا ، بل كانوا من جنس واحد ؛ وهو كقوله : « يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ » . ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ تقدم بيانه فى غير موضع .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ ﴾ ، يعنى المنافقين ، يقولون بالسنتهم آمنا بالله وبالرسول من غير يقين ولا إخلاص . ﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ أى ويقولون ، وكذبوا . ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾  
فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ قال الطبرى وغيره : إن رجلا من المنافقين اسمه بشر كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة فى أرض ، فدعاه اليهودى إلى التحاكم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان المنافق مبطلا ، فأبى من ذلك وقال : إن محمدا يحيف علينا ، فلتحكم كعب بن الأشرف ، فترلت الآية فيه . وقيل : نزلت فى المغيرة بن وائل من بنى أمية ، كان بينه وبين على بن أبى طالب رضى الله عنه خصومة فى ماء وأرض فأمتنع المغيرة أن يحاكم عليا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إنه يبغيضى ، فترلت الآية ، ذكره الماوردى . وقال : « لِيَحْكُم » ولم يقل ليحكم لأن المعنى به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإنما بدأ بذكر الله إعظاما لله واستفتاح كلام .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أى طائعين متقادين ؛ لعلمهم أنه عليه السلام يحكم بالحق . يقال : أذعن فلان لحكم فلان يذعن إذعانا . وقال النقاش : « مذعنين » خاضعين ، مجاهد : مسرعين . الأخفش وأبن الأعرابى : مُقْتَرِن . ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ شك ورأي . ﴿ أَمْ أَرْتَابُوا ﴾ أم حدث لهم شك فى نبوته

وعدله . ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَخِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ ﴾ أى يجوز فى الحكم والظلم . وأتى بلفظ الاستفهام لأنه أشد فى التوبيخ وأبلغ فى الذم ؛ كقول جرير فى المدح :

الستم خير من ركب المطايا \* وأندى العالمين بطنون راج

﴿ بَلْ أَوْلَاكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى المعاندون الكافرون ؛ لإعراضهم عن حكم الله تعالى .

الثالثة — القضاء يكون للمسلمين إذا كان الحكم بين المَعَاهِد والمسلم ولا حق لأهل الذمة فيه . وإذا كان بين ذِمِّيَيْنِ فذلك إليهما . فإن جاء قاضى الإسلام فإن شاء حكم وإن شاء أعرض ؛ كما تقدم فى « المائدة »<sup>(١)</sup> .

الرابعة — هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعى إلى الحاكم لأن الله سبحانه ذم من دعى إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه بأقبح الذم فقال : « أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » الآية . قال ابن خُوَيزِمَنَدَاد : واجب على كل من دعى إلى مجلس الحاكم أن يجيب ، ما لم يعلم أن الحاكم فاسق ، أو عداوة بين المدعى والمدعى عليه . وأسند الزهراوى عن الحسن ابن أبى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من دعاه خصمه إلى حاكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم ولا حق له » . ذكره الماوردى أيضا . قال ابن العربى : وهذا حديث باطل ؛ فأما قوله « فهو ظالم » فكلام صحيح ، وأما قوله « فلا حق له » فلا يصح ، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى الى كتاب الله وحكم رسوله . ﴿ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ قال ابن عباس : أخبر بطاعة المهاجرين والأنصار ، وإن كان ذلك فيما يكرهون ؛ أى هذا قولهم ، وهؤلاء لو كانوا مؤمنين لكانوا

يقولون سمعنا وأطعنا . فالقول نصب على خبر كان ، واسمها في قوله « ان يقولوا » نحو « وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا » . وقيل : إنما قول المؤمنين ، وكان صلة في الكلام ؛ كقوله تعالى : « كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا » . وقرأ ابن القعقاع « لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ » غير مسمى الفاعل . على بن أبي طالب « إنما كان قول » بالرفع .

قوله تعالى : وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما أمر به وحكم . ﴿ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ ﴾ قرأ حفص « وَيَتَّقِهِ » بإسكان القاف على نية الجزم ؛ قال الشاعر :  
ومن يتق فإن الله معه \* ورزق الله مؤثاباً وغايدى

وكسرهما الباقيون ، لأن جزمه يحذف آخره . وأسكن الهاء أبو عمرو وأبو بكر . واختلس الكسرة يعقوب وقالون عن نافع والبسقي عن أبي عمرو وحفص . وأشبع كسرة الهاء الباقيون . ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ ذكر أسلم أن عمر بينما هو قائم في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه وهو يقول : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فقال له عمر : ما شأنك ؟ قال : أسلمت لله . قال : هل لهذا سبب ! قال : نعم ! إني قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء ، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما في الكتب المتقدمة ، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت . قال : ما هذه الآية ؟ قال قوله تعالى : « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ » في الفرائض « وَرَسُولَهُ » في السنن « وَيَخْشِ اللَّهَ » فيما مضى من عمره « وَيَتَّقِهِ » فيما بقي من عمره « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة . فقال عمر : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أُوتِيَتْ جوامع الكلم » .



قوله تعالى : **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾** عاد إلى ذكر المنافقين ، فإنه لما بين كراهتهم لحكم النبي صلى الله عليه وسلم أتوه فقالوا : والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا ونسائنا وأموالنا لخرجنا ، ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا ؛ فنزلت هذه الآية . أى وأقسموا بالله أنهم يخرجون معك فى المستأنف ويطيعون . **﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾** أى طاقة ما قدروا أن يحلفوا . وقال مقاتل : من حلف بالله فقد أجهد فى اليمين . وقد مضى فى « الأنعام » بيان هذا . و « جَهْدٌ » منصوب على مذهب المصدر تقديره : إقساما بليغا . **﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾** وتم الكلام . **﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾** أولى بكم من أيمانكم ؛ أو ليكن منكم طاعة معروفة ، وقول معروف بإخلاص القلب ، ولا حاجة إلى اليمين . وقال مجاهد : المعنى قد عرفت طاعتكم وهى الكذب والتكذيب ؛ أى المعروف منكم الكذب دون الإخلاص . **﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل .

قوله تعالى : **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : **﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾** بإخلاص الطاعة وترك النفاق . **﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾** أى فإن تتولَّوا ، لحذف إحدى التاءين . ودل على هذا أن بعده «وعليكم» ولم يقل وعليهم . **﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾** أى من تبليغ الرسالة . **﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾** أى من الطاعة له ؛ عن ابن عباس وغيره . **﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾** جعل الاهتداء مقرونا بطاعته . **﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾** أى التبليغ **﴿المبين﴾** .

قوله تعالى : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ قاله مالك . وقيل : إن سبب هذه الآية أن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم شكوا جهداً مكافئة العدو ، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم ، وأنهم لا يضعون أسلحتهم ؛ فنزلت الآية . وقال أبو العالية : مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين بعد ما أوحى إليه خائفاً هو وأصحابه ، يدعون إلى الله سرّاً وجهراً ، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة ، وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح . فقال رجل : يا رسول الله ، أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال عليه السلام : ” لا تلبثون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم مُحْتَبِئاً ليس عليه حديدة “ . ونزلت هذه الآية ، وأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأمنوا . قال النحاس : فكان في هذه الآية دلالة على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله جل وعز أنجز ذلك الوعد . قال الضحاك في كتاب النقاش : هذه تتضمن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ؛ لأنهم أهل الإيمان وعملوا الصالحات . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” الخلافة بعدى ثلاثون “ . وإلى هذا القول ذهب ابن العربي في أحكامه ، وأختره وقال : قال علماؤنا هذه الآية دليل على خلافة الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم ، وأن الله استخلفهم ورضى أمانتهم ، وكانوا على الدين الذي ارتضى لهم ، لأنهم لم يتقدمهم أحد في الفضيلة إلى يومنا هذا ، فاستقر الأمر لهم ، وقاموا بسياسة المسلمين ، وذنبوا عن حوزة الدين ؛ فنفذ الوعد فيهم ، وإذا لم يكن هذا الوعد لهم نَجْزٌ ، وفيهم نَفَذٌ ، وعليهم وَرْدٌ ، ففيعن يكون إذا ، وليس بعدهم مثلهم إلى يومنا هذا ، ولا يكون فيما بعده . رضي الله عنهم . وحكى هذا القول القشيري عن

ابن عباس . واحتجوا بما رواه سفيّنة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون مُلكاً “ . قال سفيّنة : أمسك [عليك] خلافة أبي بكر ستين ، وخلافة عمر عشرين ، وخلافة عثمان ثلثي عشرة سنة ، وخلافة عليّ ستاً . وقال قوم : هذا وعد لجميع الأمة في ملك الأرض كلّها تحت كلمة الإسلام ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام : ” زُوِيَتْ لِي الْأَرْضُ فَرَأَيْتُ مُشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَسِيلَغَ مُلْكٍ أُمْتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا “ . واختار هذا القول ابن عطية في تفسيره حيث قال : والصحيح في الآية أنها في استخلاف الجمهور ، واستخلافهم هو أن يملكهم البلاد ويجعلهم أهلها ؛ كالذي جرى في الشام والعراق وخراسان والمغرب . قال ابن العربي : قلنا لم هذا وعد عام في النبوة والخلافة وإقامة الدعوة وعموم الشريعة ، فنفذ الوعد في كل أحد بقدره وعلى حاله ؛ حتى في المفتين والقضاة والأئمة ، وليس للخلافة محل تنفذ فيه الموعدة الكريمة إلا من تقدم من الخلفاء . ثم ذكر اعتراضاً وانفصالاً معناه : فإن قيل هذا الأمر لا يصح إلا في أبي بكر وحده ، فأما عمر وعثمان فقَتْلَا غِيلَةً ، وعلى قد نُوزِعَ في الخلافة . قلنا : ليس في ضمن الأمن السلامة من الموت بأيّ وجه كان ، وأما على فلم يكن نزاله في الحرب مُذْهِباً للأمن ، وليس من شرط الأمن رفع الحرب إنما شرطه ملك الإنسان لنفسه باختياره ، لا كما كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بمكة . ثم قال في آخر كلامه : وحقيقة الحال أنهم كانوا مقهورين فصاروا قاهرين ، وكانوا مطلوبين فصاروا طالبين ؛ فهذا نهاية الأمن والعز .

قلت : هذه الحال لم تختص بالخلفاء الأربعة رضي الله عنهم حتى يَحْصُوا بها من عموم الآية ، بل شاركهم في ذلك جميع المهاجرين بل وغيرهم . ألا ترى إلى إغراء قريش المسلمين في أحد وغيرها وخاصة الحنّاق ، حتى أخبر الله تعالى عن جميعهم فقال : « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا » . ثم إن الله ردّ الكافرين لم ينالوا خيراً ، وأتمن

(١) زيادة عن ابن العربي . والخطاب لسعيد بن حمدان راوى الحديث عن سفيّنة .

(٢) آية ١٠ وما بعدها سورة الأحزاب .

المؤمنين وأورشليم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهو المراد بقوله : « لَيْسَتْ خَلِفَتُهُمْ فِي الْأَرْضِ » . وقوله « كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » يعني بنى إسرائيل ، إذ أهلك الله الجبارة بمصر ، وأورشليم أرضهم وديارهم فقال : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا » . وهكذا كان الصحابة مستضعفين خائفين ، ثم إن الله تعالى أتمهم وتمكنهم وملكهم ، فصيح أن الآية عامة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم غير مخصوصة ؛ إذ التخصيص لا يكون إلا بخبر ممن يجب [له] التسليم ، ومن الأصل المعلوم التمسك بالعموم . وجاء في معنى تبديل خوفهم بالأمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال أصحابه : أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال عليه السلام : « لا تلبثون إلا قليلا حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم مُحْتَبِيًّا ليس عليه حديدة » . وقال صلى الله عليه وسلم : « وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ » . نخرجه مسلم في صحيحه ؛ فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم . فالآية معجزة النبوة ؛ لأنها إخبار عما سيكون فكان .

قوله تعالى : « لَيْسَتْ خَلِفَتُهُمْ فِي الْأَرْضِ » فيه قولان : أحدهما — يعني أرض مكة ؛ لأن المهاجرين سألوا الله تعالى ذلك فوعدها كما وعده بنو إسرائيل ؛ قال معناه النقاش . الثاني — بلاد العرب والعجم . قال ابن العربي : وهو الصحيح ؛ لأن أرض مكة محزمة على المهاجرين ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَكِنَّ الْبَأْسُ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ » . يرثى له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة . وقال في الصحيح أيضا : « يَمُوتُ الْمُهَاجِرُ بِمَكَّةَ بَعْدَ قِضَاءِ نَسَكِهِ ثَلَاثًا » . واللام في « لَيْسَتْ خَلِفَتُهُمْ » جواب قسم مُضْمَرٍ ؛ لأن الوعد قول ، مجازها : قال الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات والله ليستخلفنهم في الأرض فيجعلهم ملوكها وسكانها . « كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » يعني بنى إسرائيل ، أهلك الجبارة بمصر والشام وأورشليم أرضهم وديارهم . وقراءة العامة « كَمَا اسْتَخْلَفَ » بفتح التاء واللام ؛ لقوله « وَعَدَ » . وقوله « لَيْسَتْ خَلِفَتُهُمْ » . وقرأ عيسى بن عمر وأبو بكر والمفضل عن عاصم « اسْتَخْلَفَ » بضم

التاء وكسر اللام على الفعل المجهول . ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ وهو الإسلام ؛ كما قال تعالى : « وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » وقد تقدم . وروى سليم بن عامر عن المقداد ابن الأسود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما على ظهر الأرض بيت حجر ولا مدر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل أما بعزهم فيجعلهم من أهلها وأما بذلهم فيدينون بها » . ذكره الماوردي حجة لمن قال : إن المراد بالأرض بلاد العرب والعجم ؛ وهو القول الثاني ، على ما تقدم آنفا . ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمُ ﴾ قرأ ابن محيصة وابن كثير ويعقوب وأبو بكر بالتخفيف ؛ من أبدل ، وهي قراءة الحسن ، واختيار أبي حاتم . الباقون بالتشديد ؛ من بدل ، وهي اختيار أبي عبيد ؛ لأنها أكثر ما في القرآن ، قال الله تعالى : « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ » . وقال : « وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً » ونحوه ، وهما لغتان . قال النحاس : وحكى محمد بن الجهم عن الفراء قال : قرأ عاصم والأعمش « وليبدلنهم » مشددة ، وهذا غلط على عاصم ؛ وقد ذكر بعده غلطا أشد منه ، وهو أنه حكى عن سائر الناس التخفيف . قال النحاس : وزعم أحمد بن يحيى أن بين التثقيل والتخفيف فرقا ، وأنه يقال : بدلته أى غيرته ، وأبدلته أزالته وجمعت غيره . قال النحاس : وهذا القول صحيح ؛ كما تقول : أبدل لى هذا الدرهم ، أى أزله وأعطينى غيره . وتقول : قد بدلت بعدنا ، أى غيرت ؛ غير أنه قد يستعمل أحدهما موضع الآخر ؛ والذي ذكره أكثر . وقد مضى هذا في « النساء » والحمد لله ، وذكرنا في سورة « إبراهيم » الدليل من السنة على أن بدل معناه إزالة العين ؛ فتأمله هناك . وقرئ « عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا » مخففا ومثقلا . ﴿ يَبْعُدُونَنِي ﴾ هو في موضع الحال ؛ أى في حال عبادتهم الله بالإخلاص . ويجوز أن يكون استئنافا على طريق الثناء عليهم . ﴿ لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها — لا يعبدون إلهاً غيرى ؛ حكاه النقاش . الثاني — لا يراءون بعبادتي أحدا . الثالث — لا يخافون غيرى ؛ قاله ابن عباس . الرابع — لا يحبون غيرى ؛ قاله مجاهد . ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أى بهذه النعم . والمراد كفران النعمة ؛ لأنه قال تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ والكافر بالله فاسق بعد هذا الإنعام وقبلة .

قوله تعالى : وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾

تقدم ؛ فأعاد الأمر بالعبادة تأكيداً .

قوله تعالى : لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعد بالنصرة . وقراءة العامة « تَحْسَبَنَّ » بالتاء خطاباً . وقرأ ابن عامر وحزرة وأبو حيوة « يَحْسَبَنَّ » بالياء ، بمعنى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين الله في الأرض ؛ لأن الحُسابان يتعدى إلى مفعولين . وهذا قول الزجاج . وقال الفراء وأبو علي : يجوز أن يكون الفعل للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى لا يحسبن محمد الذين كفروا معجزين في الأرض . ف « بالذين » مفعول أول ، و « معجزين » مفعول ثان . وعلى القول الأول « الذين كفروا » فاعل « أنفسهم » مفعول أول ، وهو محذوف مراد « معجزين » مفعول ثان . قال النحاس : وما علمت أحداً من أهل العربية بصرياً ولا كوفياً إلا وهو يخطئ قراءة حمزة ؛ فمنهم من يقول : هى لحن ؛ لأنه لم يأت إلا بمفعول واحد ليحسبن . ومن قال هذا أبو حاتم . وقال الفراء : هو ضعيف ؛ وأجازه على ضعفه ، على أنه يحذف المفعول الأول ، وقد بيناه . قال النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول فى هذه القراءة : يكون « الذين كفروا » فى موضع نصب . قال : ويكون المعنى ولا يحسبن الكافر الذين كفروا معجزين فى الأرض .

قلت : وهذا موافق لما قاله الفراء وأبو علي ؛ لأن الفاعل هناك النبي صلى الله عليه وسلم . وفى هذا القول الكافر . و « معجزين » معناه فائتين . وقد تقدم <sup>(١)</sup> ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى المرجع .

قوله تعالى : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ  
وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ  
وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ  
عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفُونَ عَلَيْكُمْ  
بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قال العلماء . هذه الآية خاصة والتي قبلها عامة ؛ لأنه قال : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ  
ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا » ثم خص هنا فقال :  
« لِيَسْتَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » نفخص في هذه الآية بعض المستأذنين ، وكذلك أيضا  
يتناول القول في الأولى في جميع الأوقات عموما . وخص في هذه الآية بعض الأوقات ،  
فلا يدخل فيها عبد ولا أمة ؛ وغدا كان أو ذا منظر إلا بعد الاستئذان . قال مقاتل : نزلت  
في أسماء بنت مرثد ، دخل عليها غلام لها كبير ، فأشتكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛  
فنزلت عليه الآية . وقيل : سبب نزولها دخول مدلج على عمر ؛ وسيأتي .

الثانية — اختلف العلماء في المراد بقوله تعالى « لِيَسْتَأْذِنُكُمْ » على ستة أقوال :

الأول — أنها منسوخة ، قاله ابن المسيب وابن جبير .

الثاني — أنها ندب غير واجبة ؛ قاله أبو قلابة ، قال : إنما أمروا بهذا نظرا لهم .

الثالث — غنى بها النساء ؛ قاله أبو عبد الرحمن السلمي . وقال ابن عمر : هي في الرجال

دون النساء . وهو القول الرابع .

الخامس — كان ذلك واجبا ، إذ كانوا لا غلق لهم ولا أبواب ، ولو عاد الحال لعاد

الوجوب ؛ حكاه المهدوي عن ابن عباس .

السادس — أنها محكمة واجبة ثابتة على الرجال والنساء؛ وهو قول أكثر أهل العلم؛ منهم القاسم وجابر بن زيد والشَّعْبِيّ . وأضعفها قول السَّلمِيِّ لأن «الذين» لا يكون للنساء في كلام العرب، إنما يكون للنساء «اللاتي واللاتي» . وقول ابن عمر يستحسنه أهل النظر، لأن «الذين» للرجال في كلام العرب، وإن كان يجوز أن يدخل معهم النساء فإنما يجمع ذلك بدليل، والكلام على ظاهره، غير أن في إسناده لَيْث بن أَبِي سَلِيم . وأما قول ابن عباس فروى أبو داود عن عبيد الله بن أبي يزيد سمع ابن عباس يقول: آية لم يؤمر بها أكثر الناس آية الاستئذان وإني لأمر جاريتي هذه تستأذن عليّ . قال أبو داود: وكذلك رواه عطاء عن ابن عباس «يأمر به» . وروى عكرمة أن نفرا من أهل العراق قالوا: يا بن عباس، كيف ترى في هذه الآية التي أمرنا فيها بما أمرنا ولا يعمل بها [أحد<sup>(٢)</sup>]، قول الله عز وجل «يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يُلَافُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ» . قال أبو داود: قرأ القَعْنَبِيُّ إلى «عليهم حكيم» قال ابن عباس<sup>(٣)</sup>: إن الله حليم رحيم بالمؤمنين يحب السَّتر، وكان الناس ليس لبيوتهم سُور ولا حِجَال، فربما دخل الخادم أو الولد أو يتيمة الرجل والرجل على أهله، فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات، بغاءهم الله بالسُّور والخير، فلم أر أحدا يعمل بذلك [بعد<sup>(٢)</sup>] .

قلت: هذا متن حسن، وهو يرد قول سعيد وابن جبير؛ فإنه ليس فيه دليل على نسخ الآية، ولكن على أنها كانت على حال ثم زالت، فإن كان مثل ذلك الحال فحكمها قائم كما كان، بل حكمها لليوم ثابت في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحارى ونحوها . وروى

(١) في تهذيب التهذيب: «قال ابن حبان اختلط في آخر عمره، فكان يقاب الأسانيد ويرفع المراسيل، وبقي عن الثقات بما ليس من حديثهم . وقال البزار: كان أحد العباد، إلا أنه أصابه اختلاط فاضطرب حديثه... الخ» .  
(٢) زيادة عن سنن أبي داود . (٣) المجال: جمع المجلة (بالتحريك) وهو بيت كالقبة يستر بالثياب ويكون له أزرار كبار .



وَكَيْعٌ عَنْ سَفْيَانَ عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَاشِشَةَ عَنِ الشَّعْبِيِّ « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » قَالَ : لَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ . قُلْتُ : إِنْ النَّاسُ لَا يَعْمَلُونَ بِهَا ؛ قَالَ : اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُسْتَعَانُ .

الثالثة — قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : إِنْ الْأَسْتِثْنَاءَانِ ثَلَاثَانِ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ » قَالَ يَزِيدُ : ثَلَاثَ دَفْعَاتٍ . قَالَ : فُورِدَ الْقُرْآنُ فِي الْمَالِكِ وَالصَّبِيَّانِ ، وَسَنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْجَمِيعِ . قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : مَا قَالَهُ مِنْ هَذَا وَإِنْ كَانَ لَهُ وَجْهٌ فَإِنَّهُ غَيْرُ مَعْرُوفٍ عَنِ الْعُلَمَاءِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الَّتِي نَزَعَ بِهَا ، وَالَّذِي عَلَيْهِ جَمْعُهُمْ فِي قَوْلِهِ « ثَلَاثَ مَرَّاتٍ » أَيْ فِي ثَلَاثِ أَوْقَاتٍ . وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ ذِكْرُهُ فِيهَا « مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ » .

الرابعة — أَتَدَبَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنْ يَكُونَ الْعَبِيدُ إِذَا لَا بَالَ لَهُمْ ، وَالْأَطْفَالُ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ إِلَّا أَنَّهُمْ عَقَلُوا مَعَانِيَ الْكَشْفَةِ وَنَحْوَهَا ، يَسْتَأْذِنُونَ عَلَى أَهْلِيهِمْ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ ، وَهِيَ الْأَوْقَاتُ الَّتِي تَقْتَضِي عَادَةَ النَّاسِ الْإِنْكَشَافَ فِيهَا وَمُلَازِمَةَ التَّعَرَّى . فَمَا قَبْلَ الْفَجْرِ وَقْتُ انْتِهَاءِ النَّوْمِ وَوَقْتُ الْخُرُوجِ مِنْ ثِيَابِ النَّوْمِ وَلِبْسِ ثِيَابِ النَّهَارِ . وَوَقْتُ الْقَائِلَةِ وَقْتُ التَّجَرُّدِ أَيْضًا وَهِيَ الظَّهِيرَةُ ، لِأَنَّ النَّهَارَ يَظْهَرُ فِيهَا إِذَا عَلَا شَعَاعُهُ وَأَشْتَدَّ حَرُّهُ . وَبَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ وَقْتُ التَّعَرَّى لِلنَّوْمِ ؛ فَالْإِنْكَشَافُ غَالِبٌ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ . يَرَوِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ غُلَامًا مِنَ الْأَنْصَارِ يَقَالَ لَهُ مُدْجِلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ظَهِيرَةً لِيَدْعُوهُ ، فَوَجَدَهُ نَائِمًا قَدْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ الْبَابَ ، فَدَقَّ عَلَيْهِ الْغُلَامُ الْبَابَ فَتَنَادَاهُ وَدَخَلَ ، فَاسْتَيْقَظَ عُمَرُ وَجَلَسَ فَأَنْكَشَفَ مِنْهُ شَيْءٌ ، فَقَالَ عُمَرُ : وَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ نَهَى أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا وَخُدَمَنَا عَنِ الدَّخُولِ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ السَّاعَاتِ إِلَّا بِإِذْنٍ ؛ ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ هَذِهِ الْآيَةَ قَدْ أَنْزَلَتْ ، فَخَرَّ سَاجِدًا شَاكِرًا لِلَّهِ . وَهِيَ مَكِّيَّةٌ .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ أى الذين لم يحتلموا من أحراركم ؛ قاله مجاهد . وذكر إسماعيل بن إسحاق <sup>(١)</sup> كان يقول : ليستأذنكم الذين لم يبلغوا الحلم مما ملكت أيماكم ؛ على التقديم والتأخير ، وأن الآية فى الإمام . وقرأ الجمهور بضم اللام ، وسكنها الحسن بن أبى الحسن لثقل الضمة . وكان أبو عمرو يستحسنها . و«ثلاث مرّات» نصب على الظرف ؛ لأنهم لم يؤمروا بالاستئذان ثلاثا ، إنما أمروا بالاستئذان فى ثلاثة مواطن ، والظرفية فى «ثلاث» بيّنة : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء . وقد مضى معناه . ولا يجب أن يستأذن ثلاث مرّات فى كل وقت . ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ قرأ جمهور السبعة «ثلاث عورات» برفع «ثلاث» . وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم «ثلاث» بالنصب على البدل من الظرف فى قوله «ثلاث مرّات» . قال أبو حاتم : النصب ضعيف مردود . وقال الفراء : الرفع أحب إلى . قال : وإنما اخترت الرفع لأن المعنى : هذه الخصال ثلاث عورات . والرفع عند الكسائى بالابتداء ، والخبر عنده ما بعده ، ولم يقل بالعائد ، وقال نصبا بالابتداء . قال : والعورات الساعات التى تكون فيها العورة ؛ إلا أنه قرأ بالنصب ، والنصب فيه قولان : أحدهما - أنه مردود على قوله «ثلاث مرّات» ؛ ولهذا استبعده الفراء . وقال الزجاج : المعنى ليستأذنكم أوقات ثلاث عورات ؛ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . و«عورات» جمع عورة ، وبابه فى الصحيح أن يجيء على فعلات (بفتح العين) بكفنة وجفّنت ، ونحو ذلك . وسكنوا العين فى المفعّل كبيضة وبيضات ؛ لأن فتحه داع إلى اعتلاله فلم يفتح لذلك ؛ فأما قول الشاعر :

أبو بَيضَاتٍ رَائِحٌ مُتَأَوِّبٌ \* رَفِيقٌ بِمَسْحِ الْمُنَكِّبِينَ سُبُوحٌ <sup>(٢)</sup>

[فشاذ] .

(١) كذا فى نسخ الأصل ، وظاهر أن فى العبارة سقطا .

(٢) كذا فى اللسان مادة «بيض» . والذى فى نسخ الأصل :

أبو بَيضَاتٍ رَائِحٌ أَوْ مُفْتَدٌ \* بَحْلَانٌ ذَا زَادٍ وَغَيْرُ مَزُودٍ

وهذا البيت للناطقة الذبياني ، وصواب إنشاده : أَمِنْ آلِ مَيَّةٍ رَائِحٌ أَوْ مُفْتَدٌ \* ... الخ .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ أى فى الدخول من غير أن يستأذنوا وإن كنتم متبذلين . ﴿ طَوَافُونَ ﴾ بمعنى هم طوافون . قال الفراء : كقولك فى الكلام إنما هم خدمكم وطوافون عليكم . وأجاز الفراء نصب « طوافين » لأنه نكرة ، والمضمر فى « عليكم » معرفة . ولا يجوز البصريون أن يكون حالا من المضمرين اللذين فى « عليكم » وفى « بعضكم » لاختلاف العاملين . ولا يجوز مررت بزيد ونزات على عمرو العاقليْن ، على النعت لهما . فعنى « طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ » أى يطوفون عليكم وتطوفون عليهم ؛ ومنه الحديث فى الهِزَّة " إنما هى من الطوافين عليكم أو الطوافات <sup>(١)</sup> " . فنع فى الثلاث العورات من دخولهم علينا ؛ لأن حقيقة العورة كل شئ لا مانع دونه ، ومنه قوله « إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ » أى سهلة للدخول ، فبين العلة الموجبة للإذن ، وهى الخلو فى حال العورة ؛ فتعين أمثاله وتعذر نسخه . ثم رفع الجُنَاح بقوله « لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ » أى يطوف بعضكم على بعض . ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ﴾ الكاف فى موضع نصب ؛ أى يبين الله لكم آياته الدالة على متعبداته بياناً مثل ما يبين لكم هذه الأشياء . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ تقدم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ يريد العتمة . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لَا تَغْلِبَنَّكُمْ الْأَعْرَابُ عَلَى أَسْمِ صَلَاتِكُمْ أَلَّا إِنَّمَا الْعِشَاءُ وَهُمْ يُعْتَمُونَ بِالْإِبِلِ " . وفى رواية " فإنها فى كتاب الله العِشَاءُ وإِنَّمَا تُعْتَمُ بِحِلَابِ الْإِبِلِ " . وفى البخارى عن أبى بَرْزَةَ : كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤخّر العِشَاءَ . وقال أنس : أخر النبي صلى الله عليه وسلم العِشَاءَ . وهذا يدل على العِشَاءَ الأولى . وفى الصحيح : فصلاها ، يعنى العصر بين العِشَاءِين المغرب والعِشَاءَ . وفى الموطأ وغيره : ولو يعلمون ما فى العتمة والصبح لأتوهما ولو حَبَّوًا . وفى مسلم عن جابر

(١) قوله « أو الطوافات » يحتمل أن يكون على معنى الشك من الراوى . ويحتمل أن يكون صلى الله عليه وسلم قال ذلك ، يريد أن هذا الحيوان لا يخلو أن يكون من جملة الذكور الطوافين أو الإناث الطوافات ( عن الباجى ) .

(٢) راجع ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو نائلة .

أَبْنُ سَمُرَةَ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصِلُ الصَّلَاةَ نَحْوًا مِنْ صَلَاتِكُمْ ، وَكَانَ يُؤَخِّرُ الْعَتَمَةَ بَعْدَ صَلَاتِكُمْ شَيْئًا ، وَكَانَ يُخَفِّفُ الصَّلَاةَ . قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ : وَهَذِهِ أَخْبَارٌ مُتَعَارِضَةٌ ، لَا يُعْلَمُ مِنْهَا الْأَوَّلُ مِنَ الْآخِرِ بِالتَّارِيخِ ، وَنَهَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ تَسْمِيَةِ الْمَغْرِبِ عِشَاءً وَعَنْ تَسْمِيَةِ الْعِشَاءِ عَتَمَةً ثَابِتًا ، فَلَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فَضْلًا عَنْ عَدَاهُمْ . وَقَدْ كَانَ أَبُو عَمْرٍو يَقُولُ : مَنْ قَالَ صَلَاةَ الْعَتَمَةِ فَقَدْ أَثِمَ . وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ قَالَ مَالِكٌ : « وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ » فَإِنَّهُ سَمَّاها صَلَاةَ الْعِشَاءِ فَأَحَبَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَسْمَى بِمَا سَمَّاها اللَّهُ تَعَالَى بِهِ ، وَيَعْلَمُهَا الْإِنْسَانُ أَهْلُهُ وَوَلَدُهُ ، وَلَا يُقَالُ عَتَمَةٌ إِلَّا عِنْدَ خُطَابٍ مِنْ لَا يَفْهَمُ . وَقَدْ قَالَ حَسَانٌ :

وكانت لا يزال بها أنيس \* خلال مروجها نعم وشاء  
فدع هذا ولكن من لطيف \* يؤزقني إذا ذهب العشاء

وَقَدْ قِيلَ : إِنْ هَذَا النَّهْيُ عَنْ اتِّبَاعِ الْأَعْرَابِ فِي تَسْمِيَتِهِمُ الْعِشَاءَ عَتَمَةً ، إِنَّمَا كَانَ لِئَلَّا يُعْدَلَ بِهَا عَمَّا سَمَّاها اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ إِذْ قَالَ : « وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ » ؛ فَكَأَنَّهُ نَهَى إِرْشَادًا إِلَى مَا هُوَ الْأَوَّلَى ، وَلَيْسَ عَلَى جِهَةِ التَّحْرِيمِ ، وَلَا عَلَى أَنَّ تَسْمِيَتَهَا الْعَتَمَةُ لَا يَحُوزُ . أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَطْلَقَ عَلَيْهَا ذَلِكَ ، وَقَدْ أَبَاحَ تَسْمِيَتَهَا بِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . وَقِيلَ : إِنَّمَا نَهَى عَنْ ذَلِكَ تَنْزِيهاً لِهَذِهِ الْعِبَادَةِ الشَّرِيفَةِ الدِّينِيَّةِ عَنْ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهَا مَا هُوَ أَسْمُ لِفَعْلَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ ، وَهِيَ الْحَلَبَةُ الَّتِي كَانُوا يَحْلُبُونَهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ وَيَسْمُونَهَا الْعَتَمَةَ ؛ وَيَشْهَدُ لِهَذَا قَوْلُهُ : « فَإِنَّهَا تُعَمِّ بِحِلَابِ الْإِبِلِ » .

الثامنة<sup>(١)</sup> — رَوَى ابْنُ مَاجَهَ فِي سُنَنِهِ حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عِيَّاشٍ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ غَزِيَّةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : « مَنْ صَلَّى فِي جَمَاعَةٍ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً لَا تَفُوتُهُ الرُّكْعَةُ الْأُولَى مِنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا عِتْقًا مِنَ النَّارِ » . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى

(١) تقدّم أن المسائل سبع .

الله عليه وسلم : ” من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله “. وروى الدارقطني في سننه عن سُبَيْعٍ أَوْ تَبِيعٍ عَنْ كَعْبٍ قَالَ : مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءِ وَصَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ وَصَلَّى بَعْدَهَا أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ فَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَسَجُودَهُنَّ وَ يَعْلَمُ مَا يَقْتَرِي فِيهِنَّ كُنْ لَهُ بِمِثْلَةِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ .<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾

قرأ الحسن « الحُلُم » فحذف الضمة لنقلها . والمعنى : أن الأطفال أمروا بالاستئذان في الأوقات الثلاثة المذكورة؛ وأبيح لهم الأمر في غير ذلك كما ذكرنا . ثم أمر تعالى في هذه الآية أن يكونوا إذا بلغوا الحلم على حكم الرجال في الاستئذان في كل وقت . وهذا بيان من الله عز وجل لأحكامه وإيضاح حلاله وحرامه، وقال « فَلْيَسْتَأْذِنُوا » ولم يقل فليستأذنوكم . وقال في الأولى « لِيَسْتَأْذِنُكُمْ » لأن الأطفال غير مخاطبين ولا متعبدين . وقال ابن جريج : قلت لعطاء « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا » قال : واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا، أحرارا كانوا أو عبيدا . وقال أبو إسحاق الفزاري : قلت للأوزاعي ما حدّ الطفل الذي يستأذن ؟ قال : أربع سنين، قال : لا يدخل على امرأة حتى يستأذن . وقال الزهري : أي يستأذن الرجل على أمه؛ وفي هذا المعنى نزلت هذه الآية .

قوله تعالى : وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ القواعد واحدتها قاعدة ، بلا هاء ، ليدل حذفها على أنه يعود الكبير ، كما قالوا : امرأة حامل ، ليدل بحذف الهاء أنه حمل حبل . قال الشاعر :  
فلو أن ما في بطنه بين نسوة \* حبل وإن كنّ القواعد عقرًا  
وقالوا في غير ذلك : قاعدة في بيتها ، وحاملة على ظهرها ، بالهاء . والقواعد أيضا : إساس البيت ، واحده قاعدة ، بالهاء .

الثانية — القواعد : العجز اللواتي قعدن عن التصرف من السن ، وقعدن عن الولد والمحيض ، هذا قول أكثر العلماء . قال ربيعة : هي التي إذا رأيتها تستقذرها من كبيرها . وقال أبو عبيدة : اللاتي قعدن عن الولد ، وليس ذلك بمستقيم ، لأن المرأة تقعد عن الولد وفيها مستمتع ، قاله المهدوي .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعَنَّ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ إنما خص القواعد بذلك لأنصراف الأنفس عنهن ، إذ لا مذهب للرجال فيهن ، فأبيح لهن ما لم يبيح لغيرهن ، وأزيل عنهن كلفة التحفظ المتعب لهن .

الرابعة — قرأ ابن مسعود وأبيّ وابن عباس « أَنْ يَضَعَنَّ مِنْ ثِيَابِهِنَّ » بزيادة « من » . قال ابن عباس : وهو الجلباب . وروى عن ابن مسعود أيضا « من جلابيهن » . والعرب تقول : امرأة واضع ، للتي كبرت فوضعت نحارها . وقال قوم : الكبيرة التي أليست من النكاح ، لو بدا شعرها فلا بأس ، فعلى هذا يجوز لها وضع الخمار . والصحيح أنها كالشابة في التستر ، إلا أن الكبيرة تضع الجلباب الذي يكون فوق الدرع والخمار ، قاله ابن مسعود وابن جبير وغيرهما .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي غير مظهرات ولا متعرضات بالزينة لينظر إليهن ، فإن ذلك من أقبح الأشياء وأبعده عن الحق . والتبرج : التكشّف والظهور للعيون ، ومنه : بروج مشيدة . و بروج السماء والأسوار ، أي لا حائل دونها يسترها .

وقيل لعائشة رضى الله عنها: يا أُمّ المؤمنين، ماتقولين في الحُضاب والصَّبَاغ والتَّامِّم والقُرْطِين والخُلْخُل وخاتم الذهب ورفاق الثياب؟ فقالت: يا معشر النساء، قَصَصْتُكُمْ قِصَّةُ امْرَأَةٍ واحدة، أحلّ الله لكن الزينة غير متبرجات لمن لا يحل لكن أن يروا منكم مُحَرَّمًا. وقال عطاء: هذا في بيوتهن، فإذا خرجت فلا يحل لها وضع الجلباب. وعلى هذا «غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ» غير خارجات من بيوتهن. وعلى هذا يلزم أن يقال: إذا كانت في بيتها فلا بد لها من جلباب فوق الدَّرْع، وهذا بعيد، إلا إذا دخل عليها أجنبي. ثم ذكر تعالى أن تحفظ الجميع منهن، واستعفاً فهنّ عن وضع الثياب والتزامهنّ ما يلزم الشباب أفضل لهن وخير. وقرأ ابن مسعود «وَأَنْ يَتَعَفَّفْنَ» بغير سين. ثم قيل: من التبرج أن تلبس المرأة ثوبين رقيقين يصففانها. روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سَيَاطِرُ كَاذِبَاتٍ الْبَقَرُ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنْ رِيحُهَا لِيُوجِدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا». قال ابن العربي: وإنما جعلهنّ كاسيات لأن الثياب عليهنّ، وإنما وصفهنّ بأنهنّ عاريات لأن الثوب إذا رقّ يصففهنّ، ويبدى محاسنهنّ، وذلك حرام.

قلت: هذا أحد التأويلين للعلماء في هذا المعنى. والثاني — أنهنّ كاسيات من الثياب عاريات من لباس التقوى الذي قال الله تعالى فيه: «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ»<sup>(١)</sup>. وأنشدوا:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التَّقَى \* تقلّب عُرْيَانًا وإن كان كَاسِيَا

وخير لباس المرء طاعةُ رَبِّه \* ولا خيرَ فيمن كان لله عَاصِيَا

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بيننا أنا نائم رأيت الناس يُعْرَضُونَ عَلَيَّ<sup>(٢)</sup> وعليهم قُصَصٌ منها ما يبلغ الثُّدَى ومنها ما دون ذلك ومَرَّ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ وعليه قميص يحوزه» قالوا: ماذا أوتيت ذلك يا رسول الله؟ قال: «الدين». فتأويله صلى الله عليه وسلم القميص بالدين مأخوذ من قوله تعالى: «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ

خير». والعرب تكنى عن الفضل والعفاف بالثياب، كما قال شاعرهم:

(١) آية ٢٦ سورة الأعراف. (٢) الذي في صحيح مسلم: «يعرضون وعليهم...».

\* ثياب بنى عوف طهاري نقيّة<sup>(١)</sup> \*

وقد قال صلى الله عليه وسلم لعثمان : ” إن الله سيُلْبِسُك قبيصا فإن أرادوك أن تخلعه فلا تخلعه “ . فعبّر عن الخلافة بالقميص ، وهى استعارة حسنة معروفة .

قلت : هذا التأويل أصح التأويلين ، وهو اللائق بهنّ فى هذه الأزمان ، وخاصة الشباب ، فإنهنّ يتزينّ ويخرجن متبرجات ، فهن كاسيات بالثياب عاريات من التقوى حقيقة ، ظاهرا وباطنا ، حيث تبدى زينتها ، ولا تبالى بمن ينظر إليها ، بل ذلك مقصودهنّ ، وذلك مشاهد فى الوجود منهنّ ، فلو كان عندهنّ شىء من التقوى لما فعلن ذلك ، ولم يعلم أحد ما هنالك . ومما يقوى هذا التأويل ما ذكر من وصفهنّ فى بقية الحديث فى قوله : ” رءوسهنّ كأسمنة البُخْت “ . والبُخْت ضرب من الإبل عظام الأجسام ، عظام الأسمنة ، شبه رءوسهنّ بها لما رفعن من صفائر شعورهنّ على أوساط رءوسهنّ . وهذا مشاهد معلوم ، والناظر إليهنّ ملوم . قال صلى الله عليه وسلم : ” ماتركت بعدى فتنّة أضّر على الرجال من النساء “ . أخرجه البخارى .

قوله تعالى : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣١﴾

(١) هذا صدر بيت لأمرى القيس ، ونحوه كما فى ديوانه :

\* وأوجههم عند المشاهد غرآن \*



فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ اختلف العلماء في تأويل هذه الآية على أقوال ثمانية . أقربها - هل هي منسوخة أو ناسخة أو مُحْكَمَةٌ ؛ فهذه ثلاثة أقوال : الأول - أنها منسوخة من قوله تعالى : « وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » إلى آخر الآية ؛ قاله عبد الرحمن ابن زيد ، قال : هذا شيء قد انقطع ، كانوا في أول الإسلام ليس على أبوابهم أغلاق ، وكانت الستور مرخاة ، فربما جاء الرجل فدخل البيت وهو جائع وليس فيه أحد ؛ فسوغ الله عز وجل أن يأكل منه ، ثم صارت الأغلاق على البيوت فلا يحل لأحد أن يفتحها ، فذهب هذا وانقطع . قال صلى الله عليه وسلم : « لَا يَحْتَاجُ أَحَدٌ مَاشِيَةً أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ ... » الحديث . خرجه الأئمة .

الثاني - أنها ناسخة ؛ قاله جماعة . روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : لما أنزل الله عز وجل « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » قال المسلمون : إن الله عز وجل قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، وأن الطعام من أفضل الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد ، فكف الناس عن ذلك ؛ فأنزل الله عز وجل « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ - إلى - أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ » . قال : هو الرجل يوكل الرجل بضيعته .

قلت : علي بن أبي طلحة هذا هو مولى بنى هاشم سكن الشام ، يُكْنَى أبا الحسن ويقال أبا محمد ، واسم أبيه أبي طلحة سالم ، تُكَلِّم في تفسيره ؛ فقيل : إنه لم ير ابن عباس ، والله أعلم .

الثالث - أنها محكمة ؛ قاله جماعة من أهل العلم ممن يُقْتَدَى بقولهم ؛ منهم سعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . وروى الزُّهْرِيُّ عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان المسلمون يُوعِبُونَ في النَّفِير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يدفعون مفاتيحهم إلى ضَمَنَاهُمْ ويقولون : إن احتجتم فكلوا ؛ فكانوا يقولون إنما أحلوه لنا عن غير طيب نفس ؛ فأنزل الله عز وجل « وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ » إلى آخر الآية . قال النحاس : « يُوعِبُونَ » أي يخرجون بأجمعهم في المغازي ؛

يقال : أَوْعَبَ بنو فلان لبنى فلان إذا جاءوهم بأجمعهم . وقال ابن السكيت : يقال أَوْعَبَ بنو فلان جلاءً ، فلم يبق ببلدهم منهم أحد . وجاء الفرس برَكِيزٍ وَعِيبٍ ، أى بأقصى ما عنده . وفي الحديث : " فِي الْأَنْفِ إِذَا اسْتَوْعِبَ جَدُّهُ الدِّيَّةُ " إذا لم يترك منه شيء . واستيعاب الشيء استنصاله . ويقال : يَنْتَّ وَعِيبٌ إذا كان واسعاً يَسْتَوْعِبُ كُلَّ مَا جُعِلَ فِيهِ . والضَّعْنَى هم الزَّمَنَى ، واحدٌ ضَمَنٌ مثل زَمِنَ . قال النحاس : وهذا القول من أجل ما روى في الآية ، لما فيه عن الصحابة والتابعين من التوفيق أن الآية نزلت في شيء بعينه . قال ابن العربي : وهذا كلام منتظم لأجل تخالفهم عنهم في الجهاد وبقاء أموالهم بأيديهم ، لكن قوله « أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ » قد اقتضاه ، فكان هذا القول بعيداً جداً . لكن المختار أن يقال : إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذى يشترط فيه البصر ، وعن الأعرج فيما يشترط في التكليف به من المشى ، وما يتعدى من الأفعال مع وجود العرج ، وعن المريض فيما يؤثر المرض في إسقاطه ، كالصوم وشروط الصلاة وأركانها ، والجهاد ونحو ذلك . ثم قال بعد ذلك مبيناً : وليس عليكم حرج في أن تأكلوا من بيوتكم . فهذا معنى صحيح ، وتفسير بين مفيد ، يعضده الشرع والعقل ، ولا يحتاج في تفسير الآية إلى نقل .

قلت : وإلى هذا أشار ابن عطية فقال : فظاهر الآية وأمر الشريعة يدل على أن الحرج عنهم مرفوع في كل ما يضطرهم إليه العذر ، وتقتضى نيتهم فيه الإتيان بالأكل ، ويقتضى العذر أن يقع منهم الانقاص ، فالخرج مرفوع عنهم في هذا . فأما ما قال الناس في هذا الحرج هنا وهى :

الثانية — فقال ابن زيد : هو الحرج في الغزو ، أى لا حرج عليهم في تأخيرهم . وقوله تعالى : « وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » الآية ، معنى مقطوع من الأول . وقالت فرقة : الآية كلها في معنى المطاعم . قالت : وكانت العرب ومن بالمدينة قبل المبعث تتجنب الأكل مع أهل الأعذار ، فبعضهم كان يفعل ذلك تقدرًا لجولان اليد من الأعمى ، ولا تنسأط الجلسة من الأعرج ، ولراحة المريض وعالته ، وهى أخلاق جاهلية وكبر ، فنزلت الآية مؤذنة .

وبعضهم كان يفعل ذلك تحرجاً من غير أهل الأعذار ، إذ هم مقصرون عن درجة الأصحاء في الأكل ، لعدم الرؤية في الأعمى ، وللعجز عن المزاحمة في الأعرج ، ولضعف المريض ؛ فنزلت الآية في إباحة الأكل معهم . وقال ابن عباس في كتاب الزهراوي : إن أهل الأعذار تحرجوا في الأكل مع الناس من أجل عذرهم ؛ فنزلت الآية مبيحة لهم . وقيل : كان الرجل إذا ساق أهل العذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئاً ذهب به إلى بيوت قرابته ؛ فتحرج أهل الأعذار من ذلك ؛ فنزلت الآية .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ هذا ابتداء كلام ؛ أي ولا عليكم أيها الناس . ولكن لما اجتمع المخاطب وغير المخاطب غلب المخاطب لينتظم الكلام . وذكر بيوت القرابات وسقط منها بيوت الأبناء ؛ فقال المفسرون : ذلك لأنها داخلية في قوله « في بيوتكم » لأن بيت ابن الرجل بيته ؛ وفي الخبر « أنت ومالك لأبيك » . ولأنه ذكر الأقرباء بعد ولم يذكر الأولاد . قال النحاس : وعارض بعضهم هذا القول فقال : هذا تحكم على كتاب الله تعالى ؛ بل الأولى في الظاهر ألا يكون الابن مخالفاً لهؤلاء ، وليس الاحتجاج بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنت ومالك لأبيك » بقوى لو هي هذا الحديث ، وأنه لو صح لم تكن فيه حجة ؛ إذ قد يكون النبي صلى الله عليه وسلم علم أن مال ذلك المخاطب لأبيه . وقد قيل إن المعنى : أنت لأبيك ، ومالك مبتدأ ؛ أي ومالك لك . والقاطع لهذا التوارث بين الأب والابن . وقال الترمذي الحكيم : ووجه قوله تعالى « ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم » كأنه يقول مساكنكم التي فيها أهاليكم وأولادكم ؛ فيكون للأهل والولد هناك شيء قد أفادهم هذا الرجل الذي له المسكن ، فليس عليه حرج أن يأكل معهم من ذلك القوت ، أو يكون للزوجة والولد هناك شيء من ملكهم فليس عليه في ذلك حرج .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ بِيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بِيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بِيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بِيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بِيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بِيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بِيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بِيُوتِ خَالَاتِكُمْ ﴾ قال بعض العلماء : هذا إذا أذنوا له في ذلك . وقال آخرون : أذنوا له أو لم يأذنوا فله أن يأكل ؛ لأن القرابة التي بينهم هي إذن منهم . وذلك لأن في تلك القرابة عطفًا تسمح النفوس منهم بذلك العطف أن يأكل هذا من شيءهم ويسرّوا بذلك إذا علموا . ابن العربي : أباح لنا الأكل من جهة النسب من غير استئذان إذا كان الطعام مبدولاً ، فإذا كان محرراً دونهم لم يكن لهم أخذه ، ولا يجوز أن يجاوزوا إلى الأدخار ، ولا إلى ما ليس بما كول وإن كان غير محرز عنهم إلا بإذن منهم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ يعني مما اخترتم وصار في قبضتكم . وعظم ذلك ما ملكه الرجل في بيته وتحت غلقه ؛ وذلك هو تأويل الضحاك وقتادة ومجاهد . وعند جمهور المفسرين يدخل في الآية الوكلاء والعبيد والأجراء . قال ابن عباس : غنى وكيل الرجل على ضيعته ، وخازنه على ما له ؛ فيجوز له أن يأكل مما هو قيم عليه . وذكر معمر عن قتادة عن عكرمة قال : إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن ، فلا بأس أن يطعم الشيء اليسير . ابن العربي : وللخازن أن يأكل مما يُخزن إجماعاً ؛ وهذا إذا لم تكن له أجرة ، فأما إذا كانت له أجرة على الخزن حرم عليه الأكل . وقرأ سعيد بن جبيرة «هَلِكْتُمْ» بضم الميم وكسر اللام وشدها . وقرأ أيضاً «مفاتيحه» بياء بين التاء والحاء ، جمع مفتاح ؛ وقد مضى في «الأنعام» . وقرأ قتادة «مفتاحه» على الأفراد . وقال ابن عباس : نزلت هذه الآية في الحارث ابن عمرو . خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازياً وخلف مالك بن زيد على أهله ، فلما رجع وجدته مجهوداً فسأله عن حاله فقال : تخرجت أن آكل من طعامك بغير إذنك ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ الصديق بمعنى الجمع ، وكذلك العدو ؛ قال الله تعالى : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي » . وقال جرير :

دَعَوْنِ الْمَوَى ثُمَّ أَرْتَمَيْنِ قُلُوبَنَا \* بِأَسْهَمِ أَعْدَاءِ وَهْنِ صَدِيقُ

والصديق من يصدقك في مودته وتصدقته في مودتك . ثم قيل : إن هذا منسوخ بقوله « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ <sup>(١)</sup> » ، وقوله تعالى : « فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا » الآية ، وقوله عليه السلام : « لَا يَحِلُّ مَالُ أَمْرِي مُسْلِمًا إِلَّا بِطَبِيعَةِ نَفْسٍ مِنْهُ » .  
وقيل : هي محكمة ، وهو أصح . ذكر محمد بن ثور عن معمر قال : دخلت بيت قتادة فأبصرت فيه رُطْبًا فجعات آكله ، فقال : ما هذا ؟ فقلت : أبصرت رطبا في بيتك فأكلت ، قال : أحسنت ، قال الله تعالى : « أَوْ صَدِيقِكُمْ » . وذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله « أَوْ صَدِيقِكُمْ » قال : إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرتة لم يكن بذلك بأس . وقال معمر قلت لقتادة : ألا أشرب من هذا الحب ؟ قال : أنت لى صديق ! فما هذا الاستئذان . وكان صلى الله عليه وسلم يدخل حائط أبي طلحة المسمى ببيرحا ويشرب من ماء فيها طيب بغير إذنه ، على ما قاله علماؤنا ، قالوا : والماء مملوك لأهله . وإذا جاز الشرب من ماء الصديق بغير إذنه جاز الأكل من ثماره وطعامه إذا علم أن نفس صاحبه تطيب به لتفاهته ويسير مؤنته ، أو لما بينهما من المودة . ومن هذا المعنى إطعام أُم حرام له صلى الله عليه وسلم إذ نام عندها ، لأن الأغلب أن ما في البيت من الطعام هو للرجل ، وأن يد زوجته في ذلك عارية . وهذا كله ما لم يتخذ الأكل خبئة <sup>(٢)</sup> ، ولم يقصد بذلك وقاية ماله ، وكان تافها يسيرا .

السابعة — قرن الله عز وجل في هذه الآية الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة ، لأن قرب المودة لصيق . قال ابن عباس في كتاب النقاش : الصديق أوكد من القرابة ، ألا ترى استغاثة الجهنميين « قَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ » <sup>(٣)</sup> .

قلت : ولهذا لا تجوز عندنا شهادة الصديق لصديقه ، كما لا تجوز شهادة القريب لقريبه . وقد مضى بيان هذا والعلة فيه في « النساء » . وفي المثل « أيهم أحب إليك أخوك أم صديقك » قال : أنخى إذا كان صديقي .

(١) آية ٥٣ سورة الأحزاب . (٢) الحب (بضم الحاء المهملة) : الجرة الضخمة ، والخابية . وقال ابن دريد : هو الذي يجعل فيه الماء ، فلم ينوعه . (٣) راجع الكلام على ضبطها في معجم البلدان لياقوت . (٤) الخبئة : معطف الإزار وطرف الثوب ، أى لا يأخذ منه في ثوبه . (٥) آية ١٠٠ سورة الشعراء . (٦) راجع ج ٥ ص ٤١٠ وما بعدها .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ قيل : إنها نزلت في بني ليث بن بكر ، وهم حتى من بني كنانة ، كان الرجل منهم لا يأكل وحده ويمكث أياما جائعا حتى يجد من يؤاكله . ومنه قول بعض الشعراء :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له \* أَيْكَلًا فَإِنِّي لست آكله وَحْدِي

قال ابن عطية : وكانت هذه السيرة موروثة عن إبراهيم صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه كان لا يأكل وحده . وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأكل إلا أن يأكل مع ضيفه ؛ فنزلت الآية مبينة سنة الأكل ، ومذهبة كل ما خالفها من سيرة العرب ، ومبيحة من أكل المنفرد ما كان عند العرب محزما ، نحت به نحو كرم الخلق ، فأفرطت في إلزامه ، وإن إحضار الأكل لحسن ، ولكن بالأحرى الانفراد .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ «جميعا» نصب على الحال . و «أشتاتا» جمع شت ، والشت المصدر بمعنى التفريق ؛ يقال : شت القوم أى تفرقوا . وقد ترجم البخارى في صحيحه ( باب — ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ) الآية . و ( النهْد والاجتماع ) . ومقصوده فيما قاله علماؤنا في هذا الباب : إباحة الأكل جميعا وإن اختلفت أحوالهم في الأكل . وقد سوغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك . فصارت تلك سنة في الجماعات التى تدعى إلى الطعام في النهْد والولائم وفي الإملاق في السفر . وما ملكت مفاتيحه بأمانة أو قرابة أو صداقة فلك أن تأكل مع القريب أو الصديق ووحده . والنهد : ما يجتمع الرفقاء من مال أو طعام على قدر في النفقة ينفقونه بينهم ؛ وقد تناهدوا ؛ عن صاحب العين . وقال ابن دُرَيْد : يقال من ذلك : تناهد القوم الشيء بينهم . الهَرَوَى : وفي حديث الحسن «أخرجوا نهْدكم فإنه أعظم للبركة وأحسن لأخلاقكم» . النهْد : ما تخرجه الرفقة عند المناهدة ؛ وهو استقسام النفقة بالسوية في السفر وغيره . والعرب تقول : هات نهْدك ؛ بكسر النون . قال المهلب : وطعام النهْد لم يوضع لآكلين على أنهم يأكلون بالسواء ، وإنما يأكل كل واحد على قدر نهْمته ، وقد يأكل الرجل أكثر من غيره . وقد قيل : إن

تركها أشبه بالورع . وإن كانت الرقة تجتمع كل يوم على طعام أحدهم فهو أحسن من النهد ؛ لأنهم لا يتناهدون إلا ليصيب كل واحد منهم من ماله ، ثم لا يدري لعل أحدهم يقصر عن ماله ، ويأكل غيره أكثر من ماله ؛ وإذا كانوا يوما عند هذا ويوما عند هذا بلا شرط فإنما يكونون أضيافا والضيف يأكل بطيب نفس مما يُقدَّم إليه . وقال أيوب السخيتاني : إنما كان النهد أن القوم كانوا يكونون في السفر فيسبق بعضهم إلى المنزل فيذبح ويهيئ الطعام ثم ياتيهم ، ثم يسبق أيضا إلى المنزل فيفعل مثل ذلك ؛ فقالوا : إن هذا الذي تصنع كلنا نحب أن نصنع مثله فتعالوا نجعل بيننا شيئا لا يتفضل بعضنا على بعض ، فوضعوا النهد بينهم . وكان الصالحاء إذا تناهدوا تحزى أفضلهم أن يزيد على ما يخرجهم أصحابه ، وإن لم يرضوا بذلك منه إذا علموه فعله سرا دونهم .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ اختلف المتأولون في أى البيوت أراد ؛ فقال إبراهيم النخعي والحسن : أراد المساجد ؛ والمعنى : سلموا على من فيها من ضيفكم . فإن لم يكن في المساجد أحد فالسلام أن يقول المرء : السلام على رسول الله . وقيل : يقول السلام عليكم ؛ يريد الملائكة ، ثم يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وذكر عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عمرو بن دينار عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ الآية ، قال : إذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وقيل : المراد بالبيوت البيوت المسكونة ؛ أى فسلموا على أنفسكم . قاله جابر بن عبد الله وابن عباس أيضا وعطاء بن أبي رباح . وقالوا : يدخل في ذلك البيوت غير المسكونة ، ويسلم المرء فيها على نفسه بأن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . قال ابن العربي : القول بالعموم في البيوت هو الصحيح ، ولا دليل على التخصيص ؛ وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان للغير أو لنفسه ، فإذا دخل بيتا لغيره استأذن كما تقدم ، فإذا دخل بيتا لنفسه سلم كما ورد في الخبر ، يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ؛ قاله ابن عمر . وهذا إذا كان فارغا ، فإن كان فيه أهله وخدمه

فليقل : السلام عليكم . وإن كان مسجدا فليقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .  
وعليه حمل ابن عمر البيت الفارغ . قال ابن العربي : والذي أختاره إذا كان البيت فارغا  
ألا يلزم السلام ، فإنه إن كان المقصود الملائكة فالملائكة لا تفارق العبد بحال ، أما إنه  
إذا دخلت بيتك يستحب لك ذكر الله بأن تقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . وقد تقدم  
في سورة « الكهف » <sup>(١)</sup> . وقال القشيري في قوله « إذا دخلتم بيوتا » : والأوجه أن يقال  
إن هذا عام في دخول كل بيت ، فإن كان فيه ساكن مسلم يقول السلام عليكم ورحمة الله  
وبركاته ، وإن لم يكن فيه ساكن يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وإن كان  
في البيت من ليس بمسلم قال السلام على من أتبع الهدى ، أو السلام علينا وعلى عباد الله  
الصالحين . وذكر ابن خُوَيزَمَنْدَاد قال : كتب إلى أبو العباس الأصم قال حدثنا محمد بن  
عبد الله بن عبد الحكم قال حدثنا ابن وهب قال حدثنا جعفر بن ميسرة عن زيد بن أسلم  
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخلتم بيوتا فسلموا على أهلها وأذكروا اسم الله  
فإن أحدمكم إذا سلم حين يدخل بيته وذكر اسم الله تعالى على طعامه يقول الشيطان لأصحابه  
لا مبيت لكم ها هنا ولا عشاء وإذا لم يسلم أحدكم إذا دخل ولم يذكر اسم الله على طعامه قال  
الشيطان لأصحابه أدركتم المبيت والعشاء » <sup>(٢)</sup> .

قلت : هذا الحديث ثبت معناه مرفوع من حديث جابر ، خرجه مسلم . وفي كتاب  
أبي داود عن أبي مالك الأشجعي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا ولى الرجل  
بيته فليقل اللهم إني أسألك خير الوُجُوح وخير الخُروج باسم الله وبلحنا وبأسم الله خرجنا وعلى  
الله ربنا توكلنا ثم ليسلم على أهله » .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ تَحِيَّاتٌ ﴾ مصدر ؛ لأن قوله « فسلموا » معناه لحىوا .  
وصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب مودة المسلم عليه . ووصفها أيضا بالطيب لأن  
سامعها يستطيعها . والكاف من قوله « كذلك » كاف تشبيه . و « ذلك » إشارة إلى هذه  
السُنَنِ ؛ أي كما بين لكم سنة دينكم في هذه الأشياء يبين لكم سائر ما بكم حاجة إليه في دينكم .

(١) راجع ج ١٠ ص ٤٠٦ (٢) كذا في الأصول . وقد ورد معنى هذا الحديث في تاب الأدب

المفرد للبخاري من رواية جابر .



قوله تعالى : **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ** <sup>قُلُّ</sup> **إِنَّ آتِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ** **أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** **فَإِذَا اسْتَعِذُّوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ** **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : **(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ)** فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : **(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ)** « **إِنَّمَا** » في هذه الآية للحصر ؛ المعنى : لا يتم ولا يكمل إيمان من آمن بالله ورسوله إلا بأن يكون من الرسول سامعا غير معنت في أن يكون الرسول يريد الكمال أمر فيريد هو لإفساده بزواله في وقت الجمع ، ونحو ذلك . وبين تعالى في أول السورة أنه أنزل آيات بينات ، وإنما النزول على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ نفخ السورة بتأكيد الأمر في متابعتة عليه السلام ؛ ليعلم أن أوامره كأوامر القرآن .

الثانية — وأختلف في الأمر الجامع ما هو ؛ فقيل : المراد به ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة ، من إقامة سنة في الدين ، أو لترهيب عدو باجتماعهم وللحروب ؛ قال الله تعالى : **« وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ »** . فإذا كان أمر يشملهم نفعه وضره جمعهم للتشاور في ذلك . والإمام الذي يُتَرَقَّبُ إذنه هو إمام الإمرة ، فلا يذهب أحد لعذر إلا بإذنه ، فإذا ذهب بإذنه ارتفع عنه الظن السيئ . وقال مكحول والزَّهْرِيُّ : الجمعة من الأمر الجامع . وإمام الصلاة ينبغي أن يُسْتَأْذَنَ إذا قدمه إمام الإمرة ، إذا كان يرى المستأذن . قال ابن سيرين : كانوا يستأذنون الإمام على المنبر ؛ فلما كثر ذلك قال زياد : من جعل يده على فيه فليخرج دون إذن ، وقد كان هذا بالمدينة حتى أن سهل بن أبي صالح رَعَفَ يوم الجمعة فاستأذن الإمام . وظاهر الآية يقتضي أن يُسْتَأْذَنَ أمير الإمرة الذي هو في مقعد النبوة ، فإنه ربما كان له رأى في حبس ذلك الرجل لأمر من أمور الدين . فأما إمام الصلاة فقط

فليس ذلك إليه ؛ لأنه وكيل على جزء من أجزاء الدين للذي هو في مقعد النبوة . وروى أن هذه الآية نزلت في حفر الخندق حين جاءت قریش وقائدها أبو سفيان ، وغطفان وقائدها عبيدة بن حصن ؛ فضرب النبي صلى الله عليه وسلم الخندق على المدينة ، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة ، فكان المنافقون يتسللون لواءاً من العمل ويعتذرون بأعذار كاذبة . ونحوه روى أشهب وابن عبد الحكم عن مالك ، وكذلك قال محمد بن إسحاق . وقال مقاتل : نزلت في عمر رضى الله عنه ، استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك في الرجعة فأذن له وقال : " انطلق فوالله ما أنت بمنافق " يريد بذلك أن يسمع المنافقين . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إنما استأذن عمر رضى الله عنه في العمرة فقال عليه السلام لما أذن له : " يا أبا حفص لا تنسنا في صالح دعائك " .

قلت : والصحيح الأول لتناوله جميع الأقوال . واختار ابن العربي ما ذكره في نزول الآية عن مالك وابن إسحاق ، وأن ذلك مخصوص في الحرب . قال : والذي يبين ذلك أمران : أحدهما — قوله في الآية الأخرى : « قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا » . وذلك أن المنافقين كانوا يتلوذون ويخرجون عن الجماعة ويتركون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر الله جميعهم ألا يخرج أحد منهم حتى يأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وبذلك يتبين إيمانه .

الثاني — قوله « لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ » وأى إذن في الحدث والإمام يخطب ، وليس للإمام خيار في منعه ولا إبقائه ، وقد قال « فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ » ؛ فبين بذلك أنه مخصوص في الحرب .

قلت : القول بالعموم أولى وأرفع وأحسن وأعلى . « فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ » فكان النبي صلى الله عليه وسلم بالخيار إن شاء أن يأذن وإن شاء منع . وقال قتادة : قوله « فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ » منسوخة بقوله « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ » . « وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ اللَّهُ » أى لخروجهم عن الجماعة إن علمت لهم عذراً . « إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

قوله تعالى : لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا  
 قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ  
 أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ يريد : يصبح من  
 بعيد : يا أبا القاسم ! بل عظموه كما قال في المحجرات « إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ »  
 الآية . وقال سعيد بن جبيرة ومجاهد : المعنى قولوا يا رسول الله ، في رفق ولين ، ولا تقولوا  
 يا محمد بتجهم . وقال قتادة : أمرهم أن يشرفوه ويفخموه . ابن عباس : لا تعرضوا لدعاء  
 الرسول عليكم باستخاطه فإن دعوته موجبة . ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ التسلل  
 والانسلاخ : الخروج . واللواذ من الملاوذة ، وهي أن تستتر بشيء مخافة من يراك ، فكان  
 المنافقون يتسللون عن صلاة الجمعة . « لِوَاذًا » مصدر في موضع الحال ، أى متلاوذين ،  
 أى يلوذ بعضهم ببعض ، ينضم إليه آستاراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لم يكن  
 على المنافقين أنقل من يوم الجمعة وحضور الخطبة ؛ حكاها النقاش ، وقد مضى القول فيه .  
 وقيل : كانوا يتسللون في الجهاد رجوعاً عنه يلوذ بعضهم ببعض . وقال الحسن : لواذاً  
 فراراً من الجهاد ؛ ومنه قول حسان :

وقريش تجول منا لِوَاذًا \* لم تحافظ وخف منها الخلوم<sup>(١)</sup>

وصحّت واوها لتحركها في لاوذ . يقال : لاوذ يلاوذ ملاوذة ولواذا . ولاذ يلوذ [ لواذاً ]  
 ولياذاً ؛ انقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها اتباعاً للاذ في الاعتلال ؛ فإذا كان مصدر فاعل  
 لم يعمل ؛ لأن فاعل لا يجوز أن يعمل .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ بهذه الآية احتج الفقهاء على أن  
 الأمر على الوجوب . ووجهها أن الله تبارك وتعالى قد حذر من مخالفة أمره ، وتوعد

(١) آية ٣ (٢) في الأصول : « منكم » والتصويب عن الديوان ، والرواية فيه :

وقريش تلوذ منا لواذاً \* ثم يقيموا وخف منها الخلوم

بالعقاب عليها بقوله : ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فتحرم مخالفته ، فيجب امتثال أمره . والفتنة هنا القتل ؛ قاله ابن عباس . عطاء : الزلازل والأهوال . جعفر بن محمد : سلطان جائر يُسلط عليهم . وقيل : الطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول . والضمير في « أمره » قيل هو عائذ إلى أمر الله تعالى ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : إلى أمر رسوله عليه السلام ؛ قاله قتادة . ومعنى « يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ » أى يعرضون عن أمره . وقال أبو عبيدة والأخفش : « عن » فى هذا الموضع زائدة . وقال الخليل وسيبويه : ليست بزائدة ؛ والمعنى : يخالفون بعد أمره ؛ كما قال :

\* ... لَمْ تَنْتَقِ عَنْ تَفَضُّلِ<sup>(١)</sup> \*

ومنه قوله : « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » أى بعد أمر ربه . و« أن » فى موضع نصب بـ « يَحْذَرُ » . ولا يجوز عند أكثر النحويين حذر زيدا ، وهو فى « أن » جائز ؛ لأن حروف الخفض تحذف معها .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾<sup>(٦٤)</sup>  
قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا . ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ فهو يحازيك به . و« يعلم » هنا بمعنى علم . ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ بعد ما كان فى خطاب رجوع فى خبر ؛ وهذا يقال له : خطاب التلوين . ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى يخبرهم بأعمالهم ويحازيهم بها . ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من أعمالهم وأحوالهم .

ختمت السورة بما تضمنت من التفسير ، والحمد لله على التيسير .

(١) هذا من معلقة امرئ القيس . والبيت تمامه :

وتضحى فتبت المسك فوق فراشها \* نشوم الضحى لم تنطق عن تفضل



تم بعون الله تعالى الجزء الثانى عشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث عشر ، وأوله سورة « الفرقان »



كَمُلَ طبع الجزء الثانى عشر من كتاب "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي  
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ٣٠ ربيع الأول سنة ١٣٦١  
(١٦ أبريل سنة ١٩٤٢) م  
محمد نديم